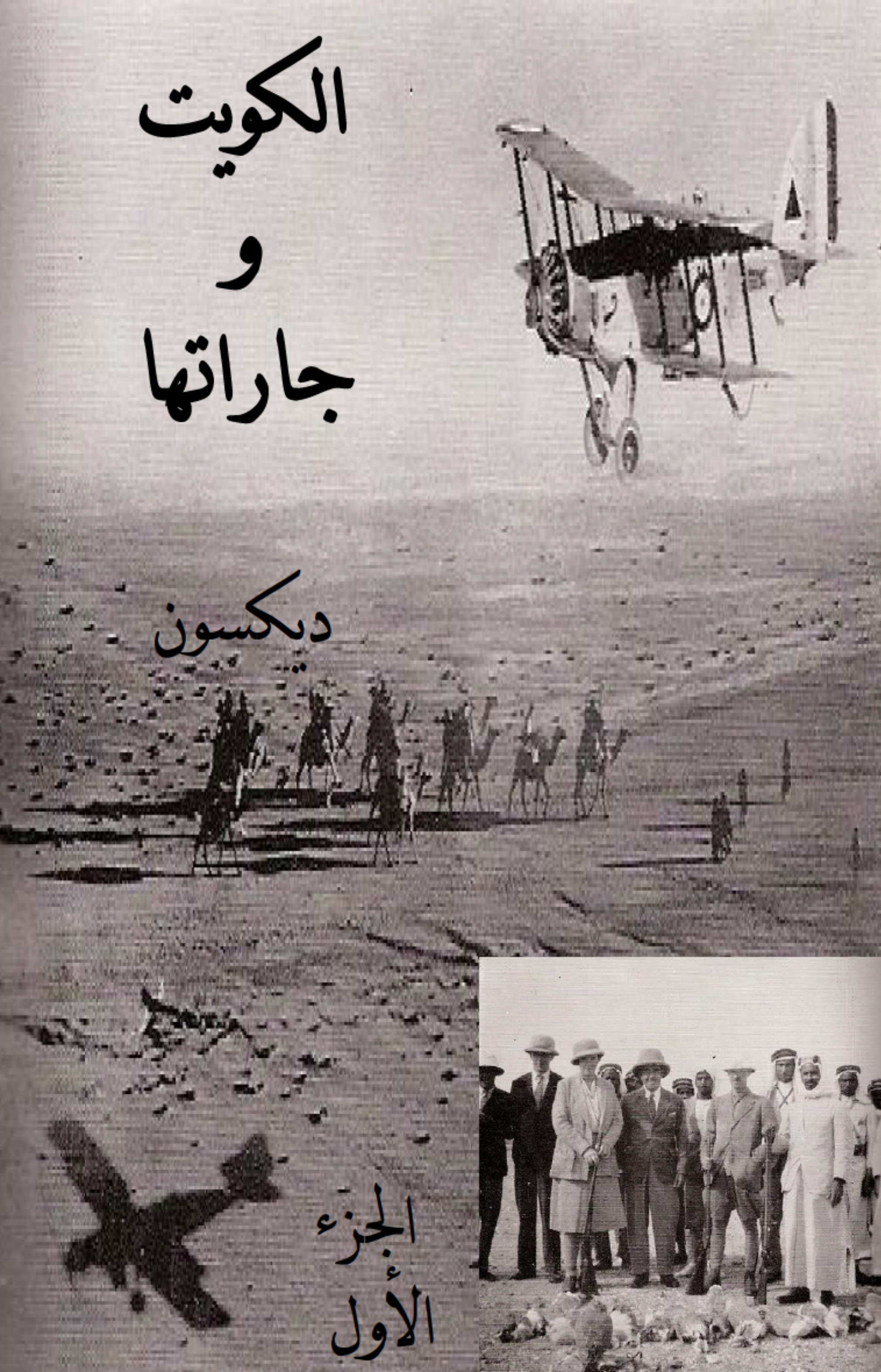
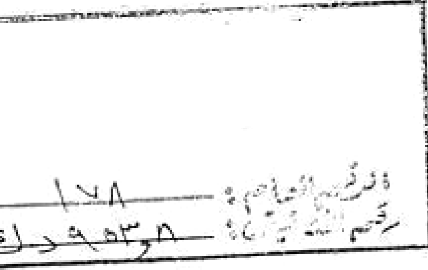

الكويت
و
جاراتها
ديكسون
الجزء
الأول



الكويت وجاراتها

هـ . ر . ب . ديكسون

الجزء الأول



للطباعة والنشر

الطبعة الأولى

١٩٦٤م

الطبعة الثانية

١٩٩٠م



(المؤلف الكولونيل هارولد ديكسون وزوجته فيوليت)

(في القصر الملكي بالرياض)

مقدمة الطبعة الثانية

وُلِدَ هارولد ديكسون في بيروت عام (١٨٨١ م)، ودرس في مدارس دمشق - حيث كان والده قنصلاً لبريطانيا فيها -، ثم سافر إلى (أوكسفورد) ملتحقاً بالكلّية العسكرية، وعند تخرّجه منها أحسَّ بأنّه يستطيع أنْ يؤدي دوره خارج حدود بلاده؛ خدمةً للإمبراطورية البريطانية التي دأبَ أفراد أسرته على تقديم الولاء لها؛ فالتحقَ بالقوات العسكرية البريطانية التي كانت تسيطر على بلاد الهند، واستقرَّ خمس سنوات هناك، ثم هاجرَ إلى العراق فترةً من الزمن، واستقرَّ أخيراً وبالتحديد عام (١٩٢٩ م) في الكويت مع زوجته (فيوليت). وكانت له صلاة مع أغلب رؤساء عشائر المنطقة، وحكامها.

ونظراً للمهام التي أُنيطتْ به، وبسبب رغبتِهِ الشخصية، وميوله النفسية فقد سجّل ملاحظاته فيما يتعلّق بالأوضاع السياسية للمنطقة بشكل دقيق، كما كتبَ كتاباً خاصاً عن قبائل البدو يُعدُّ أثراً متميزاً بين ما كُتِبَ في هذا المجال، وسمّاه (عرب البادية) The Arab of desert وطُبع - بالانكليزية - مرات عديدة.

أمّا كتابُهُ «الكويت وجاراتُها» فيُعدُّ من أهمّ، وأغنى ما كُتبَ عن تاريخ هذه البلدة، وما جاورها من مناطق سواءً في العراق، أو السعودية، أو عمان، - فقد حَفظَ في طياتِهِ حوادثاً لم تُدوّن في أيِّ مصدر من المصادر

الأخـرى ، والسبب أنَّ مؤلفَهُ كـان واحداً من صنّـاع تاريـخ هذه المنـطقة ، والمخططين لمستقبلها .

وفعــلاً ، فــإنَّ الحــدود المصــطنعــة التي قُسِّمتْ بين العــراق ، والكويت ، والسعودية كانت من مخترعِهِ ، وتنفيذه .

إنَّ هذا الكتاب هو تاريخٌ حيٌّ يشرحُ ـ في جانب منه ـ تلك الخـديعة التي وقعَ فيها حكّام هذه الدول ـ يومذاك ـ ، بسبب السذاجـة البدويـة التي عشِشَتْ في عقـولهم ، وخبـراتهم ؛ الأمـر الـذي يُمكّنُ القــارىء أنْ يتبيَّنَ بوضوح دور الحكّام (الأبناء) في عملية الحفاظ على هذا المخطط ، وعـدم استطاعتهم الإفلات منه .

إنَّ هارولد ديكسون ، وزوجته فيوليت سجّلا في هذا الكتاب مواضيعَ لم يُسجّلْها أيُّ مؤرخٍ آخر ـ فالكتاب مضافاً إلى أنّه في الصميم من أحداث السياسة الساخنة في تلك المنطقة ؛ فإنّه في صميم الأحـداث التاريخيـة ، والاجتماعية أيضاً .

ومهما قيل في الكتاب من ثناءٍ فإنّه يبقى المُعبّر الوحيـد عن جدّيتـه ، وانفراده بحقائقَ أصبحتْ تأريخاً يُضافُ إلى تاريخ هذه المنطقة .

إنَّ قراءةَ أحداث هذه المذكرات ـ بإمعـان ـ سترشـد القارىء العـربيَّ إلى أمـورٍ في غايـة الأهمية ، ولا شـكَ أنّها ستعيـد بناء تفكيـرِهِ العقلي من جديد .

القسم الأول

الفصل الأول

إمارة عربية

« نجد البحرية »

في منطقة الخليج العربي البعيـــدة ، وعلى شكل إسفين عميق غرز بـــين جنوب العراق والاحساء المقاطعة الشمالية الشرقية من المملكة العربية السعودية، تقع امارة الكويت العربية الصغيرة المعتزة . ومع انها دولة مستقـلة فهي تتمتع بالحماية البريطانية .

ويسميها محبوها « نجد البحرية » . وليس ذلك نعتـــا سيئاً لمدينة وولاية أوجدها حاكم وشعب نزحوا من أواسط الجزيرة العربية في أوائل القرن الثـامن عشر ، وهي الآن تحتل منزلة رفيعة بين الدول العربيـة في ظل حاكمها المستنير الشيخ عبدالله السالم الصباح الذي ارتقى الى الامارة في كانون الثاني سنة ١٩٥٠ ، محتفظاً بمعاهدات صداقة وتحالف وثيقة مع بريطانيا ، وهو احتياط ضروري ، نظراً لأن تلك الدولة الصغيرة تملك أفضل الموانىء من الناحية الستراتيجية على الشاطىء العربي من الخليـــج العربي . ثم ، أليست تجـاور دولتين قويتين إلى الشمال والجنوب ، فضلاً عن شعب عنيد مغتصب عبر الخليج يحلم دائماً باقـــامة امبراطورية عظيمة يكون الخليـــج العربي « بحرها الوسط » الخاص بهـا ؟

ان ميناء الكويت المرموق الذي يبلغ عمقه عشرين ميـلاً وعرضه عشرة

أميال ، وثروتها النفطية الهائلة المدفونة تحت الأرض على بعد اثني عشر ميلاً من البحر ، هما اليوم قبلة الانظار ونقطة الخطر في نفس الوقت . وكل واحد يتمنى مغازلة « حسناء طروادة » الجديدة ؛ وقد جرت محاولات كثيرة في السابق ، ومحاولات كثيرة لا تزال تجري ، بعضها على طريقة انسان الكهوف ، وبعضها على طريقة اكثر ذكاء وليست أقل خطراً هي طريقة « تقديم الهدايا » . ومن الطبيعي ان يغار كل طامع من منافسيه . وهذا ما ساعد « السيدة الحسناء » الى درجة لا يستهان بها ، في ان تحافظ على بكارتها فترة طويلة من الزمن ، وستفقدها كما يأمل المخلصون ، من عشاق اكثر وقاحة والحاحاً .

تنحدر عائلة آل الصباح الارستقراطية النبيلة من بني عتوب — وهم من البدو الخلص — . وبنو عتوب من الداهمشاه من قبيلة عمارات من عرب عنيزه الذين ينحدرون من أصل نبيل ويقطنون اليوم اجزاء من المملكة العربية السعودية والعراق وسورية .

ابلغني صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم في معرض حديثي معه في شهر تشرين الأول من السنة التي ارتقى فيها الى الامارة ، انه حوالي سنة ١٧١٠ م ، دفع جفاف متواصل مخيف بآل الصباح الذين كانوا يتمتعون بالسيطرة على قبيلة عنيزة العظيمة كلها ، إلى النزوح من داخل نجد بحثاً عن مكان أيسر للعيش . ومعهم نزح آل خليفة وهم فخذ آخر من عمارات .

وقد توجه النازحون في البداية جنوباً الى وادي دويسر . ولكنهم وجدوا الاحوال هناك أسوأ مما هي عليه في نجد ، فعادوا وتقدموا الى زباره في شبه جزيرة قطر على شاطىء الخليج الفارسي ، تصحبهم عدة عائلات نبيلة صغيرة ، من قبيلة عمارات ، منهم آل زايد المعروفين اليوم بآل غانم ، وآل صالح وآل شملان . وتبين ان الأحوال في زباره ليست أفضل ، فنزح الجميع مع قطعانهم وماشيتهم ببطء الى أن وصلوا بالنتيجة إلى مرتفع بعيد حيث وجدوا وافراً من المياه العذبة على عمق أقدام معدودة من السطح . وهذا هو المكان الذي تقع فيه مدينة الكويت حالياً .

وقــد اشتق اسم بني عتوب ، كما يقول سموه ، من التعبير الذي اطلق يوم النزوح وهــو « عتبوا الى الشمال » . وليس عتوب اسماً لأي سبط حقيقي من أسباط عمارات المتفرعة من عنيزه .

وخشي آل الصباح وآل خليفة الذين نصبوا خيامهم في خليــج الكويت ، ان يعترض الاتراك ، الذين كانوا يدعون ملكية المكان وكانت لهم قوة كبيرة في البصرة ، على وجــودهم هناك ويطردوهم الى حيث اتوا أو يفرضوا الضرائب عليهم .

وقرروا في مجلس عقده أهــل الرأي بينهم ارسال مبعوث الى الباشا التركي في البصرة لكي يشرح له انهم مستوطنون فقراء نزحوا من نجــد البعيدة الى الكويت طلباً للرزق ، وليست في نيتهم أذية أحــد . والرجل الذي اختير للقيام بهذه المهمة يــدعى صباح . وكان متقدماً في السن وله من دنياه الخبرة والحظ ، فنجح في مهمته .

واستطرد سموه قائــلا ، ان آل نصار وهم العشيرة الحاكمة في بني كعب القبيلة العربية الارستقراطية التي تقطن عربستان في جنوب ايران ، شنوا حرباً على عبدالله ، ابن صباح ، وان الخوف من تكرر الغزوات حمل آل خليفــة على العودة جنوباً الى زباره ، ومن هناك انتقلوا الى البحرين التي غزوها وحكموهــا منذ ذلك الحين .

وحسب الروايات المحلية – التي يسقط سموه قسماً منها – ان سبب هجوم آل نصار على الكويت هو ان شيخ بني كعب في ذلــك الوقت أخذ يتودد الى مريم الابنة الجميلة للشيخ عبــدالله الصباح ، فلما صدتــه أرسل اسطولاً لغزو الكويت .

وقبل ان يعود آل خليفة الى زباره استحثوا نسيبهم وحليفهم عبدالله ان يضحي بمريم ليشتري بذلك سكوت بني كعب عنــه . ولكن عبدالله اجابهم بعناد : مــاذا ؟ أأعطي ابنتي الى هؤلاء الكلاب من بني كعب لأنقذ نفسي ؟ أبداً .. ان احداً من آل الصباح ، طالما هو حي ، لا يزوج ابنته الى غريب نسبه

موضع ذلك .

وهنالك قصة أخرى ايضاً لا يستحسنها سمو الشيخ عبدالله السالم وهي انه عندما اشتد خطر غزو بني كعب ، وبعد أن تراجع آل خليفة الى الجنوب ، جمع عبدالله شيوخ عائلته جميعهم واستحلفهم على عتبة بيته أن يقفوا بثبات دفاعاً عن ابنته وعن شرف آل الصباح ، ففعلوا ولذلك سموا ببني عتبة او بني عتوب .

ويقال انه عندما اقترب اسطول العدو اخذت مريم الجميلة تطوف على مراكز الدفاع عن المدينة وتشجع البدو في خيامهم ، وهي ممتطية فرساً ومسلحة بغدارة وبسيف ورمح .

وسنذكر في مكان آخر من هذا الكتاب كيف ان ابن عم مريم ، سالم بن محمد الصباح ، ومعه جماعة من الشجعان تسللوا الى الأسطول المنتشر في عرض البحر الى الجنوب من جزيرة بوبيان[1] ، في هدوء الليل متخفين بشكل صيادي الأسماك ، وقتلوا الحراس الى آخر رجل ، وكتفوا بقية الملاحين على الصواري ، وحملوا الغنائم الى الكويت وقدموها إلى مريم .

وغني عن القول انه بعد هذا النصر الأولي الذي ألهمته مريم بحماسها المتوقد ، جعل سالم ينظم أهل الكويت ، رغم نصيحة الشيخ عبدالله ، ليشنوا هجوماً بزوارقهم الصغيرة على أسطول بني كعب ، فنزلوا الى البحر واشتبكوا مع سفن بني كعب واضطروها الى فرار مخز . وأسرعت في انزال هذه الهزيمة الشنعاء ببني كعب عاصفة شديدة شتتت شمل الأسطول ودمرت نصفه .

ومنذ ذلك الوقت حتى اليوم ، لم يسمح لأميرة من آل الصباح أن تتزوج رجلاً من خارج عائلتها ، حتى وان كان من البيت السعودي العظيم ، او من شرفاء مكة ، او من شيوخ آل السعدون النبلاء الذين يتوارثون المشيخة على المنتفق العظيم في العراق .

ولا تزال عبارات النخوة في الكويت الى اليوم « انا اخو مريم » و « اولاد سالم » .

وللكويت علم خاص بها أحمر اللون كتب في وسطه افقياً بأحرف عربية بيضاء « الكويت » وكتبت على طرفه القريب من الصارية عمودياً عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ..

الحاكم الحالي

ولد صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم الصباح سنة ١٨٩٥ . وهو اقوى شخصيات عائلة آل الصباح وابرزها . انه واسع الثقافة ، ويتحدث بطلاقة ، ويتمتع بدرجة كبيرة من الذكاء والالمام بالشؤون العالمية عامة ، وباهتمام خاص بالأوضاع السياسية المختلفة التي تنشأ دائماً في أوروبا والشرق الأوسط .

ومع اعجابه الشديد بالملك الراحل عبدالعزيز ابن سعود، لكنه لم تنطل عليه ابداً مناورات العاهل السعودي البارعة .

ان احداً من شيوخ القبائل لا يصل الى مركزه لأن والده كان شيخاً قبله . وبكلمات أخرى : ان المشيخة لا تنتقل من الأب الى الابن . وهذا أيضاً ينطبق على الحكام . فعندما توفي الشيخ سالم ابن مبارك الصباح في ٢٧ شباط سنة ١٩٢١، خلفه ابن أخيه الشيخ أحمد الجابر الصباح . وبدأ الشيخ عبدالله السالم الصباح ابن الشيخ سالم مخلصاً يعاون ويتعاون مع ابن عمه ، ويستجمع كثيراً من السلطة في يديه برضى الشيخ أحمد وبفضل طبيعته الكريمة السمحة .

وتوفي الشيخ أحمد الكبير ، كما يسمى اليوم ، بمرض القلب في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٩٥٠ ، فحزن عليه الجميع . وخلفه على العرش ابن عمه الشيخ عبدالله السالم الذي تشير كل الدلائل إلى انه سيقتفي خطى سلفه . وبالفعل فقد اتخذ سلسلة اجراءات حكيمة في حقل الخدمة العامة ، فشق الطرقات ، وبنى المدارس ، وشيد المباني العامة والمستشفيات والمحاكم . وأهم من كل ذلك انشأ مصنعاً ضخماً لتكرير مياه البحر يستطيع ، عند انتهائه في سنة ١٩٥٥ ، ان يمد الكويت بحوالي اربعة ملايين غالون من مياه الشرب يومياً . وشكل ايضاً لجنة لتخطيط المدينة وانمائها، وأعطاها موافقته على الخطة التي رسمتها لتحسين المدينة . والمقال

الذي كتبته مارغريت كلارك والمنشور في مكان آخر من هذا الكتاب ، فيه الكثير من المعلومات عن التقدم الذي أحرزته الكويت بفضل استغلال ثروتها النفطية .

وفي ٥ حزيران سنة ١٩٥٢، يوم عيد ميلاد جلالة الملكة، اسبغ على سمو الشيخ عبدالله السالم الصباح لقب K. C. M. G. الرفيع ، اعترافاً بخدماته الجليلة كحاكم .

حدود الدولة

كانت هذه الحدود في الماضي مصدراً لكثير من النزاع وسفك الدماء . وسنروي قصتها كاملة في فصول أخرى . ويكفي هنا ان نذكر ان الحدود المعترف بها بين الكويت وجاراتها العراق والمملكة العربية السعودية ، هي كما تبدو على الخريطة المنشورة في نهاية هذا الكتاب . وحسب التعابير الرسمية كما يأتي :

من النقطة التي تتصل فيها البلدان الثلاثة ، وهي ملتقى وادي العوجه بالوادي الواسع الطويل المعروف بالباطن في الغرب ، تتجه الحدود العراقية — الكويتية شمالاً على طول الباطن الى نقطة جنوب خط العرض في صفوان تماماً ، حيث تنعطف وتتجه شرقاً مارة جنوب آبار صفوان ، وجبل سنم ، وام قصر ، الى ان تصل الى الشاطىء حيث يلتقي الرافدان خور زبير الى الشمال وخور عبدالله الى الجنوب الشرقي .

وتبدأ حدود الكويت — نجد من نفس النقطة الغربية ، أي من ملتقى وادي العوجه بالباطن . ومن هناك تتجه في خط مستقيم ، تاركة آبار الرقعة لنجد (المملكة السعودية) الى اتصال خط العرض ٢٩ بقوس الدائرة الذي ينتهي في تل قرين جنوباً ، وتصل الى الشاطىء جنوب المرتفع المعروف باسم رأس القليعة .

والى الجنوب من هذا الخط المنحني تقع المنطقة المعروفة بمنطقة الكويت المحايدة . وتحدها من الغرب سلسلة مرتفعات تسمى الشق ، ويحدها البحر من الشرق ، ومن الجنوب خط متفرع من الشق ماراً بعين العبد الى نقطة

على الساحل شمال رأس المشعاب . وتشترك في المنطقة المحايدة كل من الكويت ونجد (المملكة السعودية) ، ولكل منهما حقوق متساوية فيها .

وتشمل دولة الكويت أيضاً جزر وربا ، وبوبيان ، ومسكان ، وفيلكه ، وعوجه ، وكبر ، وقارو ، ومقطع ، وام المرادم وغيرها من الجزر الصغيرة المجاورة .

وتبلغ مساحة دولة الكويت ستة الاف ميل مربع أي أقل من مساحة ويلز بحوالي ١٤٠٠ ميل مربع .

الجغرافية الطبيعية

تتألف الكويت في الغالب من سطح رملي صلب الى الشمال من خط يتجه من الكويت الى الرقه عبر الجهراء ، وتنحدر الى ارض رملية جنوب هذا الخط. اما الى الغرب من الشق ، فإن الأرض في كل مكان حتى تبلغ الباطن ، رملية صلبة ومستوية .

إن أفضل العرفج في المنطقة – وهو نبات صحراوي تتغذى عليه الجمال – ينبت بمحاذاة شاطىء البحر الى مسافة ٤٠ ميلا ، وينبت النسي – نبات صحراوي آخر – الى الغرب من هذا المكان . والوادي الوحيد الواضح المعالم هو الشق الذي يقع قسم منه داخل حدود الكويت . وعلى الحدود الغربية يقع وادي الباطن . والمرتفعات الوحيدة التي تستحق الذكر هي : جال الزور، وسلسلة ليه على الجهة الشمالية من خليج الكويت ، وعدة تلال معزولة في الجنوب لها بعض الأهمية كعلامات حدود ، منها مشرف وسرا في منطقة قرعه ، وبرقان ووارا وقرين في اقليم عدان ، وشظف وجبل فوارس في منطقة الكويت المحايدة. والى الجنوب من المنطقة المحايدة وراء الحدود المعترف بها ، تجدر ملاحظة ظليعات المعيجل وهضبة بعل ووربه .

ولا توجد في أي مكان في الكويت مياه جارية او ينابيع ترتفع مياهها الى سطح الأرض ، ولا في أي مكان في المناطق المجاورة باستثناء عين العبد الواقعة في

اقليم مقطع في المنطقة المحايدة ، والتي تحتوي على كبريتات الهيدروجين وتتدفق بمعدل الف غالون في الدقيقة .

خليج الكويت

يبدأ ميناء الكويت من الزاوية الشمالية الغربية للخليج الفارسي ، ويمتد من الشرق إلى الغرب مسافة عشرين ميلاً . وهو من حيث الشكل اشبه شيء بهلال ظهره إلى الشمال وأحد طرفيه يتجه الى الجنوب الغربي .

والخليج نفسه عبارة عن ثلم في الشاطىء العربي ينتهي في الشمال بالضفة الغربية لخور صبيه الذي تقع فيه جزيرة فيلكه . ويبلغ عرض مدخله ، بين رأس العرض وضفة خور صبيه الغربية ، أربعة أميال ، وهو مفتوح إلى الجهة الجنوبية الغربية .

وفي الشاطىء الجنوبي لخليج الكويت توجد ثلاثة أخاديد منها واحد في أقصى الشرق بين رأس العرض ورأس العجوزه ، ضحل جداً بحيث ان دخول المراكب اليه محظور . ويعرف القسم الشرقي منه ببندر الشعب ، والقسم الغربي ببنيد القار . وهذا الاسم ربما كان تحريفاً لبنيدر الغاز . والاخدود الوسط بين رأس العجوزه ورأس عشيرج ، يضم مدينة الكويت من الناحية الشرقية ، ويضم جزيرة صدفية مغطاة بالرمال والوحول من الوسط تعرف بعكاز او الجزيرة ، وجزيرة قرين من طرف عكاز الجنوبي ، وجزيرة أم النمل القريبة من رأس عشيرج .

ويشكل الأخدود الذي في أقصى الغرب والمسمى دوحة كاظمة والواقع بين رأس عشيرج ورأس كاظمة ، القسم الداخلي للخليج كله . وتقع عند أقدامه قرية الجهراء .

ان الأرض المحيطة بالخليج واطئة باستثناء الناحية الشمالية حيث يتراوح ارتفاع تلال زور المحاذية للشاطىء بين ١٥٠ و ٤٠٠ قدم . وهنالك رقعة موحلة من الأرض تمتد الى مسافة طويلة عبر الشاطىء من ناحية الخليج الشمالية ، مما يجعل الاتصال بين البر والبحر من تلك الناحية صعباً عندما تكون مياه البحر في

الخباض. والمياه في معظم انحاء الخليج ذات اعماق مناسبة لارساء السفن . ويبلغ عمق الماء عند رأس العرض ١٤ قامة، ويتراوح بين ست وعشر قامات عند رأس العجوزه، وينخفض الى ست قامات عند مدخل دوحة كاظمة. وهنالك ضفة صخرية يبلغ عمق الماء فيها قامتين فقط تدعى فشت الحديبة وتبعد ميلين ونصف الميل الى الشمال من المدينة . ويدعى مرسى السفن الكبيرة المحدد بالعرامات، بندر طوينة . ويقع هذا المرسى داخل فشت الحديبة ويبعد ميلاً ونصف الى الشمال من المدينة .

وعندما تهب الرياح الشمالية يرتفع البحر ارتفاعاً ملحوظاً في القسم الجنوبي من الخليج ، ولكن هذا الارتفاع على كل حال لا يشكل خطراً على سفينة كبيرة .

وتوجد منارة في رأس العرض تعمل اضواؤها الكشافة طوال الليل . وهنالك ضوءان ابيضان دائمان في رأس العجوزة وضوء أحمر على سطح القسم الأمامي من مبنى الوكالة البريطانية الذي سام كاتب هذا الكتاب في اكماله سنة ١٩٣٥ .

مدينة الكويت

إن كلمة كويت هي تصغير لكلمة كوت ومعناها الحصن الصغير . وقد أطلق المستوطنون الأوائل من آل الصباح وآل خليفة هذا الاسم على المعقل الذي بنوه وسط الخيام التي نصبوها عند قدومهم الى المكان .

وفي الكتب والسجلات الانكليزية القديمة يشار إلى الكويت عموماً باسم « غراين » وهو مأخوذ بدون شك من جزيرة قرين التي تبعد مسافة قصيرة عن المدينة الى الغرب .

وتبعد مدينة الكويت عن البصرة ٨٠ ميلاً جنوباً وعدة أميال شرقاً ، وتبعد حوالي ٢٨٠ ميلاً عن البحرين . وهي تتجه الى الشمال الغربي وتقع على الشاطىء الجنوبي لخليج الكويت ، في مكان هو ثلث الطريق بين مدخل الخليج

في رأس العرض ونهايته في الجهراء .

وتمتد مدينة الكويت على الشاطىء ، حالياً ، مسافة ثلاثة أميال ونصف الميل تقريباً . وقد اتسعت في السنوات القليلة الماضية اتساعاً ملحوظاً باتجاه رأس العجوزه حيث شيد أحد قصور سمو الشيخ . وهذا القصر شيده المرحوم جابر بن مبارك الصباح واسماه قصر الدسمان . ويستخدمه الحاكم الحالي كمجلس وكدار للاستراحة .

ويبلغ العمق الأقصى للمدينة حوالي ميل وربع إلى مكان بالقرب من وسطها حيث تمت الضاحية الطويلة المساة مرقاب وامتدت من هناك باتجاه الجنوب الغربي .

والى غرب قصر الدسمان بقليل تقع الوكالة السياسية البريطانية الجديدة ومنزلان كبيران يملك احدهما الحج أحمد كبير عائلة آل غانم ، والآخر يملكه الشيخ عبدالله الجابر الصباح مدير التعليم في الكويت وحفيد الشيخ عبدالله حاكم الكويت من سنة ١٨٦٦ الى سنة ١٨٩٢ .

وعلى بعد ربع ميل تقريباً من مبنى الوكالة غرباً ، تقع المساكن الخاصة بالمرضات . ووراء هذه المساكن يقع المستشفى المجاني الفخم المجهز بأحدث أدوات الجراحة وعيادات طب الأسنان والعيون وغرف الأشعة وجناح الأطفال وغيرها .

وعلى بعد ميل تقريباً من المستشفى الى الجنوب الغربي تقع الوكالة السياسية القديمة التي يشغلها حالياً الكاتب وعائلته .

ووراء مبنى الوكالة القديمة وعلى بعد نصف ميل تقريبا ، يقع قصر سموه في المدينة ومبنى الجمارك الواسع الحديث ومحطة شرطة الجمارك . وهنا تبدأ مداخل البزار الرئيسي وشارع الأعمدة الحديث الذي تقع عند نهايته من الجنوب والى الغرب من حي المرقاب السوق المكشوفة المعروفة بالصفاة .

وعلى مسافة قصيرة من مبنى الجمارك الى جهة البحر يصل المرء الى مكاتب شركة غراي ومكنزي المحدودة التي تقع وراءها المدرسة التي افتتحت حديثاً

وتعرف باسم مدرسة الأحمدية .

وفي الطرف الغربي من المدينة تقع مستشفيات ومساكن الإرسالية الأميركية العربية .

ان موقع المدينة على العموم ذو سطح مستو رملي ولكن الناحية الجنوبية الغربية منها تقع على أرض مرتفعة نوعاً فيها مسالك منحدرة باتجاه الشاطىء . اما شوارعها التي كانت في الأصل غير منتظمة وكثيرة المنعطفات ، تحولت الآن (سنة ١٩٥٤) إلى شوارع حديثة عريضة مستقيمة .

والى جانب البزار الرئيسي وشارع الأعمدة ، فإن الشارع الأهم هو شارع الدسمان الذي يسير من قصر الشيخ في المدينة ومبنى الجمارك فيشكل مع البحر زاوية قائمة ، وهو يتجه من الصفاة الى الناحية الشمالية الشرقية من المدينة .

ان معظم المنازل في الكويت تتألف من طابق واحد ولكنها تبدو عالية نظراً للجدران العالية المبنية كحواجز على مدار السطوح . وهذه المنازل عموماً تبنى حول باحة مركزية واسعة .وأفضل هذه المنازل هو المبني من الحجر المغلف بالجص وله بوابات على شكل قناطر . وتظهر هذه القناطر أيضاً في الطبقات العليا . أما نظام الصيانة فهو بدائي . ولكنه باشراف اللجنة الجديدة المكلفة بتحسين المدينة وتطويرها فقد طرأت عليه تحسينات جلي .

وفي المدينة أكثر من اربعين مسجداً منها تسعة جوامع يصلي فيها الناس الجمعة ، وكلها بدون استثناء لها مآذن . ومن هذه المساجد : مسجد السوق وهو المسجد الرئيسي ويقع في الجهة الغربية من البزار الرئيسي ، ومسجد العدساني الذي يقع غرب مسجد السوق ، ومسجد هلال ومسجد فضاله في حي المرقاب، ومسجد النصف الذي يقع قليلاً الى شرق الوكالة القديمة ، ومسجد الشيخ الذي يدعى مسجد آل خليفة وهو ذو مئذنة جميلة رائعة ويقع على البحر قرب القصر، ومسجد السيد ياسين ومسجد البدار ومسجد السابر في القسم الغربي من المدينة .

وهنالك مسجد عاشر هو مسجد الملا صالح الواقع على الطريق بين الصفاة ودروازة الجهراء ، سيحول الى جامع قريباً .



صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم الصباح
حاكم الكويت

صاحب السمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفه
حاكم البحرين

الشيخ عبدالله الأحمد الصباح
الابن الاكبر لحاكم الكويت الراحل

كانت مدينة الكويت في الأصل مدينة مسورة . ويقال انه كانت لها سنة ١٨٧٤ سبع بوابات من جهة البر . ولكن رقعة المدينة تزايدت أكثر من أربع مرات منذ ذلك الوقت ، وقليلون هم الأشخاص الذين يعرفون معالم البوابات القديمة اليوم .

وظلت الكويت مدينة مكشوفة غير محصنة عدة سنوات . ولكنه في سنة ١٩٢٠ مباشرة بعد هزيمة الكويت في معركة حمض ، بنى المرحوم الشيخ سالم الصباح حاكم الكويت في ذلك الوقت سورا حول المدينة ليمنع هجمات الاخوان وهم فئة متعصبة من اواسط الجزيرة العربية . ويبلغ طول هذا السور أكثر من أربعة أميال ، ويمتد من رأس العجوزة حوالي ميلين ونصف الى الجنوب الغربي ثم ينحدر ميلاً من الغرب الى الجنوب ثم من الغرب شمالاً الى البحر ، ويمتد ربع ميل تقريباً الى ما بعد الارسالية الاميركية .

واليوم توجد في المدينة أربع بوابات هي : دروزة دسمان ، ودروزة البريعي المسماة اليوم دروزة الشعب التي تقود الى حولي ودمنة التي تبدل اسمها سنة ١٩٥٣ الى سالمية ، ودروزة نايف على الطريق الرئيسية الى الرياض ، ودروزة الجهراء التي تقود الى الجهراء .

وبالاضافة الى هذه البوابات الأربع المحمية بالابراج ، توجد قلعة على بعد كل ٢٠٠ ياردة وعلى طول السور . وتنتصب خارج السور بين دروزة نايف ودروزة الجهراء خيام كثيرة للبدو . وهنالك حركة خروج ودخول مستمرة للجمال والقوافل عبر دروزة نايف . وتعرف هذه المنطقة بمنطقة شاميه .

والى جنوب المدينة خارج السور تماماً يقع المطار الذي ينتظر ان تدخل عليه تحسينات كثيرة مع الوقت .

وعلى بعد حوالي ربع ميل الى الجنوب الغربي من دروزة الجهراء تقوم المقبرة المسيحية التي قدم أرضها للحكومة البريطانية عام ١٩١٣ المرحوم الشيخ مبارك الصباح جد الحاكم الحالي . وفي سنة ١٩٣٦ شيدت مقبرة جديدة مصونة داخل المدينة على حساب الحكومة البريطانية . وقد وهب الأرض الشيخ أحمد الجابر

الصباح الحاكم السابق وابن عم الحاكم الحالي .

ويظل الكلام عن مدينة الكويت ناقصاً إذا لم نذكر البناء الفخم الحديث قرب دروزة نايف والذي تشغله دائرة الأمن العــام ، وكلية الصبيان التي كلفت مليون جنيه ، والكلية الصناعية ، ومستشفى الأمراض الصدرية ، وهذه المباني تقع على بعد ثلاثة أميال غربي المدينة . هذا فضلاً عن محطة الكرنتينا الحديثة ، ومحطة البرق والهاتف،وعشرات المدارس للبنين والبنات بإشراف الشيخ النشيط عبدالله الجابر الصباح ومعاونيه السيد عبد العزيز حسين والسيد مقدادي وهو من أهالي بغداد . ويجب ان لا نغفل المستشفى العام الجديد الذي سيشيد قريباً بين كلية الصبيان ومستشفى الأمراض الصدرية ويتسع لسبعماية وخمسين سريراً . وكذلك مصنع تكرير المياه الذي اشرنا اليه آنفــاً ، ومحطة التوليد الجبارة في صفه .

جبهة البحر والملاحة

يبلغ طول الواجهة البحرية للمدينة ثــلاثة اميال ونصف . وتكون اكثر انشغالاً في أواسط شهر آب . وقد كتبت الملاحظات الآتية في مثل هذه الفترة من سنة ١٩٤٤ :

لا تزال الكويت اليوم مكاناً من العالم القديم بالغ الأهمية لأي شخص يرغب في دراسة مختلف فنون الملاحة في الخليج الفارسي . وأكبر السفن هناك المسماة بوم ، ويملك تجار المدينة اكثر من ١٣٠ واحدة منها . وتقوم هذه السفن كل سنة برحلتين أو أكثر إلى الهند وفي بعض الأحيان الى زنجبـــار ونهر رفيجي . ولم تمض بعد عدة شهور على رحلاتها التي قامت بها في السنة الماضية ، فهي تعد الآن للقيام برحلات جديدة طويلة .

وعلى طول السيف (الميناء) تجد ربابنة السفن على المصاطب (دتشه) امام جميع البيوت تقريباً. وفي هواء الصباح المنعش، يتعاقدون مع البحارة ويدفعون لهم النقود .

والاشرعة التي اخرجت من مخابئهاتبدو وكأنها وحوش بحرية وهي تتأرجح على الطريق محمولة على اكتاف خمسة عشر أو ستة عشر بحاراً . وقبل ان توضع هذه الأشرعة في امكنتها على ظهر السفينة ، تنشر لادخال اية تصليحات لازمة عليها .

ويظل السيف مكاناً مشغولاً كل يوم إلى أن تقلع هذه السفن الى البصرة في اوائل كانون الأول لتحمل التمور إلى الهند .

وهنالك أنواع أصغر من الزوارق تدعى سمبوق وشوبع . وقد عادت هذه الزوارق من الضفاف التي كانت تصطاد عليها اللؤلؤ ، باكراً بسبب حلول شهر رمضان . وهي الآن تقف على الشاطيء او داخل ارصفة الميناء الصدفي المنخفضة ، على استعداد للعودة الى الصيد بعد العيد .

لم تبن زوارق كثيرة هذه السنة نظراً لصعوبة الحصول على الاخشاب اللازمة من الهند بسبب الحرب . ولكنه في الأحوال العادية يشاهد المرء ستة زوارق على المشاغل كل صيف . وإلى غرب المدينة خارج السور تجد بريطانيين وعرباً يعملون في بناء زوارق غريبة من خشب يستورد خصيصاً من أمريكا . ويشرف على هذا العمل اشهر باني زوارق في الكويت وهو الحاج أحمد الأطرم .

الحاج أحمد وأولاده بارعون في بناء نماذج صغيرة من كل أنواع الزوارق الشراعية . وكثيرون من رجال الاسطول الملكي البريطاني وغيرهم من الزائرين حملوا معهم نماذج للبغلة وباتل وبوم وغيرها من زوارق صيد اللؤلؤ ، تذكاراً لزيارتهم . ومنذ حوالي تسعة اعوام حمل اميرال بريطاني معه واحداً من هذه النماذج الكاملة واهداه الى متحف العلوم في سوث كسينغتون .

أما موسم زوارق اللعب للأطفال فيأتي فيما بعد عندما يكون الميناء خالياً مهجوراً باستثناء بعض سفن الصيد القديمة . وفي هذا الوقت يجد الصغار أشياء كثيرة يتمتعون بها . وهنالك موانيء آمنة تسمى النقعه وهي أماكن ملائمة للصغار لكي يتعلموا فنون الملاحة . فعندما يصبح الفتى قادراً على السباحة يعطى زورقاً صغيراً مصنوعاً من صفيحة بترول يسير فيه بالميناء أو يرفع عليه شراعاً

صغيراً عندما تهب نسمة خفيفة . وفيما بعد يعطى « حوري » حقيقي .

والحوري عبارة عن زورق صغير مصنوع من جذع مجوف ويحمل على ظهر زوارق اكبر . وهو خفيف وسهل التداول يستخدمه الرجال الذين يراقبون الحــذور (شباك من البردي تنصب للأسماك) ويذهبون للاستطلاع في الشباك المنصوبة في المياه المنخفضة . امــا الذين يصطادون السمك بالقرب من الشاطىء يستخدمون زورقاً بدائياً يسمى « وايرجيــه » وهو مصنوع من الجريد (الياف من سعف النخل) المشبوك بعضه ببعض بالعسو وهو حبل مصنوع من أليــاف سعف النخل الآنف الذكر .

« والوايرجيه » حاد الطرفين ويمكن اجباره بأي من الاتجاهين وله مجدافان وشراع خفيف بعض الأحيان يعلق على عمود صغير يغرز طرفــه السفلي في ثقب في وسط الزورق . وعندما تصطاد الأسماك تلقى في قعر الزورق حيث تعيش في الماء الذي يتسرب اليه إلى ان يعود الصياد الى الشاطىء مالئاً سلته بها .

المناخ والسكان

يشبه مناخ الكويت مناخ الموانىء الأخرى على الخليج الفارسي ومناخ معظم انحاء العراق . ففي الشتاء شديد البرودة وخاصة عندما تهب الرياح الشمالية . وقد وصلت درجة الحرارة في كانون الثاني سنة ١٩١١ الى ٢٤ درجــة فهرنهايت أي حوالي ٤ درجــات مئويــة تحت الصفر . وفي الصيف يلطف نسيم البحر حرارة الشمس وتبرد الصحراء بسرعة في الليل . امــا معدل درجات الحرارة القصوى والدنيا فهو ١١٤ درجة فهرنهايت و ٣٥ درجة فهرنهايت اي ٤٤ درجة مئويــة ودرجتان مئويتان ، بينما لا يزيد معدل تساقط الأمطار عن خمس بوصات .

وكان عدد سكان مدينة الكويت سنة ١٩٥٢ ما يزيد عن ١٦٠ ألف نسمة . وقد ارتفع هذا العدد في نهاية ١٩٥٣ الى ٢٥٠ الف نسمة بسبب تدفق الأيــدي العاملة الأجنبية . والأغلبية العظمى من السكان الدائمين من العرب من قبــائل عتوب ، وعوازم ، ورشايده ، وبني خــالد ، ودويشر ، وعجمان ، وعنيزه ،

(١) دواسر
(٢) عنزه

وظافر . الى جانب الحسوية ، اي من عرب الاحساء والبحارنة من البحرين . اما الجالية الإيرانية التي تزايد عددها بصورة مذهلة في السنوات القليلة الماضية ، فيبلغ عدد أفرادها حوالي ٣٠ الف نسمة . ومن هؤلاء عدد قليل من التجار أما الغالبية العظمى فهي من العمال . وباستثناء الإيرانيين والبحارنة وبعض الحسوية الذين هم من الشيعة ، فإن مسلمي الكويت كلهم تقريباً من السنة . ويحج من سكان الكويت الى مكة سنوياً حوالي ٦٠٠ حاج فقط يسافرون إلى الأماكن المقدسة بطريق البر عادة .

أما العائلات الرئيسية في الكويت بحسب عدد الذكور فيها فهي كما يلي :

العائلة	عدد الرجال تقريباً
قناعات	٢٥٠٠
آل خالد	٢٠٠
آل زايد (آل غانم)	١٥٠
آل سيف (بما فيهم ابن رومي وآل شملان)	١٥٠
آل بدر	٥٠
آل جليل	٥٠
آل صالح	٥٠
آل صقر	٣٠

وقد اعطاني التفاصيل المدونة اعلاه عبد اللطيف رئيس عائلة آل جليل والشيخ عبدالله الجابر .

وتشتق كلمة زايد من زيادة ومعناها الكثرة للدلالة على ان اجداد العائلة كانوا يملكون اعداداً من الاغنام والجمال أكثر من غيرهم من العرب . ويرجع أصل جميع العائلات التي تشكل جماعة آل زايد في الكويت الى عنيزة . وكما ذكرنا سابقاً فقد قدموا الى الكويت من قطر مع آل الصباح وآل خليفة منذ قرنين ونصف من الزمان .

ويعرف آل زايد اليوم بآل غانم ومنهم الأشخاص التالية اسماؤهم :
شاهين بن محمد الغانم .
أحمد بن محمد الغانم (رئيس العائلة اليوم) .
ابراهيم بن محمد الغانم .
خليفة بن شاهين الغانم .
محمد الثنيان الغانم .
يوسف بن ابراهيم الغانم .
ابراهيم بن محمد الجبار الغانم .
عبد الوهاب بن خليفة الشاهين الغانم .
ويتصل بهم بصلات قربى كل من :
خالد الغانم الزايد .
عبد الوهاب بن عيسى قطامي الزايد .
عبد الوهاب بن عبد العزيز الزايد .

وكان حاكم الكويت السابق المرحوم الشيخ أحمد الجابر الصباح متزوجاً من حصة[1] ابنة ابراهيم بن محمد الجبار الغانم وله منها عدة أولاد أشهرهم : عبدالله الأحمد الجابر الصباح ، ومحمد الأحمد الجابر الصباح ، ومنيره وهي اليوم زوجة الشيخ عبدالله الجابر الصباح .

(1) حصه

الامكانيات العسكرية

يحتفظ حاكم الكويت بحرس خاص قوامه خمسون رجلاً وبقوة نظامية يربو عددها على الألف . وقد قام بتدريب هذه القوة ضباط بريطانيون وفلسطينيون ومهمة هذه القوة المجهزة ببنادق من عيار ٣٠٣، حماية شخص الحاكم وحراسة المدينة وحماية منشآت شركة النفط في الاحمدي . هذا بالاضافة الى ١٨٠ حارساً تحتفظ بهم شركة النفط الانكلو - اميركية :

وفي حالة الحرب يمكن تجنيد حوالي ٢٠٠٠ رجل آخر والحاقهم بالقوة

النظامية . ويستطيع الشيخ ان يجمع هذا العدد من الرجال من قبائل البدو الخاضعة لنفوذه . ويمكن أيضاً تجنيد ٣٠٠٠ رجل من السكان المستوطنين . ففي أيام معركة جهرة في تشرين الأول سنة ١٩٢٠ دفع جميع رجال مدينة الكويت القادرين جدياً الى الخدمة العسكرية . ولعدة اسابيع بعد المعركة كان على كل تاجر في المدينة ان يقدم عدداً معيناً من الرجال لحماية سور المدينة في الليل .

وفي حالة طوارىء يملك الشيخ عتاداً حربياً يتألف من ٤٥٠٠ مسدس موزر وبندقية بريطانية مع وافر من الذخيرة . وفي سنة ١٩٣٣ اضاف الشيخ أحمد الجابر الى قواته المسلحة عشر سيارات مصفحة حديثة مثبتة في كل منها بندقية حديثة جيدة . وعزز الدفاع سنة ١٩٥٣ باضافة ١٤ دبابة خفيفة ، وباضافة اربع طائرات اوستر خفيفة في كانون الثاني سنة ١٩٥٤ .

ويملك الشيخ عبدالله السالم أيضاً ١٢ شاحنة شيفروليه صغيرة كل واحدة منها مجهزة ببندقية من طراز « لويس » مثبتة على ركيزة مثلثة القوائم ، وشاحنة شيفروليه كبيرة على ظهرها مدفع رشاش من طراز « فيكرز » مثبت بالطريقة ذاتها . واذا دعت الحاجة لنقل قوات بسرعة الى أية نقطة مهددة ، فانه يستطيع بإشارة ان يحصل على ٢٠٠ شاحنة مختلفة الاحجام من المدينة .

المواصلات

ان السفر في الكويت ليس سهلاً مع ان سطح الارض خال من العوائق الطبيعية . وعندما يخرج المرء من المدينة بأي اتجاه فانه لن يجد ولو كمية قليلة من المؤن ، وعليه ان يحمل معه زاده من الماء والطعام (باستثناء خمس قرى رئيسية هي : الجهراء وفنطاس وأبو خليفه وفحيحيل وشعيبه) . وبالنسبة لعلف الحيوانات فان الأمر أسهل وبامكان المواشي من كل نوع ان تجد لنفسها ما تتغذى به . اما الماء فهو نادر في كل مكان وخاصة الى الشمال والشمال الغربي من الجهراء . واختيار الطريق ووجهة السير يقررها موقع الآبار وحالتها .

وبدخول السيارات الى البلاد خططت طريق ممتازة بين الكويت والرياض تسلك الاتجاه التالي : الكويت ، مناقيش ، خبرة ، الدويش ، الجانب الغربي من الشق ، جاريه (1) (أو قاريه) ، عليا ، تربي ، كنهرا (الجانب الشرقي من رمال دهانة مقابل رماح) ، رماح ، ممر بويب ، بيان ، الرياض . وقرب كنهرا وفي وسط رمال دهانة تلتقي هذه الطريق بطريق الهفوف عاصمة الاحساء المقاطعة الشرقية من المملكة العربية السعودية .

وبالنسبة للعمليات العسكرية ، فان جميع البلاد صالحة لسير الشاحنات السريعة وسيارات التجول ، باستثناء منطقة الكبد الرملية الواقعة جنوب غربي مدينة الكويت . وسيتم إنشاء خمس طرقات رئيسية معبدة بالإسفلت بموجب خطط التنمية الجديدة . هذه الطرقات هي : الكويت – صفوان ، الجهراء – رقيبع (3) ، الكويت – منقاش ، الكويت – قرى القصور (وهذه طريق بمحاذاة الشاطىء) ، الكويت – أرق على الحدود الجنوبية للمنطقة المحايدة .

النباتات والحيوانات

النباتات في الكويت نادرة الوجود وفي الشتاء يختفي أثرها . والأشجار الوحيدة الموجودة هي النخيل والسدر (او البر) والأثل وحتى هذه لا يجدها المرء إلا في جوار القرى .

والأعشاب الموجودة خاصة في المناطق الشمالية والشرقية والجنوبية والتي تتغذى عليها الجمال فهي : العرفج وهو عشب ذو طعم مائل الى الملوحة يعرف عموماً باسم حمض ، والعوسج وهو نبات شوكي ذو أوراق صغيرة وثمار حمراء تشبه التوت .

ويكثر الحنظل ، وهو من فصيلة الحمض ، في الصحراء الغربية . وتنمو أعشاب تعرف محلياً باسم ثمام وثندا جنوب خليج الكويت وفوق مساحة واسعة جنوب المدينة رأساً . وينمو العشب المسمى نسّي (4) بكثرة الى غرب الشق .

ويأخذ البدو جمالهم كل عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً الى الأماكن التي يكثر

فيها الحمض لترعى مدة اسبوع تقريباً. ويقول البدو ان الملوحة في هذه الأعشاب مفيدة للجمال وتحفظها بصحة جيدة .

وفيما يلي قائمة بأسماء أنواع الحمض المختلفة في شرقي الجزيرة العربية :
عقروم ، ضمران ، جفراف ، عادة ، حدتش (حنظل) ، هرم ، رمض ، شران ، شينان ، سويد .

الجمال لا تأكل الحنظل ولكن الأغنام تحبه وتسمن عليه . ومن الغريب انه يؤثر على الأغنام بحيث انها لا تحتاج الماء حتى في اشد الأيام قيظاً . ويعرف الرعاة هذه الحقيقة ولذلك يسوقون اغنامهم الى حيث يوجد هذا العشب عندما يتأخر هطول الأمطار او عندما يتعذر عليهم ايجاد الماء .

وتجدر الإشارة هنا الى ان آل مرة وهم قبيلة ارستقراطية في جنوب المملكة السعودية يستخدمون كلمة تهاج لوصف الأماكن التي تنمو فيها عدة أنواع من الحمض مع بعضها .

وتتركز الزراعة في الكويت في جوار جهرة وستتطرق إلى ذلك عندما نتحدث عن جهرة في الفصل القادم .

الطيور نادرة في الكويت إلا في مواسم الهجرة . ففي الشتاء تكثر الحبارى والقطا . وفي اوائل الخريف وأواخر الربيع بالامكان ان تصبح الكويت مركزاً ملائماً لدراسة هجرة الطيور التي تنتقل من المناطق الاستوائية الى روسيا وشمال آسيا الصغرى . ويبدو ان الكويت تقع على خط هجرة هذه الطيور .

ومن الحيوانات البرية في الكويت الأرنب والذئب وثلاثة انواع من الغزال هي : العدمي والعفري والريم .

فالعدمي ، بخلاف العفري ، ليست له بقع بيضاء تحت العين . ولون رأسه بني مبال الى الحمرة وجسده بني فاتح . وله ، كالعفري ، بقعة سوداء تعرف بالحرقة فوق الأنف . والعفري هو اصغر الغزلان واكثرها انتشاراً في شمال شرق الجزيرة العربية . ويمكن تمييزه بالبقعة السوداء فوق الأنف وبالحواشي البيضاء على الوجنتين من العين نزولاً . وله ايضاً شمائل من الشعر الأسود تحت

الركبتين الأماميتين .

ويمكن تمييز الريم بالخط الأبيض على جانبي الخط البني في الوسط . ويشبه بذلك العفري . ولكن الخط الأبيض في الريم أعرض منه في العفري بمرتين ويمتد الى ما وراء العين . وحوالي العين وتحتها توجد عدة علامات سوداء وبنية قاتمة . وللريم ، كالعفري والعدمي ، بقعة سوداء في وسط الرأس فوق الأنف . ولون جسده بني فاتح جداً ويبدو عن بعد كأنه أبيض .

وينكر بعض المطلعين وجود الفهد في الجزيرة العربية ولكن واحداً منها قتل صدفة في ١٥ آذار سنة ١٩٥٠ على بعد ٧٠ ميلاً غربي بدنة وهي محطة لضخ البترول تابعة لخط التابلاين الممتد من أبقيق الى البحر المتوسط . حدث ذلك عندما كان توني فالنتاين وهو مهندس يعمل مع التابلاين متوجهاً الى عمله في سيارته الفورد فهجم الفهد على السيارة فقتلته .

ولقد تسنى لي رؤية جلد ذلك الفهد ويبلغ طوله ستة اقدام واربع بوصات وكان في حالة سليمة . وهو ابيض اللون وفيه بقع سوداء في كل مكان باستثناء أسفل البطن . اما اقدامه ومخالبه فهي اقرب الى اقدام كلب كبير منها الى أقدام ومخالب القط او السنور ، وله سالفان بارزان . وقد اكد متحف التاريخ الطبيعي في بريطانيا عندما ارسلت لهم الصورة والأوصاف ان الحيوان هو فهد .

وتوجد كثير من الأفاعي في منطقة الكويت الساحلية الجنوبية . ولكن معظم هذه الأفاعي غير سامة .

وقد وصف لي صديقي صالح المري مرافق الشيخ عبدالله المبارك الصباح مدير الأمن العام وقائد قوات الكويت المسلحة، يوم ٨ ايار سنة ١٩٤٨ ، الأفعى الرهيبة المسماة حام وهي كوبرا سوداء يعرفها أهل الأحساء باسم عبه . وقال ان طولها يبلغ خمسة أقدام وتزحف ببطء وهي سامة جداً وعندما يقتلها البدو يطلقون عليها النار من بعيد . وقال صالح ان تلك الأفعى تسير غالباً في الليل وتحدث صوتاً كصوت جدي صغير . وإذا اقترب منها أحد تهاجمه . وحدثني صالح ايضاً انه شاهد أثر سير هذه الأفعى قرب أم قصر .

اما النوع الشائع من الأفاعي فهو الحنش . وهنالك عدة أنواع أخرى تعرف جميعها باسم داب .

ويـأتي الجراد الكويت كل سنة تقريبا باسراب مختلفة الحجم حسب كمية هطول الأمطار . فكلما كان هطول الأمطار شديداً في الشتاء كان الجراد كثيراً في الربيع . وكما كتبت في ايار سنة ١٩٥٤ : انهم معنا وزيارتهم غير مستحبة .

ان أعظم ما كتب في وصف غزو الجراد هو ما ورد في الاصحاح الأول والثاني من سفر يوئيل في التوراة وبه انهي الفصل الأول من هذا الكتاب :

أمة قوية غزت أرضي . لا عد لها ولا حصر . انيابها كانياب الأسد . تركت كرومي خراباً ونزعت قشور شجرة التين في بستاني ، طرحتها جانبا عارية أغصانها بيضاء كصفرة الموت . أتلفت الحقل وتركته حزينا يبكي القمح الذي ضاع . لقد جف الخمر الجديد وفسد الزيت .. كيف تزمجر الوحوش ، هكذا تفعل القطعان لأنها فقدت المرعى .. والأغنام بائسة محرومة .

يوم مظلم قاتم .. يوم غائم شديد الظلمة .. وعندما طلع الصباح على الجبال : شعب عظيم قوي كالنار يلتهم كل شيء وراءه يباس ولن يفوته شيء . مظهرهم كمظهر الخيل وكالخيالة يسيرون .. يقفزون كأصوات العربات المنحدرة من قمم الجبال .. يتراكضون كالجبابرة .. يتسلقون الجدران كرجال الحروب .. يسيرون كل واحد منهم في طريقه ولا يمزقون صفوفهم .. سيصولون ويجولون في المدينة .. يتسلقون الجدران والمنازل .. يدخلون من النوافذ كاللصوص .. ستتزلزل الأرض أمامهم وترتعد السماء .. الشمس والقمر يحتجبان واشعة النجوم ستنهزم .

الفصل الثاني

المناطق والقرى حول الكويت وشرق الجزيرة العربية

العدان

العدان منطقة محاطة بمنطقة القرعة من الشمال والكبد من الغرب والصلو من الجنوب . وتبدأ من نقطة تبعد ١٦ ميلاً الى الجنوب من مدينة الكويت وراء ملح الواقعة في منطقة القرعة مباشرة . وتمتد منطقة العدان ٢٥ ميلاً جنوباً نحو تلة قرين التي تشكل حدودها وحدود مقاطعة الكويت ، مع منطقة الصلو .

وتقع على زاويتي عدان الشمالية الغربية والجنوبية الغربية تلة المعيدنيات وآبار صبيحية على التوالي . ويظهر ان عرض المنطقة من البحر الى الداخل يتراوح بين عشرة أميال وعشرين ميلاً . ومقابل البحر تمتد عدان الى الشمال اكثر من مقوى وتضم القرى التالية : فناطيس ، فنطاس ، ابو حليفه ، فحيحيل ، وشعيبه . وهذه القرى مجتمعة تعرف باسم القصور . والى الجهة الشرقية من عدان توجد سلسلة مرتفعة تشرف على البحر اسمها ظهر العدان حيث تقع مدينة النفط الجديدة الأحمدي . وهناك توجد الخزانات التي يضخ اليها النفط من آبار مقوى وبرقان قبل ان ينحدر ، بفعل الجاذبية ، في الأنابيب الى ميناء الأحمدي .

وفي عدان توجد الانقاض الوحيدة ذات القيمة الأثرية في الكويت . وهذه الآثار عبارة عن نواويس وجدت في تلة تعرف بام خزنه وتبعد ستة أميال الى

الشرق من تلة وارا .

والقبور الموجودة هناك تتجه من الشرق الى الغرب ولذلك فهي ليست قبوراً اسلامية قطعاً. وتشغل هذه القبور مساحة مرتفعة من الأرض تقدر بحوالي ١٠٠ قدم مربعة . والنواويس مصنوعة من الجص وطول الواحد منها خمسة أقدام وعرضه قدم واحد وثماني بوصات ويبلغ عمقه قدمين وسماكة جوانبه حوالي أربع بوصات . وقد دفنت هذه النواويس في الأرض على عمق أربعة أقدام ووضعت فوقها أعداد كبيرة من الحجارة المختلفة الاشكال يبلغ حجم الواحد منها قدمين مكعبين . ولا توجد اية نقوش على هذه النواويس ولكنه عثر على قطعة نقود نحاسية قرب المكان يبدو انها فارسية مسكوكة في بغداد ويعود تاريخها الى القرن السابع عشر أو الثامن عشر بعد الميلاد .

ويمكن معرفة مدى وطبيعة منطقة عدان من معرفة القرى والآبار والمعالم الطبيعية التالية :

أبو حليفا : وهي قرية ساحلية تقع على بعد ١٨ ميلاً جنوب الجنوب الغربي لمدينة الكويت . وتتألف من ١٦٠ بيتاً ويسكنها عرب من أصول متفرقة . وفي القرية حوالي ألف شجرة نخيل مثمرة وثلاثين بئراً فيها مياه صالحة منها سبع آبار تستخدم للري . ويزرع فيها الشعير والبطيخ وبعض الخضار . ويظهر فيها عدد من اشجار السدر . وهي قرية من قرى القصور يؤمها أهل المدينة في فصول معينة من السنة . ويصلها بمدينة الكويت قريباً طريق مزفت حديث . وفي ٢١ أيار سنة ١٩٣٧ اكتشف السيد لاتيار الذي كان يعمل لشركة نفط الكويت ، نموذجاً لرأس سهم من الصوان طوله بوصة ونصف ، في مكان يبعد ثلاثة أميال الى الجنوب الغربي من قرية أبو حليفا .

عريفجان : وهي آبار ذات مياه جيدة تبعد خمسة أميال الى الغرب من قليمة العابد على الشاطىء .

عرفجيه: وهي آبار ذات مياه مالحة الطعم يبلغ عمقها اثني عشر قدماً وتبعد ثمانية أميال الى الشمال الشرقي من صبيحيه .

برقان : وهي سلسلة تلال ارتفاعها مئة قدم وتضم فجوة تحتوي على ترسبات القار. وتبعد هذه التلال عن مدينة الكويت ٢٨ ميلاً الى الجنوب وتبعد ١٣ ميلاً عن الساحل . وتقع تلال برقان وسط حقول النفط الرئيسية التابعة لشركة نفط الكويت . والتنقيب عن النفط هناك مستمر لذلك فان عدد الآبار يختلف من فترة لفترة . وفي الوقت الذي كتب فيه هذا الكتاب كانت هنالك ١٥٦ بئراً بما في ذلك آبار مقوى ، وكانت هنالك ثلاث آخرى يجري العمل بها . وفي سنة ١٩٣٥ اكتشف الكاتب في تلال برقان عدة أدوات صوانية من نوع رأس السهم وأدوات الحفر . وقد أرسلت هذه الأدوات الى متحف لندن حيث حكم عليها الخبراء بأنها من العصر الحجري المتأخر .

دشت : وهي عبارة عن سهل رملي مجدب ومستقيم يمتد جنوباً عدة أميال على طول الشاطىء من قليعة العابد وتصل الى بعد ثلاثة أميال في الداخل . وهنا وهناك في دشت توجد مجموعات من الطرفه وهي شجيرات صغيرة لها أزهار وردية اللون . وعلى بعد خمسة أميال من قليعة العابد وثلاثة أرباع الميل من الشاطىء يوجد كثيب من الرمل الأبيض يعرف باسم بنية الدشت .

دسمه : وهي آبار مياهها مالحة تقع على بعد تسعة أميال الى الغرب من شعيبه .

فحيحيل : وهي احدى قرى القصور على البحر . وتبعد ٢٤ ميلاً ونصف الميل الى جنوب الجنوب الشرقي عن مدينة الكويت . وتضم فحيحيل اربعمائة بيت وفيها ٢٠ بئراً من المياه الصالحة على عمق ١٨ قدماً . وفي القرية حوالي ٢٠٠ شجرة نخيل ، ويزرع فيها بعض القمح والشعير والبطيخ الذي يروى من الآبار . ويملك سكان القرية الذين ينتمون الى قبائل عربية متعددة عدة قطعان من الغنم والماعز . وقد بدأت القرية تزدهر لأن أهالي المدينة يقصدونها للاستجمام في فصول معينة من السنة ولأنها قريبة من ميناء الأحمدي .

فنطاس : وهي قرية أخرى من قرى القصور على البحر وتبعد ١٦ ميلاً الى جنوب الجنوب الشرقي من مدينة الكويت . وفيها ١٧٠ بيتاً سكانها من العرب

الذين ينتمون الى قبائل مختلفة كما في الكويت وفحيحيل . وفي القرية حوالي ٣٠ بئراً بعضها ذو مياه مالحة وبعضها الآخر ذو مياه عذبة على عمق ٢٠ قدماً . ويبلغ اتساع فوهة البئر ٢٠ قدماً من كل جانب مما يجعل من الممكن ان تعمل لسحب الماء منها ثلاث فرق من الحمير في وقت واحد .

والزراعة في فنطاس اغنى منها في جهره مع ان الارض المزروعة في فنطاس أقل مساحة . ويزرع أهالي القرية الشعير والعدس والبطيخ والفجل والبصل . وتوجد فيها ٦٠٠ شجرة نخيل وبعض أشجار السدر والعشور ، وينتظر ان تزدهر هذه القرية ايضاً عند اكمال الطريق المزفت الذي يصل القصور بمدينة الكويت.

فناطيس : وهي قرية أخرى من قرى القصور على البحر وتبعد ثمانية اميال الى الجنوب من رأس العرض . وفيها ست أو سبع آبار على عمق ١٢ قدماً .

حنيظل : وهي مجموعة آبار على الشاطىء تبعد ميلين إلى الشمال عن فنطاس. وعدد هذه الآبار كبير ولكن اثنتين منها فقط تحتوي على الماء على عمق ١٨ قدماً .

جعيدان : وهي أرض منخفضة طولها ميل وعرضها ميل وتبعد ميلاً واحداً عن برقان الى الشمال ، تملكها قبيلة العوازم . فيها عدة آبار ماء حولها بعض اشجار النخيل والسدر . وقد عثرت شركة نفط العراق اول ما عثرت على النفط بالقرب من شجرة سدر منفردة بجوار آبار جعيدان . وكان ذلك سنة ١٩٣٧ بعد محاولات يائسة للعثور على النفط في بحرا شمال خليج الكويت .

القيط : وهي آبار مياهها جيدة لكنها قليلة الملوحة ، عمقها ٢٠ قدماً وتقع على بعد ٢٥ ميلاً الى جنوب شرق مدينة الكويت على الطريق بين برقان وقرين.

منيفة : وهي تسع آبار مياهها صالحة للشرب عمقها ٢١ قدماً . وتقع هذه الآبار على الساحل بين فنطاس وحنيظل.

مزارع : وهي أرض مزروعة تمتد بضعة أميال وفيها آبار قليلة العمق ، وتقع على بعد ثلاثة أميال إلى شمال غرب لقيط .

ميناء الأحمدي : وهو المرفأ الكبير الذي تستخدمه شركة نفط الكويت

لتصدير النفط الخام . وهناك تقوم مدينة حديثة واسعة ومذهلة النشاط . ان أرصفة النقل والتجهيزات الموجودة في ميناء الأحمدي تعتبر أحسن وأحدث ما في العالم . وتقوم هناك ايضاً منارة عظيمة يبلغ مداها ٢٠ ميلاً . ويستطيع الميناء ان يتسع لتحميل ١٤ ناقلة في وقت واحد ، كما ان هنالك ثلاثة أنابيب غواصة الى الشمال من الرصيف الرئيسي . ويصدر الميناء حالياً ٨٠٠ الف برميل يومياً وينتظر أن يصل هذا الرقم إلى المليون قريباً . ان ميناء الأحمدي يتزايد في الحجم والأهمية كل شهر فيما تستمر التنمية الخيالية .

مشاش حبيبان : وهي آبار خمس فيها مياه جارية على عمق ١٨ قدماً وتقع غرب المزارع مباشرة .

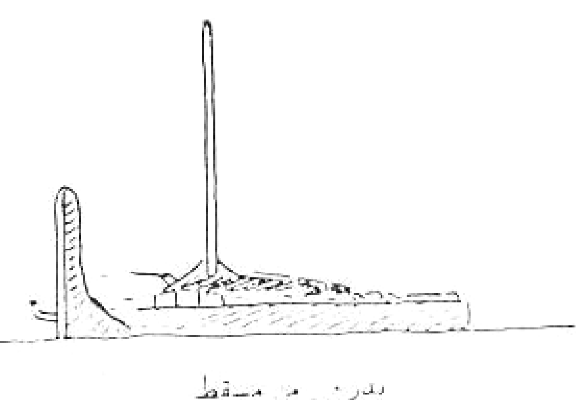
معيدنيات : وهي مجموعة من ثلاث تلال واطئة تحتوي على الكبريت الذي تفوح منه رائحة قوية . وهناك مركز الحقل الجديد للنفط الذي تملكه شركة نفط الكويت . وتقع معيدنيات على بعد أربعة أميال إلى الغرب من مقوى في منطقة قرعة .

قليعة العبيد : وهي مرتفع صخري عال منبسط السطح على الساحل يحتضن خليجاً صغيراً يتخذه صيادو اللؤلؤ ملجأ لهم في الطقس العاصف . يقع هذا المرتفع على بعد خمسة أميال إلى الغرب من رأس القليعة وعلى بعد عشرة أميال الى الجنوب الشرقي من شعيبه . وليس في هذا المكان ماء . ويقال ان جماعة من العبيد الفارين استولت عليه ودافعت عنه منذ سنوات خلت .

رأس القليعه : وهو رأس بارز داخل في البحر ليس فيه ماء ويقع على بعد ١٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من شعيبة .

صفوي : وهي عبارة عن مئة بئر منتشرة بجوار لقيط من الجهة الشمالية — الشرقية . وهذه الآبار فيها مياه صالحة على عمق ١٨ قدماً ولكنه ليست حولها زراعة .

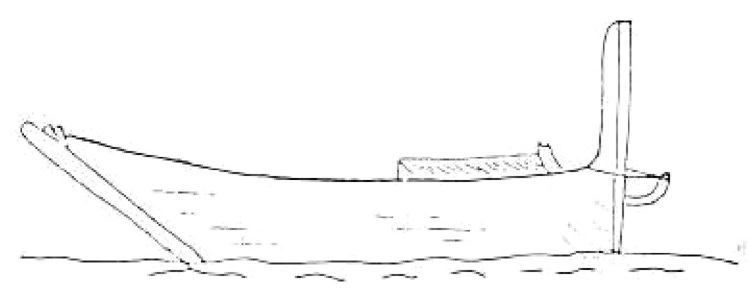
شعيبه : وهي آخر قرية ساحلية الى اقصى الجنوب في منطقة عدان وهي ايضاً من قرى القصور . وتقع هذه القرية على بعد ٢٧ ميلاً الى جنوب الجنوب الغربي من



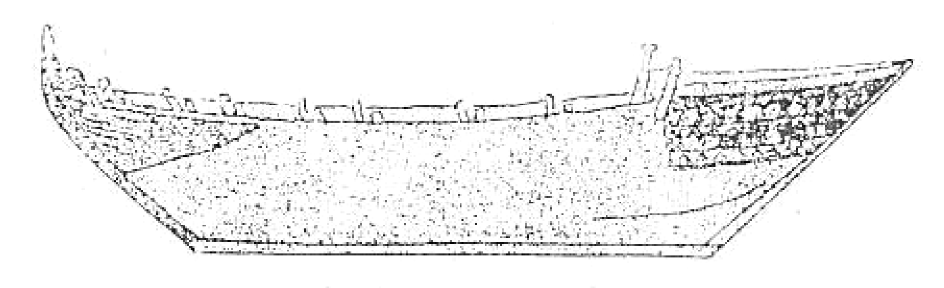
بدن من مسقط



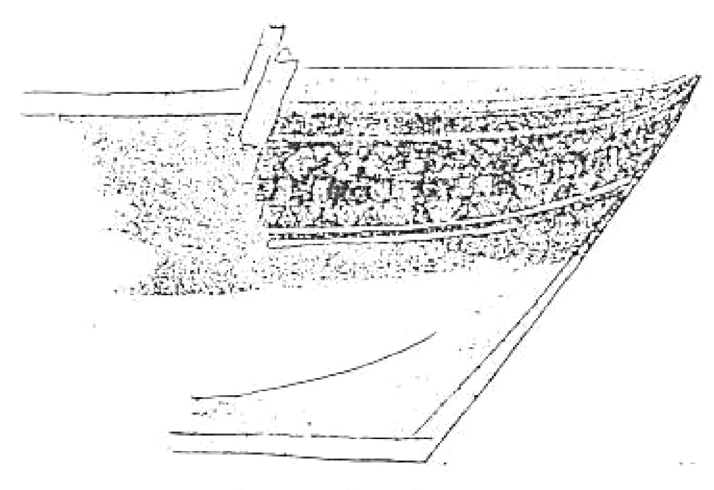
مؤخرة البدن



بقرة من الساحل الجنوبي



زورق من جيزان ، اليمن



مؤخرة الزورق المزخرفة

مدينة الكويت وفيها ١٠٠ منزل يسكنها اصحابها بصورة دائمة ، وعدد من المنازل الصغيرة تدعى « هوته » تسكن من وقت الى آخر ، وفيها ايضاً انقاض قلعة كانت في يوم من الأيام المصيف المفضل لدى الشيخ جابر ابن مبارك الصباح . وفي القرية عشر آبار تحتوي على مياه صالحة للشرب على عمق ١٥ قدماً ، وهناك ايضاً حوالي ١٥٠ شجرة نخيل وبعض اشجار السدر وقليل من زراعة الشعير والخضار . ويملك سكان القرية مركباً او مركبين . ان قرية شعيبة آخذة في التوسع والازدهار وهي تقع مباشرة الى جنوب المدينة الحديثة على ميناء الأحمدي .

طويل : وهي مجموعة من اثني عشرة بئراً مياهها عذبة وعمقها حوالي ٤٠ قدماً وتقع على بعد ستة اميال الى الغرب من وعرا .

أم الهيمان : وهي ثماني آبار عمقها ١٨ قدماً وفيها مياه صالحة للشرب . تبعد أم الهيمان ثلاثة اميال الى الجنوب من شعيبة وتقع بجانب ميناء عبدالله وهو المحطة التي تستخدمها لشحن النفط شركة النفط الأميركية المستقلة .

أم قصبه : وهي مجموعة آبار صغيرة مياهها مالحة تقع بالقرب من الساحل على بعد خمسة اميال الى الجنوب من شعيبة .

أم صفق : وهي آبار ذات مياه صالحة على عمق ١٨ قدماً . تقع على بعد ميلين من انقيط الى الشمال الشرقي . ويشتهر هذا المكان بزراعة البطيخ .

عقيله : وهي آبار قرب الساحل تبعد عدة اميال عن شعيبة جنوباً وتسمى ايضاً ام العوسج نظراً لكثرة ما ينبت حولها من العوسج .

وعرا : وهي قمة عالية من الحجر الأسود . يبلغ ارتفاعها ٢٠٠ قدم تشبه برجاً مخروطي الشكل . وتقع وعرا على بعد سبعة اميال الى الشمال الغربي من برقان .

البحرين

البحرين اسم يطلق على مجموعة الجزر الواقعة في الخليج بين ساحل الاحساء

في المملكة العربية السعودية من جهة الغرب ، وبين شبه جزيرة قطر من جهة الشرق . وأكبر هذه الجزر الجزيرة التي كانت تدعى سابقاً آفال والمسماة اليوم البحرين . ويبلغ طول هذه الجزيرة ٢٧ ميلا وعرضها عشرة أميال وفيها العاصمة منامة التي تمتد ثلاثة أميال على طول شاطىء الجزيرة الشمالي . ومعظم سكان الجزيرة ، عرب وايرانيون ، هم من الشيعة . والصناعة الرئيسية فيها صيد اللؤلؤ وقد اكتشف النفط هناك سنة ١٩٣٢ .

والبحرين مقاطعة مستقلة تحكمها عائلة آل خليفه ، وترتبط مع بريطانيا بمعاهدات وثيقة . وتتمثل الحكومة البريطانية في البحرين بوكيل سياسي يعمل تحت اشراف المقيم السياسي في الخليج الفارسي الذي كان يتخذ مقره الدائم في بوشير على الشاطىء الشرقي في الخليج ولكنه اليوم في البحرين التي تعتبر المحطة البحرية الرئيسية للأسطول الملكي البريطاني في الخليج الفارسي . وتتخذ شركة الخطوط الجوية البريطانية عبر البحار من البحرين محطة رئيسية للتموين لأنها تقع في طريق خطها المباشر الى الهند واستراليا والشرق الاقصى . ويقع المطار في جزيرة محرق الواقعة شرق منامه مباشرة وتتصل بها بطريق مرتفع .

وفي سهل صحراوي في القسم الشمالي من الجزيرة الرئيسية توجد مرتفعات فيها آلاف من القبور قديمة العهد ولا يعرف أصلها بالضبط ولكنها تعتبر أكبر مقبرة في العالم . وربما كانت هنالك قبور أخرى . ويعتقد البروفسور كورنوال انها تعود الى الألف الثاني قبل المسيح ، وان ديلمون القديمة ذات الكتابة المسمارية لم تكن في الواقع إلا البحرين اليوم .

الباطن

الباطن هو القسم الأخير المنخفض من وادي رماح العظيم الذي تقع الاجزاء الوسطى والعليا منه في المملكة العربية السعودية . وتقول بعض المراجع ان الاسم اطلق على الوادي كله من قسيم نزولا . ولكن الناس درجوا على تمييز القسم الواقع في حزام دهنـاء الرملي بأسم وادي المستوي ، وسموا القسم الاسفل

الباطن .

ويمكن القول ، اذن ، انه يبدأ من على مسافة ٧٠ ميلاً جنوب غربي حفر الباطن ، ويستمر من رقيع في نفس الاتجاه نحو مئة وثلاثـــة أميال الى سلسلة مرتفعات الرتق التي تبعد ٣٧ ميلاً عن البصرة ، حيث ينتهي .

والباطن على العموم ذو انخفاض ملحوظ ويختلف عرضه من أربعة اميال كما في حفر الى ميلين كما في رقيع . وعند نهايته في رتق يصبح عريضاً جداً وقليل العمق . ويبلـــغ عرض قعر الوادي في حفر حوالي ثلاثـــة أميال ولكن أقل من ذلك بكثير في أماكن أخرى اذ يصبح على بعد مسافة قليلة من رقيع أقـل من نصف ميل . ولا يوجد في الوادي أي أثر لفعل المياه ، ولكن قعر الوادي مغطى بطبقة من الترسبات الطينية الداكنة اللون يبدو انها انجرفت تدريجياً من الاماكن المرتفعة على جهتي الوادي . وتنبت على هذه الطبقة مجموعات من الاعشاب والشجيرات تشكل ملجأ للغزلان والطيور . وتمر طرق السيارات من البصرة والكويت الى قسيم في بطن البطين . ويلتقي طريق الكويت بالوادي في رقيع .

ضليعة المعيجل

وهذه سلسلة من التلال الواطئة في منطقة مختلف على ملكيتها . وتقع بـــين الكويت وبـــين دوحة بلبول في الاحساء . وهذه المنطقة هي الآن في المملكة العربية السعودية ولكن الكويت تدعي ملكيتها . وتتجه هذه السلسلة من الشرق الى الغرب بـــين آبار حض في منطقة السدى وآبار الصفا في ثمن . ويبلغ طول السلسلة ٣٠ ميلاً وتضم ضلعة الكبريت او أبرق الكبريت كما تعرف عمومـــاً . ويظهر ان مناطق دبدبه وثمن والشق تلتقي عند نهاية السلسلة من الغرب . والى الجنوب منها توجد الأماكن التالية :

جاريه عليا : وهي آبار عذبة الماء عمقها ١٢ قدماً وتبعد ٢٠ ميلاً الى الشمال الشرقي من وبره . وفي سنة ١٩٢٠ بنيت هناك قرية وقـــد بناها سلف تراحيب ابن شقير الدويش من الدوشان وهم العائلة الحاكمة في مثير . ويستخدمها تراحيب

اليوم كمقر دائم له .

وفي القرية اليوم مسجد ومدرسة ولها أمير يسكن في قلعة كبيرة فيها حامية قوامها ٢٠٠ رجل وفيها محطة اذاعة .

جاريه سفلى : وهي آبار ذات مياه عذبة على عمق ٢٠ قدماً وتبعد ١٤ ميلاً عن جاريه عليـــا الى الجنوب الشرقي . وهنالك مقر سعود ابن حايف الفقم شيخ السهبه من عائلة مثير .

قصوان : وهنا أيضاً توجد مياه عذبــة في آبار على عمق ١٨ قدماً . وتبعد قصوان عن جاريه سفلى حوالي ١٥ ميلاً شرقاً جنوباً وحوالي نفس المسافــة الى الشمال من النعيريه على رأس وادي المياه في الاحســاء .

الدبدبـــــه

الدبدبه منطقة واسعة تقع بين الشق في الشرق والشقاق في الشمال والباطن في الشمال الغربي وتنتهي من الجنوب قرب سلسلة المسناة ، وتمتــد قليلاً الى الشمال ابعد من خط العرض الذي تقع عليه مدينة الكويت ، ويبعد طرفهـــا الشمالي حوالي ٣٥ ميلاً عن جوره غرباً . ويبلغ طولهــا الاجمالي نحو ١٠٠ ميل وعرضها ٥٠ ميلاً . ويقع على الجهة الغربية من الباطن بمحاذاة دبدبة الكويت اقليم دبدبه العراقي .

والأعشاب السائدة في هذه المنطقة هي الحمض ولكن هنالك بعض أعشاب النصي والعوسج . وهنالك نبات يدعى رجلة بنمو بكثرة في دبدبة وعلى الأخص على أطراف الباطن . وهذا النبات لا يوجــد في اي مكان آخر في الكويت . ويحمل هذا النبات ثماراً كالفقاقيع يشبه طعمها طعم البصل الحلو ويحبه البدو وله كذلك أزهار جميلة .

جزيرة فيلكـه

ويلفظها البحارة الانكليز « فيليشه » كما يفعل السكان المحليون . ويبلغ طول

الجزيرة سبعة أميال وأقصى عرض لها ثلاثة اميال ، وتقع على الجهة الشمالية من مدخل خليج الكويت . والجهة الغربية منها وهي الأقرب الى مدينة الكويت تبعد حوالي عشرة اميال الى شرق الشمال الشرقي من رأس العرض ، بينما يبعد طرفها الشمالي حوالي سبعة اميال الى الجنوب الشرقي من مصب خور صبية .

والجزيرة من حيث الشكل كأسفين رأسه الى الجنوب الشرقي وقاعدته الى الشمال الغربي . وهي منخفضة إجمالاً ولكن أعلى نقطة فيها مرتفع علوه ٣٠ قدماً يقوم في اقصى الجهة الغربية من الجزيرة على ارض رملية موحلة فيها اماكن صخرية ، تدعى ضروب وتمتد من مدخل خور صبية باتجاه الجنوب الشرقي .

وهنالك جزيرتان صغيرتان بجانب فيلكه هما : عوحه (١) وهي جزيرة رملية تبعد ثلاثة أميال عن الطرف الجنوبي الشرقي لفيلكه حيث تنتهي ضروب ، وجزيرة مسخان (٢) الرملية الواطئة التي تبعد ميلين عن فيلكه باتجاه خور صبيه .

وتختلف التقديرات حول سكان جزيرة فيلكه ولكنه يبدو ان عددهم لا يتجاوز ١٥٠٠ شخص . والمدينة او القرية الرئيسية فيها تدعى زور وتقع على الشاطىء الشمالي الغربي للجزيرة بمواجهة مسخان .

والمكان الآخر المأهول في الجزيرة هو قرينية على الشاطىء الشمالي وتبعد عن زور ثلاثة اميال إلى الشمال الشرقي . ويملك الشيخ محمد الجابر الصباح منزلاً هناك يحل فيه أفراد عائلته وقتاً قصيراً . وكان والد الشيخ محمد الجابر حاكماً للجزيرة اما اليوم فيحكمها امير يعينه ويدفع له راتبه شيخ الكويت .

ان حوالي ثلث الأراضي المزروعة في الجزيرة معفي من الضرائب اما اصحاب الأراضي الباقية فيدفعون الزكاة إلى شيخ الكويت بمعدل عشر الانتاج الاجمالي . وإلى جانب ذلك يأخذ سموه كل تبن الجزيرة بما في ذلك تبن الأراضي المعفية باستثناء كمية صغيرة يسمح للسكان الاحتفاظ بها كعلف لماشيتهم .

ولا يسمح لتجار الكويت الاثرياء ولا للاجانب بالاقامة في فيلكه على اساس انهم قد يظلمون السكان الأصليين .

ان اغلبية أهالي زور يعملون في صيد الاسماك وعدد ضئيل منهم يعمل في

صيد اللؤلؤ . وينتسب هؤلاء السكان الى أصول مختلفة ويقال ان معظمهم اتوا من جزيرة خرق بالقرب من الشاطىء الإيراني (1) ، وان بعضهم اتوا من الفاو قرب مصب شط العرب ، ومن مقاطعة هنديان في إيران ، وحتى من عمان . وهم قوم مهذبون وأحوالهم لا بأس ولكنهم خياليون يأخذون بالخرافات . وكانت احوالهم في الماضي مزرية بائسة ولكن الأمور اليوم في عهد سمو الشيخ عبدالله السالم تبدلت نحو الأفضل . فقد تم مؤخراً بناء مدرسة ومسجد ومستشفى في زور وانشئت بلدية نشيطة .

وتوجد مياه صالحة كثيرة في انحاء مختلفة من الجزيرة وعلى عمق ستة اقدام فقط . وهذه المياه افضل من مياه الآبار في ضواحي مدينة الكويت ، ويقال انها أقل ملوحة قرب الشاطىء منها في الداخل .

وموارد جزيرة فيلكه هي صيد الاسماك والزراعة على نطاق متواضع . وتملك زور ٥٠ أو ٦٠ زورقاً للصيد هي على العموم أصغر من تلك الموجودة في مدينة الكويت ، و ٢٠ أو ٣٠ من الحواري وهي زوارق صغيرة تحمل على ظهر زوارق اكبر .

وبعد ان يقتطع البحارة مأكلهم ، يقسم الصيد إلى حصص متساوية تذهب إحداها إلى شيخ الجزيرة واخرى إلى صاحب الزورق وواحدة إلى القبطان ثم واحدة لكل من البحارة .

وعندما يكون منسوب المياه جيداً تكون المحاصيل من القمح والشعير ناجحة . ويقال انه يزرع في الجزيرة سنوياً حوالي عشرة آلاف رطل من القمح ، وان المحصول الاجمالي من الحبوب يبلغ ٥٠ طناً . وبعد ان تؤخذ الضرائب يقسم الباقي بين الزارع من جهة وصاحب البذار ومواشي الفلاحة والعلف من جهة أخرى . يبدأ الزرع في تشرين الأول ويبدأ الحصاد في نيسان . ويزرع أهالي الجزيرة ايضاً البطيخ والعدس وخضار عادية كالبصل والجزر والفجل .

وفي زيارة قامت بها زوجتي للجزيرة سنة ١٩٤٦ وجدت ان هناك أشجار نخيل فتية في زور وقريتيه وكلها مثمرة . ووجدت كذلك أشجار التين والكينا

(1) هرج

والبمبر والسدر والحناء . وهنالك أنواع من السدر لا توجد نواة في ثمرتها . ولكن أشجار النخيل اليوم وأغلبها نحو الجهة الجنوبية الغربية من الجزيرة ، ليست بحالة جيدة .

أما الأزهار في فيلكه فتشبه تلك التي تنمو في بوشير بإيران . وهنالك أربعة أنواع على الأقل ليس لها وجود في البر . وهنالك أيضاً عدة شجيرات من الورد الجوري ، والطحالب البيضاء الكبيرة المسماة زبيدي تنمو بكميات كبيرة حيث يوجد النبات الصحراوي المسمى رقرق الذي ينمو في بعض الأماكن على بعد ١٠ أو ١٥ ياردة من البحر .

وليس في الجزيرة أفاع أو ثعالب أو ذئاب والسكان لا يقتنون الكلاب .

وتمتاز فيلكه بخرائبها القديمة وبقبورها ومزاراتها . ومن القرى المهدمة صبيحيه التي تقع على الشاطىء الجنوبي الشرقي على بعد حوالي ميلين ونصف الميل من طرف الجزيرة الجنوبي . وعلى بعد ميل ونصف الى الشمال الشرقي من زور يوجد مكان مهجور يدعى سعيدي وأبعد من هذا المكان بميل واحد يوجد مكان مماثل يدعى دشت .

وينتشر حول زور ٦٠ أو ٧٠ قبراً من قبور الأولياء الذين يشكلون جزءاً كبيراً من قوات الجزيرة وتقاليدها . فإلى مسافة ميل جنوبي زور يوجد قبرا سعد وسعيد . ويقع قبر سعد الى غرب قبر سعيد .

وكلما اقترب المرء من جزيرة فيلكا بالزورق قادماً من الكويت تبين له القبران بصورة ظاهرة مميزة .

ويقال ان هذين القبرين بنيا تخليداً لذكرى اخوين واختهما قتلوا في ذلك المكان . ويقصدهما الحجاج من اليمن والهند ومن افغانستان وبلوخستان . وهنالك قبر آخر يقصده الحجاج وهو قبر محمد البدوي الذي يحظى بهذا التقدير فقط لأن اصبعه قاومت انتزاع الخاتم منها بعد مماته .

واخيراً ، وعلى بعد ثلاثة ارباع الميل الى الشمال الشرقي من زور ، هنالك مزار يدعى مقام الخضر . ويختلف العلماء المسلمون حول ما إذا كان الخضر نبياً

أم لا ، حتى ان بعضهم ينكر وجوده أصلاً . ويقول بعض المعلقين ان الخضر ما هو إلا النبي الياس الذي يعتقد انه كان حياً زمن ابراهيم ورافق موسى ولا يزال حياً متى شرب ماء الحياة .

ومن الروايات المحلية التي تروى في الجزيرة أن الخضر انتقــــل من صخرة في المكان الذي تقع عليــــه اليوم الإرسالية الأميركية ، الى مكان المزار في خطوة واحدة . ويقال إن آثار قدمه والمكان الذي غرز فيه عصاه لا يزالان مطبوعين في الصخر على الشاطىء قرب المقام .

وقد وجدت زوجتي على الصخر هناك فعلاً آثار أقدام جمل ، وثلاثــة آثار لقدم لرجل حافية وواحدة لرجل منتعل ، وعدة آثار لأقدام أطفـــــال . والى جانب ذلك وجدت اربعة آثار تبدو كأنها لحيوانات مـــا قبل التاريخ . ثلاثة منها يبلغ طول الواحدة ١٢ بوصة ويبلغ طول الرابعة ١٦ بوصة . وهنالك ايضاً آثار اقدام بشرية كبيرة يبلغ طول الواحدة منهـــا ١٨ بوصة ولكنها لم تكن واضحة .

وتعتقد زوجتي ان هذه الصخور كانت جزءاً من أرض طينية مستويـــة في وقت من الاوقات طبعت عليهـــا آثار اقدام الإنسان والحيوان وتحجرت مع العصور واحتفظت بشكلها .

وفي مقبرة قرب مقام الخضر توجد قبور ضخمة الحجم تبلغ المسافة فيها بين الأحجار الموضوعة على الرأس وتلك التي على القدم حوالي خمس ياردات ونصف .

ولا يزال بعض الشيعة من سكان الجزيرة يعتقدون بالقصة الواهية القائلة ان الخضر ينتقل من مقره قرب البصرة الى مكة كل يوم اربعاء ويقضي يوم الخميس في جزيرة فيلكه ويعود يوم الجمعة في نفس الطريق . ولذلك فالمرأة التي تريـــد أطفالاً يجب ان تحضر الى مقام الخضر في اليوم المناسب فتتحقق امنيتها . وغالباً ما تذهب فرق من النســاء في نزهة من الكويت الى فيلكه لهذا الغرض . ويقطب حكام الكويت جباههم تجاه هــــذه الاساطير ويعملون جهدهم لإيقاف هــــذه النزهات .

واغلبية سكان الجزيرة يؤمنون بوجود شيطان شرير يدعى بودريا الذي يقال انه يجوب البحر حول الجزيرة وخاصة بينها وبين مسخان بستدرج من لا حمى لهم الى الاعماق ويغرقهم .

ويؤمن آخرون بشاهو الذي يصفونه بأنه يشبه امرأة لها اقدام حمار وتشبه سيقانها الساقين الاماميتين للبقرة وشعرها كشعر الجمال . ويقول هؤلاء ان شاهو موجود في مدينة الكويت أيضاً .

وهنالك قصة ، تؤيدها آثار حصن في قرينية وبيوت حجر جيدة في وسط الجزيرة ، وهي ان البرتغاليين احتلوا فيلكه في وقت من الاوقات واخـذوا يتاجرون من هناك مع بر الكويت . ويقال ان طاعوناً من الجرذان أرسله عليهم الاولياء طردهم من دشت في البداية ثم من اواسط الجزيرة حيث تراجعوا .

الحفر الباطن

وهو مكان مهم للتوقف فيه مجموعـة من الآبار في قسم الباطن من وادي الرماح (١) . والحفر جزء من المملكة العربية السعودية ويقع على بعـد حوالي مئة وستين ميلاً الى الغرب فالجنوب الغربي من مدينة الكويت . ويبلغ عـدد الآبار فيه حوالي الاربعين ولكن في الوقت الحاضر ١١ منها فقط فيها مياه . وهـذه الآبار منتشرة في بطن الباطن وتتراوح أبعادها عن بعضها البعض بين مئة يارده وربع ميل وهي لذلك تشكل سهلاً دائرياً قطره ثلاثـة أميال . وتقع كل بئر وسط مرتفع يبلغ علوه عشرة أقدام هي الاتربة التي ازيحت عنـد حفر البئر (وذلك يشبه آبار الرمال في الجهة الجنوبية الغربية من الدهانه قرب الرياض) .

وقد بني جدار حجري حول الآبار ويبلغ عرض فوهة كل واحدة منها ستة أقدام . ويبلغ معدل عمقها الى المياه ١٥٠ قدماً ولكنها اذا تركت وشأنها مدة من الزمن يرتفع مستوى الماء حوالي ٢٠ قدماً . ومياه هذه الآبار حارة نوعـاً ففي الصباح عندما يكون الجو قارس البرد يمكن المرء ان يشاهد البخار يتصاعد من الآبار .

ويعود تاريخ آبار الحفر الى زمن قديم جداً وربما كانت تقع على خط التجارة الرئيسي بين مدينة جرا القديمة (عقير اليوم) وفلسطين . وليست لدى البدو القاطنين هناك فكرة عن تاريخ الآبار أو حافريها ولكنهم يقولون انها تعود الى أيام الجهل أي الجاهلية قبل الاسلام .

وفي هذه الأيام تدعي عائلة بريح من قبيلة مثير ملكية الآبار مع ان قبائل أخرى تستخدمها في بعض الاحيان . ولو ان عمقها أكثر ملاءمة لكانت تقصد أكثر مما هي اليوم .

والحفر من المراحل المعترف بها في الطريق بين الكويت والبصرة وبين قسيم ولها أمير وفيها حامية من ثلاثة رجل وقلعة كبيرة حمراء اللون بنيت عام ١٩٣٦ . وفيها اليوم أيضاً مدرسة ومسجد ومحطة لاسلكي .

وفي الحفر يلتقي تجويفان بالباطن واحدهما من الشمال والآخر من الجنوب . ويدعى الأول فليج الشمالية ويسير نحو سلسلة آبار تتجه شمالاً الى طوال الظافر وأول هذه الآبار يدعى الدليميه . أما التجويف الثاني فيدعى فليج الجنوبية وهو أيضاً يسير نحو سلسلة آبار تتجه الى الجنوب الغربي وتدعى طوال المثير . وأول هذه الآبار يدعى صفا في ممن . واليوم تمر أنابيب التابلاين جنوب الحفر تماماً ، ومحطة الضخ رقم ٣ تبعد فقط ١٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقي عن الحفر في قلب منطقة قيسومه .

الحزايم

وهي جزء من المنطقة المحايدة يضمها البحر من الشرق ومنطقة الصلو من الشمال ومنطقة الشق من الغرب ويشكل جدول المقطع حدها الجنوبي ويفصلها عن سهل لبيبه .

ويبعد وسط منطقة الحزايم حوالي ٦٠ ميلاً جنوباً غرباً عن مدينة الكويت . والحزايم عبارة عن سهل كبير بدون أشجار ولكنه لا يخلو من الأعشاب التي تتغذى عليها الجمال . وتربته جامدة قاتمة اللون وخالية من الصخور . وفي طرفه

الجنوبي قرب جدول مقطع توجد أرض سبخه وهي عبارة عن مستنقع كثير الملوحة .

وتضم الحزايم الأماكن التالية :

أقربيات : وهي آبار على مرأى من البحر قرب حــدود الحزايم الشمالية ، يبلغ عمقها ١٢ قدماً وتختلف نوعية الماء فيها باختلاف كمية هطول الأمطار .

أطارش : وهي آبار صالحة الماء عمقها ١٢ قدمــاً تقع الى غرب وقليلاً الى شمال أصيله .

ضلعة الأشعري : وهي آبار فيها مياه جيدة على عمق تسعة أقدام وتبعــد مسافة قصيرة الى الجنوب عن رافعية .

مراغه : وهي تلة مخروطية الشكل وآبار تقع عنــد منتصف حدود الحزايم الغربية على بعد ٢٠ أو ٢٥ ميلاً غرباً شمالاً من مصب جدول المقطع و ١٠ أو ١٥ ميلاً الى الجنوب الشرقي من وفره . ويبلغ عمق الآبار تسعة أقدام ولكن مياهها ليست جيدة .

قمح : وهي آبار فيها مياه ذات نوعية سيئة على عمق ١٢ قدماً . وهي قريبة من شاطيء البحر وتبعد ميلين فقط عن أقربيات جنوباً .

رافعيه : وهي آبار فيها مياه لابأس بها على عمق ١٢ قدماً وتبعد حــوالي عشرة أميال غرب الجنوب الغربي من مصب جدول المقطع .

رغوه : وهي آبار ذات مياه مالحة على عمق ستة أميال وتبعد عدة أميال إلى شمال الشمال الغربي من رافعيه .

روحيه : وهي تلة مرتفعة تبعد خمسة أميال الى الغرب من وفره .

شظف : وهي آبار فيها مياه لا بــأس بها على عمق ١٢ قدما وتبعد سبعة اميال الى جنوب الجنوب الشرقي من وفره وتبعــد نفس المسافة إلى الغرب من مراغه . وبجوارها يقع تل مرتفع مخروطي الشكل .

طيب اسم : وهي آبار تقع على مسافة قليلة الى الداخل من قمح ومياهها بين العذوبة والملوحة .

اصيله : وهي آبار مياهها جيدة على عمق ١٢ قدماً وتبعد حوالي أربعة أميال الى الغرب مع انحراف قليل الى الشمال من رافعيه .

وفره : وهي مكان معروف تضرب فيه قبيلة آل عوازم خيامها وتبعد اكثر من ٦٠ ميلاً الى الجنوب من مدينة الكويت . وفيها آبار عديدة عمقها ١٢ قدماً ومياهها من نوعية وسط .

والذين يشكلون ام جنيب وهي منطقة صغيرة إلى غرب الهزايم ، يلحقون بها تلة زوجيه وابار شظف ووفره .

جهراء

تكتب وتلفظ عادة جهاره وهي قرية وواحة كويتية تقع على أقدام خليج الكويت على بعد ميلين الى الداخل وترتفع أربعين قدماً فوق سطح البحر وتبعد عن مدينة الكويت ٢٠ ميلاً. وهي المركز الزراعي الرئيسي في الكويت وأكثر الاماكن استراتيجية بنظر البدو . هواؤها جاف ومناخها صحي ومياه الشرب فيها ممتازة من الجهة الغربية .

تقع القرية في سهل رملي مكشوف تنتشر فيه الاعشاب يبعد ثلاثة أميال ونصف الى الجنوب الشرقي من الفجوة المعروفة بمر مطلع في تلال الزور والتي تسير فيها السيارات وقوافل الجمال في الطريق المباشر من الكويت الى البصرة .

والى جهة الغرب والجنوب الغربي ترتفع الصحراء تدريجياً عن القرية . وعلى بعد ميل الى الشمال منها يقع سهل يدعى مريقبه يخيم فيه البدو في الصيف ويضم آبار ماء عمقها ١٢ قدماً .

وتقع جهراء داخل مدى نيران المدفعية في تلال زور ولكنه بسبب ضحالة المياه على شواطيء خليج الكويت ، يتعذر مساندتها بفتح النار من البحر .

ويملك شيخ الكويت هناك مسكناً يدعى قصر الأحمر وسمي كذلك لأن جدرانه حمراء اللون . ويبعد القصر أكثر من نصف ميل عن القرية الى جهة الجنوب الشرقي خارج المنطقة الزراعية وتفصله عن اقرب بستان من بساتين

القرية طريق فقط . ويبلغ طوله ٨٠ ياردة وعرضه ٨٠ وفيه ابراج على الزوايا الاربع وفوق المدخل الرئيسي الذي يواجه الشمال الغربي . وتبلغ سماكة جدرانه من الاعلى قدمين وارتفاعها ١٥ قدماً ترتفع الابراج فوقها مسافة ثمانية اقدام .

وجدران القصر وابراجه مليئة بالثقوب خصيصاً لاطلاق النار ولكن تلك الثقوب صغيرة وغير منتظمة بحيث ان مدى اطلاق النار منها قصير محدود . ولا توجد في القلعة بئر ذات مياه صالحة للشرب مما ادى الى وقوع كارثة اثناء القتال سنة ١٩٢٠ . وفي تلك الاثناء كان حول القصر سور عال يصل الى الطريق مما ساعد الاعداء على التواري وراءه وكان لهم بمثابة غطاء منع عنهم الرصاص . وقد دمر هذا السور منذ ذلك الوقت .

وفي القصر اسطبلات تكفي لايواء مئة حصان وهي تستخدم اليوم للاعتناء بالخيول الاصيلة التي يملكها سمو الحاكم .

وبعد معركة عام ١٩٢٠ اخليت القرية من السكان تماماً لمدة أسابيع وعندما عاد السكان اليها بني حولها سور جديد وهدمت بعض المنازل التي تقع وراء السور حفاظاً على شكل القرية . وهي اليوم تبدو مستطيلة الشكل تقريباً طولها حوالي ستماية ياردة وعرضها خمسماية . ويتجه الجانبان الطويلان منها الى الجنوب الغربي والشمال الشرقي .

وقبل مماته كان الشيخ سالم ابن مبارك الصباح ينوي بناء قلعة صغيرة بين الجهراء ورأس الخليج وذلك لحماية سكان الانزال في الخليج فيما لو تعرضت الجهراء لحصار آخر مما يسهل قدوم الامدادات من الكويت عن طريق البحر . وقد صرف النظر عن هذه الفكرة اليوم نظراً لاستتباب السلام بين الكويت والمملكة العربية السعودية .

وأغلبية السكان الدائمين في الجهراء هم مزارعون نجديون يزرعون الأرض التي يملكها سمو الشيخ وتجار الكويت وأقارب عائلة النقيب في البصرة . ومنازل القرية التي يبلغ عددها حوالي ١٩٠ منزلاً مبنية من الطين وتضم حوالي الف نسمة . وتكثر خيمات البدو خارج جدران القرية في الصيف وتشاهد بعض الخيمات

بجوارها في الشتاء .

إن محاصيل الجهراء من البيض والدواجن محدودة ولكن فيها كثير من الغنم والماعز وفيها عدد من الأبقار يكفي لسد حاجات السكان من الحليب . ووسائل النقل المحلية فيها تتألف من حوالي مئة حمار ولكنه بالامكان استئجار الجمال من البدو . وكما ذكرنا آنفاً فان جهره بالأساس مركز زراعي وكل أراضي الشيخ المزروعة تقريباً تنحصر هناك .

وليس هناك مقياس ثابت لقسمة المحاصيل بين صاحب الأرض والمزارعين . والمحاصيل الرئيسية هي القمح والشعير والعدس. وتنتج الجهراء من الشعير ضعفي ما تنتجه من القمح ويبلغ ذلك الانتاج في سنة إقبال اكثر من ٥٠٠ طن . ويزرع القمح « الذي يدعى حنطة أو حب» في أوائل ايلول ويحصد مع الشعير في أوائل آذار . ويقطع جزء من الزرع وهو أخضر « كما في الهند » ليقدم علفاً للمواشي ويدعى قصيل . وأحياناً يقطع الشعير مرتين لهذا الغرض قبل ان ينضج» ولكن القمح نادراً ما يعامل بهذه الطريقة إلا في سني الاقبال . والجت(١) الذي يزرع هناك ذو نوعية ممتازة ويزرع في نفس الأرض لأربع سنوات متتالية تترك الأرض بعدها بوراً لمدة سنة واحدة .

ومن المحاصيل الأخرى في الجهراء البطيخ الأصفر والبطيخ الأحمر ويدعى « رقي » . وهذه المحاصيل تزرع مرة في السنة وتنضج في أواخر تشرين الأول ويستمر موسمها شهراً كاملاً . والكميات التي تزرع قليلة بحيث انها لا تكفي لتصديرها الى مدينة الكويت . ولكن القرع يبدأ في كانون الأول ويستمر مدة ثلاثة أشهر وهو يصدر الى الكويت . وتنضج الباقيلا في شباط ولا يزرع منها إلا ما يكفي لسد حاجات القرية . ويبدأ موسم البصل في نهاية كانون الأول ويستمر حتى الربيع . ويبدأ الفجل « ويدعى رويد » في وقت مبكر من السنة ويستمر الى ما بعد موسم البصل . ويزرع البقل من جديد كل سنة ويعطي ١٦ موسماً في الفصل الواحد . وهنالك مواسم قصيرة الأمد للحلبه والرشاد . أما الباذنجان الذي يدعى في الهند برنجال وفي الجزيرة العربية بيتنجان « والباميه »

والبندورة ، فتأتي في وقت مبكر من السنة ولا تدوم طويلاً ولكنها تصدر الى مدينة الكويت .

وتوجد في جهره حوالي ٢٠٠٠ شجرة نخيل تعطي سنوياً حوالي ٢٥٠٠ طن من التمر يؤكل معظمها وهو رطب . ويعتبر بستان السيد خلف وهو أحد أقارب عائلة النقيب في البصرة ، انجح بساتين النخيل في القرية . وفيما عدا ذلك لا توجد أشجار أخرى باستثناء بعض شجيرات السدر .

ويصدر الى الكويت سنوياً من جهره حوالي ٣٠ طناً من الحبوب فقط . ويمكن توسيع نطاق الزراعة في القرية الى حد كبير فيما لو استثمرت فيها رساميل كافية .

وكل المحاصيل التي ذكرناها تعيش على الري وتزرع في مساكب ضمن جدران واطئة من الطين . وكان ارتفاع هذه الجدران في السابق يبلغ ثمانية أو تسعة أقدام ولكنها خفضت بعد حركة جهرة عام ١٩٢٠ كجزء من مخطط الدفاع عن المكان .

وهنالك بديل اقتصادي لهذه الجدران وهو ما يسمى خدد وهو عبارة عن خندق عمقه قدمان وعرضه قدمان وعلى جانبيه حافة رملية يبلغ ارتفاعها قدم واحد . وتقع غالبية البساتين في الجهة الجنوبية الشرقية من القرية بينها وبين قصر الأحمر . ويعتمد قسم ضئيل من زراعة القمح والشعير على مياه المطر ولكن ذلك لا يقارن بالمساحات التي تروى بمياه الآبار .

ويبلغ عدد آبار الري ١٩ بئراً معدل عمقها ٢٠ قدماً . وترفع مياهها ، وهي مالحة قليلاً ، بواسطة قرب جلدية تجرها الحمير ، وبواسطة مضخات ميكانيكية . وتدعى رافعة الماء عرجية والقناة التي يجري فيها الماء تدعى ساقية . واحياناً تجمع المياه في برك مرتفعة لكي يسهل جريانها الى الأراضي المزروعة . وهنالك أيضاً ما يدعى شرب وهي عبارة عن قطعة أرض صغيرة تجمع فيها مياه الري قبل اطلاقها الى مستوى أكثر انحداراً .

وتدعى المزروعات التي تزرع في وقت متأخر صيف . أما انواع الأراضي

الزراعية الرئيسية فهي : حرا وهي أرض ذات تربة خصبة ، ودبم او الأراضي الواقعة على حافة خبرا وهي مياه الأمطار المتجمعة ، وحزام وهي أرض صخرية ، وسبخة وهي مستنقعات كثيرة الملوحة وغير منتجة .

ان اكثر الأدوات الزراعية شيوعاً هي محراث بدائي يدعى اذدان، ومجرفة حديدية قصيرة اليد تدعى سخين وتستخدم في شق الأقنية وفتحها واغلاقها ، والمسحاة التي تستخدم لتسوية الأرض . والخيال عبارة عن هراوة يعلق عليها الراعي رداءه المسمى بيشت ليحفظ تجمع اغنامه ويمنعها من التفرق . وتستخدم ايضاً كخيال في المناطق المزروعة لابعاد الطيور .

ولشيخ الكويت وكيل يهتم ببساتينه ويكون بمثابة أمير او ممثل خاص اذا لم يكن أحد من شيوخ العائلة مقيماً هناك . ويعتبر الشيخ في الجهراء مهماً ونافذاً في أراضيه ليس فقط لمواردها الزراعية ، ولكن للنفوذ الكبير الذي يتمتع به مالكها والسيطرة التي تعطيه اياها على عدد كبير من البدو يخيمون بجواره في الصيف . وهي فضلاً عن ذلك تسيطر على طريق البصرة .

وهنالك أماكن تحمل اسماء ولكنها ليست تتبع أياً من التقسيمات المعترف بها في الكويت وهذه الاماكن هي :

بحر اطراف : وهو عبارة عن مرتفعات متباعدة قليلاً وكأن ما بينها مجاري ماء جافة عميقة . ويبعد هذا المكان حوالي عشرة أميال الى غرب الجنوب الغربي من الجهراء ويشكل الطرف الغربي لتلال زور .

فريده : وهي تلة طويلة معزولة ومنفردة تبعد ١٢ ميلا الى غرب الجنوب الغربي من جهره .

خبرة البعل: وهي بركة طبيعية تبعد أربعة أميال عن جهره الى جهة الجنوب الغربي ، وتتلقى المياه التي تنحدر من الصحراء باتجاه الجهراء . وفي المواسم المناسبة تزرع فيها بعض المحاصيل المتفرقة من القمح والشعير .

حد السعادة : وهي سلسلة عالية من المرتفعات تمتد من الشمال الى الجنوب وتبدو بيضاء اللون عن بعد وتقع الى جنوب طريق الجهراء — رقيع على بعد ٢٥



جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود
ملك المملكة العربية السعودية الراحل



جلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود
الملك الحالي للمملكة العربية السعودية

ميلا تقريباً عن الجهراء . ومن الجهراء الى خد السعادة المناطق كلها في ارتفاع . وفي نقطة على الخط المباشر بين جهره ورقيبع تبعد ٢٠ ميلا عن الجهراء غرباً تقع تلال كلسية بيضاء تدعى « قبلولة » أو « قبيليلة » .

روحيه : وهي تلة يبلغ ارتفاعها ٤٠٠ قدم وتبعد عشرة اميال الى جنوب الجنوب الغربي من الجهراء .

تميلة الجويسري : وهي مركز تجمع مياه معروف يبعد ستة اميال شمال غربي بمر أطراف ، وتتحول في أيام الشتاء الى بركة كبيرة .

ام التوينيج : وهي سهل مرتفع على شكل سلسلة طويلة منحنية بين اطراف وفريده ويتجه الى الجنوب الشرقي ثم الى الشرق من فريده ، وتوجد في هـــذا السهل واحدة او اثنتان من الخباري أي البرك الصغيرة في الشتاء وبقايا مساكن .

أم روس : وهي تلة ذات ثلاثة رؤوس تشكل علامة فارقـــة على بعد ١٥ ميلا الى جنوب الجنوب الغربي من الجهراء .

الكبد

مكان يبعد حوالي ٣٠ ميلا الى الجنوب الغربي من مدينة الكويت بين منطقة قرعه في الشرق ومنطقة الشق في الغرب . وتتألف تلال الكبد من حزام من الاراضي المرتفعة تمتد من الشرق الى الغرب على مسافة عشرة أميال .

والى جنوب الكبد مباشرة تقع سلسلة مرتفعات موازية تدعى كبيده توجد الى شرقيها آبار تدعى جاهلية وعبدلية . وهذه الآبار تمون شركة نفط الكويت بالمياه اليوم . وإلى الشرق من هذه الآبار يقع رجم الجهتان وهي مكان مميز للبدو . وعلى بعد ٢٠ ميلا الى الجنوب من رجم الجهتان تقع فوارس في منطقة الكويت المحايدة وهي عبارة عن سهل صغير تنتشر فيه التلال الصخرية الصغيرة وهو اليوم مركز شركة النفط الأميركية المستقلة ، وهنالك خمسة تـــلال صغيرة في طرف كبيده الغربي تدعى مناقش وهي بيضاء بلون الثلج وقريبة من طريق السيارات بين الكويت والرياض تقع الى الجهة الجنوبية الغربية من حدود دولة الكويت .

كاظمه

ان اقصى الخدود في خليج الكويت الى الغرب من رأس عشيرج يعرف بدوحة كاظمة . والنقطة التي تمتد اليه من جهته الشمالية تعرف برأس الكاظمة . ويخف عمق الماء فيه تدريجياً من مدخله الذي يبلغ عرضه اربعة أميال وعمقه ست قامات في وسط القنال ، الى رأسه الذي يبعد تسعة اميال غرباً جنوباً عن رأس عشيرج وميلين عن قرية جوره. وهناك مرسى بمنجى من الرياح الشمالية يتسع لعدد كبير من السفن التي يبلغ عمق غاطسها ٢٤ قدماً . ولا توجد مياه عميقة على الشاطىء لذلك فان حمولة السفن تفرغ بواسطة الرافعات او على رصيف طويل يبنى الى داخل البحر .

ورأس الكاظمة عبارة عن مستنقع منخفض يمتد نحو نصف ميل جنوباً الى داخل الاخدود ويبعد ثلاثة أميال عن رأسه . وهو لا يرتفع عن سطح البحر ولكنه تحميه ضفة رملية طبيعية من جهة مياه البحر المرتفعة .

وخلال الحرب العالمية الأولى كانت تزور مرسى كاظمة مستشفيات عائمة تنقل جرحى الحرب من سفن صغيرة تستطيع عبور شط العرب . وكانت هذه المستشفيات العائمة تنقل الجرحى بدورها الى الهند . وكانت سفن أخرى تزور ميناء الكويت محملة بمرضى في دور النقاهة .

ومما يجدر ذكره ان المحطة النهائية لخط سكة حديد برلين –بغداد– البصرة الذي اثار كثيراً من اللغط قبل الحرب الأولى ، كانت ستبنى في رأس كاظمة . لأن الألمان كانوا يدركون في ذلك الوقت ان البصرة كميناء لن تكون ذات فائدة نظراً للتكاليف المتواصلة الناتجة عن استمرار جرف الأتربة من شط العرب . ولهذا تحولت أعين الألمان والأتراك إلى خليج الكويت الميناء الطبيعي للعراق . وهذا ما حدا بالاتراك سنة ١٩١٢ الى الضغط على شيخ الكويت في ذلك الوقت الشيخ مبارك الصباح لحمله على القبول .

وبما ان التاريخ يعيد نفسه أحياناً فانه قد يأتي يوم يحاول فيه العراق من جديد ، كما فعل الأتراك ، ضم الكويت اليه لجعله محطة لسكة حديد تصل البحر

بالداخل. وباتصال خط بغداد – الموصل بشبكة طوروس، وبانشاء الجسر المقترح عبر البوسفور، فان ذلك قد يحدث باسرع مما نتصور. وهنالك دلائل على ان بعض الاشخاص يفكرون بهذا الأمر ومنهم السير جون وارد مدير ميناء البصرة.

وقد عرفت شركة نفط الكويت اهمية كاظمة فانزلت معداتها الثقيلة هناك سنة ١٩٣٦، عندما حفرت اول بئر للنفط في بحره الى الجهة الشمالية من خليج الكويت.

البليبـــه

وهي سهل ذو اعشاب يقع في المنطقة الساحلية الى جنوب المنطقـــة المحايدة مباشرة. ويحدها من الشمال جدول مقطع ولذلك يمكن اعتبارها جزءاً من منطقة السدي. ويحدها من الجنوب جبل عمرده الذي يقع جزء منه في المنطقة المحايدة والجزء الآخر في المملكة العربية السعودية. وفي الوسط تقع تلة مرتفعة بيضاء مخروطية الشكل تعرف باسم جبل طيار.

المقطع

وهو جدول مياهه مالحة غير صالحة للشرب يقع في القسم الجنوبي من المنطقة المحايدة، ويشكل الحدود بين منطقة الخزام في الشمال وسهل لبيبه في الجنوب. وينبع هذا الجـدول من نبع يدعى عين العبد على بعـــد ١٥ ميلاً من الشاطىء ويصب في البحر شمال رأس الخفجي (١) مباشرة. ويبلغ عرض مجرى الماء فيه بين ١٠ و ١٢ قدماً ويبلغ عمقه قدماً واحداً. وعندما تكون مياهه مرتفعة تستطيع زوارق صغيرة ان تسير فيه مسافة قصيرة. ويسمى مدخله. ويسمى الجدول احياناً مقاطع وهي جمع مقطع.

لقد زرت عين العبـد سنة ١٩٣٤ وفي السنة التـالية وفي سنة ١٩٤٣.. فوجدت ان الف غالون من الماء تتدفق منها في الدقيقة الواحـدة. وهي عبارة عن انخفاض على شكل فنجان يبلغ قطره ٥٠ قدماً. ان رائحة مياه عين العبد كريهة نظراً لكثرة الكبريت فيها ولكنها نقية وقليلة العمق. ويقول البدو انه

من الخطر النزول إلى وسط العين لأن رمالها تتحرك بسرعة . وهنالك خرافة تقول ان رأس زنجي (عبد) يظهر وسط العين بعد مدة ومدة . وربما كان مرد ذلك إلى كتلة الوحول السوداء التي تقذفها الماء من وقت إلى وقت في مركز النبع . وقد شاهدت بنفسي هذه الظاهرة . ويعتقد البدو ان الأرواح تسكن المكان ولذلك يتجنبونه ويقول ان زنجياً نصفه بشر ونصفه جن يعيش في النبع وانه يشاهد مستلقياً في الشمس احياناً على ضفاف النبع . وهذا الزنجي يهاجم كل مسافر منفرد يتجرأ ان يقترب من عين العبد .

ومقطع هو اسم جزيرة أيضاً تابعة لدولة الكويت بالقرب من شاطيء السدى وتبعد ميلاً ونصف الميل الى الجنوب من حد المشعاب . ويبلغ طولها ميلين من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي وفيها صخور يتراوح ارتفاعها بين ٢٠ و ٥٠ قدماً وذلك في طرفها الشرقي . ولا توجد بين الجزيرة والبر قناة صالحة للملاحة وعندما يرتفع المد في الربيع تغمرها المياه الى حد بعيد .

قرعه

وهي ارض رملية مجدبة يحدها من الشمال خليج الكويت ومن الشرق البحر ومرتفع رأس العرض ومن الجنوب منطقة عدان ومن الغرب الكبد . وتضم قرعه الى جانب مدينة الكويت الأماكن التالية :

بدعه : وهي ارض صغيرة على الساحل وتبعد مسافة ميلين ونصف الميل الى الجنوب الغربي من رأس العرض .

شداديه : وهي آبار تبعد تسعة اميال الى الجنوب الغربي فالجنوب من مدينة الكويت على طريق الرياض الرئيسية . ومياه هذه الآبار ليست صالحة ويقول بعض المطلعين انها لا تقع في منطقة قرعه .

دمنه : وهي قرية كبيرة لقبيلة العوازم تقع على قاعدة شبه جزيرة رأس العرض في ضفة رملية واطئة تبعد ٢٠٠ ياردة فقط عن البحر وثمانية أميال الى جنوب الجنوب الشرقي من مدينة الكويت . وفيها مسجد و ٢٠٠ منزل ومدرسة

وبعض المنازل الجميلة للشيوخ . وفيها أيضاً عدة آبار بعضها فقط فيه ماء ولكنها قليلة الملوحة . ونظراً لأنها تتمتع بمناخ طيب فإن عدداً من شيوخ وأعيان مدينة الكويت أخذوا يبنون ضاحية حديثة بين دمنه ومنارة رأس العرض . وقــد استبدل اسم دمنه باسم سالميه سنة ١٩٥٣ .

حواني : وهي قرية كبيرة على بعد أربعة أميال الى الجنوب الشرقي مـن مدينة الكويت . فيها مدرسة ومسجدان وحوالي ٥٠٠ منزل وشبكة تلفون . وسكانها اليوم ينتمون الى القبائل العربية المختلطة التي تقطن مدينة الكويت ، وكلهم يعملون في زراعة الخضار كالبطيخ والفجل والبصل التي تباع في أسواق الكويت . وهنالك عدة آبار تستخدم مياهها في ري المزارع والبساتين . والى جنوب القرية يقع قصر بيان الذي كان المقر الريفي لحـــاكم الكويت السابق . والقصر الذي أصبح اليوم انقاضاً يضم مجلساً واطئاً ومسجداً ومبـــاني مستقلة للضيوف وجناح للخدم ، ويقع على ظهر تلة صغيرة تشرف على القريـة . ويملك الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح ابن الحاكم الراحل فيلا في حواني ، وكذلـك كبار تجار الكويت الذين ينتقلون الى هنـاك في الربيع . وبسبب توسع مدينة الكويت فانها قد تتصل قريباً بحواني التي ستصبح احدى ضواحيها .

ملح : وهي ١٥ بئراً على بعد ١٥ ميلا الى الجنوب من مدينة الكويت وثمانية أميال الى غرب قرية أبو حليفه على الساحل . ويبلغ عمق هذه الآبار القريبة من حقل النفط في مقوى، ٢٠٠ قدماً ومياهها مائلة الى الملوحة ولكنها صالحة للشرب . وكانت أراضي ملح تزرع في السابق وفيها بقايا حصن قديم .

مقوى : مكان يبعد ميلين عن ملح شمالاً فيه الحقل الأصغر من حقلي النفط التابعين لشركة نفط الكويت (٢٣ بئراً) وفيه ايضاً المستشفى الرئيسي ومركز التدريب . وهناك ايضاً عدة آبار واحد منها فقط يحتوي على مياه صالحة .

مشرف : وهي قلعة قديمة حولت الى قصر حديث يقيم فيه الشيخ عبدالله المبارك الصباح قائد جيش الكويت . ويبعد المشرف ميلـين عن قصر السرا جنوبا .

قصر السرا : وهو المقر الريفي للشيخ عبدالله الجابر الصباح مدير التعليم العام . ويبعد القصر ثمانية أميال الى جنوب الجنوب الشرقي من مدينة الكويت .

قليصيه : وهي ستة آبار على بعد عشرة أميال الى الجنوب الشرقي من مدينة الكويت وعلى بعد ميلين ونصف الميل عن الساحل . وفيها مياه جيدة على عمق ٢٧ قدماً لكنها لا توجد حولها زراعة .

رأس كيفان : وهي مجموعة آبار في الجهة الجنوبية من رأس العرض وحولها عدد من أكواخ الصيادين .

رميثيه : وهي قرية صغيرة مأهولة تبعد ستة أميال الى الجنوب الشرقي من مدينة الكويت .

ساليه : (راجع دمنه) .

شعب : وهو قصر أبيض كبير على الشاطىء يقوم في مكان هو نصف المسافة بين رأس العجوزه ورأس العرض (١) . وهناك يقيم صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم الصباح حاكم الكويت .

(١) الأرض

صليبيخات : وهي تلال رملية بيضاء مرتفعة تبعد ستة أميال الى الجنوب الغربي من مدينة الكويت على الطريق الى جهره . وبجوارها تقع محطة الكرنتينا الجديدة التي اقيمت سنة ١٩٥٢ واستخدمت مؤقتاً سنة ١٩٥٣ كمستشفى للأمراض الصدرية خاص بالنساء . وهناك أيضاً تقوم حالياً ضاحية حديثة للاوروبيين .

صليبيه: وهي أربع آبار عميقة للماء على بعد ميلين الى الجنوب من شداديه ، حفرتها شركة نفط الكويت لسد حاجات مدينة الكويت وحاجات البدو واغنامهم وجمالهم . ومياه هذه الآبار مالحة قليلاً ولكنها تصبح صالحة للشرب والاستعمال عندما تخلط بخمسين بالمئة من المياه المقطرة .

عديليه : وهي أرض عريضة منخفضة قليلة العمق فيها ست آبار على بعد ثلاثة أميال من مدينة الكويت جنوباً . وعندما تهطل فيها أمطار الخريف تنجح فيها زراعة القمح جداً .

ورأس العجوزه ورأس العرض أيضاً من الاقسام الساحلية لمنطقة قرعه .

قصر مشرف

وهو في الأصل حصن يبعد ثمانيـــة أميال جنوب جنوب شرقي الكويت ويحمي المسالك الجنوبية الى المدينة . وقد بناه الشيخ مبارك الصباح سنة ١٩٠٠ وكان يقيم فيه احياناً . وفي السنوات القليلة الماضية ادخل ابنه عبدالله تحسينات عليه واعاد بناء بعض أجزائه بدون حساب للنفقات لذلك فهو اليوم من اعظم القصور في الجزيرة العربية فيـــه غرف استقبال فخمة وقاعات طعام تستطيع استيعاب ٣٠٠ رجل في جلسة واحدة . وقد اضيف اليه مؤخراً مسجد رائـع وبنيت عدة غرف نوم للضيوف مجهزة بأحدث وسائل الراحة .

ويزود القصر جزئياً بمياه صالحة ووافرة من آبار يتراوح عمقها بين ٦٠ و ٧٠ قدماً . وعلى مرتفعات الظهر التي تبعد ١٢ ميلا الى الجنوب وقليلا الى الشرق من قصر المشرف مقابل فنطاس (١) ، توجد آبار تلة العتول التي سميت كذلـــك نسبة الى عائلة من قبيلة عجمان ومياه هذه الآبار أيضاً جيدة .

ويقضي الشيخ عبدالله المبارك الصباح معظم أيام السنة في قصر المشرف .

قرين

وهي اسم جزيرة صغيرة في خليج الكويت واسم تلة كبيرة معزولة في البر ، في الوقت ذاته .

وتدعى الجزيرة أيضاً جزيرة الشويخ وهي تبعد عن الشاطىء ميلا ونصف الميل في نقطة تبعد أربعة أميال عن مدينة الكويت غرباً . وفي طرفهـا الغربي مرتفع بني اللون يبلغ علوه ٢٧ قدماً . والى الجنوب الشرقي من الجزيرة بينهـا وبين شاطيء الكويت حوض يدعى بندر الشويخ تقصده الزوارق لتحتمي فيه من كل الرياح . ويبلغ عمق الماء في هذا الحوض ثلاث أو أربع قامات .

ويتصل بندر الشويخ بالخليج الكبير بمضيق طويل ضيق لا يزيد عمق الماء في مسافة منه تبلغ ٤٠٠ ياردة ، عن ١٢ أو ١٣ قدماً عندما تنخفض الماء في الربيع. ويبدو ان هذا العائق هو من الصخور التي لا يمكن ازالتها بسهولة . ولكي يتاح للسفن الكبيرة المرور في القنال يجري حالياً جرف الرمال منها (هذا الكلام سنة ١٩٥٣) وربما اتخذ الاسم الانكليزي القديم للكويت « غراين » من اسم هذه الجزيرة .

أما تلة قرين فتقع في اقصى جنوب دولة الكويت على حدود المنطقة المحايدة وتبعد عن مدينة الكويت ما يزيد عن ٤٠ ميلا جنوباً وحوالي ١٤ ميلا عن شاطىء البحر . وهذا الاسم يشمل عدداً من الآبار ومنخفضاً يعرف بخور القرين يقع الى جنوب شرق التل بينه وبين البحر .

وتنمو في هذا المنخفض الذي يمتد ستة أميال في كل اتجاه اعشاب وشجيرات كثير . ومع انه يدعى خور أي مدخل بحري ، لكنه يبدو انه ليس له اتصال بالبحر . وتتجمع فيه مياه الامطار في فصل الشتاء وتشكل مستنقعاً مالحاً قرب آبار قرين . وتقول بعض المصادر المطلعة ان تلة قرين فقط وليست الآبار هي التي تقع ضمن اراضي دولة الكويت .

القصور

وهذا الاسم يطلق على مجموعة من القرى هي : أبو حليفه ، وفحيحيل ، ونقطاس ، وفناطيس ، وشعيبه . وقد سبق الكلام عنها في معرض الحديث عن منطقة العدان .

الرقيع (١)

(١) الرقعي

وهو الاسم الذي يطلق على مجموعة من الآبار في الضفة الشرقية من الباطن في مكان يبعد عن مدينة الكويت مسافة ١٠٥ أميال في خط مستقيم الى الغرب

فالجنوب الغربي . وهذه الآبار أعلى نسبياً من قعر الباطن وهي لا تمتلىء بالميـاه دائماً إلا إذا كثرت الأمطار فتستمر مياهها طوال الصيف .

والآبار الفعلية تقع بين الصخور وتتصل بممرات جوفية ولكن تسرب المياه فيها بطيء ولذلك يتعذر وجود كميات كبيرة من المـاء في كل الآبار في وقت واحد .

والرقيع تابعة للملكة العربية السعودية وفيها مركز سعودي للشرطة .

السلو

وهي منطقة على الساحل في الزاوية الشمالية الشرقية من المنطقة المحايدة بين منطقتي المدان والهزايم . وتحدها من الشمال قرين ورأس القليعة ومن الجنوب تلة الشظف ورأس الخفجي .

الشق

وهو واد طويل قليل العمق يمتد مئـة ميل من الشمال الى الجنوب ويبلغ معدل عرضه عشرة أميال . وتقع الأربعون ميلاً الشمالية منه داخل حدود دولة الكويت . وينتهي هذا الوادي من الشمال على بعد ٢٠ ميلاً الى الشمال الشرقي من جهره ، ومن الجنوب بجوار وربعه . وتحـده من الشرق منطقتا الكبد وعدان في الكويت ، ومن الجنوب السلو والهزايم والسدى ، ومن الغرب منطقتا دبدبه وقرعه . وتقترب منه السمن من جهة زاويته الجنوبية الغربية .

وليس في الشق سكان ثابتون ولكنـه ينتج معظم الأعشاب والأخشاب التي تستعمل للوقد وتباع في مدينة الكويت . وفي جهته الشمالية يفصل بين الأماكن التي ينمو فيها الحمض الى الغرب والأماكن التي ينمو فيها العرفج إلى الشرق .

ويضم الوادي حيث يلتقي بطريق الكويت – رقيع على بعـد ٤٠ ميلاً الى الغرب فالجنوب الغربي من مدينة الكويت ، تجمعا للماء في مواسم هطول المطر

يدعى خبرة الفرق . ويضم كذلك تجمعاً آخر للماء على طريق الرياض وعلى بعد ٥٤ ميلاً الى الجنوب الغربي من مدينة الكويت يدعى خبرة الدويش او خبرة جليهم . وتقع خبرة الفرق داخل أراضي الكويت اما خبرة الدويش فتقع خارجها .

(١)

الشقاق

وهي منطقة تقع بين الباطن والكويت شمال غربي الجهراء. والى جنوبها مباشرة تقع منطقة كبيرة تدعى الدبدبه .

وقد اطلق عليها هذا الاسم نظراً لوجود عدة انشقاقات او انخفاضات فيها يمتد بعضها باتجاه الشمال الشرقي كشقة أم رويسات ، وشقة الجليب ، وشقة الثويجه التي يقع معظمها داخل حدود الكويت . ويمتد بعضها الآخر باتجاه الجنوب الغربي كشقة السقيح ، بينما تمتد شقة الواسيه شمالاً الى الباطن .

والشقاق ارض مجدبة اعشابها قليلة وليس عليها سكان دائمون .

(٢)

السدى

وهو سهل فسيح يضم المنطقة المتنازع عليها بين الكويت والمملكة العربية السعودية والتي سبق ذكرها . ويقع هذا السهل الى اقصى الجنوب على البحر وتحده من الشمال منطقة الحزايم في المنطقة المحايدة حيث يشقه جدول المقطع ويصل غرباً الى الطرف الشرقي من ضليعة المعيجل وتلة النويريه . ويضم في جهته الشمالية سهول اللبيبه . ويبلغ طول السدى من شمال الشمال الغربي الى جنوب الجنوب الشرقي حوالي ٦٠ ميلاً . اما ارضه فرملية سوداء مستوية . ولا توجد فيه اشجار ولكنه تنبت فيه اعشاب تتغذى عليها الجمال كالرمض والحنظل والعرفج والثمام . وفيما يلي بعض تقاسيمه الداخلية الرئيسية : (٣)

عرفجيه : وهي آبار عمقها ١٥ قدماً تبعد ثمانية أميال عن جبل عموده غرباً ،

ومياهها صالحة للشرب .

أرق : وهي آبار عمقها ١٢ قدماً مياهها خطرة وغير صالحة للشرب . وتبعد هذه الآبار ١٢ ميلاً الى الشمال فالشمال الغربي من تخاديد ، و ١٨ ميلاً إلى الجنوب فالجنوب الشرقي من تلة وآبار مراغــه في منطقة الحزايم ، وحوالي ٢٠ ميلاً عن البحر . وتقع على الحدود الجنوبية للمنطقة المحايدة .

بعل : وهي هضبة يبلغ طول قطرها ستة أميال وتقع في الزاوية الجنوبية الغربية من المنطقة . وغالباً ما يأتي البدو الى هــذه الهضبة قادمين من انقير التي تبعد عنها ستة أميال ونصف الميل الى جهة الشمال الشرقي .

حمض : وهي آبار تميل مياهها الى الملوحة وعمقها ١٢ قدمــاً وتبعد ٢٥ ميلاً الى الشمال الغربي من تلة النعيريه . وقد شهد هذا المكان هزيمة دعيج ابن سلمان ابن صباح الفاضل في أيام حكم الشيخ سالم .

انقير أو نقير : وهي آبار مياهها صالحة للشرب تبعد ستة أميال جنوباً عن نقيره وستة أميال الى الشمال الشرقي من بعل .

نقيره : وهي آبار فيها مياه عذبة على عمق ١٢ قدماً وتبعد سبعة أميــال ونصف الميل الى الجنوب الشرقي فالجنوب من حمض .

شظاني : وهي آبار مياه بعضها صالح للشرب ومياه البعض الآخر غير صالحة . ويبلغ عمق هذه الآبار ستة أقدام فقط وهي تبعد عدة أميال عن عرفجيه غرباً .

تخاديد : وهي آبار فيها مياه عذبة على عمق ١٢ قدمــاً وتبعد ١٢ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من أرق .

وأهم التقاسيم الساحليــة لمنطقة السدى هي من الشمال إلى الجنوب : رأس الخفجي ، حـد المشعاب أو رأس المشعاب ، جزيرة المقطع ، دوحة الخريس ، رأس التناجيب ، ودوحة بلبول ، وجبل منيفه .

الصمن

وهي منطقة كبيرة جداً في المملكة العربيــة الـسعودية يقع القسم الشمالي في

المنطقة التي تدعي الكويت ملكيتها . وتقع منطقة السمن بين صحراء الدهانه في الغرب وبين الدبدبه والشق وتلال أبو ظهير وتلال الطف في الاحساء، في الشرق.

وتمتد منطقة السمن من خط العرض الذي يقع عليه حفر الباطن في الشمال الى طريق الرياض الهفوف جنوباً وربما أبعد من ذلك . ويبلغ طولها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ٢٤٠ ميلاً على الأقل .

وتشطرها الى نصفين طريق الكويت الرياض ويبلغ عرضها عند هذه النقطة ٩٠ ميلا . ويتقلص هذا العرض جنوباً إلى ٣٠ ميلا وذلك في المكان الذي تلتقي فيه بطريق الرياض الهفوف .

وعندما يدخل المرء إلى منطقة السمن من ناحية الكويت على طريق الرياض، يجدها في البداية منطقة تختلط فيها المرتفعات الصخرية بالكثبان الرملية المستوية القمة تتدرج بينها وديان قليلة العمق تنبت فيها في فصل الربيع ازاهير بريـــة واعشاب وشجيرات صحراوية .

وكلما توغل المرء في المنطقة وجد ان هذه التلال تتداخل اكثر فأكثر الى أن تخرج إلى ارض مكشوفة . ووديان المنطقة عريضة مستوية البطن وتتجـــه من الشمال إلى الجنوب. أما التلال فهي واطئة واكثر انتظاماً من الوديان تلتف حول قواعدها في اغلب الأحيان احزمة قرميدية اللون.وعندما تكون التلال مخروطية الشكل يطغى اللون القرميدي على قممها .

ويلي ذلك أرض قاحـلة تتبعها تشكيلة أخرى من الوديان ولكنها الطف من سابقاتها . وعندما يقترب المرء الى مسافة ٢٠ ميلاً من حدود السمن الغربية يجد ارضاً مشققة تنمو فيها خصل من الأعشاب والشجيرات البرية وتنفتح تدريجيـاً على سهول متموجة تكثر فيها الأحجار الرملية ، وتنتهي فجـــأة عند حدود الدهانه الرملية الحمراء .

وتبرز في السمن من طريق الرياض الهفوف شرقاً صخور عالية واقفة كالقضيب يتراوح ارتفاعها بين ٥٠ و ١٠٠ قدم . وبمحاذاة ذلك في القسم الأوسط تمتـــد سهول قاحلة الى الافق تنتشر فيها الحصى والأحجار الصغيرة وليست فيها ايـــة

وقود او اعشاب تتغذى عليها الجمال .

وعندما تهطل الأمطار بكثرة يتحـــول القسم الأكبر من السمن الى مراع جيدة افضل من تلك الموجودة في الدهانه ، يكثر فيها الحميض الذي يقال ان الاتراك ادخلوه إلى الاحســاء .

وفي الربيع تنمو بعض الأزهار البرية . وتوجد كذلك بعض شجيرات السدر التي تهتم بها قبيلة مثير التي تشكل غالبية العرب الذين يقطنون السمن . وفي الناحية الجنوبية يقطن بعض قبيلة عجمان بالاشتراك مع مثير . ويزور المنطقـــة أحياناً عرب من بني خـــالد وقحطان وسبيع . وأشهر الآبار في المنطقة هي : الوبره ، والحبه ، وقرعه ، والصفا والجاريتين جارية العليا وجارية السفلى .

ام الخلان

وهي أرض صغيرة الرقعة تقع بين منطقة ياه في الشرق وبين منطقة الشقاق في الغرب ، في الزاوية الشمالية الغربية من اراضي دولة الكويت المعـترف بها . ويبلغ طول قطراها ثمانية أميال وتبعد ٤٥ ميلاً الى الشمال الغربي من الجهراء .

ام جنيب

وهو تعبير عام يطلق على المناطق التالية مجتمعة :

قرعه ، الكبد ، العدان ، السلو ، الحزايم وكلها في المنطقة المحايدة ، والجزء الشمالي من السـدى في جنوب المنطقة المتنازع عليها بين السعودية والكويت .

ويحد أم جنيب من الشرق البحر ومن الشمال خليج الكويت ومن الجنـــوب ضليعة المعيجل . وهذا هو المعنى المتعارف عليه عموماً للكلمة . ولكن بعضهم يقول ان أم جنيب هي منطقة صغيرة منفصلة أعلى من الحزايم واللبيبه وتضم تـلة روحيه وآبار شظف ووفره .

الوبره

وهي مكان معروف في السمن يخيم فيه البدو لوفرة مائه . وتبعد عن مدينـة

الكويت ١٤٠ ميلاً الى الجنوب الغربي كما يطير الغراب . وهي محط رئيسي للقبائل عندما تنتقل من الساحل الى الداخل .

وتوجد فيها اكثر من ١٠٠ بئر تقع كلها في مساحة لا تتعدى ٤٠٠ ياردة مربعة، ولكن عدداً قليلاً من هذه الآبار يصلح للاستعمال . وهذه الآبار غائرة في أرض ذات صخور رملية على عمق يتراوح بين ٢٤ و٢٨ قدماً : وهي قديمة العهد ويرى المرء على بابها شقوق تكونت بفعل احتكاك الحبال التي يستخدمها البدو لادلاء الماء مع الحفافي الصخرية . ومياه هذه الآبار تميل إلى الملوحة وهي أقل جودة عن المياه الموجودة في جاريه عليا والحبه إلى الشرق وإلى غرب الجنوب الغربي على التوالي ، والتي يقصدها اليوم المسافرون من الكويت إلى الرياض متفضلينها على وبره .

وريّه

وهي هضبة صغيرة بين السدي والسمن وتمتد مسافة ٢٨ ميلاً من الوبره باتجاه الشمال الغربي . وسطح وريه غير منتظم اذ ان ارضها مشققة تنتثر فيها الحصى وتنتشر فيها مرتفعات من التراب والحجار الرملية .

وفي جهتها الغربية توجد ثلاثة او أربعة مرتفعات تدعى مرباط .

ياه (او: لياه)

تقع هذه المنطقة الصغيرة على بعد ١٨ ميلاً الى الشمال فالى الشمال الشرقي من جهره وهي تشكل الطرف الشرقي من السلسلة الواطئة المعروفة بجل اللياه التي تمتد من ياه غرباً ثم تنعطف إلى الجنوب الغربي نحو الزاوية الجنوبية الغربية من دولة الكويت . ويبلغ الطول الإجمالي لجل اللياه حوالي ٣٥ ميلاً .

أما الأماكن الأخرى في شرق الجزيرة العربية التي سنخصها بالذكر في فصول أخرى من هذا الكتاب فهي :

الهفوف

هي أرض ابراهيم وعاصمة المقاطعة الشرقيـة من المملكة العربية السعودية . وقد زرتها عدة مرات وجمعت روايات غريبة غير مدونة من البدو في جوارها ، روايات يبدو انها فاتت بلغريف وفيلبي وتشيزمان الذين زاروا المكان مرات عديدة .

وكل المغامرات المنسوجة هناك تتصل ، بطريقة أو بأخرى ، بالمصيف الغريب ، التلة ذات الرأس المسطح على شكل اكروبوليس المعروفـة بجبل قاره والتي تقع وسط الواحة الغنية المحيطة بمدينة الهفوف والتي يبلغ طولها ١٥ ميلاً .

وعندما كنت أسير حول سفح هذه التلة الرملية المدهشة ذات اللون الأحمر الفاتح ، تذكرت صوراً شاهدتها لصحراء أريزونا الأميركية . لأن كل مـا حول جبل قارا من وديان منحدرة وفجوات وخاصة تلك السلسلة من الأعمدة الضخمة الرائعة ، صنعتها قرون من الرياح الصحراوية الحارة وكأنها عمل جبـابرة عفتى عليهم الزمن . أما شمس الغياب هناك فانها منظر في منتهى الروعـــة ، خلاب يحبس الأنفاس .

وفي الجهة الجنوبية من الجبل وعلى أقدام سلسلة من الأعمدة الجبارة والشقوق الضيقة ، يقع كهف ابراهيم . وقد حاولت استكشاف الكهف مرتين ولكنني عدت خائباً . وقد شاهدت جزءاً يسيراً من جوفه الكبير الذي يقول البدو ان الشخص الذي يدخله يفقد فيه حتماً ، ما لم يربط نفسه بحبل أو خيط على المدخل ويضع علامات على الطريق التي يسلكها لكي يضمن عودته سالماً .

والانطباع الذي يتركه كهف ابراهيم في ذهن الانسان هو عدد لا يحصى من الفجوات والكهوف الداخلية الضخمة يشبه الواحد منها كاتدرائية كبـــيرة ، والمغاور الصغيرة ، وعدد كبير من التشعبات الجانبية المتفرعة من الممر الرئيسي تشكل شبكة مدهشة ومخيفة في جوف الأرض .

وهذا الكهف العظيم شديد البرودة مكيف بالهواء طبيعياً ، بحيث أن الحاكم الحالي في الاحساء الأمير سعود بن عبدالله الجلوي السعود حول إحـدى مغاوره

القريبة من المدخل الى مجلس له ولخدمه . فبعد عمل الصباح في المدينة في حرارة الصيف الشديدة يعود اليه ليستريح ولا يخرج منه إلا بعد الغروب للصلاة .

واذا أظهرت اهتماماً بالمكان فان اهل الاحساء وخاصة سكان الواحة منهم يتبارون لاطلاعك على رواية يقولون انهم تناقلوهـا عبر العصور عن شعرائهم ورواتهم وهي أنه منذ قرون طويلة أقـام ابراهيم خليل الله في تلك الواحة . ويعود تاريخ الرواية إلى زمان طويل قبل ان يأتي ذكر ابراهيم في التوراة بأنـه نشأ في اور الكلدانيـين على الفرات الأسفل في بلاد مـا بين النهرين (العراق اليوم) .

وتقول الرواية ان ابراهيم عاش حيـاة الرعاة مع قبيلته وكان شيخاً عظيماً يملك آلاف الأغنام والجمال . ومع قدوم الصيف وحرارته اللاهبة اعتاد ابراهيم أن يسوق قطعانه وقطعان أقربائه عند الظهر الى الكهف الكبير في جبل قـاره ويبقى هناك إلى ان يحل المساء بجوه البارد فيخرج قطعانه ويسير بها الى الخيام في الجوار وهي ترعى على الطريق .

وحدث بعد سنوات من العيش الرغيد ان دب الخلاف بين إبراهيم وبين ابن عمه وهو رجل حاد الطبع . ويبدو ان الخلاف وقع على الماء، فما كان من ابن عم ابراهيم إلا ان ضرب اثنتين من أغنام ابن عمـه على رأسها بهراوة ضخمة وهي تشرب ثم ذبحها . وتلت هذا الحادث حوادث أخرى فصار من جراء ذلك شقاق في القبيلة. فاقترح ابراهيم ان يرحل احدهما عن الواحة على ان يتم ذلك بالقرعة . . وخسر ابراهيم فجمع حاجياته وشعبه والاعداد الكبيرة من الأغنام والجمال التي يملكها ، واتجه بهم الى الشمال . وهناك في اور الكلدانيين بدأت قصته كما وردت في العهد القديم

ويقول البدو اليوم : انها يد الله رعته وسارت به الى خيره . . لأن الله كان يخبىء لابراهيم ولنسله قدراً عظيماً . . وقضى الله بذلك .

انها رواية رائعة كما يرويها أهـل الهفوف بتفاصيلها باسلوب أخاذ . . ومن يقول إن هذه الرواية تخلو من بعض الحقيقة ؟

الدهانه وواحة جبرين

على بعد ١٥٠ ميلاً الى الجنوب الغربي من الهفوف ومثلها الى الجنوب الشرقي من الرياض ، تقع واحة جبرين الغامضة .

وقد اعطاني مصدر موثوق ومشهور وهو توم بارجر المقيم في الظهران قرب القطيف حيث يوجد المقر الرئيسي لشركة النفط العربية الأميركية (أرامكو)، بعض الحقائق الهامة فيما يتعلق بحزام الدهانه الرملي المحيط بنجد الداخلية :

١ ــ ان رمال الدهانه في الشرق والشمال من نجد الداخلية تتحرك تدريجياً الى الجنوب نحو منطقة الرمال الصحراوية الواسعة التي تعرف أحياناً بالرملة أو الربع الخالي . وقد ثبت بما لا يقبل الشك أن هذه الحركة ليست من الجنوب الى الشمال كما كانت تفترض بعض المصادر في الماضي .

٢ ــ ويوجد في واحة جبرين كثير من المرتفعات الاصطناعية من النوع الموجود في البحرين والظهران وأماكن أخرى . وقد عثر على معالم طريق قديمة اتضح انها كانت تصل جبرين مع ليلى ووادي الدواسر الى غربها . ويستدل من ذلك ان طريقاً تجارية هامة كانت في قديم الزمان تنطلق من حضرموت (بلاد التوابل) عبر اليمن حيث تنقسم الطريق إلى فرعين واحد يقود الى « جرا » (عقير اليوم) على الخليج الفارسي عبر ليلى وجبرين والهفوف ، والفرع الآخر يتجه شمالاً إلى مصر بمحاذاة البحر الأحمر .

٣ ــ ان الأحواض والبرك الصغيرة في جبرين ليست كما يقترح تشيزمان بأنها ضحلة تغذيها بالمياه ينابيع طبيعية ، ولكنها في الحقيقة برك اصطناعية اقامها القدماء الذين ارادوا الحصول على الماء للري او لأشياء اخرى فحفروا مساحة كبيرة للحصول على مياه جوفية . وربما كانت هذه المياه تتصل تحت الأرض بمياه الخرج . لأنه في قعر كل بركة ثقوب عميقة حفرت في الصخور الصلبة إلى عمق ١٥٠ قدماً او اكثر الى حيث تتصل بمياه دائمة .

ويقول توم بارجر إن جيولوجيي ارامكو ومهندسيها اثبتوا ذلك عندما ضخوا مياه احدى هذه البرك في جبرين حتى جفت واعادوا حفر الثقوب العميقة

التي تمد البركة بالماء . امـــا جوانب هذه الثقوب التي يبلغ قطرها قدمين ونصف فقد حفرت بطريقة مدهشة تشير الى وجود حضارة ذكية .

٤ – ويظن بارجر ان حضارة قديمـــة أتت من مأرب في اليمن وأوجدت مستعمرات في نجران اولاً ثم في ليلى وبعدهـا في جبرين والحفوف وذج وواحة القطيف . ويذكر انه عثر على عدة قنوات قديمة عديمة النفع الآن تتجه من بركة لا تزال قائمة في ليلى ، مما يدل على أن المكان كانت فيه في يوم من الأيام زراعة مزدهرة .

ويتحدث بارجر ايضاً عن قلعتين متهدمتين الى شمـــال وجنوب صرار في وسط الاحسـاء مباشرة ، وعن مدافن فوقها أتربة مرتفعة حول صرار نفسها . واحدى هاتين القلعتين تقوم على رأس تلة وفيهـــا بئر مليئة الآن ، حفرت على عمق ٣٠٠ قدم للوصول الى الميـــاه . كل ذلك يدل دلال قـــاطعة على وجود حضارة قديمة .

وظني ان الهفوف ليست إلا « جرّا » القديمة وليس جبل قارا إلا احيـــاء للاسم القديم . واظن ايضاً ان ميناء عقير الحديث قـــد يكون هو الميناء القديم بالنسبة « لجرّا » كما هو ميناء بيريوس بالنسبة الى اثينا .

وقد قـــام توم بارجر بصحبة المرحوم شتاينيك كبير الجيولوجيين في شركة ارامكو بعدة رحلات مدهشة بالسيارة الى قلب الربـــع الخـــالي والى اقصى اطراف وادي دواسر . ولم يكشف النقاب بعد عن وقائع هـــذه الرحلات ولا عن مجموعات الصور المدهشة والخرائط التي أخذت هناك .

الفصل الثالث

قبائل وعائلات الجزيرة العربية

البدو والحضر

العرب قسمان : بدو وحضر .

فالبدو هم قوم رحل يعيشون في الصحراء ويقطنون الخيام السوداء المصنوعة من شعر الماعز أو صوف الغنم . والحضر هم سكان المدن والقرى ويعيشون في منازل ثابتة من الحجر أو الطين ويسمى الفرد من أهل البادية بدوي ، ويسمى ساكن المدينة حضري .

وبين أهل البادية وأهل المدن جماعة تدعى عربدار وهم نصف رحل يخيمون في جوار المدن في الصيف وينتقلون عندما يحل فصل الشتاء . وينطبق هذا الاسم – عربدار – بصورة خاصة على دولة الكويت .

ان أهل البادية الحقيقيين لا يقتنون سوى الجمال . اما الرعاة في الصحراء فيسمون شوية (١) أو شواوي في العراق . وفي الكويت والعربية السعودية فيسمون حقري ، وهم في معظمهم يرعون الاغنام في المنخفض الكبير بجنوب العراق . والقبائل الأخرى كمثير والموازم فلهم جماعة خاصة من الرعاة .

وهنالك أيضاً العشائر الذين يهتمون بالزراعة على ضفاف نهري دجلة

(١) شاوية

والفرات ، والصناع وهم جماعة من الحدادين لكل قبيلة شريفة جماعـــة منهم ، وهؤلاء موجودون في الكويت ونجد وليس في العراق .

وأهل البادية الحقيقيون هم عرب خلص ، عرب عاربــــة ، ينحدرون من نسل يعرب أبو العرب . وفي نظرهم ان غـــيرهم من العرب هم مستعربة ، أي أصبحوا عرباً ، وينحدرون من عدوان (١) من نسل اسماعيل وأمه هاجر . والعرب العاربة والعرب المستعربة كلاهما ينقسمان الى قبائل شريفة ارستقراطية أصيلة ذات دم نقي ، وقبائل أدنى منها مرتبة رضيت باختيارها ان تصنف حسب هذا التقسيم .

وأشهر القبائل الشريفة في الجزيرة العربية هي : عنيزه ، وشمّر ، وحرب ، ومطير ، وعجمان ، وظافر ، وبني خالد ، وبني هاجر ، وآل مرّه ، وقحطان ، وعتيبه ، ودواسر ، وسهول ، ومناصير ، وبني يـــأس ، وسبيـع ، وقواسم ، وبني يم (٢) ، وزعب (مع عدوان) ، وبني تميم التي لم تعد توجد كقبيلة واحـــدة اليوم .

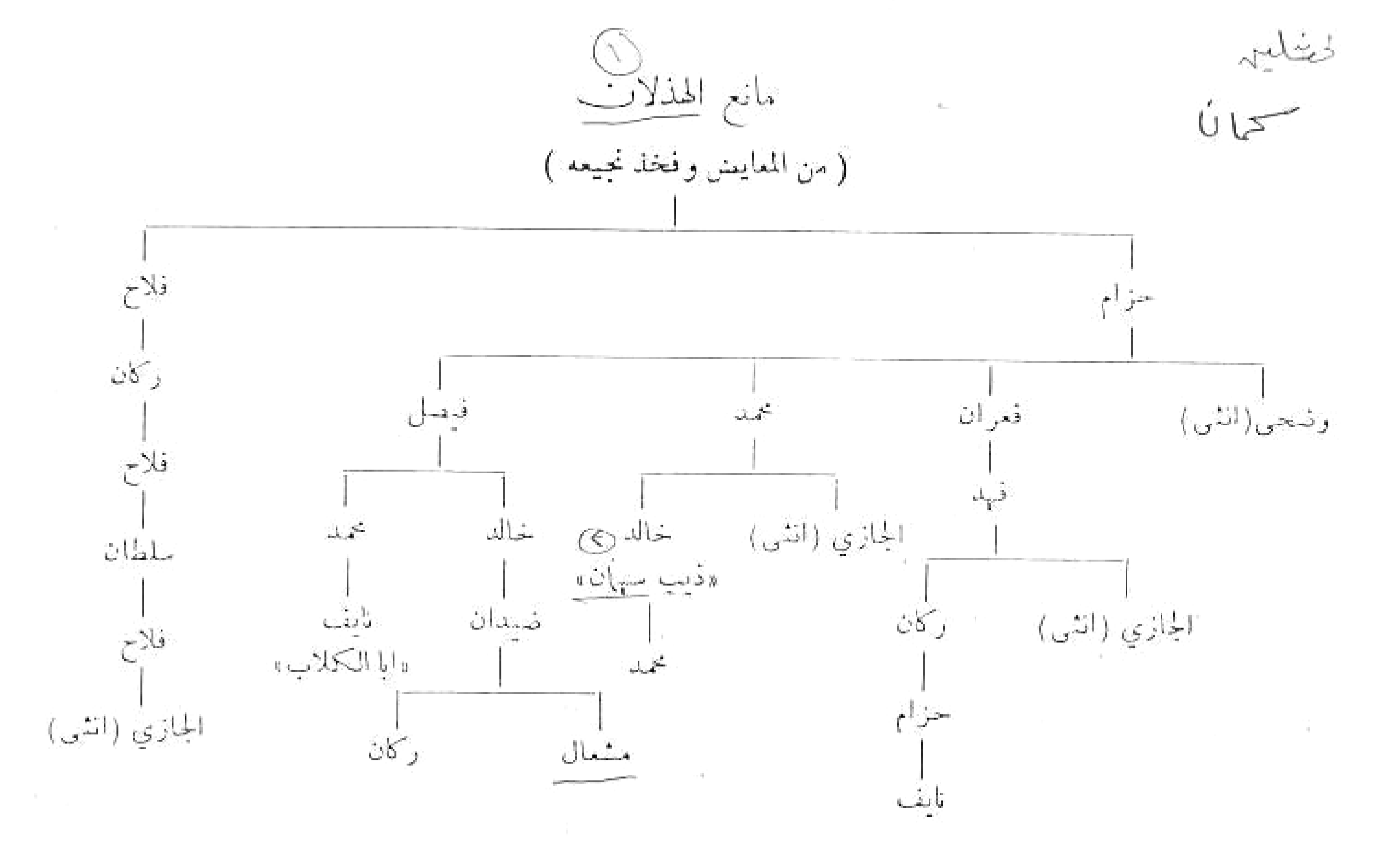
ويأتي في طليعة القبائل او الجماعات الأخرى : العوازم ، والرشايـــده ، وحتيم (٣) ، وصلبه ، وعقيل .

عجمان

وهي قبيلة من الأشراف في شمال شرقي الجزيرة العربيـة تدين بالولاء للملك سعود بن عبدالعزيز الحاكم الحالي للمملكة العربية السعودية . وتصل قبيلة عجمان صلات قربى بآل مرّه ، ويعتبر افرادها انفسهم أمراء الصحراء ولكن القبائل الأخرى لا تشاركهم هذا الاعتبار . وهم يتزاوجون مع بني يم الذين يدعون الانتماء الى سلف واحد وهو يم . واعلى شيوخهم مقامـــاً هم الهذلان (٤) ، فخذ من معايض (٥) يدعي نجيمه . وبين هذه الأفخاذ :

الوجه — الشيخ ابن رماح

الضعاين — الشيخ الدامر



1
مانع المذلان
(من المعايض وفخذ نجيعه)
حزام
فلاح
ركان
فلاح
سلطان
فلاح
الجازي (انثى)
وضحى (انثى)
فعران
فهد
الجازي (انثى)
ركان
حزام
نايف
محمد
الجازي (انثى)
خالد 2
«ذيب سبهان»
محمد
فيصل
خالد
ضيدان
مشعال
ركان
محمد
نايف
«ابا الكلاب»
سكمان



محمد ابو شيبه من فرع جبلان في قبيلة مطير ومعه باز الصيد



زوجة المؤلف امام احد ابواب جناح السيدات
في القصر الملكي بالرياض



نايف بن هذلان (ابا الكلاب)
الشيخ الاعلى في عجمان



فيصل بن سلطان الدويش
الشيخ الاعلى في مطير

الحبايش	—	الشيخ ابن علوان
الحادي	—	الشيخ عبيد المتلقم
الهجان	—	الشيخ ابن صباح
المتلان	—	الشيخ ابن زمامام
المحنوظ	—	الشيخ حمد ابن ركان المكراد
المعايض	—	الشيخ ركان ابن ضيدان الهذلان
الغلا	—	الشيخ ابن دبلان
المسرا	—	الشيخ محمد العذين
الصفران	—	الشيخ ابن منيخير
السلمان	—	الأمير هيف ابن هجرف (يدين بالولاء للكويت) .

اما شجرة انساب الهذلان المنشورة في الصفحة السابقة تضم فقط الأسماء المذكورة في هذه الصفحات .

عندما قتل ضيدان ابن خالد الهذلان سنة ١٩٢٨ أصبح ابنه ركان بنظر العجمان الشيخ الأعلى في القبيلة ولكن ابن سعود عين خالد ابن محمد الحزام الهذلان في مكانه . وكان خالد هذا الملقب « بذيب سهمان » ذا حظوة عند ابن سعود ويتمتع بمركز مرموق في مجالسه .

وتشتهر قبيلة عجمان منذ زمن طويل بجمال بناتها المدهش، وقد زوجت كثيرات منهن بين وقت وآخر الى أمراء البيت الملكي السعودي ، وإلى حكام الكويت والبحرين وشيوخ عائلات منير ، إلى جانب شيوخ القبيلة نفسها . وقد اشتهرت منهن في الآونة الاخيرة اربع جميلات من غريب الصدف انهن يحملن نفس الاسم « الجازي » اسبغن على القبيلة شهرة فائقة وسمعة حسنة .

وتتفوق عليهن جميعا في الجمال والسحر وقوة الشخصية الجازي بنت محمد الحزام الهذلان . فهي اليوم ، وان لم تكن صبية كما كانت في السابق ، تتمتع بمنزلة عالية في قلوب قومها ، وتدير شؤون خيام زوجها الحالي الشيخ ركان ابن ضيدان الهذلان الذي يعتبره العجمان رئيسهم .

وقبل ان تتزوج هذه الملكة بين جميــلات القبائل من زوجها الحالي كانت متزوجة من الأشخاص التالية أسماؤهم :

صاحب الجلالة المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود (بن سعود)

المرحوم الأمير محمد آل سعود شقيق الملك عبد العزيز

الأمير سعود العرافه آل سعود صهر الملك عبد العزيز

الشيخ بندر الدويش رئيس عائلة مطير

المرحوم الشيخ مطلق الجبعه وهو عضو بارز في قبيلة قحطان ويتصل بقرابة نسائية الى الدوشان وهم الفخذ الحاكم في مطير .

لقد تزوجها الملك عبدالعزيز ثلاث مرات . وفي كل مرة كان يقنع زوجها في ذلك الوقت بان يطلقها لقاء هدية كبيرة من الجمـال بحجة انه لم يستطع ان يتغلب على حبه لها . وشقيق هذه الحسناء هو الشيخ خالد بن محمد الحزام الهذلان .

اما الجازي الثانية اخت خالد المكراد وابنة عم حمد ابن ركان المكراد شيخ آل محفوظ ، فقد تزوجت على التوالي من الشيخ خالد ابن محمد الحزام الهذلان ومن فلاح ابن سلطان الهذلان .

والجازي الثالثة وهي ابنة فـلاح ابن سلطان الهذلان فقد تزوجت من نايف ابن محمد الهذلان المعروف بابي الكلاب الذي توفي في السجن سنة ١٩٣٤ لأنــه قام بثورة ، ومن مشعال ابن ضيدان الهذلان.

اما الجازي الرابعة ابنة فهد الفمران الهـذلان فقد تزوجت الشيخ ركان ابن ضيدان الهذلان ولكنها توفيت بعد عدة سنوات .

وقد زودني بهذه المعلومات كلها الشيخ نايف ابن حزام الهذلان .

اما وضحى بنت حزام الهذلان فهي والدة سعود العرافـــه آل سعود الذي تزوج نورا اخت الملك عبد العزيز الشهيرة .

وقد اخبرني المرحوم الشيخ أحمد الجابر الصباح في سنة ١٩٣٢ ان العجمان يتكلمون اصفى لغة عربية بين قبائل الجزيرة العربية . وربما كان كلامهم ولفظهم شبيهين بمـا كان يتكلمه عرب الجزيرة قبل الاسلام . وقال ان العجمان يستعملون

مشعل

تعابير والفاظاً تختلف كلياً عن تلك التي تستعملها القبائل في اماكن أخرى .

وخلافاً للقبائل الأخرى ، فان العجمان مولعون باطلاق الألقاب على أطفالهم وتظل هذه الألقاب ملاحقة لهم طوال حياتهم . وقد قدمنا مثلين على ذلك وهما : خالد « ذيب سهان » وتايف « ابو الكلاب » . ومنهم ايضاً منصور « خير الذيب » وسعود « ابو الشمرين » وهذا اللقب هو لقب الملك الحالي سعود ابن عبد العزيز . وعندما تولد فتاة للعجمان تقطع من اذنها قطعة صغيرة تأكلها الأم . وتلقب هذه بالجدع .

وصرخات الحرب عند العجمان هي : « مفرس الحديد ، وانا ابن العجم ، لو ما طعنا ما حدن خلانا سكنى الديره . »

عنيزه

هي أكبر قبيلة بين القبائل العربية تقطن نجد والعراق وسورية . ويبلغ عدد الذكور فيها ٣٧ الفاً وعدد جمالها حوالي المليون . وتنقسم هذه القبيلة الى عدة أقسام نذكر منها ما يلي :

عمارات : كان شيخها الأعلى المرحوم فهد بك الهذال . وقد خلفه بعد موته ابنه مهروط الهذال . وينتسب آل الصباح العائلة الحاكمة في الكويت الى عمارات (سبط الداهمشاه) وكذلك آل خليفه حكام البحرين . ويدعي مهروط انه الرئيس الاسمي لهاتين العائلتين وقد صرح بذلك اثناء زيارة صاحب السمو الشيخ عبدالله الصباح الأخيرة الى بغداد . وعندما اخبرني سموه بذلك قال وهو يبتسم : « قال مهروط ذلك بصورة جدية » .

ومن العائلات المرموقة في عمارات من الذين يسكنون الكويت آل صالح (رئيسهم الملا صالح) ، وآل شملان (رئيسهم محمد الشملان) ، وآل غانم وآل زايد سابقاً (رئيسهم الحاج أحمد الغانم) . وقد ذكرنا سابقاً عدداً من أفراد هذه العائلة . أما الشيخ الحالي للداهمشاه في عمارات فهو ابن مجلاد .

فدعان : شيخها الحالي ابن مهيد

(١) الروﻻ : الشيخ الأعلى لهذه الجماعة الشهيرة في جوار دمشق هـو فواز ابن نوري الشعلان. وهنالك شق من هذه الجماعة يدعى المساليخ (٢) بدين بالولاء لسورية. وينحدر الملك ابن سعود من المساليخ. ويدعي الحظل (٣) والشعلان اللذان يعتبران أنفسهما رئيسين اسميين لقبيلة عنيزة كلها، انهما اعلى منزلة من ابن سعود وابنه الملك الحالي.

سباع (٤): يقول كارل رسوان مؤلف كتاب «الخيام السوداء في الجزيرة العربية» أن فهد المسراب (٥) شيخ السباع الحالي ينحدر مباشرة من الشيخ مجوال المسراب زوج الليدي دغبي الشهيرة وهي الليدي الينبورو سابقاً.

لا يزال الكثيرون من عرب الصحراء يذكرون بالتقدير والاحترام «الست البيضاء» الليدي دغبي. وفي أواخر ايامها سكنت مع زوجها الشيخ مجوال المسراب في بيت كبير بدمشق بجانب البيت الذي كان والداي يسكنانه في ذلك الوقت. وتقول الآنسة اودي التي ألفت كتاباً عنها انها ماتت هناك في آب سنة ١٨٨١، ولكن الاقرب الى الصواب انها ماتت سنة ١٨٨٣ لأنني ولدت في بيروت سنة ١٨٨١ وعندما انتقلنا الى دمشق بعد ذلك كانت أمي تأخذني اليها مرتين او ثلاث مرات في الاسبوع. وقد دفنت في مقبرة الأرمن خارج باب الشرقي في دمشق وكتب اسمها على القبر «هيلين مسراب» وقليلون هم الأشخاص الذين يعرفون هذه الحقيقة.

ويقول رسوان ان المسراب لا يزالون انقى القبائل العربية دماً.

ولد علي: وهم قسم هام من قبيلة عنيزه يعيشون في نجد الغربية. وتعرف عائلة شيوخهم بالسميد (٦).

عقيل

وهم جماعة يتعاطون تجارة الجمال ومراكزهم الرئيسية في دمشق وبغداد، وهؤلاء ليسوا قبيلة من البدو لأنهم أقرب الى الحضر. وتعتبر العائلات الرئيسية فيهم من الأشراف.

عوامر

وهم قبيلة شرسة في جنوب شرقي الجزيرة العربية ويدعون انهم من الأشراف.

عوازم

وهم قبيلة كبيرة من غير الاشراف في شمال شرق الجزيرة العربية .

بني هاجر

وهم قبيلة من الاشراف في وادي دواسر الى جنوب الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ولكن بيئتهم الأصلية في قطر بجوار القطيف ، وشيخهم الأعلى هو شافي ابن شافي .

بني كعب

وهي قبيلة من الاشراف تسكن عربستان في ايران ولكنها لا تعد ضمن قبائل الجزيرة العربية وسنذكرها هنا لمجرد استيفاء الموضوع . وبنو كعب هم الذين هددوا الكويت في أيام مريم ووالدها عبدالله الصباح ، وذلك بقيادة آل نصار العائلة الحاكمة فيهم .

وفي الحديث الذي اشرت اليه في الفصل الأول ابلغني سمو الشيخ عبدالله السالم ان آل نصار عائلة عربية أصيلة تتصل بقبيلة سبيع في الاحساء ووسط الجزيرة العربية. وقال أيضاً ان القبائل على الشاطىء الفارسي الى الشمال والجنوب من بوشير ، كانت جميعها من أصول عربية نقية تضم أقساماً من عجمان ومطير وسبيع ، ولكن قبائل الجزيرة العربية لا تزوج بناتها لهؤلاء لأنهم تزاوجوا واختلطوا بالاعاجم .

بني خالد

وهي قبيلة كبيرة من الاشراف في الاحساء . وقد اشتهرت هذه القبيلة في

التاريخ العربي ، والبيت الحاكم فيها هو ابن عراعير .

بني صخر

وهي قبيلة من الاشراف في الاردن .

بني تميم

وهي قبيلة عريقة من الاشراف في الجزيرة العربية تقطن اليـــوم في قطر .
وحكام قطر الحاليين هم من بني تميم .

بني يم

وهي قبيلة من الاشراف تقطن في نجران على حدود اليمن الشمالية الشرقية .
وبنو يم أخوة بالدم لآل عجمان وآل مره .

بني ياس

وهي قبيلة من الاشراف في عمان حـــول ابو ظبي وشرق قطر على الخليج
الفارسي .

بلي

قبيلة في شمال الحجاز قائدها ابن رفاده .

دواسر

قبيلة من الأشراف في وادي دواسر جنوب الرياض .

حرب

قبيلة من الأشراف في نجد العائلة الحاكمة فيها هم آل فرم .

حسويه

قبيلة من الزراع في الهفوف .

حتيم

قبيلة قوية من غير الأشراف في شمال الحجاز .

آل خليفه

وهم حكام البحرين ويتحدرون مع آل الصباح في الكويت من قبيلة عمارات المتفرعة من عنيزه . ومع أنه كانت لآل خليفه علاقات مباشرة مع البريطانيين منذ سنة ١٨٠٥ ودخلوا معهم في معاهدة سنة ١٨٢٠ ، إلا انهم لم يوقعوا مع البريطانيين اتفاقات ملزمة كتلك المعقودة مع عمان إلا في سنة ١٨٦٧ في زمن الشيخ عيسى ابن علي آل خليفه .والشيخ عيسى مدين للبريطانيين بتوليه الحكم لأنهم نصروه ضد فرع آخر من العائلة اعلى مقاماً ظلوا يحاولون الاستيلاء على الحكم في الجزيرة .

وقد حكم الشيخ عيسى حتى سنة ١٩٢٣ حين عزله الوكيل البريطاني الميجر دالي الذي كان يأتمر بأمر حكومة الهند وعين ابنه حمد خلفاً له على العرش . وظل الشيخ حمد بن عيسى آل خليفه في الحكم حتى وفاته في سنة ١٩٤٢ وخلفه ابنه الحاكم الحالي الشيخ سلمان بن حمد آل خليفه وهو من اكثر الحكام في الجزيرة العربية حكمة ويتمتع بحب واحترام الشعب . ولا زالت البحرين حتى اليوم ترتبط باوثق المعاهدات مع الحكومة البريطانية .

مناصير

قبيلة من الأشراف في عُمان .

آل مرة

قبيلة قوية في وسط وجنوب شرقي الجزيرة العربية لم تعرف كثيراً مع انه

كتب عنها الكثير . فقد كتب عنهـــا برترام توماس ، وبول هاريسون في كتابه « العرب في ديارهم » وسانت جـون فيلبي في كتابه « الربـــع الخالي » ، وكلهم أشاروا إلى البيئة الغـــامضة التي تعيش فيها هذه القبيلة ، وإلى رقصاتها الشعبية ، وخرافاتها، وقوة بأس أفرادها وشدة مراسهم . ومع هذا فلن يكون هنالك ضير من إضافة بعض المعـــلومات التي حالفني الحظ في الحصول عليها من رجال ونساء آل مره الذين صادفتهم في بعض الأحيان . وسنأتي على ذكر عدد من القصص والحوادث في فصول أخرى من الكتاب ، وسنحصر حديثنا هنـــا بتلك التفاصيل المتعلقة بطريقة حياتهم وديرتهم وتاريخهم .

انهم قوم أشداء معتدون بأنفسهم اشتهروا بالولاء لمن مالحهم (أي أكل من أكلهم وأكلوا من أكله) ، او لمن قدموا له الطاعة والخضوع ، او تحالفوا معه وقطعوا له عهداً . وهذا ما يفسر تمسكهم بعبد العزيز آل سعود وبخلفه الملـــك الحالي . ويدعون ان خيامهم يبلغ عددها عشرة آلاف . ومع انه قد يكون في هذا الرقم بعض المبالغة إلا أن عددهم اكبر من التقديرات السائرة . وبما انهم من الاشراف فانهم لا يزوجون ولا يتزوجون إلا من الاشراف . وهم بنو عم قبيلة عجمان القوية التي تعيش ابعد منهم الى الشمال . فجد آل مره الأول علي بن مره هو اخ يم جد العجمان . وامهم أيضاً اسمها مره وهي قحطانية شهيرة .

وديرة آل مره التي يسكنونها هي اواسط الربع الخالي والمناطق الشماليـــة والشرقية منه . وهم ينظرون إلى واحة جبرين بأنها ملكهم الخاص يخيمون فيها في الصيف . ولكن قادتهم ، بسبب وجود الملاريا في جـــبرين ، بدأوا مؤخراً تفضلون الانتقال الى الهفوف على بعد ١٨٠ ميلاً إلى الشمال الشرقي من جـــبرين ، ويضربون خيامهم في رقيجه وهي منطقة خاصة بالبدو خارج المدينة . وهـــذا المكان الجديد يسهل عليهم التزود بالطعام كما يساعدهم على الاتصال المباشر بممثلي الملك سعود .

ومنذ عدة سنوات اخبرني رجال من آل مره ان هنالك واحة أخرى اجمل من جبرين يحبون زيارتها والاشتراك فيها مع أصدقائهم من الاشراف مثل العوامر

والمناصير وبني يأس . ويقولون ان فيها ينابيع غزيرة واشجار نخيل كثيرة ، وانها تبعد سفر اسبوعين على الجمال الى الشمال الغربي من البريمي ومثل هذه المسافة الى الجنوب فالغرب من ابو ظبي ، وان اسم هذه الواحة تدعى عجوه .

ولم أجد لهذا الاسم مرجعاً الى ان تعرفت اليه بأنه جوه وهي واحة او مجموعة من الواحات في داخل ابو ظبي . وقد زارها فريق من موظفي شركة ارامكو في احدى حملاتهم الاستكشافية العلمية المدهشة قبل الحرب العالمية الثانية : وكان دليلهم في تلك الرحلة صديقي المشهور خميس بن رمثان وهو من آل عجمان. وزوجته هي أخت محمد بن تاهوس رئيس حرس شركة نفط الكويت في منطقة برقان .

وفي سنة ١٩٤٣ التقيت انا وزوجتي لحسن الحظ بعضو بارز من آل مره اسمه محمد بن سالم دراهم المرّي وهو من فخذ عضيبه المتفرع من نقدان . وقد جاء محمد إلى الكويت بأمر من وزير مالية ابن سعود الذي طلب منه اختيار مرّي يتقن اقتفاء الآثار ليمثل دور شرلوك هولمز في الكويت . وقد رفض محمد بن سالم هذا المنصب لان المرتب كان صغيراً فبقي عدة ايام في الكويت وتناول معنا مرة طعام الغداء وزارنا بعد ذلك عدة مرات . وقد سمعنا منه قصصاً وروايات هامة منها ما هو حقيقي ومنها ما هو محض اختلاق .

ومن بين الأشياء التي رواها الأمور التالية :

١ – ان صرخة الحرب عند آل مره هي « اولاد الشبيي » .

٢ – إن آل مره يخفون دائماً وفي كل الظروف لنجدة العجمان لأنهم من أصل واحد . فاذا تعرض العجمان لهجوم فما عليهم إلا يطلقوا بين الجمال جملاً حول عنقه صفيفة حمراء وعندئذ يهب جميع آل مره لنجدتهم . ويقول محمد ابن سالم ان هذا التعاون في ايام الطوارىء والمحن لا يعني ان آل مره وآل عجمان ليست لهم خلافاتهم الخاصة ونزاعاتهم الدائمة .

٣ – وقد وصف لي بالتفصيل كيف تحدث الرمال في اعماق الصحراء اصواتاً غريبة واعطاني تفسيراً معقولاً لهذه الظاهرة . فقال انه بفعل الرياح تتكون

سلاسل متموجة من المرتفعات الرملية على منحدرات الكثبان . وعندمـــا تأتي رياح قوية تخترق هذه التموجات فتحدث صوتاً اشبه بصوت طائرة في الفضاء . ويروي رجال القبائل العاديون من آل مره ان هذا هو صوت الجن في الربع الخالي وان ذلك أحياناً يصيب الانسان بمس من الجنون . ويقول محمد ان الجن هناك لها اعين مشقوقة من الأعلى الى الأسفل وليس افقياً كما في الانسان ، وان جدة القبيلة كانت جنية وبالطبع لها مثل هاتين العينين .

٤ – ان آل مره يدربون انفسهم على البقاء دون ماء . ومع ان محمد بن سالم كان في الكويت على بعد ٨٠٠ ميل من ديرته فإنه لم يذق طعم الماء لمـــدة سنة كاملة الا في القهوة . والشراب المفضل لديهم هو حليب الجمال .

٥ – ان طريقتهم في الحرب هي نفسها : استدراج العدو الى الانحاء البعيدة من الربع الخالي والقضاء عليه .

٦ – ان اعظم شرف يـبـفه المري على ضيفه هو ان يذبح له جمـــلا صغيراً ويغليه بحليب أمه .

٧ – ليس كل آل مره من مقتفي الآثار الممتازين . ويعترف بهـــذه القدرة العجيبة للنقدان منهم .

٨ – عندما يصبح المرّي صديقاً يبقى صديقاً الى الأبد .

وأخبرني محمد القصة التالية عن أصل آل مره :

منذ عدة مئات من السنين وقبل زمن ابراهيم حين لم تكن هناك ديانـــة ولم يتعود النـــاس على الصوم والصلاة ، كان يعيش في جنوب الجزيرة العربية فارس شهير يدعي عـــلي بن مره أخو يم جد قبيلة عجمان . (هنالك من يقول ان عجمان ينحدر من مرزوق ابن علي ابن مره) .

وذات يوم من أيام الربيع كان علي بن مره حزيناً لأن الجرب تفشى في جماله الاربعين فلم يبق منها على قيد الحياة إلا أربعة كانت مريضة تتألم . فلم يطق علي ان يرى هذا المنظر المؤسف فحمل نفسه يائساً وتوجه الى الربع الخالي . وهناك وفي مكان منفرد وقع نظره على فتاة حسـناء تصارع مـن أجل حياتها مع ثعلب

كبير ، فهرع الى نجدتها ونجح في قتل الذئب . وشكرته الفتاة على جميله وسألته ان يطلب اي شيء فتمنحه أياه . فاعرب لها عن رغبته في الزواج منهـا . فاجابته ان ذلك غير ممكن ما لم تحصل على موافقة والدها واخوتها الذين يعيشون مع شعبها من الجن في بطن الأرض .

وعندئذ تأكد علي بن مره ان تلك الشابة ليست انساناً عادياً بل هي من جنية .

ولما وجدته لا يزال حزيناً سألته عما يؤلمه فأخبرها قصته بأنـه ترك جماله الأربعة الباقية وراء تلة تتألم فلم يطق ان يراها تموت أمامه فهجرها .

ـ تعال معي ، قالت له الجنيـة ، وانا آخذك الى والدي فهو يعرف كيف يداوي جمالك ويمكنك ايضاً ان تطلب منه يدي .

وبعد ذلك طلبت من علي بن مره ان يغمض عينيه وشدت عليهما بيديهـا واعطت اشارة فانفتح كهف عظيم في بطن الأرض بجانبهما فنزلا فيه الى العالم السفلي لمقابلة شعب الجن .

وعندما ازاحت يديها عن عينيه دهش علي بن مره عندما وجد بلاداً جميلة أمام ناظريه ينساب فيها الماء من كل جانب وتنبت فيها الاعشاب والازهار في كل مكان . ورأى أيضاً ان عيني الفتاة اصبحتا مشقوقتين من الأعلى الى الأسفل بعد ان كانتا فوق الأرض كعيني البشر . ولكن ذلك لم يفقدها شيئاً من جمالها .

واقتادت الجنية علي بن مره الى والدها واخبرته بالقصة كاملة ، كيف انقذها علي من الذئب وكيف ترك علي جماله تموت وراء التل وانه يرغب في الزواج منها وانها ابدت استعدادها لذلك بشرط ان يعطي موافقته . فوافق الأب وأولاده في الحال على زواجها من علي وابدى جميع الجن في المكان اعجابهم وتقـديرهم لعلي لأنه انقذ أميرتهم من الذئب . وتبين علي ان هـذه الفتاة هي ابنة شيخ الجـن .

وقد وضع الجن شرطاً واحداً على علي بن مره وهو انه لن يسمي بعد ذلـك باسم الله بل باسم الجن ، وان لا يقوم بأي نوع من العبادة والصلاة باسم الله بل

بأسم الجن . وابلغوه انه اذا فعل ذلك فان اموراً رهيبة ستحدث له .

فوافق علي بن مره، وقد تيمه الحب، على هذه الشروط . فاحتفلوا بالزفاف بفرح عظيم وقدموا للفتاة مهراً غالياً .

وعاش علي مع الجن بعد الزفاف سبعة أيام وجد فيها ان الجن يعيشون كالبشر لهم جمالهم واغنامهم وماعزهم وخيامهم السوداء . والفرق الوحيد هو ان اعين الجن مشقوقة من الاعلى الى الأسفل وان طعامهم يطهى بدون ملح .

وبعد سبعة أيام سمح لعلي ان يصطحب عروسه ويخرج الى العالم الفوقي . وبعد وداع أهلها وأصحابها وضعت الجنية يديها على عيني زوجها علي واقتادته الى فوق الأرض من المكان الذي انحدرا به . وسر علي سروراً لا حد له عندما رأى أمام باب الكهف، جملا تتمتع بالعافية . وعندما تطلع بزوجته ليشكرها وجد ان عينيها تحولتا الى عيني بشر وانها أصبحت كغيرها من النساء ولكنها أجمل نساء الأرض. فابلغته ان هذه الجمال هي هدية من والدها بمناسبة الزفاف.

واقتاد علي زوجته وجماله الى نجران حيث تعيش أمه مره وهي من أشراف قبيلة قحطان . وهناك عاش سعيداً مع زوجته الجنية التي أنجبت له طفلة جميلة .

ومرت الأيام وأصبح عمر ابنته سبع سنوات كانت أحوال علي بن مره خلالها تتحسن باستمرار . وفي يوم من الأيام خرج في رحلة طويلة متعبة بحثاً عن جماله التي تشتتت واستغرقت رحلته عدة أيام عاد بعدها منهكاً. ولم تره زوجته قادماً لانها كانت تدير ظهرها الى المكان الذي قدم منه فوقف وراءها يتأملها وكانت هي تجلس القرفصاء نازعة شعرها الذي وضعته في حضنها تمشطه . ولم يكن علي يعرف ان تلك هي عادة من عادات الجن فأثاره رأسها العاري تماماً من الشعر فصرخ من الدهشة «باسم الله» ..

عندئذ ابرقت السماء وأرعدت وانفتحت الأرض وابتلعت زوجته وخيمته وكل مقتنياته . وانقذ علي نفسه بان ارتمى إلى الوراء ممسكاً ابنته بين ذراعيه بقوة حتى لا تختفي مع أمها .

وكبرت الفتاة وتزوجت أحد اقرباء والدها . وهذه الفتاة هي جدة آل مره

الذين يبلغ عددهم اليوم اكثر من ٢٠ الف نسمة .

هذه هي القصة التي أخبرني إياها محمد ابن سالم ابن دراهم المرّي .

واذا سئل أحد آل مره عن اسمه يقرن اسمه باسم أمه كأن يقول « انا علي ابن نورا ». وقال لي عدد من الأشخاص الذين بحثت معهم هذا الموضوع إن سبب ذلك وقائي فلا يكني واحدهم نفسه بأبيه أمام الغرباء بسبب الثارات الكثيرة في تلك المنطقة .

ولكن السبب في اعتقادي ان آل مره يفعلون ذلك تيمناً بجدتهم الجنية .

ويشتهر آل مره كما ذكرت سابقاً بقدرتهم على اقتفاء الآثار . وكثيرة هي القصص التي يروونها عن هذه الموهبة الخارقة . وهم يفتخرون بذلك ويتحدثون عنه دائماً . وتبلغ قدرتهم في الاستدلال الى حد يستطيعون فيه معرفـــة ابن من هذا الشخص أو ذاك الجمل دون ان يروه ولكن بمجرد التطلع الى آثار اقدامه . ويدعون ان هذه المعرفة موروثة من الجن والأرواح التي تسكن باطن الارض .

وفيما يلي أقسام قبيلة آل مره :

آل بحيه[1] : شيخهم الصعق وينقسمون الى قسمين آل سمره وآل سنيت .

الفهايده : شيخهم ابن شريم وينقسمون ايضاً إلى قسمين آل بريد وآل دريه.

آل جابر : شيخهم الجابر المراضف المعروف براعي جبرين إشارة الى ملكيته لواحة جبرين .

آل مهنا : شيخهم طالب المهنا .

آل نقدان : شيخهم الأعلى فيصل ابن نقدان من فرع آل عضبه الذي ينتمي اليه صديقنا محمد ابن سالم ابن دراهم المرّي الذي أعطاني كل هذه المعلومات بما فيها أسماء الشيوخ التي ورد ذكرها في هذه الفقرات . أما الفروع الأخرى من نقدان فهي : آل غفران وآل غياثين وآل جرابعه .

وقد حالفنا الحظ انا وزوجتي والتقينا بالشيخ محمد ابن صالح ابو ليلى شيخ آل غفران عندما قدم مع اخته نورا لشراء بعض الحاجيات من الكويت . وقد قمنا نحن بزيارتهم في خيام آل عجمان على تلة الشامية خارج الكويت وهي مكان

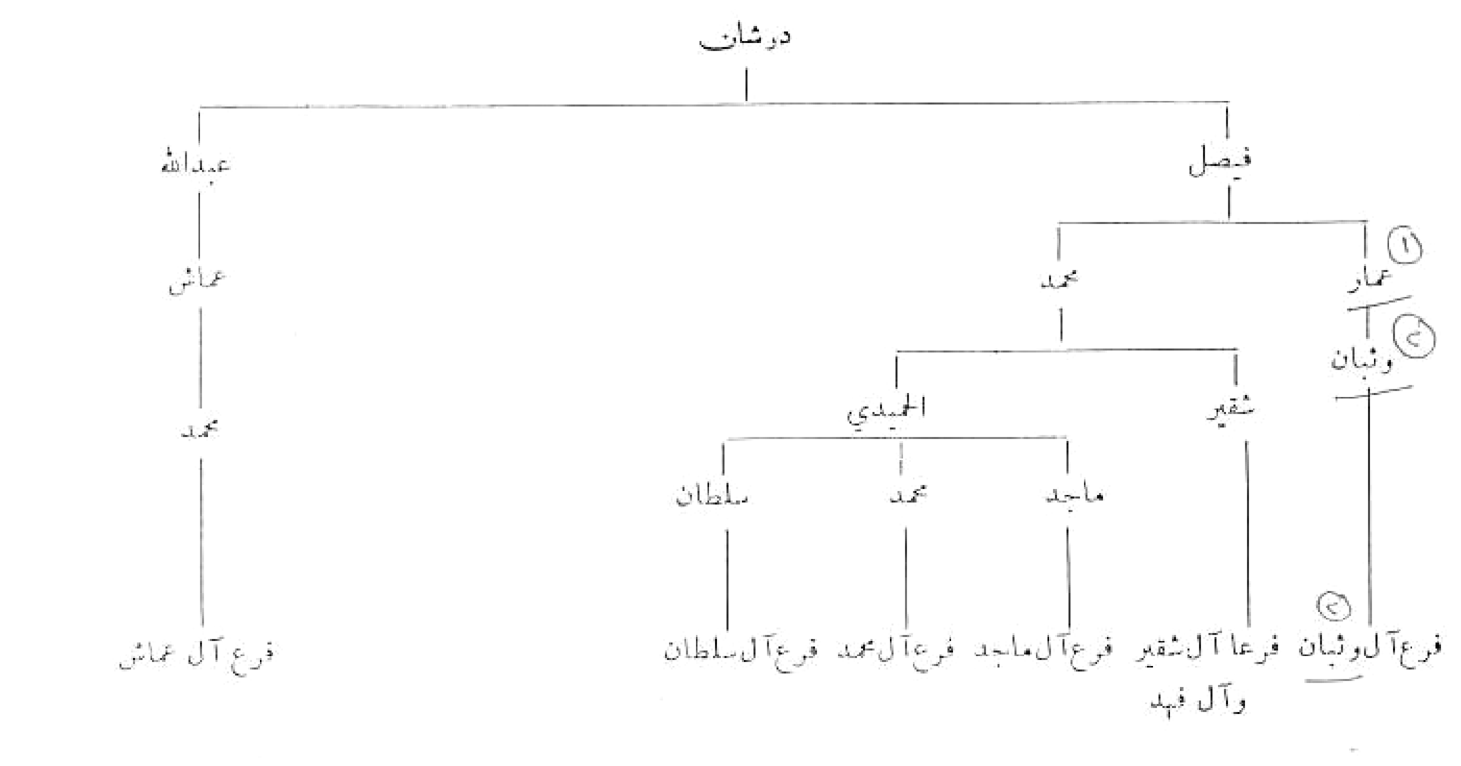
يخيم فيه البدو في الصيف. ولم يكن لدى الشيخ محمد واخته خيمة بالمعنى الصحيح لأنهما مسافران بل كانا يقيمان في مكان مكشوف وحوائجهما وماشيتهما في زريبة حولهم. وفي اليوم التالي جاءا لزيارتنا في المنزل وأظهرت لنا الفتاة وداً وصداقة كبيرتين. وقالت انها لأول مرة ترى امرأة انكليزية او رجلاً انكليزي وبدى عليها بعض القلق لوجودها داخل منزل خوفاً، كما قالت فيما بعد، من ان ينهار عليها السقف ويسحقها. ولم تشاهد مدينة إلا مرة في حياتها وهي الهفوف ولكنها لم تدخلها. وقد سررنا بالحديث معها. وهذه الفتاة تبلغ من العمر ٢٤ عاماً بسيطة دائمة الابتسامة كثيرة الفضول ولكنها أقل عصبية من غيرها من بنات مثير(١) أو عجمان. وقالت انها ترغب في البقاء معنا دائماً.

وكان شقيقها أيضاً رائعاً ويتكلم كأخته لغة عربية جميلة يسهل فهمها أكثر من لغة العجمان والقبائل الشمالية. وفي البحث عن الأنساب وخاصة فيما يتعلق بعمر قبيلة آل مره ذكر لي بدون تردد وبأقل من لمح البصر أسماء اثنين وعشرين من أجداده حسب التسلسل – أي الى حوالي القرن الثاني عشر – وقال إنه نسي البقية. ووافق الشيخ محمد ان الجد الأول لقبيلة آل مره هو علي ابن مرة (الملقب بعلي الكافر) وأعرب عن اعتقاده ايضاً ان آل عجمان لا ينحدرون من يم شقيق علي بل من مرزوق ابن علي.

مثير(١)

ان قبيلة مثير من ابرز قبائل الجزيرة العربية ولهم تقاليد رائعة. وتنقسم هذه القبيلة الى ثلاثة أقسام: آل دوشان وهم الحاكمون في القبيلة، وآل علوه، وآل بريح(٢). ويمتد هؤلاء من الكويت في الشمال الى حزام الدهانه الرملي في الجنوب ويلتزمون الجانب الشرقي من الباطن ويتجنبون بلاد العجمان والعوازم. وكانت مراعيهم دائماً في الاماكن المجاورة للكويت. وهم يهتمون بصورة خاصة بتربية الجمال والخيول. وقد اشتهروا في الحروب بقدرتهم على شن هجمات مفاجئة من قواعد بعيدة.

(١) مطير
(٢) بريه
(٣) الدهنا


وطبان
عائلة آل دويش
درشان
فيصل
عبدالله
عمار
محمد
عماش
وثبان
شقير
الحميدي
محمد
ماجد
محمد
سلطان
فرع آل وثبان
فرعا آل شقير وآل فهد
فرع آل ماجد
فرع آل محمد
فرع آل سلطان
فرع آل عماش

فرع آل سلطان

سلطان

- مزيونه (انثى) زوجة عبدالله من فرع آل ماجد
- فيصل زوجته عمشا بنت محمد من فرع آل محمد
  - هيا (انثى) (1) زوجة هزاع (2) ابن بدر من فرع آل محمد
  - بندر زوجته الثالثة الجازي بنت محمد الحزام آل هذلان
  - عبد العزيز يعرف باسم عزيز مات عطشا في معركة ام الرضما سنة ١٩٢٩ (3)
- غاليه (انثى) زوجة فيصل من فرع آل ماجد
- وضحى (انثى) زوجة بدر من فرع آل محمد
- محمد
- بندر

صفحة عزاع ٢/هـ

وينقسم الدوشان الى عدة اقسام ولكنها كلهـا فروع من عائلة الدويش . وهذه الاقسام مع رؤسائها هي كما يلي :

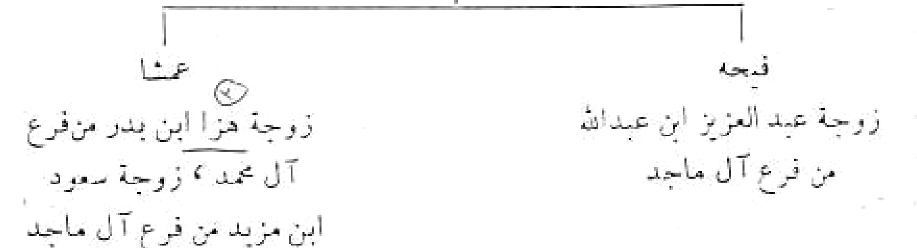
آل عماش — محمد ابن عماش آل دويش .
آل سلطان — بندر ابن فيصل بن سلطان آل دويش .
آل محمد — محمد ابن بدر آل دويش .
آل ماجد — عبد العزيز ابن عبدالله الماجد آل دويش .
آل شقير — تراحيب ابن بندر الشقير آل دويش .
آل فهد — ماجد الاسقى آل دويش .
آل وثبان — محمد ابن بندر الوثبان آل دويش.

وعلى الصفحة ٨٦ يرى القارىء النسب المشترك لهذه الفروع .

وشيخ الدوشان الاعلى وشيخ جميع مطير هو اليوم بندر ابن فيصل ابن سلطان آل دويش وهو ابن فيصل آل دويش الشهير . وهؤلاء من فرع آل سلطان كما يبدو على الصفحة ٨٧ . وقد تزاوج آل دوشان مع عائلة آل جبعه .

أما فيما يتعلق بالفروع الآخرى فيظهر ذلك من الانساب الواردة في هـذه الصفحة والصفحات التالية والتي حذفت منها الاسماء التي لا علاقة لها بالبحث وهذه الانساب ذات فائدة للالمام بالاحداث التي سنسجلها .

فرع آل عماش



فرع آل محمد

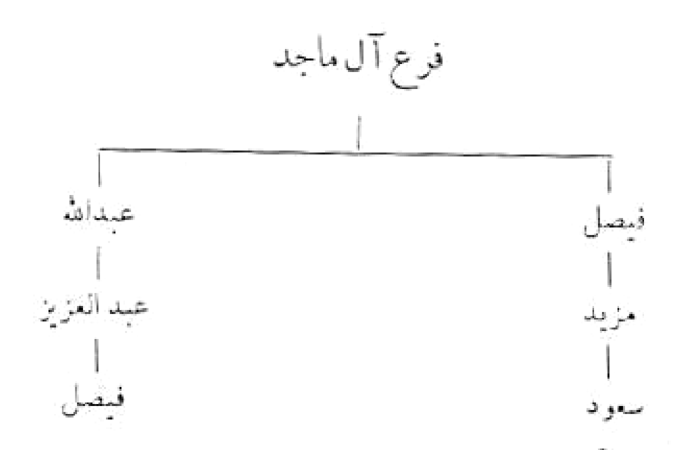
عمشا
زوجة فيصل آل دويش

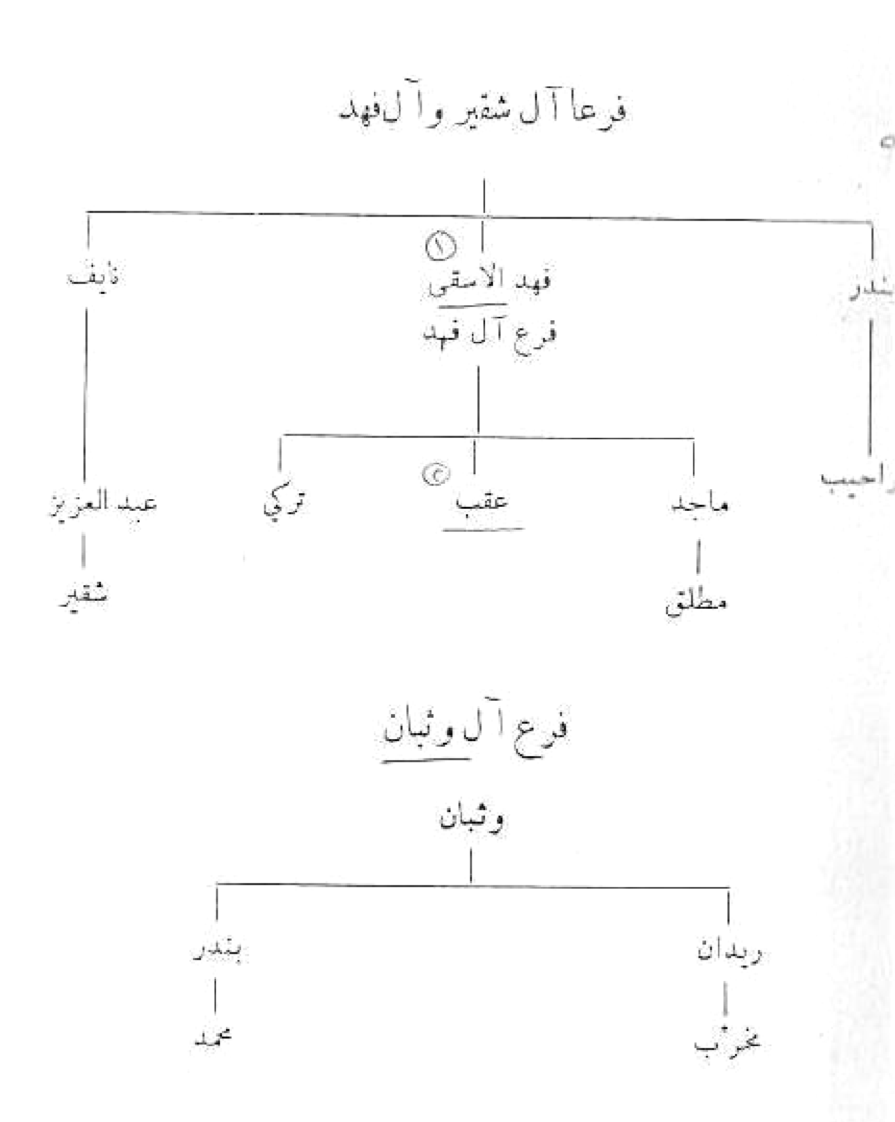
بدر
زوجته وضحى اخت
فيصل آل دويش

(١) هزا
زوجته عمشا بنت محمد من فرع
آل عماش طلقها سنة ١٩٣٠ ،
وزوجته الثانية عمشا بنت فيصل
آل شبلان، وزوجته الثالثة هنا (٢)
اخت فيصل آل دويش .

محمد
امه وسميه
بنت الجبعه

(١) هزاع
(٢) حصة





أما الجماعة الثانية من مثير آل علوه فينقسمون الى الفروع التالية :

آل مواهه

شيخهم الأعلى بنـــدر آل دويش ويتفرع عنهم آل رحمان (شيخهم ابن جريبان) .

آل سحبه

شيخهم الأعلى جفران الفقم ويتفرع عنهم آل ضاوعون الذين اعتقد انهم في الأصل من بـني عبدالله . وابن جبرين هو شيخ الضاوعون مع ان البدو يدعون ان غيره احق منه بالزعامة .

آل جبلان

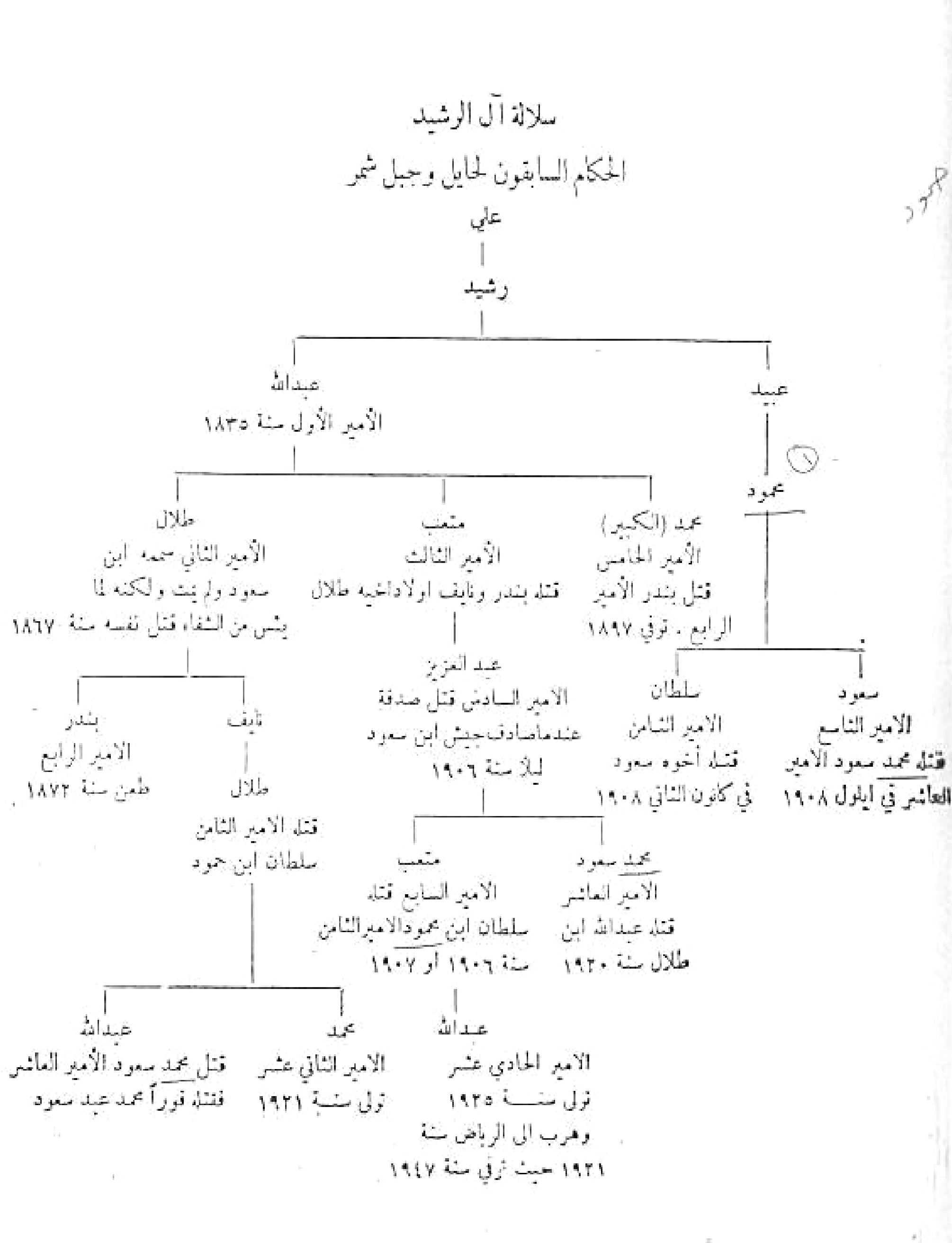
شيخهم الأعلى سهود ابن لامي ويتفرع عنهم آل لحايه (او يحيى) وكان شيخهم فيصل آل شبلان احد زعمـاء ثورة الاخوان على ابن سعود سنـة ١٩٢٩ – ١٩٣٠ . وبعد موته اصبح ابن أخيه المدعو مسيار شيخاً على لحايه .

اما الجماعة الثالثة من مطير ، آل بريج ، فتتفرع عنهم ثلاثـة فروع : أولاد واصل (شيخهم ابن عشوان) ، وأولاد علي ، وبني عبدالله .

ويشترك أولاد واصل بنفس الأرض مع اغلبية مطير ، ولكن أولاد عـلي فيقطنون الى الجنوب والغرب من حزام الدهانه الرمـلي وخاصة في قسيم ونحو الحجاز بينما ينحصر بنو عبد الله في داخل نجد .

ومن فروع اولاد واصل : آل دياهين وشيخهم الأعلى أباد المـترقي ، وآل برزان وشيخهم الأعلى ابن شويربات . وقد احدثت هذه العائلة المرموقة مشاكل كثيرة في أيامها . وتعتقد قبائل شمال شرق الجزيرة العربيـة ان انجع دواء لداء الكلب هو كأس من دم برزاني ولذلك فان افراد هـذا الفرع من مطير مطاردون من أولئك الذين عضتهم الكلاب المسعورة والذئاب. ومن الفروع المعروفة ايضاً آل سعران وشيخهم ابن بنيس ، وآل مـامح وشيخهم سلطان ابن مهيلب . وهنالك فرع من بني عبدالله يدعون آل ميمون فيهـم عدة اشخاص يدعون المشيخة .

وهنالك اثنتان من القبائل غير الشريفة في مطير هي الرشايده وشيخهم آسي ابن مسيلم الذي توفي سنة ١٩٥٤ وأولاد عمهم آل هرشان ، تدينـان بالولاء للكويت .



سلالة آل الرشيد
الحكام السابقون لحايل وجبل شمر
علي
رشيد
عبيد
عبدالله
الأمير الأول سنة ١٨٣٥
حمود
محمد (الكبير)
الأمير الخامس
قتل بندر الأمير
الرابع . توفي ١٨٩٧
متعب
الأمير الثالث
قتله بندر ونايف اولاد اخيه طلال
طلال
الأمير الثاني حممه ابن
سعود ولم يثبت ولكنه لما
يئس من الشفاء قتل نفسه سنة ١٨٦٧
سعود
الامير التاسع
قتله محمد سعود الامير
العاشر في ايلول ١٩٠٨
سلطان
الامير الثامن
قتله أخوه سعود
في كانون الثاني ١٩٠٨
عبد العزيز
الامير السادس قتل صدفة
عندماصادف جيش ابن سعود
ليلا سنة ١٩٠٦
نايف
بندر
الامير الرابع
طعن سنة ١٨٧٢
طلال
قتله الامير الثامن
سلطان ابن حمود
محمد سعود
الامير العاشر
قتله عبدالله ابن
طلال سنة ١٩٢٠
متعب
الامير السابع قتله
سلطان ابن حمود الامير الثامن
سنة ١٩٠٦ أو ١٩٠٧
عبدالله
الامير الحادي عشر
تولى سنة ١٩٢٥
وهرب الى الرياض سنة
١٩٢١ حيث توفي سنة ١٩٤٧
محمد
الامير الثاني عشر
تولى سنة ١٩٢١
عبدالله
قتل محمد سعود الأمير العاشر
فقتله فوراً محمد عبد سعود

أهل نجران

هكذا يدعى سكان مقاطعة نجران في جنوب غرب الجزيرة العربية . وقد كانوا في السابق تحت حكم امام اليمن ولكنهم اليوم تابعون للملك سعود عاهل المملكة السعودية .

قحطان

وهي قبيلة من الأشراف في جنوب غرب الجزيرة العربيـــة تنحدر منها عن طريق آل شمر عائلة آل رشيد الملكية التي كانت تحكم حايل وجبل شمر . وتتفرع عائلة جبعه ايضاً من قحطان . وقد سكن هؤلاء منذ وقت طويل مع الدوشان (من مطير) وتزاوجوا معهم وزعيمهم اليوم هو محمد ابن مطلق الجبعه .

قواسم

قبيلة من الأشراف على سواحل عمان .

آل رشايده

وهم قبيلة من غير الأشراف في مطير يدينون بالولاء لشيخ الكويت . ومنهم كثيرون يعملون في تدريب الصقور او البزاة للصيد الخاصة بالبلاط الملكي . بينما يعمل قسم آخر منهم فداويه . ويتفرع الرشايده الى ١٥ فرعاً وهم متحالفون مع أولاد ضمهم آل هرشان .

آل رشيد

وهم الحكام السابقون في حايل وجبل شمر وينحدرون من فرع آل جعفر المنحدر من آل عبده من قبيلة شمر . وقبل نشوء أميرهم الأول عبدالله ابن رشيد ، كانت عائلة ابن علي – من فرع آل جعفر ايضاً – هي الحاكمة في حايل باسم آل سعود الذين كانوا يسيطرون على وسط الجزيرة العربية . واليوم فان محمـــد آل

رشيد الأمير الثاني عشر رهينة في بلاط الملك سعود .

آل رشيد

قبيلة صغيرة في جنوب الجزيرة العربية لا علاقة لها بآل رشيد في حايل .

آل صباح

لقد اتينا على التفاصيل فيما يتعلق باصل هذه العائلة الحاكمة في الكويت اليوم ، في الفصل الأول من الكتاب . وسنلحق في آخر الكتاب شجرة لهذه العائلة لاطلاع القارىء وقد حذفت منها الأسماء التي لا علاقة لها بالبحث .

سهول

قبيلة من الاشراف تتصل بقبيلة سبيع وديرتها في الاحساء ووسط الجزيرة العربية .

سيّار

قبيلة تسكن داخل حضرموت في جنوب الجزيرة العربية . وقد اخبرني صديقي محمد ابن سالم ابن دراهم المري ان قبيلة سيار من أسوأ القبائل في الغزو ولكنهم يخافون من آل مره .

آل سعود

حكام المملكة العربية السعودية وكانوا في القرن الخامس عشر امراء ضرعيه عاصمة نجد القديمة . وهم ينتمون إلى قبيلة المساليخ في عنيزه التي هي نفسها فرع من ولد علي في عرب نجد وينحدرون من اسماعيل عبر عدوان . وبناء على ما يقوله آل سعود فانهم ينحدرون من بني بكر وائل عبر مهنا ابن ربيعه ملك نجد والاحساء وعمان في القرن الخامس عشر . وسننشر شجرة نسبهم في

آخر الكتاب لاطـــلاع القارىء . وعند توفي الملك عبد العزيز آل سعود في ٩ تشرين الثـــاني سنة ١٩٥٣ خلفه ابنه الأكبر سعود ، واعلن ابنه الثاني فيصل ولياً للعهد ورئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع .

سبيع

قبيلة من الاشراف في الاحساء ووسط الجزيرة العربية (راجع بني كعب) .

شمر

قبيلة من الاشراف في الجزء الشمالي من وسط الجزيرة العربية حـــول حايل وجبل شمر ويدينون اليوم بالولاء للملك الســعودية . وهم ثلاثه فروع : آل عبده ، وآل أسلم ، وآل سنجاره . وينحدر بيت آل رشيد الملكي من آل عبده من قحطان . وفروع آل شمر الثـلاثة ينحدرون من قحطان ولكن الشيخ ضيدان ابن عقلة وهو الشيخ الأعلى في آل زعب اخبرني ان آل عبده فقط يحق لهم التظاهر بهذا الانتساب .

آل سديري

عائلة مرموقة في نجد . وسنذكر تـــأثيرها على إدارة الحـكم الســعودي في شجرة نسبوهم على الصفحة التالية .

صلبة

مرشدون وصيادون مهرة ولكنهم يقـــال عنهم انهم ينحدرون من بقايا الصليبيين ، ويحتقرهم البـــدو في الصحراء كثيراً . وهم أقرب الى مجتمع منهم إلى قبيلة وهم يقيمون بمجموعات سكنية ثابتـــة خارج أسوار المدن كالكويت وزبير . ونساؤهم لا يتقنعن ولا يضعن الملفع على الجزء الأسفل من الوجه .

١٠١

عائلة السديري

الاب

سارة
ام الملك عبد العزيز آل سعود

سعد
امير المدينه وخال الملك عبد العزيز آل سعود

أحمد
خال الملك عبد العزيز آل سعود

سليمان
امير ليث

تركي (١)
امير ابحه عاصمة عسير

خالد
امير تبوك

عبد الرحمن
امير سكاكه ١٩٥٠

عبد العزيز
امير قريات قرب الجوف ١٩٥٠

محمد
امير الجنود * في سكاكه ١٩٥٠

---

* امير الجنود هو قائد فرقة الهجانة المتمركزة في سكاكه قرب الجوف لحماية خط انابيب التابلاين الممتدة من الاحساء الى صيدا في لبنان .

قبيلة من الاشراف في الجزء الغربي من وسط الجزيرة العربية . وتنقسم هذه القبيلة إلى فرعين : آل حميد وآل روقه . وكانت قبيلة عمار في وقت من الأوقات فرعاً قوياً من عتيبه .

آل زعب (وعدوان)

قبيلة صغيرة من الاشراف ليس لها موطن محدد وهي شقيقة قبيلة صغيرة أخرى تدعى عدوان . وهاتان القبيلتان دائماً ترحلان معاً وتقيمان معاً ,واخبرني الشيخ ضيدان بن عقب من كبار شيوخ آل زعب في الاحساء ان عدوان ، وهي القسم الأقل شأناً اليوم ، كانت قبيلة عظيمة في زمن الرسول ﷺ وكانوا يستطيعون تجنيد الف خيال عدا عن الهجانة . وهم قبيلة من اشراف العرب المستعربة (من نسل اسماعيل) .

اما اليوم فان آل زعب منتشرون في كل مكان ويستطيع المرء ان يجد منهم ٢٠ او ٣٠ خيمة بين كل قبيلة تقريباً في الجزيرة العربية . وهم لا يستطيعون الاتحاد لأن لعنة الرسول حلت عليهم بسبب ضبط أحدهم وهو يسرق حذاء الرسول .

واشتهرت نساء آل زعب بجمالهن الخلاب وقد روى لي الشيخ ضيدان مثلاً قديماً يقول : لا تتزوج امرأة من زعب ولا تركب جملاً عمانياً ، فالاولى تهدم بيتك والثانية تفسدك .

القِسمُ الثاني

لا يقدم القوم الا خيارها

* الاحداث التاريخية التي سردها المؤلف في هذا الفصل تحتاج الى مراجعة فهي كثير...
اما الاسماء فقد تم تحريفها

الفصل الرابع

نشوء وانهيار الوهابية *

١٧٤٢-١٨٩٣

١) العيينة
٢) العارض
٣) يحتاج تعليق

في حوالي نهاية القرن السابع عشر ، انقسمت نجد والجزيرة العربية عموماً ، باستثناء عمان واليمن والحجاز ، الى مقاطعات ومدن مستقلة يحكم كل واحـــدة منها أحد زعماء القبائل بحماية البدو . أما الدين فقد نسي ، إلا باشكاله البدائية ، بين أهل المدن وانتهى من الوجود عملياً بين رجال القبائل .

ويقول ويليام بلغريف في أحد كتبه عن الجزيرة العربية : ولا تزال الطقوس الدينية والخرافات المتصلة اتصالاً وثيقــاً بالصابئية ، كعبادة الشمس والقمر والنجوم ، كما كان الحال قبل الاسلام ، تجـد من يفضلهـــا ، بينما اصبح الطهور ومراسم الزواج المقدسة شيئاً ميتاً .

وفي سنة ١٦٩١ ولد في مدينة عيانه (١) في جنوب العريض (٢) احـدى مقاطعات نجد ، شخص يدعى محمد ابن عبد الوهاب . وكان والده من قبيلة تميم التي كانت يقودها بيت ابن علي وسيطرت على كل جبل شمر في ذلك الوقت . (٣)

وعندما بلغ محمد سن الرشد بدأ يتعاطى التجارة كما يفعل معظم شبان نجـد

الى اليوم . وكانت رحلته التجاريـــة الأولى الى البصره فبغداد . وبالنتيجة الى دمشق حيث التقى بعدد من علماء الدين المتزمتين وكانوا من السنة وبعضهم يدين ، مثله ، بالمذهب الحنبلي وبعضهم الآخر بالمذهب الشافعي .

وكان هؤلاء العلماء يعارضون المفكرين غير المتزمتين في الشمال ، ويعارضون الخرافات التي يمارسها الدراويش وما شابه ذلك ، ويعارضون كل مـــا ادخله الفرس والاتراك من افكار الى الشرق العربي .

[ويقال ان محمد ابن عبد الوهاب زار البنجاب في الهند قبل ان يتوجـه الى البصره ، وهناك التقى بمؤسس الجماعة التي تميـل الى الحرب والقتال ، السيخ . ولكن هذه الرواية مشكوك بصحتها .]

وبعد ان اكمل محمد ابن عبـــد الوهاب دروساً في الشرع بدمشق ، حج الى مكة والمدينة وعاد بعد ذلك الى موطنه نجد حيث تزوج وأقـــام في قريـــة حريلاما قرب ضارعيه عاصمة نجد في ذلك الوقت. وهناك وفي عيانه بدأ تعاليمه. ومظاهر هذه التعاليم الاساسية هي :

١ – اعادة تركيز المعتقدات المحمدية كما وردت في القرآن ورفض كل مـــا عدا ذلك من المعتقدات والتقاليد التي قبلها السنة .

٢ – عدم الاعتراف بأي سلطة روحية للعثمانيـــين ، أو أي خليفة آخر ، وبأي احترام خاص يتوجب اداؤه لاشراف مكة (السادة الذين ينحدرون من الرسول) ، أو للقديسين والاولياء ، أو للدراويش وغيرهم من الاشخاص .

٣ – اعادة الانضباط في قضايا الصلاة والصوم والحج .

٤ – تحريم الخمر ، والتبـــغ ، والعاب القمار ، والسحر ، ولبس الذهب والفضة ، واقامة احجار تذكارية على قبور الأموات .

وكان محمد ابن عبد الوهاب يتمتع بحيوية جسدية وفكرية ، وساعدته تجربته في دمشق ، كما قال بلغريف ، على جمع آرائه وبوتقتها وتحديدها بوضوح . وقـد كانت قبـــل ذلك في ذهنه بصورة مشوشة غير منتظمة . فقد تعلم ان يميز بين عناصر الاسلام الأساسية وبين ما طرأ عليها من بدع حديثة . وأخيراً وجـــد

زمنه بتلك الفكرة الأولية نقطة انطلاق الرسول وصحبه في الحجاز قبل اثني عشر قرناً .

وفي سنة ١٧٤٢ نجح محمد بن عبد الوهاب في اقناع وتحويل محمد ابن سعود حاكم العريض . وكان محمد ابن سعود ينتمي الى قبيلة المسالیخ من عنيزه ، فلما اعتنق افكار محمد بن عبد الوهاب ، تبعه الكثيرون من سكان ضارعيه والمناطق المجاورة فأصبح رأس هذه الديانة المستصلحة ، وكما يدعي الوهابيون ، رأس الاسلام كله .

وبفضل توجيهات مجالس محمد بن عبد الوهاب ، والموجة الجديدة العارمة من التعاليم الجديدة ، استطاع محمد ابن سعود ان يبسط سلطانه على كل العريض ثم على القسم الأكبر من نجد ، فأصبح بذلك سنة ١٧٤٥ أول أمير وهابي في تلك المقاطعة . وكان اشد خصومه أهل الرياض الذين صمدوا طويلاً بقيادة الشيخ محمد ابن دوس تسانده ابن عراعر العائلة الحاكمة في قبيلة بني خالد الشريفة . وهؤلاء ـ أي بني خالد ـ يشبهون الى حد كبير آل السعدون في المنتفق الكبير بالعراق . فهم يملكون منطقتي الاحساء والقطيف . ومع انهم اجبروا على دفع الجزية ، فقد كانوا دائماً على عداء مع آل سعود ولا يزالون كذلك حتى اليوم .

وكان من اشد خصوم الوهابية ثنيان ابن سعود شقيق الأمير محمد الذي لا يزال نسله ينتمي الى معارضي الوهابية في العريض . ولكنه تجدر الاشارة هنا الى ان احمد ابن ثنيان رئيس هذا الفرع المعارض من آل سعود ، قام سنة ١٩١٩ بزيارة لندن مع فيصل ابن عبد العزيز آل سعود وظل الى يوم موته من أشد مؤيدي هذا الحاكم .

توفي محمد ابن سعود سنة ١٧٦٥ وخلفه ابنه عبد العزيز . اما محمد ابن عبد الوهاب فقد عاش عمراً طويلاً وتوفي سنة ١٧٨٧ .

علي باشا يهاجم الاحساء

وكان الأمير الثاني في نجد رجلاً قوياً طموحاً . فبعد أن أخضع نجد والاحساء

أخذ يتوسع بقوة السلاح شمالاً حتى البصرة والأراضي العراقية التي كانت تضم ثلاث ولايات عثمانية هي بغداد والبصرة والموصل وكانت تشكل جزءاً من الأمبراطورية العثمانية .

وقد افزعت هجمات عبدالعزيز على تلال سنجار قرب الموصل في شمال العراق الحكومة العثمانية بحيث انها جردت عليه حملة سنة ١٧٩٨ بقيادة علي باشا . وكانت هذه القوة التي سارت من بغداد الى الاحساء تضم اربعة أو خمسة آلاف من المشاة تدعمهم المدفعية ومفارز كبيرة من البدو الذين تم جمعهم من المنتفق والظافر(١) والقبائل الأخرى المعادية للوهابية . واستطاعت هذه القوة التي اتخذت طريقها على الساحل ان تخضع القسم الأكبر من الاحساء ولكنها فشلت في احتلال العاصمة المحصنة ، الهفوف .

وعندما اضطر علي باشا الى التراجع شمالاً اصطدم بقوات سعود ابن عبدالعزيز آل سعود (ابن الأمير) الذي كان مركزه قرب آبار ثيج(٢) . ولم يكن هناك بد من وقوع معركة طاحنة بينهما ولكن وساطة البدو القاطنين هناك افلحت في تجنب وقوع المعركة بشرط ان يسمح لقوات علي باشا ان تعود الى البصرة دون ان يتعرض لها أحد . ونتيجة لذلك عاد سعود فاستولى على الاحساء وانزل العقاب بأولئك الذين خضعوا للأتراك .

وأسهم هذا الحادث اسهاماً كبيراً في انتشار الوهابية وامتدادها واخذت تنهال عليهم عروض الخضوع والولاء من كل جانب . ووجد الأمير عبدالعزيز انه من الحكمة ان يصالح بغداد فأرسل هدايا ثمينة وقطيعاً من الخيول الأصيلة كعربون لاسترضاء الوالي سليمان باشا .

ويظهر ان الأمير كان رجلاً محباً للسلام متواضعاً بسيط المظهر والعادات ومخلصاً أشد الاخلاص . ولكن ابنه سعود كان محارباً وهو الذي دفع بالوهابية الى التوسع والانتشار . وتجدر الملاحظة هنا كيف ان طباع هذا الأمير وابنه تنعكس تماماً في الأمير عبدالرحمن وابنه الملك الراحل عبدالعزيز آل سعود والد الملك الحالي .

واصبحت الوهابية دولة لها حكومة ثابتة وادارة مركزية ونظام للضرائب بدلاً من الجزية وجيش على أهبة الاستعداد بقيادة سعود .

وكانت هنالك، كما في الوقت الحاضر ، معارضة شديدة للوهابية في الصحراء حيث يتمسك البدو بتقاليدهم واستقلالهم. وزاد تلك المعارضة ضراماً الانضباط الديني الصارم الذي فرض عليهم .

فقسم (1) وجبل شمر حيث تتركز حياة البداوة ، لم تقبلا المعتقدات الوهابية بحماس ، بينما قبلتها الاحساء بالاكراه لأن سكانها شعب عامل تربطه بالهند وبلاد فارس علاقات تجارية . ويبدو ان جنوب نجد وحده هو الذي أقبل على الوهابية بتعصب . وكان هذا التعصب قوة للوهابية وسبباً في انتشارها .

وفي سنة ١٧٩٩ حج سعود إلى مكة لأول مرة على رأس أربعة آلاف من اتباعه المسلحين . وقد تكرر هذا العمل سنة ١٨٠٠ . وحتى وقت قريب كان طريق الحج من بغداد والبحرين إلى مكة عبر نجد ممنوعاً على الشيعة الذين ينظر اليهم الوهابيون بأنهم كفرة لمعارضتهم السنة . وقد اثار ذلك شعور العداء للوهابية في العراق وايران حيث اغلبية السكان هم من الشيعة بحيث ان ايرانياً من كربلاء اقدم على اغتيال عبدالعزيز . ويقول الكولونيل روس المقيم البريطاني في بوشير في ذلك الوقت ان هذا الحادث وقع سنة ١٨٠٣ . ولكن آل سعود يقولون انه حدث سنة ١٨٠٠ . وهذا التاريخ اكثر انطباقاً على الواقع . ومثلاً على ذلك ، جردت حملة سنة ١٨٠١ على عمان بقيادة سليم (2) الحرق احد ضباط سعود. وفي نفس السنة زحف سعود نفسه على رأس عشرين الف رجل الى الفرات في ٢٩ نيسان وهاجم كربلاء وأعمل السيف في رقاب كل الذكور من سكانها ونبش قبر الحسين وعاد محملاً بالغنائم .

وكان نجاح هذا الهجوم ، باسم الاصلاح الديني ، على مدينة ضمن خراج السلطان ، مبعثاً للرعب والدهشة في جميع انحاء العالم الإسلامي .

وقد فرضت الجزية على جزر البحرين سنة ١٨٠٢ . وامتدت الوهابية على طول الشاطىء الشرقي الى الباطنه على خليج عمان . واعتنقت عدة قبائل عمانية

(1) القصيم
(2) سالم

المذهب الوهابي ودفعت الزكاة للأمير سعود . وبعض تلك القبائل وعلى رأسها القواسم ورأس الخيمه لا تزال على المذهب الوهابي الى اليوم .

وفي سنة ١٨٠٣ نشأ خلاف مع غالب شريف مكة . فزحف سعود الى الحجاز على رأس جيش قوي واحتل الطائف ودخل مكة في اول أيار فعزل غالب وعين مكانه شريفاً على مكة من اتباعه . ولم يظهر سعود في تلك الحملة بمظهر العدو بل بمظهر الحجاج ومنع جنوده من السلب والنهب والاعتداء .

والحادث الوحيد الذي سمح به وتميز بالعنف هو تحطيم بعض القبور الكبيرة في المدينة بحيث انهم هم أنفسهم قالوا : لم تعد هنالك أصنام في هذه المدينة الطاهرة .

وألغى سعود الضرائب والجمارك وحطم أدوات شرب التبغ ومساكن اولئك الذين يبيعون الحشيش والتبغ ، وأماكن الدعارة . وعاد بعد ذلك الى نجد حيث قبل خضوع كل وسط الجزيرة العربية بما في ذلك المدينة المنورة .

ويمكن اعتبار هذه المرحلة ذروة سيطرة الوهابية . فقد عم النظام وحكم القانون الجزيرة العربية باشراف حكومة مركزية . وعند عودته الى ضارعيه وعد سعود ، وشدد الوعد ، بحماية الارواح والممتلكات والتجارة في جميع أنحاء امارته . وقد استمرت هذه الحال عدة سنوات .

بدء العلاقات البريطانية ــ الكويتية

بدأت العلاقات بين بريطانيا والكويت سنة ١٧٧٥ أيام حكم الشيخ عبدالله والد مريم عندما كان الايرانيون يحاصرون البصرة ، فاضطر البريطانيون الى ارسال بريد الصحراء من الخليج الفارسي الى حلب من الكويت . وقد استمر هذا الوضع حتى سنة ١٧٧٩ .

وفي سنة ١٨٠٥ طلب الشيخ عبدالله وحاكم زباره ، الدولة الحديثة التي انشأها آل خليفه على الشاطىء الغربي لشبه جزيرة قطر عندما تركوا الكويت ، من البريطانيين ضمانات تكفل لهم ملجأ يتراجعون اليه في البحرين في حالة

انقطاع وتوتر العلاقات بينهم وبين الوهابيين الذين كانوا يمثلونهم والذين قد يجبرونهم على القيام بعمليات تعرقل التجارة البريطانية . ولكن هذه المقترحات لم تلاق ترحيباً .

وفي سنة ١٨٠٧ جرد سعود حملة ثانية على الفرات وحاصر مدينة النجف الاشرف المسوّرة ولكنه فشل في دخولها فاضطر الى التراجع . وبعد سنتين من هذه الحملة جهز جيشاً قوامه ٣٠الف رجل ليهاجم به بغداد ولكنه صرف النظر عن هذه الخطة عندما وقعت اضطرابات في داخل نجد . وبدلاً من ذلك زحف الى الحج في مكة وعاد بطريق المدينة التي ضمها الى امبراطوريته .

وظلت قوات الوهابيين تحرز تقدماً في عمان . ويظهر ان اسمهم عرف في الهند لاقترانه بأعمال القرصنة التي ارتكبت في المحيط الهندي . وهذا ما دفع البريطانيين بالاتفاق مع سلطان مسقط ، الى تجهيز حملة ضد معاقل قبيلتي رأس الخيمه والقواسم على مدخل الخليج الفارسي . وقد عرض على الشيخ عبدالله حاكم الكويت الاشتراك في هذه الحملة لكنه رفض . ونجحت الحملة وكان من نتائجها الزام القواسم بمعاهدة تفرض عليهم احترام العلم البريطاني وممتلكات البريطانيين ومساعدة السفن البريطانية التي ترسو على شواطئهم .

وقد نقض القواسم الاتفاقية عدة مرات مما اضطر البريطانيين الى تجريد حملة عليهم سنة ١٨١٩ ادت الى هزيمة رأس الخيمه والى عقد سلسلة معاهدات جديدة مع القواسم وقبائل الساحل العماني . وظلت هذه المعاهدات سارية الى اليوم .

ولم تفت هذه العمليات البريطانية من عضد الوهابيين ، فتقدموا في السنة الثانية الى مطره[1] على بعد عدة اميال من مسقط ومنها الى البحرين فاحتلوها وعينوا عليها حاكماً عسكرياً يدعى ابن اهفيصان . ولا تزال القلعة التي بناها قائمة الى اليوم ويستخدمها سمو الشيخ سلمان آل خليفه الحاكم الحالي مقراً رئيسياً للشرطة .

وبعد ذلك هاجم سعود العراق وفي سنة ١٨١١ وصل ابنه عبدالله في حملته الى ضواحي بغداد ، بينما هاجم قائده ابو نقطه ، وهو بالاصل عبد ، سورية

وفرض الفدية على دمشق . وقد انقذت المدينة بفضل التفاف بدو الشمال تحت قيادة ابن شعلان شيخ فرع الروله من قبيلة عنيزه الذي هزم ابو نقطه على العاصي مما دفع جيوش الوهابيين الى التراجع مرة ثانية الى نجد .

الاجراءات التركية ضد نجد

وبالرغم من ذلك كان من المحتمل ان تمتد امبراطورية الوهـــابين الى البحر المتوسط ويشتمل مذهب محمد بن عبد الوهاب الشعب العربي كله ، فاتضح الخطر على الدين الاسلامي الحنيف .

وقد ظهر الاتراك لأول مرة في الجزيرة العربية سنة ١٥٢٤ بعد ان فرغ السلطان سليم الاول من غزو مصر واغتصب الخلافة من العباسيين واحتل مكة والمدينة وضم اليمن الى ممتلكاتـــه . ولكن الاتراك لم يستطيعوا في وقت من الاوقات ادعاء ملكية تلك الأراضي من الجزيرة العربية الواقعة وراء المناطق المحيطة بالبحر الأحمر مباشرة . وفي القرن التالي دفعتهم الحركات الوطنية حتى من هناك فلم تتعد سيطرتهم على الجزيرة العربية طرق الحج من دمشق والقاهرة .

ولم يكف رعايا السلطان محمود الثاني عن تذكيره بان ادعاء اجداده من البيت العثماني للخلافة انما ارتكز على سيطرتهم على المدينتين المقدستين مكة والمدينـة . ونتيجة لحثه على استعادة هاتين المدينتين بالقوة ، عقد السلطان محمـود العزم على اتخاذ اجراءات خطيرة ضد نجد . ويمكن القول ان الأوضاع والمصالح المعقدة التي نشأت في أوروبا خـلال السنوات التي سبقت ذلك هي التي أخرت اتخـاذ مثل هذا الاجراء الحاسم .

وممـــا ساعد الوهابيين على تحقيق نجاحاتهم غزوة نابليون بونابرت لمصر وما تبعها من تفكك في تنظيمات الامبراطورية التركية . وعندما آل الحكم في مصر الى ايدي عامل قوي هو محمد علي باشا ، ائتمنه السلطان على واجب معاقبـة آل سعود .

وكان غياب جيوش سعود وانشغالها في الشمال ، الفرصة الذهبية أمام الجيش

المصري . فقد أرسل محمد علي باشا جيشاً قوامه ثمانية آلاف رجل الى الحجاز بقيادة ابنه طوسون باشا .

واحتل الجيش المصري مكة بدون مقاومة . ولكنه عندما توغل في الداخل التقى بجيش عبدالله آل سعود الذي هزم جيش طوسون في الصحراء وأفنى نصفه . ولم يجد القائد المصري بدأ من التراجع إلى مكة وتحصينها بانتظار الامدادات من مصر .

وغضب محمد علي باشا لفشل ابنه فذهب بنفسه الى مكة سنة ١٨١٣ والقى القبض على شريف مكة لاعتقاده بأنه يساند الوهابيين وارسله رهينة إلى القاهرة . وفي ربيع سنة ١٨١٤ كلف طوسون باشا ثانية بقيادة حملة على نجد . فقابله الوهابيون بين الطائف وترابة (١) وهزموه مرة ثانية .

وبينا كانت الاستعدادات تجري لتجهيز حملة جديدة ، توفي الأمير الوهابي الكبير سعود ابن عبد العزيز آل سعود في نيسان من تلك السنة . واعترف الوهابيون بابنه عبدالله خلفاً له دون معارضة .

وفي كانون الثاني سنة ١٨١٥ — السنة التي وقعت فيها معركة واترلو — انزل طوسون باشا بالجيش الوهابي أول هزيمة خطيرة . واغتنم القائد المصري الفرصة وتابع انتصاره فاحتل المدينة المنورة وتقدم الى قسيم (٢) المقاطعة الشمالية من نجد حيث استولى على عاصمتها راس (٣) وبدأ يعد العدة من هناك للقيام بحملة جديدة .

وتراجع عبدالله آل سعود الى مدينة عنيزه . ومن هناك طلب فتح مفاوضات مع المصريين انتهت بخضوعه لطوسون باشا . وقد اثار ذلك دهشة الكثيرين لأن عبدالله كان لا يزال يملك جيشاً قوياً يستطيع المقاومة . وربما كان السبب في استسلامه انه شعر بأن مركزه في نجد مزعزع . فالمعروف عن أهل البادية انهم يخافون وان قاعدتهم التي لا تتغير هي اتباع الرجل القوي ولذلك خضعوا لحكم الوهابيين دون ان يقبلوا به بملء ارادتهم . وبعد ذلك انضم الكثيرون منهم إلى صفوف الاتراك بينما فقد سكان المدن من أهل نجد على اثر هزيمة سيدهم كل ثقة بامكانية الانتصار من جديد .

ومهما كان الأمر فقد قبل ابن سعود ان يتقيد بالشروط التالية :

١ — ان يعترف بالسلطان العثماني سيداً .

٢ — ان يقدم رهائن ضماناً لتصرفاته في المستقبل وان يكون هو مستعداً للمثول بنفسه في الآستانة اذا استدعي .

٣ — ان يسلم عاصمته ضارعيه الى حاكم يعينه السلطان .

٤ — ان يعيد المجوهرات التي سلبت من المدينة المنورة اثناء زيارة والده لها سنة ١٨٠٩ .

وبموجب هذه الشروط عقد الصلح بين عبدالله وطوسون باشا . واعطى عبدالله الرهائن المطلوبة لكنه لم يسلم عاصمته ضارعيه بل على العكس استعد للحصار . ولم ينقض محمد علي اتفاقية الصلح عندما علم ان عبدالله يرفض ان يذهب إلى مصر .

واستدعي طوسون إلى مصر وعين اخوه البالغ من العمر ٢٦ عاماً في ذلك الوقت قائداً للجيش في الجزيرة العربية مكانه . وتروى قصة طريفة فيما يتعلق بذلك .

يقال ان محمد علي عندما يئس من قدرة ابنه طوسون على الوصول إلى قلب نجد وتحطيم قوة الوهابيين إلى الأبد ، عقد اجتماعاً لهذا الغرض في منزله بالقاهرة.

وأخذ القادة العسكريون في هذا الاجتماع يشجعونه على المضي بالحملة ويتبارون بتبسيط امكانية النجاح كل واحد منهم يريد ان يكون هو قائد الحملة. وعندئذ طلب محمد علي بساطاً وتفاحة فاحضرا له . وبسط محمد علي البساط على الارض ووضع التفاحة في وسطه .

وقال محمد علي لقادته : والآن أيها السادة ان غزو نجد من الصعوبة بحيث انه يشبه هذه التفاحة وسط هذا البساط . فالرجل الذي يستطيع ان يمسك بالتفاحة دون ان يخطو خطوة واحدة على البساط هو الرجل الجدير بغزو نجد .

وتروي القصة كيف ان القادة عجزوا واحداً بعد الآخر في الامساك بالتفاحة محتجين على غرابة الامتحان . وعندئذ نهض الشاب ابراهيم وطلب ان

يجرب حظه . ورغب محمد علي ان يرى كيف سيحل ابنـه (أو ابنه بالتبني) ابراهيم المسألة التي بدت مستعصية الحل على القادة العسكريين ، فوافق . وهنـا امسك ابراهيم بطرف البساط وأخذ يلفه بيده بهدوء الى ان اصبحت التفاحة في متناول يده فامسك بها. وسر محمد علي بذكاء ابنه سروراً كبيراً بحيث انه عينه على الفور قائداً لجيوشه .

وغادر ابراهيم باشا مصر على رأس قوة كبيرة في ايلول سنة ١٨١٥ وتقـدم الى مواقع القتال . وكانت أول معركة بينه وبين النجديين في مويه حيث هاجم عبدالله آل سعود الجيش المصري الذي انزل به هزيمة شنعاء اقـدم ابراهيم باشا على اثرها على قتل جميع الأسرى .

وتقدم ابراهيم باشا على رأس أربعة آلاف من المشاة وألف ومايتين من الخيالة الى جانب قوات من القبائل العربية الصديقة كبني خالد ومطير وحرب وسهول وسبيع ، الى مدينة راس التي كان قد اخلاها طوسون باشا فعاد اليها الوهابيون ووضعوا فيها حامية .

وواجه ابراهيم باشا وضعاً سيئاً وخطيراً أمام المدينة . فبعـد ان حاصرها لمدة ثلاثة اشهر ونصف فقد خلالها ثلاثة آلاف رجل ، تخلى عن الحصار وقبل الهدنة مع الوهابيين .

وبالرغم من ذلك ، اوهم ابراهيم باشا سكان المدينة بانهم لا يزالون محاصرين وتقدم خفية باتجاه الشرق نحو مدينة عنيزه فتراجع الأمير عبدالله منها جنـوباً الى مدينة بريده . وبعـد ستة ايام من القصف المتواصل انهارت قـلاع عنيزه واستسلمت فخضعت منطقة القسيم كلها على الأثر لابراهيم باشا . وتراجع عبدالله الى شقرا عاصمة مقاطعة وشم فاحتـل ابراهيم بريده وتوقف فيها شهرين لتعزيز الجيش وامداده .

وكانت سياسة ابراهيم باشا خلال هذه الفترة خطب ود النجديين المـوالين للوهابيين . ولم تغرب عن باله قصة البساط فبدأ يلف قبائـل نجد بتصرفاته الجريئة مكشوفة بحيث انه نال اعجابهم . فـأصدر اوامـر مشددة ضد اساءة

بمعاملة سكان قسيم او نهب منازلهم . وكان يدفع ثمن مؤن الجيش نقداً وبسخاء .
وعلى الطريقة العربية ، أقام ابراهيم باشا مجالس دائمة لم يكن يسمح لزائره فيها ان يخرج خالي اليدين. فكان يقدم الهدايا للكبار والصغار كل حسب منزلته. وبذلك استطاع ان يستميل اليه اولئك الذين ظلوا مخلصين لآل سعود .

وبين أولئك الذين كسبهم ابراهيم باشا الى صفه ، فيصل آل درويش الشيخ الأعلى في مثير في ذلك الوقت الذي كان يضمر حقداً مزمناً لآل سعود فكان من السهل اقناعه بالانضمام الى ابراهيم باشا مع وعده بأنه سينصب حاكماً على نجد . ولم يكن في نية الباشا تنفيذ ذلك الوعد . ويقال ان آل سعود اقدموا فيما بعد على قتل فيصل لخيانته ، ويرجع ذلك العداوة المزمنة بين قبيلة مثير وعائلة آل سعود .

وبعد ان تلقى ابراهيم باشا في بريده امدادات من الرجال والبنادق والمؤن والذخيرة ، تابع زحفه إلى شقرا على رأس قوة نظامية قوامها اربعة آلاف وخمساية رجل من الأتراك والألبانيين والمغاربة بالاضافة إلى مفارز عربية . ورافق الجيش عشرة آلاف جمل كان كل اثنين من المشاة يركبون واحداً منها . وفي هذه الاثناء عاد عبدالله آل سعود الى عاصمته ضارعيه تاركاً البلاد وراءه خراباً بعد ان أرسل قطعانه وماشيته الى الاحساء .

حدث ذلك في اواخر شهر كانون الأول سنة ١٨١٧ . وفي الشهر التالي ظهرت قوات ابراهيم باشا امام شقرا التي بدأ يقترب منها باشراف مهندس فرنسي يدعى فيسيير . واستسلمت شقرا في ٢٢ كانون الثاني فلم تهدر دماء افراد حاميتها ولكنهم جردوا من سلاحهم على ان يتعهدوا بأن لا يقاتلوا ثانية ضد القوات المصرية ـ التركية . وبعد عدة أشهر عندما سقطت ضارعيه أمر ابراهيم باشا بتهديم جميع أسوار وتحصينات شقرا .

وبدأ عبدالله آل سعود يحصن مدينة ضارعيه ويعدها للدفاع . وقبل أن يتبعه ابراهيم باشا اليها وجد انه من الأفضل ان يعرج عن الطريقة المباشرة وذلك لكي يحتل مدينة الضرما في طريقه . ولقي ابراهيم هناك مقاومة شديدة

مما أفقده عدداً كبيراً من رجاله . وانتقاماً لذلك أعمل السيف في رقاب سكانها من الذكور تاركاً نساءها تحت رحمة الجنود الاتراك القساة بعد ان دمرت المدينة ونهبت .

وبسبب الأمطار لم يستطع ابراهيم باشا ان يصل قبل آذار إلى ضارعيه التي حاصرها في نيسان بقوة مؤلفة من خمسة آلاف وخمسماية رجل من المشاة والخيالة واثني عشر مدفعــا . وبعد ذلك بوقت قصير وصلت مؤن من المدينة والبصرة الى المعسكر التركي .

ومضت مدة على عمليات الحصار لم تلاق القوات المصرية ــ التركية خلالها اي نجـاح . وفي اواخر شهر ايار حدث انفجار افقـد ابراهيم باشا ذخائره الاحتياطية الأمر الذي اوقعه في مأزق حرج، ولم ينقذ الجيش من الكارثة سوى شجاعة ابراهيم باشا التي لا تقهر. وكان الجنود يعانون من الامراض كالزحار (الديزانتري) والرمد . وفكر عبدالله ان يخرج بجنوده ويهاجم القوات المصرية في محاولة لفك الحصار ولكن المصريين ردوا هجومه وافقدوه الفرصة . وبعد ذلك بوقت قصير وصلت إلى المعسكر التركي قوافل جديدة محملة بالمؤن والذخائر تبعتها امدادات عسكرية من المشاة والخيالة . وفوق ذلك وصلت انباء مشجعة تعلن اقتراب خليل باشا قادماً من مصر على رأس فرقة من ثلاثة آلاف رجل .

وفي اوائل ايلول رفع عبدالله آل سعود الاعـلام طالباً الهدنة لكي يتمكن من الاجتماع بابراهيم باشا . فوافق البـاشا على ذلك واستقبل الزعـيم الوهابي بالترحاب وابلغه ان الشرط الأول الذي لا مفر منه لعقـد الصلح هو ذهابه شخصياً إلى القاهرة .

فطلب عبدالله آل سعود مهلة عشرين ساعة ليفكر بالامر فامهله إبراهيم . وبعد انتهاء المهلة عاد عبدالله إلى معسكر ابراهيم ليبلغه موافقته على الشروط التي فرضها بشرط ان يضمن له حياته . ويقال ان ابراهيم اجابه بأنه ليست لديـه سلطة تلزم السلطان وعامله محمد علي ولكنه يعتقد انها اكرم من أن يبخلا عليه بمثل هذا الطلب . ويعتقد عرب نجد إلى اليـوم ان ابراهيم باشا اعطى عبدالله

وعداً قاطعاً بأنه لن يصاب بأي أذى .

وتوسل عبدالله إلى ابراهيم باشا ليحفظ حياة اتباعه وافراد عائلته فأجابه إلى طلبه وعقد الصلح .

وسار الأمير عبدالله السيء الحظ فوراً إلى القاهرة تحت حراسة مشددة . وعندما وصل استقبله محمد علي بحفاوة وسلمه إلى الآستانة مع استعطاف شديد بالعفو عنه . ولم يكن السلطان محمود ذا طبيعة سمحة . فطوف عبدالله آل سعود الأمير الرابع في نجد لمدة ثلاثة ايام في شوارع المدينة اعدم بعدها هو ورفقاؤه في الأسر في الساحات العامة .

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من حكم الوهابيين في نجد .

نجد مقاطعة مصرية

وخلال السنوات الثلاث والعشرين التي تلت تدمير ضارعيه ، ظلت نجد مقاطعة مصرية . احياناً يحتلها جنود مصريون وأحياناً تدفع الجزية . وأصبح مشاري (الأمير الخاص) شقيق عبدالله أميراً على نجد في ظل الحكم المصري .

وعندما ظهر ابراهيم باشا لأول مرة في نجد اكتسب عطف الناس وثقتهم باستقامته ورجولته وتواضعه ، وخاصة في جبل شمر وقسيم والاحساء ، حيث استقبله الناس على انه منقذهم من النير الوهابي لا كمحتل اجنبي .

ولم يسبق لاواسط الجزيرة العربية ان شاهدت جيشاً تركياً من قبل . ولم يكن عرب الداخل ليضمروا لهم الشر والعداء اذا لم يتحدوهم ويسيئوا معاملتهم . فبعد مغادرة ابراهيم باشا بقليل استعدى الجنود الاتراك والالبانيون بشراستهم السكان ، وحدثت اول مذبحة سنة ١٨٢٢ عندما انقض السكان على الحامية التركية في الرياض عاصمة نجد الجديدة (لان ضارعيه لم تبن من جديد) . وتبعت تلك المذبحة انتفاضة ناجحة قام بها العرب سنة ١٨٢٣ و ١٨٢٤ بقيادة تركي بن عبدالله آل سعود ابن عم الامير مشاري الذي أعاد سيادة العائلة في العريض (١) . واحتل تركي الرياض وطرد منها القوات المصرية الباقية في نجد

فاعترفت به أغلبية قبائل وسط الجزيرة العربية أميراً عليها بدلاً من ابن عمه ، ليقود الحركة الشعبية ضد الاحتلال الاجنبي .

وظل تركي عشر سنوات (من ١٨٢٤ الى ١٨٣٤) يستجمع قواه في نجد والاحساء وحتى في عمان وعلى طول الشاطىء العربي من الخليج الفارسي الى رأس الحد ، وكلها اعترفت به وقدمت له خضوعها ودفعت الجزية . وفعل هو بدوره نفس الشيء بالنسبة للحكومة المصرية التي وافقت على تصرفاته في الجزيرة العربية .

وفي سنة ١٨٣٤ اغتاله مشاري ابن خالد الذي قتل في الحين على يد فيصل ابن تركي . وقاتل تركي هو ابن خالد بن سعود آل سعود شقيق الامير الخامس مشاري ، وأحد المطالبين بالعرش .

واعترف بفيصل أميراً خلفاً لوالده .

فيصل الكبير

وفي السنة التي تلت ارتقـــاء فيصل – الذي اصبح يعرف بالكبير – الى العرش ، أهمل أو رفض ان يدفع الجزية للمصريين . فارسل محمد علي باشا قوة بقيادة جميل بيه ليعزله وينصب خالد على العرش مكانه . وعندما اقتربت قوات جميل هرب فيصل الى الاحساء .

واغتصب خالد العرش بتأييد قسم من أهل العريض وبمساندة خورشيد باشا الذي خلف جميل في القيادة المصرية . ولكن القائد المصري لم يلبث ان وضع خالد جانباً وأعاد تأسيس الحكم المصري في انحاء نجد . فاستسلم فيصل وأرسل سجيناً الى القاهرة .

ولم يدم الاحتلال المصري الثاني لنجد أكثر من سنتين استدعيت بعدها معظم القوات وترك خالد آل سعود والياً باسم الحكومة التركية .

وفي سنة ١٨٤٢ تزعم عبدالله بن ثنيان آل سعود ثورة ضد خـــالد وطرده من الرياض مع ما تبقى من القوات المصرية . وظل عبدالله حاكماً على نجد الى السنة

التالية عندما هرب فيصل من سجنه في القاهرة وظهر في العرض فاعترف بــه الجميع اميراً بدلاً من عبدالله .

ومنذ ذلك الوقت وحتى نهاية حكم فيصل الطويل الذي امتد احدى وثلاثين سنة لم تمارس الحكومة المصرية أو الحكومة التركيــة أي سلطة على نجد . وفي ايامه استعيدت جميع المناطق التي كانت تشكل الامبراطورية الوهابية . وجبل شمر الذي استعاد استقلاله بزعامة عائلة ابن علي مــن بني تميم اثناء غزوة ابراهيم باشا ، انضم ثانية الى الدولة الوهابية . فقد نصب عبدالله ابن رشيد مــــن فرع عبده في قبيلة شمر نفسه في حايل أميراً على كل شمر بمساندة فيصل لقاء جزيــة معينة . ولم تفشل قوات فيصل إلا في البحرين التي كان شيوخها يتلقون التأييــد والمساعدة من الانكليز .

وفي آخر سني حياته اصبح فيصل كفيف البصر فانتقلت ادارة شؤون الدولة الى ابنه البكر عبدالله الذي عرف بتعصبه وتهوره وقساوتــه فجمع حوله البدو الذين لهم نفس ارائه وأخذ يجهز نفسه للدخول في جولة ثالثة مع الاتراك .

وبعد وفاة فيصل سنة ١٨٦٥ دب الانقسام من جديد في الدولة الوهابيــة بعد ان استجمعت قوتها السابقة في عهده .

وكان عبدالله الامير الحادي عشر وهابياً شديـــد التعصب بينما كان شقيقه الاصغر سعود منفتحاً ذا افكار متحررة ، قومية اكثر منهــا دينية . فوضع كل منهما نفسه على رأس فريق : عبدالله على رأس الحضر أو أهل المدن في العريض ، وسعود على رأس أهل البادية في الصحراء . أما شقيقهما الثالث محمد فقـد انحاز إلى عبدالله . ولمدة من الزمن أقتسم عبدالله وسعود تركة فيصل بينهما تمامـاً كما حدث للمنتفق الكبير في العراق عندما قسم الى قسمين اثر وفـاة ناصر باشا آل سعدون .

ومن الطبيعي في مثل هذه الحالات ان يصطدم الشقيقان . ففي سنة ١٨٧١ اضطر سعود شقيقه عبدالله الى الهرب من العريض ونصب نفسه اميراً اوحـد هنـاك . فاصبح جبل شمر وقسم منطقتين مستقلتين ورفضت الاحساء ان

تدفع الجزية .

وجمع عبدالله عدداً من أتباعه وشق طريقه الى حايل حيث كان متعب ابن عبدالله آل رشيد الأمير الثالث في شمر هو الحاكم هناك ، فأحسن وفادته . ومن حايل اتصل عبدالله بمدحت باشا حاكم العراق العام في بغداد .

الاحتلال التركي الثالث

وقبل ان ندخل في تفاصيل المرحلة الأخيرة من الاغتصاب التركي للجزيرة العربية يجب ان نذكر لمحة مقتضبة عن نظرة سلاطين بني عثمان الى الجزيرة العربية .

إن حملة ابراهيم باشا سنة ١٨١٥ لم تكن تأكيداً لحق السيادة وإنما عملا انتقامياً وردا على فئة معادية . وعندما قضي على الحكم الوهابي لم يبدر أي اهتمام للاحتفاظ بنجد كجزء من ممتلكات الامبراطورية . ففي ذلك الوقت كان سلاطين بني عثمان ينشغلون بأوضاعهم في اوروبا بحيث انهم لم تخطر لهم احلام الغزو والتوسع في آسيا ، وكانوا من الناحية العسكرية اضعف من ان يخوضوا حروباً ليست ضرورية .

ولكن في نهاية حرب القرم سنة ١٨٥٦ أعاد الأتراك تنظيم جيشهم وتجهيزه بأحدث الأسلحة وذلك بفضل القروض والمساعدات البريطانية .

ووجد السلطان عبدالعزيز الذي حكم تركيا من سنة ١٨٦١ الى سنة ١٨٧٦ نفسه يملك قوة لم يسبق لها مثيل ، فقرر أولاً اخضاع المناطق النائية من الأمبراطورية التي تمردت على حكمه ، وثانياً — وهو الغزو الأسهل بنظره — اخضاع القبائل على حدوده .

وبدأ بإعادة اخضاع سورية وكردستان الى سلطانه ، واحتل منطقتي وادي دجلة ووادي الفرات اللتين كانتا تتمتعان بالاستقلال بصورة عملية منذ أيام تيمورلنك (١٣٣٦ — ١٤٠٥) ، وأعاد العراق الى النظام الأمبراطوري التركي بما في ذلك الضرائب والتجنيد .

وبعد شق قناة السويس اصبحت الجزيرة العربية التي لم يكن يمكن اقتحامها إلا من البر ، في متناول القسطنطينية (الاستانة) من جهة البحر .

وهذا الاحساس بالقوة المتزايدة وبوجود جيش منظم مجهز ، أعاد الى ذاكرة الحكومة العثمانية احلام الفتح والتوسع . وتذكر السلطان عبد العزيز انه وريث الخلافة العربية الأمر الذي بنى عليه ادعاءه لملكية الجزيرة العربية . فضاعف عدد حامياته في مكة والحجاز ، وجرد حملة على اليمن ، وعين مدحت باشا الرجل الشديد الطموح حاكماً عامــاً في بغداد وأطلق يده في بسط نفوذ السلطان بأي اتجاه يراه مناسباً .

وجاء طلب عبدالله آل سعود مواتيــاً لمدحت باشا فاستجاب له ، وأصدر قراراً بوضع نجد كلها تحت راية السلطان وتعيين عبدالله آل سعود قائمقاماً عليها . وأعلن ايضاً أن قوة تركية سترسل الى هناك لإعادة الأمن والنظام وتثبيت سلطان القائمقام الجديد ضد أخيه المتمرد .

وبالرغم من معارضة حكومة الهند التي كانت دائماً تلح على وجوب احلال السلام في منطقة الخليج الفارسي الأمر الذي وافق عليه جميع زعماء القبائـل العربية في الخليج بما في ذلك اهل الاحساء والحكومة الوهابيــة ، فقد أرسل مدحت باشا حملة بطريق البحر من البصرة الى الاحساء قوامها خمسة آلاف جندي نظامي بقيادة حافظ باشا . ووصلت الحملة الى القطيف في حزيران سنة ١٨٧١ .

وفي هذه الأثناء عاد عبدالله آل سعود الى نجد وجمع انصاره ، وبالاتفاق مع قبيلة قحطان هاجم شقيقه سعود من الغرب . وهزم عبدالله في هذه الموقعة فلجأ الى المعسكر التركي .

ووقع انقسام في الرياض مما اضطر سعود ان يقاتــل عبدالله ابن تركي آل سعود نجل الأمير السادس ، فهزم وأجبر على التراجع الى قطر .

واحتل الأتراك ساحل الاحساء كله ومدينـة الهفوف واتصلوا بعبدالله ابن تركي الذي عين مديراً للرياض بانتظار وصول عبدالله ابن فيصل .

وقبل نهاية السنة أعلن مدحت باشا انه بناء على عريضة قدمهـا اهل نجد الى

السلطان ، فإن عائلة آل سعود ستخلع من الحكم وسيعين مكانها حاكم تركي .

وعين حافظ باشا متصرفاً على نجد . وعندما وجد عبدالله نفسه في هـــذا الوضع هرب من المعسكر التركي الى الرياض .

وبعث رؤوف باشا الذي خلف مدحت باشا في بغـــداد يفاوض سعود سنة ١٨٧٢ ويحثه على إرسال شقيقه الأصغر عبـــدالرحمن ابن فيصل آل سعود الى بغداد ليحتفظ به رهينة . وفي السنة ذاتهـا عاد سعود الى الرياض وطرد شقيقه عبدالله منها مرة ثانيـــة . وتراجع عبـــدالله الى الكويت تاركاً سعود سيداً في الرياض .

(١)

وسحبت القوات التركية من الاحســاء سنة ١٨٧٣ ، بعـــد ان عين بازي ابن عراعير الخالد شيخ قبيلة بني خالد المعروفة بعدائها التقليدي لآل سعود ، حاكماً على المنطقة تاركين معه ضابطيه (اي حامية صغيرة) من الشرطة .

(١) بريخ بن عريعر الخالدي

وفي سنة ١٨٧٤ اطلق سراح عبدالرحمن آل سعود من سجنه في بغداد فجاء الى الاحساء واشعل الثورة . وانضمت اليـه قبائل آل مره وعجمان وبني هاجر فسار بهم الى الهفوف حيث حاصر بازي والحامية التركية التي قتل معظم رجالها .

عندئذ أرسل الوالي التركي في بغداد فيلقاً نظامياً بطريق البحر بقيادة ناصر باشا آل سعدون والي البصرة والشيخ الأعلى في المنتفق الكبير ، وقوة كبيرة من عرب المنتفق اتجهت الى الهفوف براً .

ولمــا علم عبدالرحمن بقدوم ناصر باشا تراجع الى الرياض . وتوجه ناصر الى الهفوف ففك الحصار عن الحامية المتمركزة في إحدى القلاع وترك جنوده يعملون في المدينة نهباً وتخريباً . وظل الجنود الأتراك ومساعديهم عدة أيام يرتكبون المجازر والاضطهاد في سكان المدينــة الى ان احتج الضباط الأتراك الى ناصر باشا الذي أجابهم ان اجراءات مشددة يجب ان تتخذ للعبرة .

وبعد هذا الحادث بقليل توفي سعود في الرياض ويقال إنـــه مات مسموماً . وفي سنة ١٨٧٥ عــاد عبدالله الى نجد حيث وجد الحكم في يــــد شقيقه الأصغر عبدالرحمن . وبعد نزاع بين الأخوين توصلا الى اتفاق يكون عبدالله بموجبه أميراً

ويصبح عبدالرحمن الوزير الأول .

وفي سنة ١٨٧٣ اصبح مدحت باشا الوزير الاكبر في الباب العالي وكانت له اليد الطولى في عزل السلطان عبد العزيز في ٣٠ ايار سنة ١٨٧٦ . وبعد ذلك بخمسة أيام انتحر عبد العزيز بان شق ذراعيه بالمقص. وخلفه في ٣١ آب من السنة نفسها السلطان مراد الخامس الذي أعلن انه مجنون فخلفه في اليوم التالي شقيقه السلطان عبد الحميد الثاني .

وانجب عبد الرحمن آل سعود اول ولد حوالي سنة ١٨٨٠ (التاريخ الصحيح غير مؤكد) اسماه عبد العزيز واسمه الكامل عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ، الذي أصبح يعرف في ايامنا هذه بالملك ابن سعود والد الملك الحالي .

وفي سنة ١٨٨١ اتهم السلطان عبد الحميد الثاني وزيره مدحت باشا بقتل السلطان عبد العزيز، فقدمه للمحاكمة وصدر عليه الحكم بالاعدام في ٢٨حزيران. وبعد تدخل بريطانيا والدول الاوروبية نقض حكم الاعدام ، ونفي مدحت باشا الى الطائف قرب مكة حيث ظل سجيناً الى ان توفي بحادث عنف في السادس من نيسان سنة ١٨٨٣ .

آل رشيد يسيطرون على الجزيرة

كان عبدالله ابن فيصل آل سعود اميراً على نجد بالاسم فقط . فسلطته لم تتعد حدود اسوار الرياض او منطقة العريض على أبعد حد . وتوفي في الرياض في اواخر شهر تشرين الثاني سنة ١٨٨٩ . وبعد ذلك بسنتين استولى عبدالرحمن على العاصمة فحاصره فيها محمد آل رشيد . وبعد اربعين يوماً ارسل عبد الرحمن أخاه الاصغر محمد ابن فيصل آل سعود ليفاوض ابن رشيد حول شروط الاستسلام .

وأرسل عبد الرحمن واولاده الاربعة وبقية أفراد عائلته الى المنفى في البحرين. في سنة ١٨٩٣ طلب من الشيخ محمد الصباح ان يسمح له بالانتقال الى الكويت

فقبل . وانتقل الامير السعودي مع عائلته الى الكويت . اما شقيقه محمد الذي لم يبرز كثيراً إلا كوسيط في الخلافات العائلية وفي الصراع مع آل رشيد فقد توفي سنة ١٨٩٤ دون ان يعلن ذلك .

وقد كتبت الليدي آن بلانت التي رافقت زوجها في رحلاتها بآسيا وافريقيا تقول :

يمكن بكل تأكيد القول ان سلطة آل سعود في الجزيرة العربية قد انتقلت الى آل رشيد في حايل . ان كل شخص يفكر تفكيراً وطنياً حقيقياً ويشعر شعوراً صادقاً التف حول محمد آل رشيد امير حايل وجبل شمر العظيم .

ان ممثلي عائلة آل سعود اصبحوا مجرد دمى وأدوات اما الحكام الرشيديون فقد تسلموا زمام المسؤولية في غالبية المستوطنين في قسيم وسدير والعريض ووشم .

الفصل الخامس

قصص وروايات جدّي

كان جدي الأكبر جون ديكسون طبيباً جراحاً في البحرية الملكية وشهد مع نلسون معركتي كوبنهاغن وترافلغار . وبعد الحروب النابليونية أقام في طرابلس حيث اصبح كبير الاطباء في مقر الباشا العثماني هناك (منصب الباشا في طرابلس كان وراثياً) . وتزوج من اليزابيث الابنة الوحيدة للسير ارشيبالد دالزل القائد والحاكم العام للقلاع الساحلية في الكاب .

ولد جدي ادوارد دالزل ديكسون في طرابلس ، بربري ، في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٨١٥ . وبعد سلسلة من المغامرات قضى حوالي ٦٠ سنة في القسطنطينية عمل خلالها ضابطاً في الفرقة الطبية في الجيش التركي وقضى القسم الاكبر من هذه السنوات طبيب السفارة البريطانية هناك . وخلال تلك الفترة كان ايضاً الطبيب الخاص لثلاثة من السلاطين هم : عبد المجيد ، وعبد العزيز ، ومراد الخامس . وانتخب كرئيس لأطباء السفارة البريطانية ، وكرئيس للهيئة الدولية للاطباء التي كان مركزها في العاصمة التركية . وظل في هذا المنصب الى ان تقاعد وخلد إلى الراحة في القسطنطينية .

وتزوج جدي ثلاث مرات . كانت زوجته الأولى لويزا بوينا باري وارنغتون وهي جدتي . ولدت في طرابلس وتوفيت هناك . وكان والدها الكولونيل هانمر

وارنغتون قنصلاً عاماً في طرابلس لعدة سنوات . وهو ينحدر من سلالة تريفور تيودور المعروف باللورد هير فورد سليل عائلة تيودور المالكة .

لقد ذكرت كل ذلك للاشارة إلى ان تاريخ اجدادي يمت بصلة إلى شمال افريقيا ، إلى العرب والاتراك ، مما ترك اثراً في حياة والدي وفي حياتي أنا .

وقضى والدي معظم حياته في الخدمة القنصلية في الشرق وخاصة في سورية التي كانت تشمل لبنان وفلسطين في ذلك الوقت .

اما انا فقد ولدت في بيروت في الرابع من شباط سنة ١٨٨١ وقضيت أيام صباي في دمشق والقدس حيث كان والدي يخبرنا عن مغامرات جدي والاحداث التي مرت في حياته .

ولم اقابل جدي إلا مرة واحدة وكان ذلك سنة ١٨٩٩ عندما كان والدي قنصلاً عاماً لبريطانيا في القدس التي كان يحتلها الاتراك . وعندما انهيت دروسي في كلية سانت ادوارد باوكسفورد ذهبت في رحلة الى القدس برفقة ابنة خالتي هيلدا مالتبي ، لكي اشاهد والدي وشقيقتي قبل ان ادخل كلية وادهام في اوكسفورد . وقد ابدى جدي رغبة ملحة في مشاهدة حفيده الوحيد . فقر الرأي على ان احضر إلى مرسيليا ومن هناك بحراً الى القسطنطينية ثم إلى القدس ، وتولى والدي أمر ترتيب الرحلة التي كنت اترقبها بشوق بالغ . وصرت اتطلع بشغف لمقابلة جدي ذلك الرجل الشهير الذي طالما سمعت عن مغامراته . ومن المؤسف حقاً انه لم يكتب قصة حياته .

ووصلت انا وهيلدا الى القسطنطينية حيث لاقانا جدي ونزلنا ضيوفاً عليه في منزله في بيرا . وكان المنزل قديماً ولكنه فخم الأثاث . وكان جدي أشيب الشعر يلبس نظارتين . وقد رحبت بنا زوجته الثالثة وهي سيدة يونانية تدعى ايرين تبلغ الثلاثين من العمر . ولم تكن تعرف من الانكليزية إلا القليل ولذلك كانت التركية هي لغة المنزل .

وكان عثمان غازي باشا الذي اشتهر بدفاعه البطولي عن قلعة بلفنا خلال الحرب التركية — الروسية الثانية ، صديقاً حميماً لجدي . وقد تناول عثمان

باشا الطعام مرتين معنا خلال الاسبوع الذي قضيته في القسطنطينية . ولقد كان اعجابي شديداً بالباشا المسن عندما كان يتحدث لجدي وينقل جدي الحديث اليّ بدوره . وعلمت ايضاً ان جدي اشترك في ذلك الحصار وشهد تسليم عثمان غازي باشا للقيصر نقولا الاول قيصر روسيا . ولكن بما انه كان طبيباً للسفارة البرنطانية سنة ١٨٧٦ عندما اقدم السلطان عبد العزيز على الانتحار فانه من الصعب تصديق هذه الرواية ما لم تكن السفارة البريطانية قد امرته بمرافقة جيش عثمان الى بلفنا . ولكنه من المؤكد ان صداقته مع عثمان نشأت في ذلك الوقت .

وسواء كان حاضراً الموقعة ام لا فان وصفه لها كان مدهشاً . اعلنت روسيا الحرب على تركيا في ٢٤ نيسان سنة ١٨٧٧ . وقد وضع عثمان غازي باشا نفسه على رأس جيش قوامه اربعون الف رجل في قرية بلفنا التي تقع على خط مواصلات الجيش الروسي عبر رومانيا في تقدمه نحو القسطنطينية الامر الذي جعل من المستحيل على القيصر نقولا ان يتابع سيره ما لم يزل هذا التهديد التركي . وظل عثمان يرد الهجوم تلو الهجوم طوال اربعة أشهر ضد جيش يفوق جيشه بكثير ، مما اعطى فرنسا وبريطانيا الوقت الكافي لتخفا لنجدة الاتراك . وروى لي جدي كيف ان عثمان قام بمحاولة اخيرة لشق الحصار والخروج من طوق الاعداء ، وكيف استسلم في النهاية بتاريخ ١٠ كانون الأول سنة ١٨٧٧ . ومع انه كان مصاباً بجرح بالغ فقد استسلم للقيصر نقولا شخصياً الذي رحب به واعاد اليه سيفه قائلاً : لقد دافعت عن مواقعك دفاعاً بطولياً رائعاً وها أنا أعيد اليك سيف رجل شجاع .

وسررت كثيراً بما سمعت من أن الروس سمحوا لجدي ان يعتني بالجرحى الكثيرين بعد الاستسلام .

وقال عثمان باشا : تلك هي الأيام التي كان فيها الجنود الأتراك وخاصة الضباط منهم من النوع الجيد . اما اليوم فإنهم يذهبون الى برلين بالعشرات لدراسة الشؤون العسكرية ولكننا هل نجدهم وراءنا ؟ إني اتجرأ على الإجابة

بالنفي . انهم يتعاطون السكر والقمار وحياة اللهو . لقد فقدوا روح الولاء القديمة بين الضباط والجنود كما فقدوا روح الانضباط التي تميز بها الجندي العثماني في السابق .

وهكذا تبين لي انه حتى في ايام جدي كانت هنالك انتقادات لمحاولات إدخال الأساليب الغربية إلى روح الشباب الشرقي .

وكل مساء من ذلك الأسبوع الذي قضيته في العاصمة التركية كان جدي يتحفنا بتلك القصص والذكريات والمغامرات . وقال انه لم يكتب قصة حياته لأنه لم يكن لديه الوقت الكافي . لذلك كان متلهفاً لإلقاء تلك الحكايات على مسامعي على أمل ان أدونها اعتقاداً منه بأنه لن يراني ثانية قبل موته .

وأبلغني انه بعد نيله شهادة الطب من لندن وادنبره ساورته الفكرة بأن يكتب بحثاً عن الرق في افريقيا . وكيف كان العبيد يجلبون من داخل القارة ويباعون في أسواق تركيا ومصر وشمال افريقيا وآسيا الصغرى والجزيرة العربية . كان يريد ان يشتهر ويصنع لنفسه اسماً كبيراً في وقت كان العالم الغربي يستفيق سريعاً على بشاعة تجارة العبيد ، وكانت فكرة عتق العبيد تملأ الأجواء. ولذلك فقد عاد الى طرابلس بعد تخرجه بقصد الحصول على معلومات حول الموضوع من مصادرها رأساً :

ولكي يفعل ذلك انضم الى قافلة من تجار العبيد وعبر معهم الصحراء الكبرى التي لم تكن معروفة لدى الأوروبيين في ذلك الوقت . وبعد عدة شهور من الصعوبات والحرارة لا تطاق والعواصف الرملية الشديدة ، وصل جدي مع قافلة تجار العبيد الى بحيرة تشاد في اقاصي نيجيريا . واعتقد ان اسمه وارد في أرشيف وزارة المستعمرات على انه قام بهذه الرحلة الشاقة ، وانه التقى ببعض الموظفين البريطانيين على حدود البحيرة . ولكنني لست متأكداً من ذلك .

ومن بحيرة تشاد رافق جماعة اخرى من تجار العبيد الذين توغلوا في رحلتهم جنوباً إلى الكونغو وبلاد الأقزام . واخيراً ، وبعد ثلاث سنوات من السفر المتواصل عاد إلى شواطيء المحيط الهندي وشاهد في طريقه شلالات زمبيزي

العظيمة. وخلال عودته انضم الى فرقة ثالثة من تجار العبيد تعمل باتجاه مومباسا. وقال انـه قطع القسم الأخير من رحلته الى السويس بحراً بزورق مكتظ بالعبيد للأسواق المصرية.

وابلغني بقوله: لقد حصلت على المعلومات التي اريدها ولكن بعـد ثلاث سنوات من اقسى واعنف التجارب التي يمكن للانسان ان يتحملها. وقد جلبت معي رجلاً من الأقزام اصطحبته الى طرابلس.

حدث ذلك عدة سنوات قبل ان يعثر ستانلي على ليفينغستون في داخـل افريقيا ويدهش العالم بقصته.

ويقول جدي: منذ ثلاثين عاماً وأنا ممتنع عن اطلاع العالم بانني كنت هناك وذلك لعدة أسباب أهمها تلك الاضطرابات التي صادفتهـا في الشرق الاوسط وتركيا عندما عدت الى مصر وطرابلس.

ثارت مصر على تركيا وأعلن محمد علي باشا استقلاله وزحفت جيوشه بقيادة ابنه اللامع ابراهيم باشا. واستجابة لطلب السلطان محمود الثاني للمتطوعين توجه جدي الى القسطنطينية وانضم الى الفرقة الطبية في الجيش التركي. وبعد عدة تقلبات وجد نفسه في اوائل سنة ١٨٣٩ تحت امرة حافظ باشا الذي كلفه السلطان بالتصدي لزحف ابراهيم باشا الناجح نحو القسطنطينية. وكان من اصدقاء جدي الاعزاء رفيقه في خيمته الضابط الالماني الشاب فون مولتكه.

وبضربات ماهرة استطاع ابراهيم باشا ان يحتل فلسطين ولبنان وسورية، وأخذ يستجمع قواه في حلب للزحف شمالاً حين تصدى له الجيش التركي في نزيب بالقرب من الفرات على بعد ٧٠ ميلاً الى الشمال الشرقي من حلب.

وحسب ما قال لي جدي ان حافظ باشا لم يكن قائداً كفؤاً بالمرة وكان يؤمن بالتنجيم والتفاهات الاخرى، فأخذ يقوم بمناورات ومناورات معاكسة الى وقت تحمل النجوم، حسب زعمه، اليـه حسن الحظ حتى يخوض المعركة. وقد أثار ذلك اشمئزاز الضباط الذين كانوا يعملون تحت امرته بحيث انهم توقعوا حدوث كارثة منذ البداية.

وجاءت النهاية سريعة . فبعد سلسلة من المناورات البارعة التي قام بها ابراهيم باشا الذي كان عدد جيشه نصف عدد الجيش التركي ، سدد القائد المصري ضربة خاطفة للجيش التركي وهزمه هزيمة نكراء في ٢٤ حزيران . ويقول جدي ان الذعر الذي حل بالجيش التركي لا يوصف اذ لم يعد من المستطاع تجميع الصفوف وتشكيل جبهة ثانية ، لأن كل الجيش لاذ بالفرار طلباً للنجاة .

وهرب جدي من الميدان مع فون مولتكه ولجأ الى قرية أرمنية . وأصيب فون مولتكه بحمى التيفوئيد فتولى جدي امر العناية به مدة طويلة حتى تماثل للشفاء . وفي سنة ١٨٧٠ – ١٨٧١ قاد الجيش الألماني الذي احتل فرنسا .

وفي رسائله إلى شقيقته اشار فون مولتكه إلى الطبيب الانكليزي الذي انقذ حياته . ولا زلت اذكر كيف كان جدي يضحك وهو يقول : ماذا كان يعطيني الفرنسيون لو تركت فون مولتكه يموت بعيداً عن أرمينيا التركية ؟

وتوفي السلطان محمود بعد هذه المعركة بستة أيام فخلفه عبد المجيد . وكانت الحالة تعيسة مزرية بحيث ان السلطان الجديد استنجد بفرنسا وبريطانيا وحتى روسيا لانقاذه من مصر . وقد استجابت فرنسا وبريطانيا بسرعة لنداء السلطان فانزلا قواتهما في بيروت ودمشق واوقفا زحف ابراهيم باشا . وقطعت القوات البريطانية والفرنسية خط مواصلات ابراهيم فقبل الشروط التي عرضت عليه وتراجع جنوباً إلى لبنان الذي ظل في حوزته مدة من الزمن .

تلك كانت الايام الشهيرة لليدي هستر ستانهوب ابنة شقيقة بيت (Pitt) التي آوت في منزلها بجون قرب بيت الدين عدداً من القواد والجنود الاتراك والالبانيين الذين لاذوا بالفرار بعد المعارك العنيفة في سورية ولبنان ، بالرغم من كل احتجاجات ابراهيم باشا .

وقد وصف جدي بالتفصيل انتحار السلطان عبد العزيز في سنة ١٨٧٦ ، كما وصف محاكمة مدحت باشا سنة ١٨٨١ الذي اتهمه عبد الحميد زوراً بقتل السلطان عبد العزيز . وكان جدي واحداً من سبعة عشر طبيباً الذين استدعوا لوضع تقرير عن وفاة السلطان عبد العزيز .

وسأنقل فيما يلي مقطعاً من كتاب « حياة مدحت باشا » بقلم ابنه علي حيدر مدحت :

واعطيت الأوامر لاقتحام غرفة عبد العزيز فوجدوا السلطان وسط بركة من الدماء الذي سالت من جرحين في ذراعيه . ومن الواضح ان الجرحين احدثا بواسطة مقص عثر عليه على الأرض بجانب الجثة . واكد الاطباء الذين استدعوا ان السلطان فقد الحياة بسبب النزيف الشديد . ولكن الوزراء ارعبتهم تلك المأساة فأمروا ان يعاد فحص الجسم من قبل جميع الاطباء الموجودين في القسطنطينية . وثم جمع سبعة عشر طبيباً من مختلف الجنسيات ، يعتبرون اشهر الاطباء في المدينة وفي سفارات الدول الكبرى . وقد وقع هؤلاء الاطباء بالاجماع تقريراً يقول ان الموت ناتج عن الانتحار بدون ادنى شك » .

وعندما طلب تقرير عن حالة السلطان مراد العقلية كان جدي واحداً من ستة أطباء استدعوا لمعاينته ، أربعة منهم من سفارات بريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا . وبعد الفحص أعرب هؤلاء الاطباء عن اعتقادهم بأنه بالرغم من ان السلطان مراد ، يستطيع التماثل للشفاء بعد فترة طويلة من الزمن ، بعكس ما كان متوقعاً ، إلا ان قواه العقلية لن تعود إلى حالتها الطبيعية » .

وفي الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف ليل ٦ نيسان ١٨٨٣ قتل مدحت باشا مع صديقه ورفيقه بالسجن في الطائف ، خنقاً وهما في الفراش بناء على أوامر مباشرة من السلطان عبد الحميد خليفة السلطان مراد إلى المجر بكير من الفرقة الثالثة الذي تولى العملية بنفسه .

واخبرني جدي انه منذ ذلك الحين لم يعد يتعاطى بأي شيء مع السلطان عبد الحميد لأنه رجل سيء ويزداد سوءاً . وقبل ذلك كان جدي دائماً وباستمرار طبيب السلاطين الخاص . وفي عدة مناسبات كان يعود مدحت باشا ويطببه وكان من أعز أصدقائه .

هذه بعض القصص التي سمعتها من جدي ودونتها في وقتها . وقد توفي في ٢٧ آذار في السنة التالية .

الفصل السادس

نجد والكويت

١٨٩٦ - ١٩١٧

مبارك على عرش الكويت

قبل عبدالله ابن صباح آل صباح شيخ الكويت من سنة ١٨٦٦ حتى وفاته سنة ١٨٩٢ ، من الأتراك لقب قائمقام . وخلفه اخوه محمد وكان ضعيفاً غير راغب في معارضة الأتراك فسلم شؤون الحكم في مملكته الى رجل عراقي ذكي يدعى يوسف ابن عبدالله الابراهيم من الدوره على بعد مسافة قصيرة من عبادان على الضفة اليمنى لشط العرب .

وكان يوسف رجلا ثرياً موالياً للأتراك يقبض منهم راتباً بدون شك على أمل ان يأتي يوم يخلع فيه آل الصباح ويضع نفسه وعائلته في مكانهم . ولم يكن جراح شقيق محمد افضل من أخيه بشيء بل كان اكثر منه تقاعساً . ولكن شقيقها الأصغر (من والدهم فقط) كان ذكياً نشيطاً يحب بلاده حتى العبادة وآلمه ان يراها تسير الى خرابها .

وتحمل مبارك كل تلك الأوضاع حتى سنة ١٨٩٦ . ففي شهر أيار من تلك السنة ذبح شقيقيه ونصب نفسه على العرش . وهرب يوسف الذي كان يعلم ان

الانقلاب كان موجهاً ضده شخصياً ، الى البصرة بطريق البحر وهناك بدأ يحيك الدسائس ضد مبارك بالاتفاق مع الأتراك .

وكان موقف الاتراك تجاه مبارك حيادياً في البداية . ولكنهم في سنة ١٨٩٧ وبناء على نصيحة يوسف الابراهيم عينوا مبارك قائمقاماً على الكويت . ولم تنطل الخدعة على مبارك لأنه علم انه خطوة للسيطرة على بلاده .

وفي شهر شباط أرسل الأتراك موظفاً صحياً من قبلهم الى الكويت . عندئذ طلب مبارك مقابلة المقيم البريطاني في الخليج الفارسي او من ينوب عنه . ووصل أحد مساعدي المقيم البريطاني الى الكويت في ايلول فأبلغه مبارك انه وشعبه يرغبون في وضع انفسهم تحت الحماية البريطانية تجنباً لاغتصاب الأتراك لبلادهم . ولم توافق الحكومة البريطانية على هذا الطلب ، فأعاد مبارك الكرة في السنة التالية ورفض البريطانيون من جديد .

وفي كانون الثاني سنة ١٨٩٩ وقع مبارك اتفاقية مع الحكومة البريطانية تلزمه فيها وخلفاءه ان لا ينقلوا ملكية اي جزء من اراضيهم بدون موافقة الحكومة البريطانية التي ستأخذ على عاتقها ، مقابل ذلك ، حمايتهم وتأييدهم وحفظ مراكزهم طالما هم متقيدون بالاتفاقية .

وفي أيار من تلك السنة انشأ الشيخ مبارك نظاماً دائماً للجمارك وبدأ يتقاضى رسوماً فورية مقطوعة قدرها خمسة بالمئة على جميع البضائع المستوردة بما فيها تلك القادمة من الموانىء التركية . وعندما أرسل الأتراك أحد مديري الموانىء ومعه خمسة جنود ليتسلم ادارة ميناء الكويت ، رفض الشيخ مبارك ان يستقبلهم فعادوا الى البصرة . وفي أيار سنة ١٩٠٠ وافق الشيخ مبارك على منع استيراد او تصدير السلاح واصدر امراً بذلك . وكل سفينة كان يشك بأنها تحمل سلاحاً كانت تفتش ويصادر السلاح الذي تحمله اذا وجد .

وكان عبد الرحمن ابن فيصل آل سعود واولاده الأربعة لا يزالون في المنفى في الكويت في ذلك الوقت . ويعود الفضل الى الشيخ مبارك في تدريب عبد العزيز آل سعود وفي ميله نحو الانكليز .

وفي خريف عام ١٩٠٠ سار مبارك شوطاً بعيداً في تحقيق مصالح آل سعود بأن قام بغزوة مفاجئة الى قلب الجزيرة العربية حيث كان عبد العزيز آل رشيد الأمير السادس في حايل ، سيداً . وفي أوائل سنة ١٩٠١ اشتبك مع قوات آل رشيد في موقعة صريف قرب بريده . وهزم مبارك في تلك الموقعة وقتل اثنان من افراد اسرته هما شقيقه الأصغر حمود ابن صباح آل صباح ، وابن حمود الأكبر صباح .

وكان الوضع الذي نجم عن هذه الموقعة خطيراً بحيث ان مبارك أسرع مرة أخرى للاتصال بالمقيم البريطاني في الخليج الفارسي وطلب منه ان يبلغ الحكومة البريطانية رغبته في جعل الكويت محمية دائمة بأسرع وقت ممكن ولكن طلبه رفض من جديد .

ابن سعود يحتل الرياض

ووقع سنة ١٩٠٠ حادث أعاد عائلة آل سعود الى الحكم في نجد والجزيرة العربية . وكان الشاب عبد العزيز آل سعود وهو بعد في العشرين من عمره ، راغباً في إنشاء مملكة بمساعدة الشيخ مبارك ، فتوجه الى نجد مع ٤٠ رجلا فقط من اتباعه بينهم شقيقه الاصغر محمد واولاد عمه عبد العزيز ابن جلوي آل سعود وعبد العزيز ابن مسعد آل سعود .

واستطاع عبد العزيز آل سعود ان يتجنب بنجاح قوة لآل رشيد جاءت تحاول اعتراضه في الباطن على بعد ٢٠٠ ميل الى الغرب من الكويت . ووصل عبد العزيز الى الرياض مع رجاله سراً واختبأوا بين بساتين النخيل لمدة يومين .

اما قصة استيلاء عبد العزيز على القلعة العظيمة وسط المدينة فتبدو وكأنها من الاساطير ، مما يدل على قوة شخصية هذا الرجل الخارق .

واكتشف عبد العزيز اثناء تخفيه بين أشجار النخيل ان لعجلان حاكم الرياض زوجة يسكنها منزلاً على بعد ٥٠ ياردة من القلعة عبر ساحة مكشوفة ، وكان يزورها كل يوم لمدة نصف ساعة بعد صلاة الصبح .

وبعد ان تأكد من ذلك دخل عبد العزيز بهدوء الى منزل السيدة عن السطح مع ٢٣ رجلاً تاركاً بقية رجاله الاربعين بين البساتين مؤكداً لهم ان كل شيء سيسير على ما يرام إذا هم لزموا الهدوء والصمت بانتظار الفجر .

[هذه القصة اكدها لي الملك عبد العزيز بنفسه في تشرين الأول سنة ١٩٣٧ . ولم يكن قد بقي في ذلك الوقت من الرجال الذين قاموا بهذه الغزوة سوى الملك عبد العزيز وشقيقه محمد وعبد العزيز ابن مسعد ورجل مسن من قبيلة عجمان]

وحسب عاداته ، خرج عجلان الحاكم من القلعة متوجهاً الى منزل زوجته . فانتظره عبد العزيز الى ان وصل الى منتصف الساحة بين القلعة والمنزل فهجم عليه مع رجاله الثلاثة والعشرين . وبدلاً من ان يبقى واقفاً في مكانه هرب عجلان عائداً الى القلعة يصرخ آمراً بفتح البوابة الجانبية له . ورماه عبد الله ابن جلوي بحربة صغيرة كان يحملها ولكنه اخطأه . واخترقت الحربة خشب البوابة وانكسرت ولا يزال مكانها ظاهراً حتى اليوم .

وفتحت البوابة الجانبية التي لم يكن ارتفاعها سوى قدمين وعلوها عن الارض قدمين ونصف فقط مما اتاح لعجلان الدخول الى القلعة ولمهاجميه كذلك . وأمسك عبدالله ابن جلوي عجلان من رجله واوقعه أرضاً داخل البوابة وقتله . وكان عبد العزيز يتبعهما فضرب رأس عجلان بسيفه وصرخ بأعلى صوته : من منكم الى جانبي ؟ ها قد عاد اميركم اليكم .

وظل رجال عبد العزيز يحرسون البوابة بينما دعا هو حامية القلعة الى الاستسلام ، فاستسلمت وتبعها أهل الرياض . ولم يتباطأ عبد العزيز في تعزيز دفاع المدينة . وعندما ظهرت قوات ابن رشيد امام المدينة بعد يومين ووجدتها منيعة اضطرت الى الانسحاب فظل عبد العزيز يطاردها حتى قسيم .

وانتشرت هذه الاخبار في نجد كالنار في الهشيم فاسرع الجميع الى اعلان ولائهم لآل سعود . وتنحى عبد الرحمن وكان في ذلك الوقت رجلاً مسناً وقبل بابنه عبد العزيز أميراً .

واخبرني أحد اشهر الرجال الثلاثة والعشرين الذين احتلوا القلعة ، في آذار

سنة ١٩٣٥ بقوله :

آه يا ابا سعود*، تلك كانت ايام عظيمة اجدر بالانسان ان يشهدها ولو خسر حياته . انني لا ازال ارى امام ناظري ابن سعود وهو يتهيأ للخروج من منزل زوجة عجلان على الجانب الآخر من الساحة . كان هادئاً بارد الاعصاب فرمى عقاله وربط كوفيته فوق رأسه وحول عنقه ثم طوى دشداشته وربطها في مؤخرة رقبته وهجم .

* [انني اكنى بابي سعود لأن ابني اسميته سعود عند ولادته بناء على طلب الملك عبد العزيز وتدعى زوجتي ايضاً أم سعود]

توثيق الروابط بين بريطانيا والكويت

وفي كانون الأول سنة ١٩٠١ وصلت الى الكويت بارجة تركية « زحف » ، وسلمت الشيخ مبارك انذاراً طالبة منه اما أن يقبل بنزول فرقة عسكرية تركية في الكويت ، او ان يغادر عاصمته ويتقاعد في القسطنطينية . فأعطى مبارك جواباً مهذباً بالنفي انسحبت على اثره البارجة التركية .

وحوالي نهاية الشهر نفسه كان هنالك من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن دسائس المحظي السابق يوسف ابن عبدالله آل ابراهيم أوشكت ان تعطي ثمارها . لأن كل الدلائل كانت تشير الى أن هجوماً من البر على الكويت كان يدبر وتشترك فيه قوة تركية من البصرة ، مع رجال قبائل شمر التابعين لعبد العزيز آل رشيد من حايل .

وأبدت القوات البحرية البريطانية في الخليج الفارسي على الفور استعدادها للاشتراك في الدفاع عن الكويت ، الأمر الذي اجبر ابن رشيد على التخلي عن خطته والانسحاب الى مراقعه في الصحراء . ولم يكن الاتراك راغبين في القتال لوحدهم فتراجعوا الى البصرة .

وكان اخطر هجوم مباشر يتعرض إليه مبارك هو ذاك الذي دبر لخريف عام ١٩٠٢ . ويقال ان الذي وضع الخطة هو يوسف ابن عبدالله آل ابراهيم .

وكان الغرض من هـذه الخطة الاستيلاء على الكويت بهجوم صاعق سريع ، يقوم بـه ابن أخ مبارك حمود ابن جراح آل صباح الذي قتله مبارك عندمـا استولى على العرش ، وقسم من قبيلة شريفات وغيرهم من العرب في الدوره على شط العرب . وعلم القائد البريطاني بالحملة في الفـاو في الثالث من كانون الأول فأسرع الى الكويت ليعطي الانذار فوجد المدينة واقفة على سلاحها .

وبدأ البحث عن العدو ولكن دون جدوى في البداية . ولكن في الخامس من كانون الأول اكتشف أن رجـالاً مسلحين ينزلون في رأس العجوزه شرقي المدينة . وقامت السفن الحربية البريطانية بمطاردة سفينتين تحملان ١٥٠ مسلحاً واشتبكت معهم في قتـال عنيف تمكنت بعده من الاستيلاء عليها فوجدتها محملتين بالأسلحة والذخائر والمؤن والسلالم . وبعد هـذه الموقعة لاذت زوارق أخرى مساعدة يبلغ عددها ١٥ بالفرار في خور عبدالله وتمكنت من النجاة .

وهكذا انتهى هذا التهديد بالغزو الى لا شيء كما انتهى من قبله في ايام مريم الجميلة وسالم الشجاع .

وتركز النفوذ البريطـاني في الكويت على اثر الزيارة التي قام بهـا اللورد كيرزون حـاكم الهند للكويت في تشرين الثـاني سنة ١٩٠٣ ، فتوطدت بذلك العلاقات الوديـة بين الشيخ مبارك والحكومـة البريطانية . وتم تعيين مقيم سياسي بريطاني في الكويت في حزيران سنة ١٩٠٤ وتسلم هـذا منصبه في شهر آب من السنة نفسها .

ووافق مبارك في سنة ١٩٠٧ ان يعطي الحكومة البريطانية قطعة ارض تبعد ميلين عن مدينة الكويت غرباً بـين بندر الشويخ والمدينة بعقد ايجار مستمر لقاء ٦٠ الف روبية سنوياً .

وأراد البريطانيون تلك الأرض لتكون مرسى امينا لسفنهم . ومن المشكوك فيه ان تكون تلك الخطوة رداً لمجابهة فكرة خط سكة حديـد برلين ــ بغداد المقترح الذي كان سيمتد إلى البصره والكويت عندما تسنح الفرصة . ولكن مما لا شك فيه ان تحصين الأرض المؤجرة وتحويل بندر الشويخ الى قاعدة بحريـة

بريطانية او محطة للتموين ، كان موضع السفن القـــادمة إلى رأس كاظمه حيث كان من المقرر اقامة محطة سكة الحديـــد الى الجهة الشمالية من الكويت ، ضمن مدى نيران المدفعية البريطانية .

وفي نفس الوقت اكدت الحكومة البريطانية للشيخ مبارك انها تعـــترف بملكيته للكويت بحدودها الحاضرة له ولورثته من بعده ، وان كل التـــدابير التي يتخذها كفرض الجمارك وغيرها تبقى في يده وفي ايدي ورثته من بعده ، وان الحكومة البريطانية لن تتقاضى رسوماً جمركية في المنطقة المؤجرة او في غيرها من الأراضي التي قد تستأجرها منه أو من ورثته . وكان للحكومة البريطانيـــة الحق في ان تفسخ عقد الإيجار في أي وقت تشاء ، وقد فعلت ذلك سنة ١٩٢٢ عندما مات الخطر التركي – الألماني موتاً طبيعياً . وإذا ما اعاد التـــاريخ نفسه ، كما يفعل احياناً ، فـــان بريطانيا ستتذكر دون ريب الاخطار السابقة وستتخذ اجراءات وقائيـــة بالاتفاق مع حليفتها الكويت .

احتلال قسيم

وبعد ان ضمن ابن سعود اعتراف جميع مقاطعات نجد الجنوبية به ، زحف سنة ١٩٠٤ الى قسيم . ومع ان قوة تركية بقيادة احمـــد فيضي باشا ارسلت لمساندة ابن رشيد ، اضطرته الى التراجع مؤقتاً ، لكنه استطاع ان يكمل مهمته بنجاح سنة ١٩٠٦ بعد ان اضطر احمد فيضي الى التراجع الى المدينة . وقد عين ابن سعود شقيقه الاصغر سعد حاكماً في قسيم .

وقتل الامير عبد العزيز آل رشيد صدفة في نيسان سنة ١٩٠٦ عندما التقى ليلا بجيش ابن سعود ، فخلفه ابنه الاكبر متعب . وتتضح حـــالة الفوضى التي سادت في حايل على أثر هذه الحادثة من شجرة العائلة التي نشرناها في مكـــان سابق من هذا الكتاب .

وفي سنة ١٩٠٨ ارسى محمد سعود قواعد ثابتة لحكمه في حايل وظل يحكمها حتى سنة ١٩٢٠ حين اغتاله عبدالله ابن طلال آل رشيد .

وفي سنة ١٩١٠ واجه ابن سعود أخطاراً خارجية وداخلية . فقد قام احفاد عمه سعود المعروفين بآل عرفه الذين يدعون الملك ، بثورة في الخرج وحريق . وفي نفس الوقت ظهر عبدالله ابن الحسين شريف مكة في قسيم واعداً بنصرة حقوق قبيلة عتيبه التي ادعى ان ابن سعود انتهكها .

وأودع عبدالله سعد آل سعود السجن ، ولكنه عندما وجد ان محمد سعود آل رشيد الذي اعتمد عليه لم يتعاون معه تراجع الى الحجاز ولكن بعد ان انتزع وعداً من ابن سعود بان يدفع هذا الاخير سنوياً الى خزائن مكة اربعة الآف جنيه ، وان يسمح لقسيم ان تنتخب حاكمها .

ووعد ابن سعود ان يلبي هذين الشرطين ولكنه نكث بها فوراً بحجة ان عبدالله املاهما في وقت كانت الثورة تجتاح جنوب نجد ، مما اضطره للقبول .

وبعد مغادرة عبدالله صب ابن سعود كل اهتمامه الى الخرج وحريق فاخمد الثورة هناك بقسوة وطارد الثوار من مدينة الى مدينة في نجد بحيث لم يبق منهم أحد . وصب ابن سعود جام غضبه ونقمته ايضاً على عتيبه لأنها استدعت عبدالله ونكل بها بحجة انها آوت الثوار الذين كان يطاردهم .

وبعد ذلك فرض ابن سعود الجزية على قسيم بالاخضاع والاكراه حيناً وبالحنكة والدبلوماسية حيناً آخر . ووضع قوة عسكرية في القلعة الشمالية الواقعة على الطريق الى جبل شمر حيث لا تزال حتى اليوم .

كنز اسرائيل

وبعد ان تخرجت من كلية وادهام في جامعة اكسفورد عينت في الفرقة الاولى في ايرلنده سنة ١٩٠٣ ، وبعد سنة نقلت الى الفرقة الثانية في الهند . وفي سنة ١٩٠٨ التحقت بالجيش الهندي .

وفي سنة ١٩١١ حصلت على اجازة ستة أشهر قررت ان اقضي نصفها في انكلترا والنصف الثاني مع امي وشقيقتي في القدس حيث ظلوا يقيمون بعد وفاة والدي سنة ١٩٠٦ . وقد دفن والدي في المقبرة الانكليزية على جبل صهيون .

وعندما وصلت الى عدن في طريقي الى انكلترا في اواسط نيسان سنة ١٩١١ وجدت امامي برقية من والدتي تحثني فيها ان اقطع رحلتي في بور سعيد واعود الى القدس ، لأن أموراً غريبة وبالغة الاهمية تحدث هناك قد يكون لها ابعد الأثر في حياتها وحياة شقيقتي .

وعملت حسب رغبة والدتي . فلما وصلت الى بور سعيد استقليت زورقاً مصرياً الى يافا ومن هناك توجهت بالقطار الى القدس . ووجدت العائلة بخير وكانوا يسكنون في منزل كان يشغله الاسقف الانجليكاني في القدس ويقع خارج مبنى القنصلية الروسية التي لا أزال أذكرها منذ طفولتي قبل ان اذهب إلى المدرسة في انكلترا .

وكانت مدينة القدس في حالة اضطراب وهيجان . فقد اقيمت المتاريس في جميع الشوارع الجانبية . وكان الجنود الاتراك في دوريات دائمة داخل المدينة القديمة بينما كانت الاستحكامات الرئيسية ليل نهار خارج اسوار المدينة التي بدت وكأنها في حالة حصار .

ولم يطل بي الوقت لاعرف كل شيء لأن والدتي كان لها أصدقاء كثيرون يرغبون في اطلاعي على ما يجري . ومن بين هؤلاء راهب انكليزي ، وكاهن يوناني كان يعلم شقيقتي اليونانية ، واحد رجال الدين المقيمين في كنيسة المسيح ، واسقف كاتدرائية القديس جورج ، والعاملين معه وعائلته . واخيراً وليس آخراً المدير المحلي لشركة توماس كوك واولاده،الذي شمل امي وشقيقتي برعايته وعطفه في السنوات العصيبة التي تلت وفاة والدي .

واخبرني هؤلاء جميعهم ان السبب في كل هذه الأحداث هو الكابتن د ب ه الذي لن اذكر اسمه لئلا يحدث ذلك بعض الأسى بالرغم من مرور زمن طويل على الحادث .

وقد عرض هذا الضابط مع اثنين من المغامرين البريطانيين خدماتهم وأموالهم على اديب فنلندي يدعى الدكتور والتر جوفيليوس ومساعده المهندس السويدي المدعو ميلاندر . وكان جوفيليوس وميلاندر يعتقدان انهما اكتشفا رموزاً سرية

في سفر حزقيال تبين موقع كنز اسرائيل الذي دفنه كهنة الهيكل قبـــل ان تسقط القدس في ايدي الغزاة البابليين سنة ٧٥٠ قبل الميلاد ، وادعيا ان الرموز التي اكتشفاها توضح طريقة ايجاد الكنز .

وادعى الرجلان انهما عثرا على رسالة سرية توضح مكان القبور الملكية لملوك اسرائيل ويهوذا وقبري داود وسليمان اللذين لم يعثر عليهما . ويقال ان الكـــنز يضم فلك نوح وسيف سليمان وعرشه والواح الشريعة وثلاثة آلاف قطعة ذهبيـــة وغيرها تساوي جميعها ما قيمته ٥٠ مليون جنيه .

وظل الباحثون عن الكنز يعملون طوال سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٠ دون ان يلفتوا الأنظار لان ابحاثهم كانت كلها خارج اسوار المدينة . والذين كانوا يعرفون ما يفعله هؤلاء كانوا يهزأون ويقولون انهم مجرد هواة وإذا ما عثروا على شيء فلن يستطيعوا الهرب به بسبب المراقبة التركية الشديدة .

ولما يئس هؤلاء المغامرون ،بعد ان انفقوا مبالغ طائلة، فكروا بالسطو على مسجد عمر وهو مكان مقدس عند المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء. وعندما ضبط هؤلاء يحفرون نفقاً قديماً تحت قبة الصخرة نفسها كادت تحدث ثورة دينية يذهب ضحيتها المسيحيون واليهود وخاصة الرجال والنساء الانكليز لولا تدخل الاتراك وارسالهم قوة كبيرة للمحافظة على الأمن والنظام في القدس لا سيما وان ذلك صادف يوم عيد الفصح والعبور والنبي موسى في وقت واحد .

وقد هرب الكابتن « ب » ورفاقه الى يافا واستقلوا يختاً خاصاً بهم وتسللوا به ليلاً .

وبعد أن قضيت شهراً في القدس غادرتها لقضاء اجازتي في انكلترا .

الارسالية الأميركية ــ العربية

انشأت الارسالية الاميركية – العربية فرعاً لها في الكويت سنة ١٩٠٩ . والوصف الذي سأدرجه ادناه يعود الفضل فيه إلى الدكتـــورة السيدة ايليانور تايلور كالفرلي التي تعيش اليوم في هارتلاند بولاية كونكتيكت الأميركية، وإلى

ناشري مجلة الاتحاد الطبي النسائي الاميركي التي ظهرت مقالة السيدة كالفرلي فيها في آب سنة ١٩٥٠ .

وقد كتبت السيدة كالفرلي تقول : كم اتـــذكر الكويت بوضوح وقد رأيتها لأول مرة سنة ١٩١٢ . فقد رأيتها من الباخرة التي نقلتنا في رحـــلة استغرقت يومين من البحرين شمالاً على شاطىء الجزيرة العربية الشرقي من الخليج الفارسي . وكنا ثلاثة مبشرين : الدكتور بول هاريسون وزوجي وانا . وبعد ان نجحنا بامتحانات السنة الثانية في اللغة العربية عينا في المركز الجديد للارسالية العربية. ووقفت اجول بنظري من على ظهر السفينة إلى أول بقعة ارض .. فرأيتها .

وفي الافق ظهرت مدينة في الصحراء منازلها واطئة بلون الرمال . وفوقها كانت السماء زرقاء صافية . وتحتها كانت مياه الخليج الفارسي الزرقـاء تحتضن السفن الشراعية . وعلى الشاطىء ترسو مجمـــوعة من الزوارق تنتظر موسم صيد اللؤلؤ صناعة البـلاد الرئيسية في ذلك الوقت . وفي كل تلك الـــلوحة لم تكن هنالك شجرة او بقعة خضراء . ومع ذلك فـــان الكويت لها جمالها الخاص . جمال الرمال والسماء والبحر — في تلك المدينـة الصحراوية كنا سنعمل ونعيش لعدة سنوات مقبلة .

ونزلنا إلى الشاطىء ورحنا نمشي في طرق غير معبدة . كنا نحيد جانباً حتى تمر الجمال والحمير حاملة قربـاً جلدية مليئة بماء الشرب لأن ماء المدينة مالح لا يشرب . والنسـاء الـــلواتي صادفناهن كن محجبات من أعلى الرأس حتى أخمص القدم بالسواد . والرجال كانوا يلبسون الأثواب الطويلة تغطي رؤوسهم كوفيات متدلية وكأنهم صور الشيوخ الاجلاء في العهد القديم .

باب بني موصد في جدار متواصل من الطين كان هو مدخل البيت الذي سنقيم فيه ونستخدمه كمستشفى . وككل البيوت العربية لم تكن له نوافذ خارجيـــة . وكانت غرفه تفتح على باحتين . واخترنا القسم الأكبر ليكون مقر عمل الدكتور هاريسون والغرفة القليلة الباقية احتفظنا بها كغرف نوم خاصة بنا جميعاً .

اما الباحة الصغرى فقد استخدمت كعيادة للنساء . وقسمنا إحدى الغرف

بستار من القماش فكان قسم مكتباً للطبيب والقسم الآخر غرفـــة للعمليات . وفرشنا أرض الغرفة المتبقية بالحصير لتكون غرفة نوم المرضى ولم تكن فيها أسرّة فالعرب معتادون ان يناموا على الأرض .

ولم يكن في الكويت مدارس طبية او نساء طبيبات بل كانت فيها قابلات وحلاقون ماهرون باستنزاف الدم والكي . وكان هنالك رجال ونساء يعرفون استخدام الاعشاب والعقاقير الأخرى . وفي اعتقادهم تنقسم الامراض إلى أربع فئات : ساخنة وباردة ، رطبة وجافة ، حسب النظام الاغريقي القديم . ولكن من يثق بهؤلاء « الانكليز » الاجانب فيضع نفسه تحت رحمتهم ؟

وقد جاءت إلى عيادتي عــــدة نساء اجرأ من الاخريات ولكنهن جميعاً كن يرمين الأدوية التي اعطيتهن خوفاً من ان تكون سماً .

وكانت ادوات التوليد جاهزة في حقيبة ولكنني عندما استدعيت اخـــيراً لتوليد امرأة ردوني عن الباب . فقد اقنعت القابلات المعاديات العائلة بعــــدم استقبالي .

وبالرغم من كل المعارضة والمضايقة اخذت عياداتنا تتسع تدريجياً . فأصبحت العمليات التي نجريها في العين من جراء التراخوما بالبنج الموضعي معروفة ورائجة .

وقد استطعنا إعادة النظر لامرأة بدوية من الصحراء بعملية تصحيح عدسة العين بحيث تتمكن من استقبال الأشعة الضوئية . ولكن اكثر عملية اعطتنا شهرة هي عملية فلانة التي كانت تشكو من كرة لحمية في بطنها بحجم البرتقالة . فجاءت الينا وسألتنا هل تستطيعون ازالتها دون ان تجعلوني أتألم ؟

وكانت لدينا ادوات جراحة كاملة . وقبل العملية كنا نعقد اجتماعاً للتشاور بغياب المريض . وكان مساعداي أم موظف سوري في الارسالية وشقيقته . وقد تعلمت الأم كيف تعطي الكلوروفورم « البنج » بواسطة التنفس . أما أنا والفتاة فكنا نغسل ايدينا لمدة عشر دقائق بالضبط ثم نبللها بمحلول مطهر .

وقد اعطيت تعليمات مشددة لمساعدتي ان لا تمس احدى الأدوات إلا بأمر مني . وفي اليوم التالي جلس زوج فلانة خارج الباب ليتأكد ان احداً من الرجال

لن يدخل الغرفة فيرى وجه زوجته . وعندما انتهت العملية بنجاح انتشرت الاخبار في طول المدينة وعرضها . وتضخمت الاخبار حتى ان امرأة قالت : ماذا تظنون فعلت الطبيبة الانكليزية؟فتحت بطن فلانة واخرجت لها احشاءها التي اخذتها فغسلتها في البحر واعادتها إلى مكانها .

وسأعود في أماكن اخرى من الكتاب فأنقل بعض فقرات من مقالة السيدة كالفرلي . واكتفي في الوقت الحاضر بتسجيل الملاحظات القصيرة التالية عن الأمراض :

الجذام او البرص : هذا المرض لا وجود له تقريباً في الجزيرة العربية . وفي الكويت توجد حالة او حالتان معروفتان . ولكنه اكثر انتشاراً في العراق حيث توجد مستعمرة للجذام ومستشفى في العمارة على نهر دجلة كانت حتى وقت قصير تديرها الارسالية الاميركية .

البرقه : وهذا المرض شائع بين المسنين من البدو وعلاجه الوحيد الدلك بدهن الغنم الساخن . ولكن هناك طريقة تعطي نتائج أفضل فاذا انجبت امرأة توأمين لأول مرة وداست على ظهر المريض بكل ثقلها فانه يشفى لا سيما إذا ما اجري هذا العلاج لمدة ثلاثة أيام متتالية . ففي تموز سنة ١٩٤٠ اجري لي هذا العلاج ونجح تقريباً .

الفالج : علاجه الوحيد هو الطبيب . ويقدر البدو ذلك . وتمنع النساء من الاقتراب من المريض .

حدود الدولة

ان مسألة وضع شيخ الكويت وحدوده كانت موضع مفاوضات بين الحكومة البريطانية والباب العالي سنة ١٩١٣ . ونتيجة لتلك المفاوضات وقعت اتفاقية بين الجانبين في ٢٩ تموز سنة ١٩١٣ لكنها لم تصدق .

وبموجب هذه الاتفاقية اعترف باستقلال شيخ الكويت فوق مساحة من الأرض تشكل حدودها نصف دائرة مركزها مدينة الكويت ، ونهاية شعاعها من الشمال حيث يلتقي خور زبير بخور عبدالله ، ونهايته من الجنوب تلة قرين ،

هذا بالاضافة إلى جزر وربه ، وبببان ، ومسكان ، وفيلكه ، وعوحه ، وكبر ، وقارو ، ومقطع ، وام المرادم ، والجزر الصغيرة الاخرى المجاورة .

واعترف لشيخ الكويت بانه سيد القبائل هناك وله الحق في فرض جزية على منطقة واسعة تبدأ حدودها من ضفة خور زبير الجنوبية حيث يلتقي بخور عبدالله ، مروراً بجنوب أم قصر ، وصفوان وجبل صنم فالى وادي الباطن . ومن هناك تنعطف الى الجنوب الغربي وتتبع وادي الباطن إلى آبار حفر الباطن حيث تنعطف إلى الجنوب الشرقي فتضم آبار صفا وقرعه وحبه ووبره وقرية انطا ، وتتصل بالبحر عند جبل منيفه .

ونشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ فلم تصدق هذه الاتفاقية .

نشوء الاخوان

اجتاحت الجزيرة العربية بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩٣١ حركة دينية عرفت بحركة الاخوان قال عنها بعضهم انها غضبة وهابية جديدة . وقد كتب وحاضر عن هذه الحركة مشاهير الكتاب في الجزيرة العربية مثل فيلبي ورايتر وفؤاد حمزه وامين الريحاني وحافظ وهبه وغيرهم .

والاحداث المتعلقة بهذه الحركة وخاصة ثورة الاخوان سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ واندحارهم النهائي ، كانت بالنسبة لي ذات أهمية بالغة لأنني عشت على حدود الوهابيين عدة سنوات بدون انقطاع إلا لفترة قصيرة ، وتتبعت كل فصل من فصول هذه المأساة ، مستقياً كثيراً من المعرفة والمعلومات الداخلية الخاصة من بطل هذه الأحداث الملك عبد العزيز آل سعود ، ومن كثيرين من قادة الاخوان بعد ان اصبحوا ثواراً متمردين على ملكهم ، وبذلك استطعت ان الم بجانبي القصة وخاصة فيما يتعلق بالثورة . ولا يمكن ان انسى افادات النساء الشجيعات زوجات قادة الاخوان اللواتي أنعمن علي وعلى زوجتي بثقتهن وصداقتهن .

وبالرغم من ان الكثير قد كتب عن قسوة الاخوان وفظاظتهم ، ولكن رأيي هو أن ذلك مبالغ فيه بقصد لكي يتلاءم مع الغايات السياسية في ذلك

الوقت .

ولا اخفي انني كنت معجباً بالاخوان. وربما كان ذلك تحيزاً مني لأنني كنت صديق عدد كبير منهم ، او قل هو جاذب عجيب عند هؤلاء الرجـال المخلصين الذين يؤمنون بصدق بإله واحد ، او لأنهم كما يدعون جاءوا ليخلصوا الديانة من الشوائب الكثيرة التي التصقت بها .

واعترف انني عندما اتعرف على احد من الاخوان لم اكن لأجـد فرقاً بينه وبين اي بدوي طيب في اي مكان آخر. انهم كغيرهم مولعون بنسائهم واطفالهم وجمـالهم وخيولهم . ونساؤهم ، كغيرهن من النساء العربيات ، كن ذوات أخلاق طيبة .

ويمكن القول بصورة عامة ان « الاخوانية » هي احياء للوهابية . ولم تكن بأي حـال من الأحوال هرطقة ولكنها حركة جمالية قامت بين مسلمي نجـد وتهدف الى احياء المذهب السني الشافعي كما علمه الامام احمـد الحنبلي (٧٨٠ — ٨٥٥) .

وقد بدأ هذه الحركة العالم المتدين الشيخ عبد الكريم المغربي الذي كان المعلم الأكبر للمرحوم فالح باشا السعدون شيخ المنتفق . واصبح بعد ذلك معلماً لمزعل باشا السعدون والد ابراهيم بك السعدون .

وعندما ترك الشيخ عبدالكريم خدمة مزعل باشا غادر العراق الى نجد حيث أظهر نفسه كمعلم ومصلح ديني فيمدينة ارتاويه (١) التي كانت وكراً صغيراً للوهابية. ويحكى انه في سنة ١٨٩٩ ذهب مزعل باشا الى الحج في مكة وقرر العودة الى العراق عن طريق نجد لكي يتسنى له رؤية صديقه القديم الشيخ عبدالكريم. ولكن الشيخ عبد الكريم بدل ان يحسن استقبـاله كما كان يتوقع طرده وشتمه واتهمه بانه كافر ومشرك .

ومن بين قادة الاخوان الآخرين : عبدالله بن عبداللطيف بن عبد الوهاب ، قاضي الرياض وسليل مؤسس الوهابية ، والشيخ عيسى قاضي الاحسـاء .

انه من الصعب تحديد الوقت الذي نشأت فيـه الحركة بالضبط . ولكن من

المؤكد ان كلمة اخوان بمدلولها الجديد لم تعرف قبل سنة ١٩١٢ . ومن المؤكد أيضاً ان الحركة لم تلعب اي دور في استعادة عبد العزيز آل سعود لنجد سنة ١٩٠١ . كذلك لم يكن لابن سعود اي علاقة بنشأة الحركة . ولكن الحركة اول ما استرعت انتباه عبد العزيز ، بعد ان استعاد الاحساء من الاتراك .

ولم تظهر حركة الاخوان الى العلن في نجد قبل سنة ١٩١٤ . فبينما ظل أهل المدن وهابيين مخلصين ، انضم جميع أهل القرى والبدو الى الاخوان .

وفي اوائل سنة ١٩١٤ احتل ابن سعود منطقة الاحساء التي كان يطمع بها لأنها كانت تابعة لنجد في السابق ، ومن جهة اخرى طمعاً في دخلها الذي اصبح ابن سعود بحاجة متزايدة اليه .

واغتنم ابن سعود فرصة انشغال تركيا في حرب البلقان وحالة الانحلال الداخلي والخارجي التي كانت فيها ، يضاف اليها لجوء اقاربه المتمردين الى الهفوف ، فقام بهجوم في الليل على رأس الف وخمسماية رجل يركبون جمالاً سريعة من الرياض الى الهفوف فدك الاسوار الخارجية للحصن الذي يقع في الجهة الشمالية من المدينة ، واجبر الحامية التركية وعدد رجالها الف من المشاة على الاستسلام . وبعد عشرة أيام احتل القطيف وسمح للحاكم التركي وحاميته ان يخرجوا من المدينة معززين مكرمين ورافقهم وفد رسمي الى مرفأ عقير ومن هناك ذهب بعضهم الى البصره وبعضهم الآخر الى قطر .

الكويت تنضم الى الحلفاء

وعندما نشبت الحرب بين تركيا والحلفاء سنة ١٩١٤ اعلن مبارك انضمامه الى الحلفاء فوراً معرضاً نفسه للخطر لأن القوات البريطانية لم تكن قد وصلت بعد الى العراق . وكلف الشيخ مبارك منذ البداية باحتلال المواقع العسكرية التركية في صفوان وام قصر وتلك الواقعة في الجهة الجنوبية من جزيرة بوبيان . وكان عليه ان يهدد البصرة من جهة البر واحتلالها اذا امكنه ذلك بشرط المحافظة على ارواح وممتلكات الرعايا الأجانب .

ومع انه لم يوفق في احتلال البصرة ، لكن وجوده على رأس قوة كبيرة من البدو في الداخل حول انظار الاتراك عن الجنرال آرثر باريت وجيشه الذي نزل على شط العرب في الجهة المقـــابلة لعبادان وزحف إلى البصره عن طريق الضفة اليمنى .

ومكافأة له على جهوده العسكرية وعلى دخوله الحرب الى جانب الحلفـــاء ، فقد اعطت الحكومة البريطانية الشيخ مبارك وعداً خطياً تضمن الأمور التاليـة في حالة خروج الحلفاء من الحرب منتصرين :

١ – ان تعفى بساتينه الخمسة على شط العرب من الضرائب .

٢ – تثبيت ملكيته لتلك البساتين (لأن الأتراك حاولوا نزعها منه) .

٣ – تضمن الحكومة البريطانية في كل الأزمان بقاء الشيخ مبارك وورثتـه وخلفائه شيوخاً على الكويت .

ومنذ اللحظة التي احتلت فيها القوات البريطانيةالعراق حتى انتهاء الانتداب البريطاني على العراق ، ظلت الحكومة البريطانية محافظة على تعهداتها والتزاماتها تجاه شيخ الكويت . ولكن بعد ان نال العراق استقلاله رفضت الحكومـة العراقية التقيد بالعهود التي قطعتها الحكومة البريطانية لشيخ الكويت ، بـــل فرضت على بساتين الشيخ مبارك على شط العرب مزيداً من الضرائب ، وتحـدت ملكيته لبساتين النخيل تلك امام الحاكم ، وأخذت تقوم بدعاية يفهم منها انهـا تعمل على ضم الكويت إلى العراق .

وبالرغم من ان بريطانيا منحت العراق استقلاله وانها تربطها به صداقـــة ومعاهدات ، فان الحكومة العراقية كانت تتصرف تصرفاً معادياً تجاه الكويت لا لتحرج بريطانيا فحسب بل لتفقدها ايضاً نفوذها في جميع انحاء الشرق الأوسط وخاصة منطقة الخليج الفارسي .

ولكن الحكومة البريطانية قررت ، حفاظاً على اسمها وسمعتهـا ، ان تلتزم بوعودها تجاه الكويت مهما كلفها ذلك .

وكان المقيم البريطاني في الكويت سنة ١٩١٤ الكابتن شكسبير . وفي تشرين الثاني بينما كانت القوات البريطانية لا تزال في سيهان تجاه المحمره ، قام الكابتن شكسبير بزيارة السير بيرسي كوكس المقيم البريطاني في الخليج الفارسي ، والسير آرثر باريت في مقر القيادة ، وتلقى منهما الاوامر بالسفر الى نجد طلباً لمساعدة ابن سعود ضد الاتراك .

وفي تلك الاثناء كان من المقرر ان يزور اللورد هاردينج حاكم الهند الكويت بعد ان زار البصره وتفقد القوات البريطانية هناك . وحاول الشيخ مبارك ان يثني شكسبير عن عزمه على السفر الى الرياض الى ما بعد زيارة اللورد هاردينج ، فرفض شكسبير وتوجه الى الرياض قبل وصول حاكم الهند .

ووعد ابن سعود ان يقدم مساعدات فعالة وجهز نفسه للدخول في عمليات عسكرية ضد ابن رشيد الذي دخل الحرب الى جانب الاتراك . والتقت قوات الطرفين في كانون الثاني سنة ١٩١٥ في جمع (وتعرف احياناً بجراب) في سدير . وكان من المفروض ان يربح ابن سعود المعركة ولكن قبيلة عجمان التي كانت تشكل ميسرة جيشه تركت الميدان ولم تقاتل ، فانسحب ابن سعود من المعركة ، وقتل الكابتن شكسبير وهو يساعد على حشو مدفع نجدي .

وكان الشيخ مبارك قد سعى كثيراً من قبل ليجمع بين ابن سعود وبين اللورد هاردينج فلما حدثت هذه الواقعة كان يقول مخاطباً ابن سعود : لقد قلت لك ذلك فلم تسمع نصيحتي ، ولم تقابل حاكم الهند ولكنك خسرت المعركة وافقدتني المقيم السياسي .

وتخلت الحكومة البريطانية عن فكرة التعاون مع ابن سعود في تلك الفترة ولكنها ظلت تحتفظ بمعاهدة صداقة معه .

وفي صيف سنة ١٩١٥ ارسل الشريف حسين في مكة ابنه عبدالله الذي اصبح فيما بعد ملكاً على شرقي الاردن على رأس قوة لا بأس بها ليقوم ، في

الظاهر ، بمساع للصلح بين ابن سعود وابن رشيد وفي الوقت نفسه ليقوم بتنفيذ اتفاقية سنة ١٩١٠ وخاصة الجانب المالي منها . وصيغت اتفاقية للصلح لم تنفذ وعاد عبدالله تاركاً وراءه شعوراً بالمرارة .

وفاة الشيخ مبارك

وحدث ان قامت قبيلة عجلان(١) بثورة في الاحساء في شهر تشرين الثاني . وعجز ابن سعود عن اخمادها ووجد نفسه محاصراً ومطوقاً في مدينة الهفوف . وقد اظهر الشيخ مبارك اخلاصه واهتمامه بابن سعود بأن أرسل جيشاً لنصرته . ونجحت القوة الكويتية في مهمتها . وقد كان بينها اثنان أصبحا حكاماً على الكويت هما : الشيخ سالم الابن الثاني للشيخ مبارك ، والشيخ أحمد حفيد الشيخ مبارك .

وبعد ان تمكنت القوة الكويتية من رفع الحصار تعاونت مع قوات ابن سعود لضرب تجمعات قبيلة عجمان في معركة رضا قرب القطيف .

وبعد ان اعطت القوة الكويتية للمهزومين من عجمان حق اللجوء والحماية عادت الى الكويت . وقد أغضبت هذه البادرة ابن سعود ولم تناسب طموحه ومزاجه الحربي فبدأت بينه وبين الشيخ سالم سلسلة من الثارات والخصومات طويلة .

وكان جيش الكويت المنتصر على بعد عدة اميال من العاصمة عندما بلغه نبأ وفاة الشيخ مبارك وارتقاء ابنه الأكبر جابر الى العرش .

وقد بعث اللورد هاردينج حاكم الهند الذي كان قد زار الكويت في شباط من السنة السابقة ، برسالة الى الشيخ جابر يهنئه فيها بارتقائه مؤكداً تأييد الحكومة البريطانية له كما كانت تؤيد والده طالما حافظ هو من جهته على الاتفاقات المعقودة مع الحكومة البريطانية .

ان الشيخ مبارك في الواقع هو الذي رفع الكويت من مكان قليل الأهمية إلى مكان مزدهر مرموق . واصبحت الكويت خلال ايام حكمه ، بنظر العربي ،

مى المكان المنشود للعيش وبذلك تضاعف عدد سكان المدينة .

اما الشيخ جابر فقد كان شاباً لطيفاً مهذباً اكسبه لطفه وتهذيبه شعبية كبيرة خلال حكمه القصير الذي لم يدم اكثر من سنة .

قائد للاخوان

وفي اواخر سنة ١٩١٥ او اوائل سنة ١٩١٦ وجد ابن سعود ان اليد الطولى في شؤون نجد أصبحت للاخوان مما وضعه أمام حلين : اما ان يكون حاكماً زمنياً فيجابه الاخوان ويسحقهم ، واما ان يصبح الرئيس الروحي لهذه الوهابية الجديدة .

وربما كان ابن سعود قد فكر في البداية في استغلال هذه الحركة لتدعيم مركزه ، ولكنه اضطر في النهاية أن يقبل تعاليمها ويصبح قائدها لئلا يفلت الزمام من يده .

ويقول بعضهم انه على أثر انتهاج ابن سعود لهذا الخط تلقى تحذيراً خطيراً من عبدالله ابن جلوي آل سعود امير الاحساء بأن يتخلى عن هذه الحركة التي شبهها بالنار التي تلتهم كل شيء .

ولكن مما لا شك فيه ان ابن سعود بذلك قد زاد من قوته كثيراً لأنه صهر جميع العناصر المتخاصمة المعادية لبعضها البعض في نجد منذ أقدم الأزمان .

وبعد ان تبنى ابن سعود الحركة الجديدة وجد انه من الضروري تنظيم افرادها وضبطهم ، لأنه كان يخشى قيامهم بهجمات دموية مسعورة باتجاه الحجاز والعراق . وتبعاً لذلك أصدر امره المشهور سنة ١٩١٦ الذي يقضي بانخراط جميع القبائل العربية ، شاءوا ام ابوا ، في صفوف حركة الاخوان ، وان يدفعوا له الزكاة بصفته امامهم الشرعي . وإذا لم يفعلوا فإنه سيهاجمهم ويخضعهم بالقوة .

أما طريقة اخضاع القبيلة التي لم تكن راغبة في دخول الحركة فكانت كما يلي : يستدعي ابن سعود شيخ القبيلة ويبلغه بعبارات جافية أنه وقبيلته لا يدينون بأي دين وانهم جهلة . ويأمر شيخ القبيلة بحضور الدراسات في مدرسة العلماء الملحقة

بمسجد الرياض الكبير وهنـــاك يجري تلقينه مبادىء الدين واسسه . ولم تكن تلك التعاليم ، باستثناء عامل الاكراه فيها ، تختلف بشيء عن الوهابية .

وكان يطلب من كل أخ ان يتقيد قبل كل شيء بأمرين اساسيين: اولاً، عبادة إله واحد ، وثانيا الأخوة بين جميع المؤمنين الصادقين .

ويتضمن الأمر الأول :

١ – الايمان بعدم انقسامية الله .

٢ – اعطاء الزكاة .

٣ – الصوم في رمضان .

٤ – الصلاة خمس مرات في اليوم .

٥ – الحج الى مكة .

ويتضمن الأمر الثاني :

١ – حب الوطن .

٢ – إطاعة الامام (ابن سعود) طاعة عمياء .

٣ – ان يساعد الأخ أخاه في الصعوبات المالية وغيرها .

وعلى المؤمن ان يقول دائماً « لا إله إلا الله محمـــد رسول الله » . ولكنه يمنع منعاً باتاً من التفكير بمحمد او ذكر اسمه كوسيط مع الله . الله هو المهم وما محمد إلا رجل أعطى توصيات الله للمؤمنين . اما وقد توفي وانتهى فإنه لم تعد له اهمية خاصة إلا ان يذكر اسمه بالاجلال والاكبار وان تبقى ذكراه حيـة في الاذهان من قبيل عرفان الجميل .

اما ان يقرن المرء اي اسم مع اسم الله فتلك خطيئة لا تغتفر يعتبر مقترفهـا مشركا كافراً تحل ممتلكاته وحياته ونساؤه . والنذر ايضاً يعتبر خطيئة مميتة . وهــذه العادة منتشرة كثيراً بين الشيعة ولا يقدم النذور إلا قلة من السنة – فواجب الاخوان ، اذن ، تحطيم هذه الاشياء أينما وجدت .

ويعتبر تدخين السجاير والحشيش والافيون وغيرها من الخطــايا الكبيرة . وفي اولى ايام الحركة كان اذا رأى أخ رجـلا يدخن فإنه يهاجمه وربمـا قتله .

والتدخين في مملكة ابن سعود ممنوع رسمياً ، حتى اليوم ، باستثناء الاحساء حيث يسمح للشيعة بالتدخين في الأماكن الخاصة . ومن الممنوعات أيضاً شرب الكحول ولبس الزينات الفضية والذهبية ، وقص الشاربين واللحية إلا كما فعل الرسول ، والقمار ، والتبصير ، والتنجيم ، واعمال السحر .

وتقضي الزكاة بأن يدفع كل شخص جزءاً من اربعين من جميع ممتلكاته للامام . وبحسب القواعد الواردة في القرآن الكريم فان الامام يوزع المال الذي يتقاضاه في ثمانية اتجاهات : على الفقراء ، والمحتاجين ، والمديونين ، والاسرى ، والمسافرين ، والذين يجمعون الزكاة ويقسمونها ، والراغبين في سماع كلمة الحق ، وفي سبيل الله .

وإذا فقد احد الاخوان ماشيته في الغزو او ماتت في المرض او تعرض لصعوبات مالية ، فما عليه إلا إبلاغ صحبه الذين يهبون رأساً لجمع المال الضروري له ليقف على قدميه من جديد ، او ليدفع ما ترتب عليه من ديون .

هذه هي معتقدات الاخوان .

وبينما يكون شيخ القبيلة في الرياض يتلقى العلوم الدينية ، يتوجه اثنا عشر عالماً من العلماء باشراف أحد قادة الاخوان المتزمتين كفيصل آل درويش الشيخ[1] الأعلى في مشير[2] ، إلى القبيلة نفسها . وهؤلاء العلماء المتجولون ينتقيهم ابن سعود من الموالين له . ومن التعاليم التي يرسخها هؤلاء العلماء في أذهان القبائل ان الاخوان فقط هم المسلمون الحقيقيون وان بقية المسلمين كفرة وهراطقة . فكانوا يعقدون الحلقات الدراسية يومياً يعلمون فيها الناس كل شيء عن الاسلام في بساطته الأصلية كما نشره محمد .

وكانوا يغرسون افكاراً مدهشة في عقول الناس عن الامام ابن سعود الذي سيصبح في المستقبل أباً للشعب وقائداً روحياً وشيخاً في وقت واحد . وهكذا كانوا يثيرون الحماس في نفوس افراد القبيلة . وكانوا يبلغون المتدينين انهم أصبحوا اعضاء في الحركة الجديدة ولذلك يطلق عليهم اسم الاخوان .

وكان العلماء يصرون على ان الاعضاء الجدد يجب ان تعتمر رؤوسهم

بالكوفية فقط بدلاً من العقال ، وان يلتزموا البساطة في العيش والملبس ولذلك كان معظم الاخوان يبـــدون بمظاهر التقشف . وليس من المفروض ان يرد الأخ السلام إلا للأخ . فاذا ما صادفت جماعة من الاخوان في شوارع المدينة رجـــلا أوروبياً او عربياً من العراق او من سواحل الخليج الفارسي ، فالمفروض فيهم ان يغطوا وجوههم بأيديهم لئلا يدنسهم منظر الغرباء .

لقد لاحظت هذه العــادات عندما كنت في الاحساء سنة ١٩٢٠ ثم سنة ١٩٣٢ . وكان رفاقي في الرحـلة سنيين من الكويت والبحرين وكانوا يلقون السلام على كل واحد من الاخوان يصادفونه في الصحراء وفي الهفوف ولكنني لم اسمع جواباً إلا مرة واحدة حين قال احدهم وعليكم السلام . وفي عـــدة مناسبات كان الناس في الهفوف سنة ١٩٢٠ يغطون وجوههم عندما يقتربون مني . وحدث مرة ان دخلت إلى مجلس ابن سعود نفسه ، عندئذ نهض جماعة من الاخوان دفعة واحدة وخرجـوا من المجلس وهم يغطون وجوههم لئـــلا يروني وكانوا يتمتمون يصبون اللعنات علي مع انني كنت ضيفاً على امامهم .

وعندما يعتبر شيخ القبيلة انه تلقى علوماً وتوجيهات دينية كافية يعطى بيتاً في الرياض — خاصة إذا كان قوياً — ويدعى للبقاء في جـــوار الامام . وهذه الطريقة ايضاً كانت من اساليب السيطرة على القبائل . فـــاذا اراد ابن سعود في اي وقت ان يعبىء قوات الاخوان فعليه إلا ان يبلغ حرسه الخاص والشيوخ المحيطين به ، وفي ظروف أربعة أيام تلتهب البلاد او هكذا يقال .

ولم يكن الشيخ يستطيع مغادرة الرياض والعودة إلى قبيلته إلا بـــإذن من الامام ، ولم يكن ذلك ليمنح في اغلب الأحيان .

وكانت تعلق أهمية بالغة على اداء الصلاة اثنـــاء ارشاد القبيلة . واصبح من معتقدات الاخوان ان يتجمع الرجال للصلاة وبنادقهم متفرقة امامهم في خط طويل جاهزة للاستعمال . وكان تأثير ذلك في النفوس مدهشاً . وعندما يحـين موعد الصلاة يصرخ أحدهم: «انهضوا ايها الكسالى .. قوموا للصلاة» . فيتجمع

عدد من الاشخاص ويعينون قائداً لهم ، ويصفون بنادقهم رأس الواحـــدة إلى قدم الأخرى في خط منتظم ، وتتـلى الصلاة على الطريقة العسكرية النظامية .

ولقد شاهدت حرس ابن سعود اكثر من مرة وعددهم حوالي ثلاثمائة شخص يتجمعون لاداء الصلاة وقد ادهشتني فيهم الدقة العسكرية في الحركة . ولم يبد ابن سعود او اي من الأخوان ادنى اعتراض على اقـــدامي على تصوير هـذه التجمعات . واظن انهم كانوا يفتخرون بهذا النظام الذي توصلوا اليه بحيث انهم يعتبرون صوري دعاية جيدة لهم .

وكان اجبار الناس على الدخول في الحركة من مقومات الايمـان عند الاخوان في الايام الأولى للحركة . وقد اثارت اساليبهم مخاوف الناس في الحجاز والبلدان المجاورة .

ومن الثابت انهم عندما وجدوا طريقهم إلى الهفوف لأول مرة أخـــذوا يضربون ضرباً مبرحاً كل امرأة يجدونها تسير في الشارع ، ويطلقون النار ببرودة دم على عدد من الأشخاص لا ذنب لهم إلا أنهم يدخنون التبغ . وقـــد اضطر ابن سعود وعبدالله بن جلوي الى التسامح والعفو عن الذين اعماهم التعصب ، قبل ان استطاعا كبح جماح الآخرين واعادتهم الى رشدهم .

وغني عن القول ان الأمر الذي اصدره ابن سعود سنة ١٩١٦ اثار كثيراً من النزاع مع القبائل وخاصة قبيلة عجمان في الاحساء . ويمكن القول حقيقة وبكل امانة ان ابن سعود شغل طيلة سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٧ في سلسلة طويـلة من الحروب مع القبائل التي لم تكن متحمسة للاخوان . ولم يكن يستطيع زيارة الرياض للراحة إلا نادراً .

الحسين ملك الحجاز

اعلن الحسين شريف مكة استقلال الجزيرة العربية وانضم إلى الحلفـــاء في تموز سنة ١٩١٦ بعد ان ازاح عن كاهله الحكم التركي . وفي الشهر نفسه احتـــل الحسين ينبع ميناء المدينة المنورة ، وفي شهر تشرين الأول اعلن نفسه ملكاً على

البلاد العربية . ولم يكن ذلــــك مقبولاً لدى الذين اعترفوا به ملكاً على الحجاز فقط .

وتطلع ابن سعود إلى هذه التطورات بقلق متزايد ولكنه لم يقم بأي عمــل فوري ضد الحسين او ضد آل رشيد اعداء بيته التقليديين .



الشيخ صباح الاحمد الصباح



الشيخ جابر الاحمد الصباح



الشيخ عبدالله الجابر الصباح



الشيخ صباح السالم الصباح

الفصل السابع

سوق الشيوخ

١٩١٥ - ١٩١٦

سنترك الجزيرة العربية فترة ونلفت انتباهنا الى العراق حيث قضيت عدة سنوات في الخدمة تحت قيادة السير بيرسي كوكس الذي كان في ذلك الوقت رئيساً للدائرة السياسية في جنوب العراق .

وسأبدأ ببعض الملاحظات عن السكان العرب على الفرات الأسفل وخاصة في سوق الشيوخ والناصرية حيث عملت في البداية .

بني أسد

قبيلة قوية من غير المنتفق تعيش في مستنقعات جنوب العراق . وشيخ هذه القبيلة هو سالم الخيون ومقره الرئيسي في شبيش .

ضافر

وهي قبيلة صحراوية شريفة تقطن بين السماوه والزبير جنوب الفرات . ولها فروع كثيرة متعددة منها بني حسين وآل عرايف . ويشتق اسم القبيلة من ضفر اي خصلة الشعر اشارة إلى ان القبيلة نمت وتأسست من وحدات صغيرة في الصحراء .

وقد اشتهرت قبيلة الضافر بين قبائل الصحراء بالطريقة التي تدافع فيها

وتحمي بها القساري اي جيرانها في الخيام من اي قبيلة كانوا ، حتى اذا اضطرها ذلك الى معاقبة افرادها والجماعات التي تنتمي اليها .

وقد أمر أحد شيوخ ضافر مرة ان يذبح ابنه بحضوره لأنه قتل قسيراً في حمى نزاع لا مبرر له .

والمشيخة في هذه القبيلة لآل الصويت وشيخهم الأعلى حالياً عجيمي الصويت .

المنتفق

وهو اسم يطلق على اتحاد القبائل العراقية التي تقطن على ضفتي القسم الجنوبي من نهر الفرات في بحيرة حمار ، وشطرا ، وقلعة سكر ، والناصرية ، ومدينة سوق الشيوخ . وهنالك ثلاثة أقسام رئيسية لا تربطها رابطة إلا قبولها المشترك لسلطة عائلة السعدون . وهذه الاقسام التي ليست قبائل بل مجرد تجمعات هي : أجود ، وبني مالك ، وبني سعيد .

وبني سعيد سعيد هم القسم الأصغر والأكثر تماسكاً ويقطنون المنطقة الصحراوية بين دجلة بالقرب من مدينة العماره وبين شط الحي في شطرا .

أما أجود فهم أقلهم تماسكاً ويسكنون الغراف وهو الاسم الذي يطلق على المنطقة الزراعية الواقعة على ضفتي شط الحي ويسكنون ايضاً على ضفتي الفرات فوق الناصرية وتحتها . وهم بين مزارعين مقيمين وبين اصحاب ماشية رحل . والمشيخة فيهم حالياً في عائلة المناح وشيخهم الأعلى اليوم هو فيصل الزامل المناح .

اما القبائل الرئيسية التي يضمها قسم أجود فهي :

العبوده : قبيلة زراعية قوية في منطقة الغراف بالقرب من مدينة شطرا . وشيخها هو خيون العبيد .

الأزارج : قبيلة زراعية في المنطقة بين شطرا والناصرية شيخها محمد القطا البوني .

الفزّي : قبيلة زراعية قوية على الضفة اليمنى للفرات بين بثا والناصرية. وشيخها اليوم محمد الحبيّب . ويتفرع منها آل غليظ .

الحسونه : قبيلة من السادة المزارعين بين شطرا والناصرية وشيوخها هم : السيد حمود بن عبد الحسين والسيد محمد بن عبد الحسين .

الحسينات : قبيلة زراعية على الضفة اليمنى للفرات قبالة الناصرية وشيخها عجيل الخضيري .

الابراهيم : قبيلة زراعية الى شرق آل حسونه وشيوخها بلهول الشايد وجبار المطشر .

الخفاجه : قبيلة زراعية قوية في منطقة الغراف بين شطرا والناصرية وشيخها شعبان العلي .

المهاينه : قبيلة زراعية صغيرة على الضفة اليمنى للفرات قبالة العاشرة وشيخها قيطان العجيل الشويّد .

أما القسم الثالث من المنتفق اي بني مالك فهم في الأصل من المعدان (اسم يطلق على ساكني المستنقعات والأهوار في العراق) ويعيشون في الدلتا التي يشكلها نهر الفرات عندما يدخل بحيرة حمار . وتعتبر قبيلة البوصالح وشيوخها زعيمة قبائل بني مالك .

وقبائل بني مالك الرئيسية هي :

العاشره : قبيلة زراعية في منطقة سوق الشيوخ على الضفة اليسرى من الفرات ، شيخها صبرو الدوغي .

الحكام : قبيلة زراعية على جانبي المجرى الرئيسي للفرات بالقرب من سوق الشيوخ . وهي قبيلة قوية كانت مصدر قلق للاتراك في الايام الغابرة. وكان لها في يوم من الأيام اربعة شيوخ رؤساء هم : حجي مزبان ، وقاصد الناحي ، وفرهود الفندي ، وحجي ناصر العبايل الذي سنروي قصته فيما بعد . والشيخ الأعلى على الضفة اليمنى من الفرات اليوم هو مزهر القاصد الناحي ، وعلى

الضفة اليسرى فرهود الفندي .

ويتفرع من قبيلة الحكام فئة تدعى البوحميدي .

الحسن : قبيلة في اهوار منطقة الدلتا من سوق الشيوخ وشيخها الأعلى اليوم هو حموده ابن مزعل البشاره . اما ذلك القسم من قبيلة الحسن الذين يعيشون على الضفة اليمنى من النهر فان شيخهم هو مريبج الفيصل الياسر ولكنه يخضع لحموده بن مزعل البشاره .

الجويبر : قبيلة في الأهوار غرب بحيرة الحمار وشيخها حاتم الموزان .

بني خيقان : قبيلة في أهوار منطقة الدلتا من سوق الشيوخ . شيخها اليوم هو الحجي تشوّيد المفشغش شقيق المرحوم فرهود المفشغش .

النواشي : قبيلة في الاهوار قرب سوق الشيوخ .

البو صالح : قبيلة قوية إلى شمال بحيرة الحمار قسم من أفرادها مزارعون وقسم من سكان الأهوار. والشيخ الأعلى في هذه القبيلة الزعيمة في بني مالك كان بدر الرميض ، اما اليوم فهو محسن الرميض. ويتفرع من هذه القبيلة آل سليمان وشيخهم محمد النصرالله .

الشدّود : قبيلة صغيرة في منطقة سوق الشيوخ على الضفة اليسرى من الفرات .

البوشامه : قبيلة في الاهوار شمال بحيرة الحمار .

وهنالك مجموعة قوية من قبائل الرعاة المهاجرين تشكل جزءاً من اتحاد المنتفق . وينتقل هؤلاء في الشتاء والربيع الى الكويت وحدود العراق الجنوبية مع المملكة العربية السعودية . والقبائل الرئيسية في هذه المجموعة هي الآتية : (سنشير إلى القبائل التي تدعي بانها من اصول شريفة بعلامة « × ») .

العبّاده	. . . . بني مالك
الموتان (×)	. . . . أجود
البدور (×)	. . . . أجود
الغليظ (الغزي)	. . . . أجود

الهندال (×)	. . . .	بني مالك
الجميعان	. . . .	بني مالك
الجوارين (×)	. . . .	بني مالك
الرفيعات (×)	. . . .	أجود
الشريفات	. . . .	أجود
الزيّاد	. . . .	من قبائل السماوه
الزوبا[1] (×)	. . . .	اصلها من شمر
الزهيريه	. . . .	من قبائل الزبير

وتقع جميع قبائل العراق تحت ثلاثة اسماء عامة هي :

١ – اهل الجزيرة : وهم القبائل التي تسكن المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات من الموصل الى الخليج الفارسي .

٢ – اهل الشاميه : اسم عام يطلق على قبائل منطقة سوق الشيوخ التي تقطن على الضفة اليمنى من الفرات بين الناصرية وسوق الشيوخ .

٣ – الجزّه : اسم عام يطلق على قبائل منطقة سوق الشيوخ التي تسكن على الضفة اليمنى من الفرات بين سوق الشيوخ وبحيرة الحمار .

وتجدر الاشارة هنا الى ان جميع نساء قبائل المنتفق سافرات ووجوههن وأذرعهن وأقدامهن مزينة بنماذج متعددة من الوشم .

عائلة السعدون

ان تاريخ اتحاد المنتفق جزء لا يتجزأ من تاريخ عائلة السعدون التي تدعي انها تنحدر من سلالة الرسول ولذلك فهم ينتسبون الى شرفاء مكة وقد هاجروا من الحجاز الى بلاد ما بين النهرين في أوائل القرن السادس عشر .

وفي ظل عائلة السعدون حافظ اتحاد المنتفق على استقلاله من الأتراك حتى سنة ١٨٦٣ عندما حاول والي بغداد ان يحطم قوة القبائل بأن اقتطع اراضي معينة من المنتفق وعين كبير آل السعدون قائمقاماً ذا صلاحيات محدودة لم تتمد

زوبع

سوق الشيوخ .

وقد ثار الشيخ الأعلى في ذلك الوقت وهو منصور بك السعدون ضد هذه الإجراءات وحاول ان يثير انتفاضة عربية عامة ضد الأتراك ، مما اضطر الوالي ان يتخلى عن سياسته الجديدة . ويقول المقيم البريطاني في بغداد انه لو كانت للأتراك القدرة على تنفيذ سياستهم لكانت جميع قبائل المنتفق والتهم لانهم كانوا يقاسون كثيراً من الظلم على أيدي رؤسائهم .

وفي سنة ١٨٦٤ و ١٨٦٥ كان منصور بك وشيخ آخر هو فهد السعدون لا يزالان في حالة ثورة مقنعة ضد الأتراك . وأخيراً لجأ منصور بك الى الضافر بينما اعطيت المشيخة لأخيه ناصر سنة ١٨٦٦ لأنه زايد على الشيخ فهد .

وقد نال الشيخ ناصر حظوة خاصة عند الأتراك ويبدو انه وقع تحت تأثير مدحت باشا الذي استدرجه سنة ١٨٧١ الى التخلي عن الموقف الذي اتخذه شقيقه مع الشيخ فهد ، والى القبول بامتداد النفوذ العثماني الى قبائل المنتفق .

وبتلك الخطوة يبدو ان الشيخ ناصر الذي أوجد الناصرية قد خان المنتفق الى الأتراك .

وحاول الأتراك إقامة موطن ثابت لهم هناك فرشوا آل السعدون واقنعوهم بقبول التحول الجديد ، وان ينتقلوا من رؤساء يتقاضون الجزية الى ملاّك للأرض . وبذلك فقدت القبائل ملكيتها للأرض وأصبح أفرادها مزارعين بالقسم ، وقسمت أراضي الناصريه وسوق الشيوخ بين آل السعدون والباب العالي .

وفي سنة ١٨٧٢ استخدم الأتراك الشيخ ناصر لتوطين قسم من جماعاته في الاحساء والقطيف المنطقتين اللتين كان الأتراك قد احتلوهما في ذلك الوقت . ومكافأة له على خدماته عين والياً على ولاية البصرة التي انشئت سنة ١٨٧٥ ومنح لقب باشا . وعندما قوي ناصر باشا بعد ان جمع بين حاكمية البصرة وبين رئاسة المنتفق ، نفاه الأتراك الى القسطنطينية سنة ١٨٧٧ .

وفي سنة ١٨٨١ وبينما كان ناصر باشا لا يزال في السجن ، قامت جميع قبائل

المنتفق بثورة ضد الاتراك . ويبدو ان أسباب تلك الثورة تعود الى تصادم القبائل مع الجنود الاتراك الذين تمركزوا في معسكرات انشأوها في الناصرية ، والى محاولة الاتراك تنفيذ خطتهم الجديدة وحمل رجال القبائل على دفع الضرائب لهم ولآل السعدون . ولم يتمكن الاتراك من اخماد تلك الثورة فاضطروا الى التخلي عن جمع الضرائب والى إعطاء مزيد من السلطات الى فالح باشا الابن الاكبر لناصر باشا الذي استأنف الى حد ما سياسة والده الموالية للعثمانيين .

وفي تلك الاثناء أصبح المنتفق موزع الولاء بين فالح باشا وسعدون باشا ابن الشيخ منصور . وكان ينظر الى سعدون بأنه يمثل المبادىء القبلية القديمة . فأنصار فالح كانوا يقطنون المنطقة ما بين دجلة والفرات ، بينما الجماعات القبلية الموالية لسعدون باشا كانت تقطن الضفة اليمنى من الفرات .

وعندما توفي فالح باشا في سنة ١٩٠٨ اصبح سعدون باشا سيداً على المنتفق كله . وبدأ سعدون بذلك عهداً من الطغيان والاستبداد في المنتفق فقتل عدداً من صغار الشيوخ وأخذ ينشر حالة من التهديد والوعيد والقسر ، وفي سنة ١٩١١ ضجت منه جميع البلاد فتخلى الاتراك عن تأييدهم له في تموز من تلك السنة وأرسلوه تحت الاقامة الجبرية الى بغداد ، ونقل في الشهر التالي الى حلب حيث توفي فجأة في ٢٥ تشرين الثاني . وصدر تقرير رسمي يقول ان سعدون باشا توفي بداء النقطة والذبحة القلبية ولكن الرأي السائد هو انه توفي مسموماً . وظل ابنه عجيمي بك طريد العدالة خارجاً عن القانون في جوار الناصريه .

وفي الفترة بين سجن سعدون باشا ووفاته ارتد عطف قبائل المنتفق ، بمن فيهم اعداؤه عائلة فالح ، عليه ربما لانه لم يعد موظفاً في الدولة العثمانية وبسبب كره القبائل للأتراك .

فرجال القبائل لم يتدرجوا من ملاك للأرض الى مزارعين بالقسم ، وكذلك لم يستطع آل السعدون ان يفرضوا الحقوق التي اكتسبوها من الدولة العثمانية .

ومع ضعف السلطة المركزية منذ بداية العهد الدستوري في تركيا سنة ١٩٠٨ ، والاضطراب العام في الادارة المحلية الذي جاء في اعقاب الحروب مع

ايطاليا والبلقان ، اثبت الوضع الرسمي الذي بادله آل السعدون بامتيازاتهم لقبلية القديمة انه عديم النفع . فقبل الاحتلال البريطاني للعراق سنة ١٩١٥ بعدة سنوات تمنعت القبائل عن دفع ربع الارض . ومع ذلك قام اتحاد المنتفق ضد الانكليز في تشرين الثاني سنة ١٩١٤ . ويرجع ذلك الى ما تبقى من نفوذ آل السعدون ، والى تعاليم السادة التي تدعو للجهاد ، وكان الترغيب بغنائم الحرب او بمكافآت الاتراك .

ان شجرة عائلة آل السعدون تضم أكثر من مئة اسم ولكننا على الصفحة السابقة حصرناها بفرع واحد لاظهار فروع سعدون وفالح التي سيرد ذكرها مع بعض الاسماء الاخرى والنبذات التي سنذكرها في الروايات التالية :

عبد العزيز الراشد السعدون : لم يرد ذكره في الشجرة وهو رئيس عشيرة الراشد في سوق الشيوخ (متوفى) .

عبدالمحسن السعدون : لم يرد ذكره في الشجرة . تولى رئاسة الوزارة في العراق اربع مرات. انتحر أثناء ولايته الرابعة في ١٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩.

عبدالله بك الفالح باشا السعدون : الشيخ الاعلى لقبائل المنتفق التي تقطن بين دجلة والفرات . (متوفى)

عجيمي بك السعدون : سابقاً رئيس قبائل المنتفق التي تقطن الضفة اليمنى من الفرات . وهو يعيش حالياً في تركيا .

عجيل بك السعدون : لم يرد ذكره في الشجرة . وهو زعيم مرموق وتعيش عائلته في الناصرية .

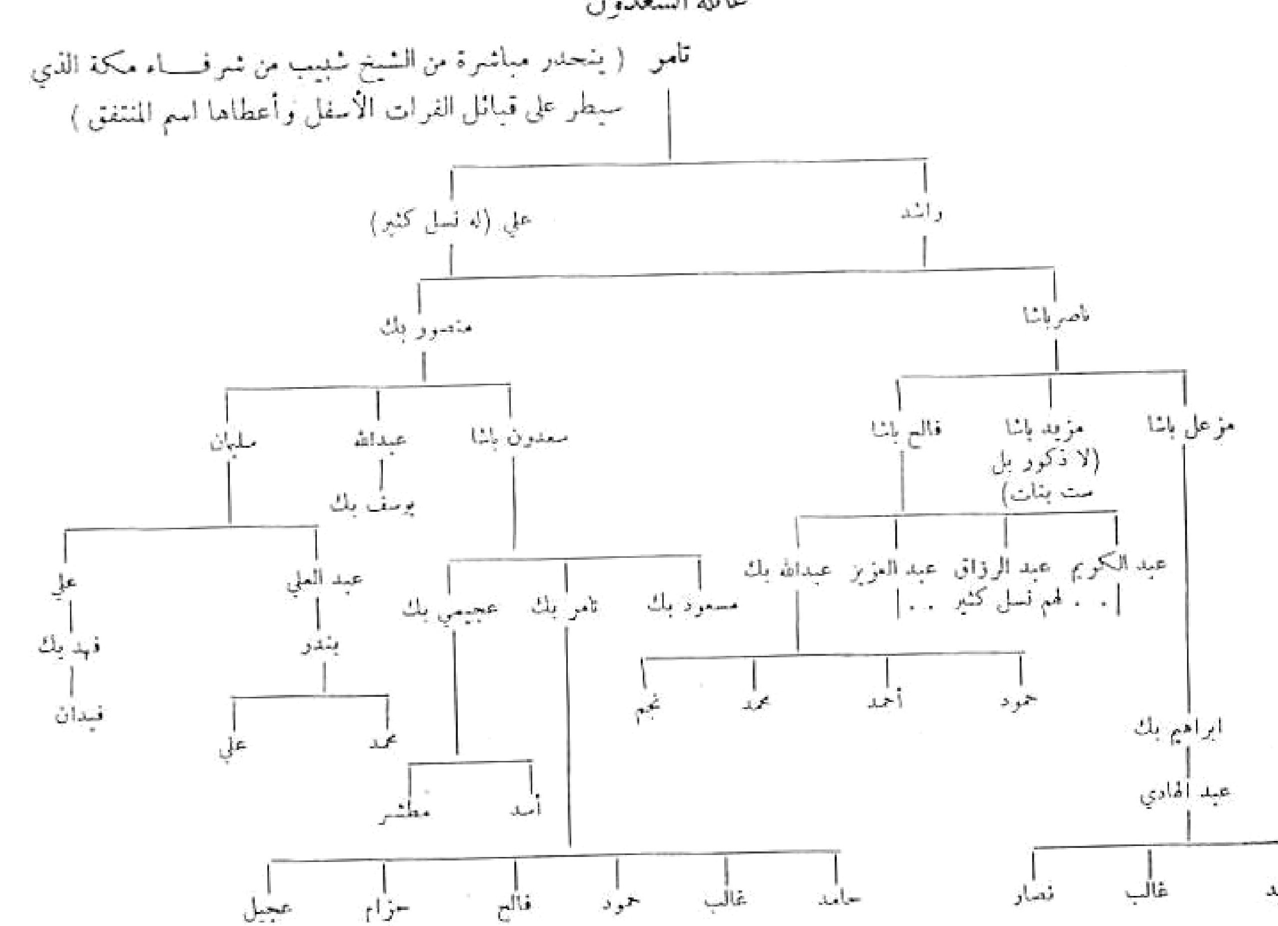
بندر السعدون : والد علي ابن بندر السعدون ومحمد ابن بندر السعدون . (متوفى) .

ضاري بك الفهد السعدون : لم يرد ذكره في الشجرة . عضو بارز في فرع آل محمد من العائلة . كان سابقاً يسكن في الناصرية وهو الآن متوفى .

فهد بك السليمان السعدون : كان يقيم على الضفة اليمنى من الفرات . (متوفى)

فالح باشا السعدون : سابقاً رئيس جميع القبائل القاطنة بين دجلة والفرات .

عائلة السعدون



والد عبدالله بك الفالح باشا السعدون الذي تولى الزعامة بعد وفاة والده .

حزام بك المشاري السعدون : لم يرد ذكره في الشجرة . عضو بارز في العائلة كان يقيم بالقرب من الناصرية وهو الآن متوفى .

ابراهيم بك ابن مزعل باشا السعدون : عضو بارز في العائلة ويقيم حالياً في البصرة .

مزعل باشا السعدون : والد ابراهيم بك ابن مزعل باشا السعدون . وهو الآن متوفى .

محمد ابن بندر السعدون : ابن بندر السعدون .

ناصر باشا السعدون : آخر والي من آل السعدون على البصرة (متوفى) .

سعود بك السعدون : الأخ الاصغر لعجيمي بك وثامر بك .

ثامر بك السعدون : يقيم حالياً في سوق الشيوخ .

يوسف بك العبدالله المنصور السعدون : ابن عم عجيمي بك وثامر بك وسعود بك .

أنا أدير سوق الشيوخ

عند اندلاع الحرب العالمية الاولى مع المانيا ، أرسلت كتيبتي الى فرنسا . وبما أنني كنت أجيد اللغة العربية التي تعلمتها منذ الصغر ، فقد ارسلت الى الهند ومنها الى العراق في تشرين الثاني سنة ١٩١٤ حيث اشتركت في كل العمليات التي أدت الى احتلال البصرة والقرنة والناصريه بما في ذلك معركة شعيبه قرب الزبير.

وبعد ان احتل الجنرال غورينج الناصريه في تموز سنة ١٩١٥ ، أرسلت كضابط استخبارات الى سوق الشيوخ المدينة العربية الصغيرة على الفرات في وسط قبائل المنتفق . ولم تكن القوانين تسري هناك حتى في أيام الاتراك قبل سنة ١٩١٤ . فقبائل المنتفق عنيدة متمردة ، وكانت في حالة من الفوضى بحيث اضطرني ذلك الى حث الدائرة السياسية التي يرئسها السير بيرسي كوكس الذي كان ينظم الادارة المدنية في جنوب العراق ، على ارسال ضابط لادارة المنطقة .

وكم كانت دهشتي عندما تلقيت برقية عينني فيها السير بيرسي مساعد ضابط سياسي بالاضافة الى واجباتي الاخرى في سوق الشيوخ .

ومع انني سررت بهذا المنصب لكنني رأيت أمامي كثيراً من المتاعب لان قبيلتي بني حيقان وبجره الكبيرتين اللتين تقطن الاولى منهما على الضفة اليسرى من المجرى الرئيسي للفرات والثانيـة قبالتها على الضفة اليمنى ، كانتا على وشك الدخول في حرب . وكانتا قد اختلطتا بشكل خطر في الدلتا بين سوق الشيوخ وبحيرة الحمـار ، فكان أفراد القبيلة الواحدة يقتنصون افراد الاخرى والعكس كلما عبر هؤلاء النهر ذهاباً أو إياباً لقضاء اشغالهم العادية .

ومما زاد الامور صعوبة عدم وجود شبانه (أي شرطة النهر) ولا سواري (أي شرطة خيالة) ولا جنود بريطانيون او هنود .

وهكذا كنت انا الانكليزي الوحيد في ذلـك المكان اعيش وحدي بكل امجادي بينما كان الجيش الانكليزي يصارع ليشق طريقـه على دجلة . وكان كل يوم يمر يجلب معه مفاجآت مثيرة حتى لم يعد يعرف المرء ماذا سيحدث في الليل او في الصباح الثاني . وبقيت انا على قيـد الحياة بفضل الحجي حسن حمداني وحسن نيته . وكان الحجي حسن ، رجـل المدينة القوي ، يحتفظ بقوة مسلحة قوامها ٢٠٠ رجل اشداء وذلـك لفرض ارادته وفرض هيبة الامن والقانون . ولكنه خارج حدود المدينة لم يكن له أي نفوذ على الاطلاق .

وفي الوقت الذي كنت فيه ضابط استخبارات فقط اعيش في ظل الحجي حسن واقيم في منزله ، كنت مكتفياً تمامـاً . ولكنني كنت اضحك في نفسي عندما بدأت افكر بأن اجرب حظي في انشاء قوة شرطة برية ونهرية ، وايجاد شرطة للمدينة ، واقامة ادارة ، مما يعني ، أولاً وقبل كل شيء ، جبايـة بعض الضرائب من القبائل التي لم تـدفع فلساً واحداً للاتراك طوال السنوات العشرين التي سبقت قدومي .

كنت اعلم ان عقبات كثيرة ستعترضني ، وان امامي صراعاً ليس أقله تحطيم سلطة الحجي حسن في المدينة ، وفرض هيبة القانون والامن بـين بني خيقان

وبجره .

وانتقلت الى منزل عربي صغير يواجه النهر وتفصله عنه ساحة عرضها ٢٠٠ ياردة. وكانت في وسط المنزل باحة وأربع غرف في الطابق الارضي استخدمت ثلاثاً منها كمكاتب والرابعة كمطبخ . اما الغرفتان في الطابق العلوي ، فكانت واحدة للنوم والاخرى للجلوس .

والمدخل الوحيد لهذا المنزل بوابة حديدية صغيرة محكمة الصنع يصعب خلعها. ولم تكن فيه اي ثغرات خارجية وكل نوافذه تطل على الساحة الداخلية . وكان السطح الذي يصل الغرفتين العلويتين محاطاً بجدار (حاجز) سماكته ٩ بوصات وارتفاعه أربع اقدام وست بوصات . لقد كان بيتاً مثالياً للدفاع في حالة تعرضه لهجوم فهو متماسك على بعضه وفيه فتحات على ثلاث جهات .

واستملت الحجي حسن الى جانبي وعرضت عليه ان اتولى امور رجاله وادفع مرتباتهم ، وعينت شقيقه الأصغر كاظم حمداني مساعداً لي، وابنه الاكبر سالم جابي للضرائب في المدينة . اما الحجي حسن نفسه فقد منحته منصباً غير رسمي وهو مستشار مساعد الضابط السياسي . وقد منحت هذا اللقب الفخري ايضاً للحجي عباس الصنيث ، والحجي علي الدبوس ، والحجي ابراهيم العماري وهم من زعماء المدينة ويمثل كل واحد منهم ربعها . وقد زاد إعجابي وتعلقي بمستشاري الاربعة فكنت اقضي معهم ساعات طويلة اتحدث معهم اما في حوانيتهم أو في منازلهم ، أو أدعوهم كل يومين تقريباً لتناول القهوة والمرطبات في منزلي عند الصباح .

وكانت للأربعة احقاد وثارات على بعضهم البعض ولكنهم لم يجرؤوا على اظهارها أمامي . وكانوا يفضلون العمل معي لا ضدي ، ويحرص كل واحد منهم ألا يصبح أي من الآخرين اكثر نفوذاً لدي . وكنا نعمل معاً ، كفرقة ، بصورة رائعة مما أتاح لادارة سوق الشيوخ ان تنجح بفضل مستشاري الأربعة ونواياهم الحسنة وتعاونهم .

وعندما سيطرت على المدينة وضبطتها اتجهت نحو القبائل المحيطة ، فبدأت

بإنشاء قوة شبانه قوامها ٢٠٠ رجل نصفهم من بني خيقان والنصف الآخر من المجره . واعطيت هؤلاء الشرطة بنـــادق تركية وألبستهم زياً واحداً انيقاً وأسست لهم مراكز يبعد الواحد عن الآخر ثمانية أميـــال على طول النهر الى بحيرة الحمار شرقاً ، وغرباً الى مضيق الشيخ نشويد ابن مهاينه وبرجـــه الحربي الذي يشكل نصف الطريق الى الناصريـه ، حيث كانت تنتهي حدود مملكتي الصغيرة .

وكقوة ضاربة كنت احتفظ بقوة شبانه اطول مدة ممكنة في المقر الرئيسي . وللقيام بدوريات في الصحراء باتجاه خميسيه ومـــا بعدهـا ، اعطيت ثامر بك السعدون الذي كان يعيش في ام البطوش ، سلطات مـدير والاموال الضرورية للاحتفاظ بثلاثين من السواري وشراء الخيول لهم . وقـــد زودت هؤلاء ببنادق مارتيني – جيدة ولكن مضى زمنهـا – وكان رجال الصحراء يحبون هـــذه البنادق ويسمي الواحد منهم بندقيته « أبو موزر » او « دكسان » ، وقد انتقل هذا الاسم الأخير إليّ لأن ديكسون ودكسان متشابهتان في اللفظ تقريباً .

وبعـــد ان عينت مديرين على قرمة بني سعيد والخميسيه وحكيكه وشمال بحيرة الحمار ، اصبحت إدارتي جاهزة لجبايـة الضرائب . وقـــد أشار عليّ مستشاري ان ان أسير بالعملية ببطء ، فأفرض أولاً ضريبة على أشجار النخيل (روبيـــة على كل شجرة) ولكن ليس على الأرز والقمح والشعير . وأشاروا ايضاً ان اهمل في الوقت الحاضر جباية الكودا وهي ضريبـة على الماشية أدخلها الأتراك . وقالوا لي ايضاً ان الاتراك لم يتركوا أيـة سجلات على الاطلاق ، فإذا كنت ارغب في العدد الصحيح ، فعليّ ان اقوم بعملية عد للاشجار في كل مكان الأمر الذي تقاومه القبائل .

ونصحوني بدلاً من ذلك ان افرض ضريبة اسميـة في السنة الاولى واضاعفها في السنة التالية ثم اضاعفها في السنة الثالثة ، فإذا مـــا اعترض اصحاب البساتين وشكوا الغبن اعرض عليهم عد الأشجار شخصياً وأحدد الضريبة . وعلمت ان عدد الأشجار المغروسة منذ ان تقاضى الأتراك آخر ضريبة أي قبـــل عشرين

سنة كان كبيراً بشكل ان أحداً لن يطلب عد أشجاره قبل مضي خمس سنوات من عملية المضاعفة .

وقبلت الاقتراح لأنني لم أكن ارغب في عرقلة رئيسي الذي كان يقوم بحملة ضد الاتراك على دجلة ، عن طريق إثارة ثورة او أي حـــادث في منطقة سوق الشيوخ .

ان جباية ضرائب النخيل من رجال القبائل الذين ليست لهم حقوق شرعية كثيرة في ملكيتهم ، كانت أمراً مضحكاً . فكان على المرء ان يلجأ الى الخداع والمزاح والدعوات الى حفلات غداء عامرة وأحيانــاً الضرب بيد من حديد على احدهم وسجنه قبل أن يأتي اصدقاؤه لنصرته .

وأول ما استرعى انتباهي ، قبيلة آل شدود من جهة بني خيقان على الفرات على بعد اثني عشر ميلاً الى الغرب من السوق . وكان شيخ القبيلة وقتذاك الحجي فيصل الشدود وهو رجل طوله ست اقـــدام واربع بوصات وله خمسة أخوة بطوله وبجماله . وابلغته انني آت اليه لاحدد مقدار الضريبة المطلوبة منه لتلك السنة ، فرد علي بأن دعاني الى حفلة غـداء عامرة تحت اشجار النخيل . وقلت له قبل تناول الطعام انني سأقدر اشجاره بصورة عفوية بستة عشر الفاً، ولكنه اذا رغب عددت الاشجار بالضبط . وأرغى الحجي فيصل وأزبد وأقسم بأنني أفرض عبئاً كبيراً عليه وعلى قبيلته . وتشبثت انا بموقفي فبدأت بـــدأت الامور تأخذ طابع التحدي لان كل رجال القبيلة مسلحون ويحيطون بنا .

وبعد ساعتين من الجدال تنازلت عـــن الف شجرة وجلسنا على الغداء وانا مصر على تقاضي ضريبة عـــن خمسة عشر الف شجرة . ولم تكن حفلة الغداء ناجحة خاصة وان كل واحد منهم كان يأكل والبندقية في يده . وكان وجودي هناك مصدر ازعاج شديد ، وكانت شرارة واحدة كافية لأن تلهب المكان . وكان الشقيق الثالث لمضيفي واسمه الحجي حمد الشدود يضع بندقيته على ركبته وفوهتها تبعد ست بوصات فقط عن صدري . وطلبت منـــه ان ارى البندقية فوجدتها محشوة وغير مقفلة وفيها أربع طلقات اضافية في مخزنها . وبكل هدوء

انتزعت الطلقات منها ، فبدت على وجه الحجي فيصل بوادر عـدم الارتياح . وعندئذ قلت له انني لا استطيع ان اتمتع بالغداء وبندقية اخيـه تكاد تخترق ضلوعي . واحاطني مضيفي بكرمه وترحيبه فافترقنا بدون خصام مع اعتقادي بأنني نجوت صدفة .

وتجدر الاشارة هنا الى انني في السنة التاليـة تقاضيت من الحجي فيصل ضريبة على ٣٠ الف شجرة وبدون تذمر من أحـد . وفي السنة الثالثة ضاعفت الضريبة الى ٦٠ الفاً . وعندما وصلت الضريبة الى ١٢٠ الفاً طلب الحجي فيصل في السنة الرابعة ان يجري عد الاشجار . وقد قمت انا بنفسي بعد الاشجار فكان عددها أكثر بقليل من ٢٤٧ الف شجرة . ومما لا شك فيه ان الشيخ خشي ان اضاعف الضريبة ايضاً في السنة التالية فجاء بطلب العد .

ولم احمل حقداً أو كراهية ضد الحجي فيصل او الحجي حمد اطلاقاً . بل ان آل شدود اصبحوا من افضل دافعي الضرائب . وبعد مضي ٢٥ عاماً عندما كنت مقيماً سياسياً في الكويت شرفني الحج مغامس الأخ الثاني للحجي فيصل بزيارة سررت بها كثيراً .

محمد العايل يبيض وجهي

كان الحجي مري شيخاً مساعـداً مع الحجي دوغي في قبيلة العساشرة . وافراد هـذه القبيلة قوم اشرار تتصل اراضيهم مباشرة باراضي آل شدود . وكانت هذه القبيلة تحتل حوالي ثمانية اميال من واجهة النهر مع حزام من اشجار النخيل الممتازة بحدود مجرى النهر ، ومنطقة ممتازة لزراعة القمح والشعير .

وكان الحجي مري يملك عدة مئات من الفدادين الصالحة لزراعـة الرز وراء اماكن زراعة القمح . وتقع قريته الرئيسية على بعد ميلين عن المجرى الرئيسي للنهر . هي محاطة بخمسة مفاتيل اي ابراج حربية ذات ارتفاع لا بأس بـه . وكان الحجي دوغي يكره الحجي مري ويأمل ان يأتي يوم يعترف به وحـده شيخاً اعلى وزعيماً في قبيلة العساشرة .

وكان الحجي مري رجلاً قصير القامة صغير الحجم سيء الطباع وذو عينين حادتين وابتسامة لئيمة .

وفي تلك الفترة كان السفر في النهر ليلاً غير مأمون العواقب وخاصة في الاميال الثمانية التي يحتلها العساشرة باتجاه الناصرية . ولم اكن انا قد سيطرت السيطرة التي كنت اهدف اليها، فكان العساشرة يفرضون رسوماً على كل زورق يمر في النهر نهاراً ، ويطلقون النار ويصادرون كل زورق يجتاز منطقتهم من النهر ليلاً. ولم انشيء مركزاً للشبانه في منطقة العساشرة خوفاً من وقوع حادث، فانتظرت الوقت المناسب .

وجاء ذلك الوقت باسرع مما توقعت . فقد تلقيت من السير ارنولد ويلسون الذي كان ينوب عن السير برسي كوكس في البصره لانشغال الأخير بقيادة الحملة العسكرية على نهر دجلة ، قارباً بخارياً جديداً وقوياً . وقد اعطاني ذلك قدرة أكبر على الحركة ومكنني من ان اظهر بنفسي في اقصى الاماكن النائية من دلتا سوق الشيوخ . وقد قوى ذلك مركزي كثيراً لأنه ليس اصدق على القبائل من المثل القائل « عقلهم في عيونهم ». فاصبحوا الآن يرون الضابط السياسي في كل لحظة بينما كانوا يقولون من قبل انه خائف أو لا يستطيع التجول بينهم .

وذات مساء ، عند الغروب ، اتت امرأة من المدينة لمقابلتي ومعها ابنتها وهي فتاة جميلة هجرها زوجها . وقالت المرأة انها ارملة تاجر نجدي وان لديها ولد في الثانية والعشرين من عمره وابنتها التي تصحبها وعمرها عشرين عاماً . وكان زوجها قد اقرض مبلغاً من المال للحجي مري الذي تمنع عن دفعه عند الاستحقاق ، فشكا الرجل أمره للحجي حسن حمداني . ولما قدم الحجي مري لشراء بعض الحاجيات من السوق قبض عليه الحجي حسن وسجنه في مكان قذر الى ان دفع الدين المستحق . ولما مات زوجها استأنف ابنها عمل أبيه طوال السنوات الثلاث السابقة ولكن على نطاق ضيق .

وقبل زيارتها لي بعشرة أيام ، كان ابنها متوجهاً الى الناصرية بالبلم (زورق نهري) فهاجمه رجال قبيلة العساشرة واختطفوه . وظنت المرأة اسوأ الاحتمالات

فارسلت من يبحث عن ابنها ويتسقط أخباره ، فعاد هؤلاء ليقولوا لها ان ابنها سجين في قرية الحجي مري وان عينيه قد سملتا . واخبروها كذلك ان الحجي مري علق له النير في رقبته جنباً الى جنب مع حماره وفلح عليه الارض لمــدة خمسة ايام متتالية . وقد أثرت هذه القصة في نفسي وشعرت بالقرف .

وبعد ان أخذت عهداً من الامرأة وابنتها ان لا تنبسا ببنة شفة امام أحــد عن زيارتها لي ، شجعتها آملاً ان افعل شيئاً من اجلها . لم استطع ان اقول لها ما هو الشيء الذي كنت سأفعله لانني نفسي لم أكن أعلم . وبعد ساعـــة فقط قررت ان اخرج في حملة . فابلغت محمد العابــل رئيس الشبانه ان ينتقي ٢٠ من اشد رجاله ويقوموا باستعراض في تمام الساعة الحادية عشر ليلاً . وكان محمد شجاعاً مرحاً .

وفي تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً ركبنا جميعاً زورقي البخاري وتوجهنا الى أرض العسائرة . وكان الظلام حالكاً والهدوء مخيماً . ووصلنا الى مكان في مواجهة قرية الحجي مري حوالي الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل . وخففت سرعة الزورق الى الربع حتى لا يحدث صوتاً قوياً وسرت بــه الى الشاطىء في مكان تكثر فيه الاشجار وكأنه مخبأ طبيعي .

وبعدئذ استدعيت محمــد وشرحت له خطتي وهي ان يبقى خمسة رجال في الزورق للحراسة وان أزحف انا مع الخمسة عشر رجلاً الآخرين الى جوار قرية الحجي مري. وبعد ذلك تقدم محمد مع ثلاثة رجال مختارين الى الامام ويتسللون على طريقة الجنود الحمر الى اسطبل الحجي مري حيث قالت الامرأة ان ابنهـــا يحتجز في الليل ، فيفكوا قيوده بهدوء وينقذوه وفي حالة النجاح يطلق أحدهم صرخة واحدة شبيهة بصوت البوم. واذا تم ذلك يأتون الي باقصى سرعة ممكنة وبعد ثلاثة اصوات متتالية كأصوات البوم نعود جميعاً الى الزورق باذن الله .

وكان نجاح الخطة طبعاً يعتمد على الصمت المطبق والتسلل الحــذر . ولكن بما ان رجـــالي كانوا منتقين من سكان الاهوار ولهم موهبة خاصة في التسلل كالاشباح ، فقد كنت واثقاً من النجاح .

وكانت أول عقبة هي اعتراض محمد على ذهابي معهم بحجة انني لا اجيد سلل مئاويم وقد يفضح ذلك الخطة كلها قبل ان نبتعد مسافة نصف ميل من زورق .

وهمس محمد في اذني قائلاً : يا صاحب ، انت لا تستطيع ان تتحرك بهدوء صمت مثلنا ، ولا تستطيع ان تسبح مثلنا القنوات الثلاث العريضة التي تحمي رية الحجي مري ، ولا تقدر ان تتحرك كالكلب وتمشي على رجليك ويديك ترفع إحدى رجليك لتبدو كأنها الذيل ، مثلما اعتدنا أن نفعل نحن عند ضرورة . فابق أنت في الزورق مع خمسة عشر رجلاً وأذهب انا مع خمسة رجال أنتقيهم . سلم الأمور إليّ وسأبيّض وجهك .

ووافقت بحكم الضرورة ولكن رغم إرادتي . وخلع محمد ورجاله الخمسة الذين يشبهون الثعابين جميع ملابسهم ، وربطوا على خصورهم خناجرهم الطويلة الملتوية التي يستخدمها رجال الأهوار . وتركوا بنادقهم وذخائرهم في الزورق . وقال محمد انهم إذا لم يعودوا قبل الساعة الثالثة والنصف فمعنى ذلك انهم قتلوا أو أسروا وما علينا نحن إلا أن نعود الى سوق الشيوخ . وحانت مني التفاتة سريعة الى محمد على ضوء مصباحي الكهربائي فكان جسمه العاري رائعاً ووجهه يطفح بشراً وسعادة وعلى فمه ابتسامة مرحة بانتظار الدخول في مغامرة مثيرة . وبلحظة اختفى الرجال الستة في الليل بصمت وهدوء .

وكان الانتظار مشوباً بالقلق . وأمرت جميع الرجال بالبقاء في الزورق باستثناء اثنين نزلا على بعد ٥٠ ياردة بين الأشجار ليرقبوا ما إذا كان هنالك أحد يتربص بنا . وفي الساعة الثالثة والربع سمعنا فجأة نباح كلاب بعيدة في القرية . واستمر النباح مدة خمس دقائق ساد بعدها الهدوء الى أن سمعنا طلقاً نارياً تبعته ٢٠ أو ٣٠ طلقة أخرى متتالية وصراخ من مكان بعيد . وكان من المستحيل ان نعرف ما إذا كان ذلك تحذيراً ، او ان رجالنا افتضح أمرهم وحوصروا . وبدا التوتر على وجوه رجالي في الزورق ولكنهم كانوا يكبتون قلقهم فحشوا بنادقهم بصمت استعداداً لأي طارىء .

وأزفت الساعة الثالثة والنصف ولم يظهر محمد ولم نعد نسمع أية أصوات من جهة القرية . وفي الساعة الرابعة إلا الربع بدأت تساورني المخاوف . ووسط هذا التوتر المشوب باليأس قررت الانتظار فترة قصيرة . وكان الصمت مطبقاً ومرهقاً إذ لم يكن المرء يسمع إلا صوت انفاسه . وفي الرابعة إلا عشر دقائق أصدرت أوامري بالتحرك ، وفي تلك اللحظة سمعت أصوات بوم أطلقت ثلاث مرات متتابعة من مكان قريب وبعد لحظة أطل من الظلام خيال محمد ، وتبعه رجاله الذين كانوا يحملون حزمتين ألقوهما على الشاطىء قرب الزورق .

واقترب مني محمد وهمس في أذني قائلاً : لقد جلبت لك الفتى الأعمى .. والحجي مري أيضاً !

وكان الرجلان محزمان ومكمهان حتى لا يحدثا أي صوت ولكي يسهل حملهما . ولم يستغرق نقل الرجال الى الزورق ، والاقلاع من المخبأ تحت الأشجار وقتاً طويلاً . وسرنا باتجاه المدينة أولاً ببطء وبعد أن قطعنا أرض المعاشرة سرنا بأقصى سرعة ممكنة .

ووصلنا الى المدينة مع الفجر وقبل ان يخرج الناس من منازلهم . وأودع الحجي مري سجنه القديم وبعد ساعة سلمت الفتى الأعمى الى امه واخته .

وانكر الحجي مري طبعاً انه سمل عيني الفتى مدعياً ان اعداء آخرين فعلوا ذلك . وأمرت ان يظل الحجي مري في السجن الى ان يدفع الفصل (دية الدم) وقدره ثمانماية روبية حسب القوانين القبلية في المنتفق ، وأضفت إليها أربعماية روبية أخرى لأنه نصب نفسه قاضياً يحكم على هواه .

وظل الحجي مري في السجن خمسة عشر يوماً الى أن جاءني وفد من نساء المعاشرة على رأسه زوجة الحجي مري . فأخذ النسوة يبكين ويقسمن أيماناً مغلظة بأن الحجي لا يملك المال الكافي ليدفع الفصل ، وانني لم أفعل حسناً بأن تدخلت في العادات القبلية وقوانينها ، وعليه يتوجب إطلاق سراح الحجي مري . وعندما وجدت زوجة الحجي انني لم آلن سلمت بالأمر الواقع ، وفكت منديلاً قديماً يحتوي على مجوهراتها وهي عبارة عن مدالية للعنق من الذهب

والصدف ، وعقد من النقود الذهبية ، وخاتمين ذهبيين جميلين مثلثي الشكل في وسط كل منهما فص . واعطتني إياها قائلة انها تكفي لدفع الغرامة التي فرضتها ، وانها ستدفع مـال الفصل بعد ان اطلق سراح زوجهـا . وسألتني بسذاجة : كيف يستطيع الحجي مري ان يجمع المبلغ من رجـاله وهو في السجن ؟ وشرح لها بطول بال ان قصدي ان يدفع الحجي مري المـال لا رجال القبيلة . وعادت هي تشرح لي انني لا أفهم عادات القبائل وانه مـا لم افرج عن زوجها فإن شيئاً لن يحدث . وساومتها بأن احتفظ بزوجهـا على ان يدفع الحجي دوغي الشيخ الآخر في قبيلة العساشرة المال المطلوب .

وهكذا انتهت مغامرتي الصغيرة مع الحجي مري . أما بالنسبة لوالدة الفتى الأعمى فقد أفسدت الأمور بعض الشيء عندمـا جاءت لزيارتي بصورة مفاجئة بعد حلول الظلام وقالت ان ابنتها تريد ان تعبر عن عرفانهـا بالجميل تحوي بالطريقة الوحيدة التي تقدر عليها وهي ان تقضي الليل معي حينما أريـد . ولم تقتنع السيدة عندما قلت لهـا استغفر الله وأضافت تقول : كان الأتراك يفعلون ذلك دائماً قبل ان تأتوا أنتم الانكليز وعلى كل فليس من الضروري ان يعرف أحـد .

وحدث بعد ست سنوات عندمـا كنت ضابطاً سياسياً في الفرات الأوسط ومقري مدينة الحلة ، ان قامت زوجة الحجي مري بزيارتي وهي في طريقها الى الحج في كربلاء . وكانت قد تغيرت قليلاً فذكرتني بأنهـا أعطتني بجوهراتها في يوم من الأيام ورجتني ان أردها إليها . وقالت أن الحجي مري قـد توفي قبل سنتين دون ان يشتري لهـا بديلاً لجوهراتها . ولم استطع إجابة طلبها لأن الجوهرات بيعت منـذ وقت بعيد وأدخل ثمنهـا الى خزينة سوق الشيوخ . ولكنني شعرت بأنني يجب ان أفعل الشيء المناسب لأظهر أن دكـان لا يفتقر الى روح الشهامة ، فدفعت لها من جيبي اربعماية روبيـة وهي قيمة الغرامـة الأساسية . فذهبت تغمرها السعادة .

مستشار حكيم

وكانت إحدى الصعوبات الأساسية التي واجهتني في سوق الشيوخ ، حل النزاعات القبلية . واكتشفت ان شهادة الزور هي القاعدة وان الكذب هو الخبز اليومي لأهل المنتفق . وفي أحد الأيام عندما يئست من حل نزاع صعب طلبت نصيحة كاظم حمداني فأجاب :

لماذا لا ترسل المتنازعين الى النجف الأشرف حيث يقوم السيد كاظم اليزدي باستحلاف الطرفين بالعباس في مسجد علي ؟ انه أمر معروف بين هؤلاء ان الذي يحلف بالعباس كذباً في مسجد علي الكبير في النجف ، فإن قوة إلهية تقطع رأسه ويظل معلقاً في القبة الكبرى . ان رأس آخر رجل حلف كذباً لا يزال معلقاً هناك بسلسلة وقد جف وتقلص حتى يراه الآخرون فيهابون .

وكانت هذه مشورة حسنة . فقد أرسلت أهم الشهود في القضية ، تحت الحفظ ، مع رسالة رقيقة مهذبة الى السيد كاظم طالباً مساعدته . وخلال عشرة أيام تلقيت رسالة تقدير من السيد كاظم يخبرني فيها أن القضية قد حلت بأمانة ويروي لي طريقة الحل بالتفصيل ويحدد أصحاب الحق .

ومنذ ذلك اليوم والأمور تسير معي على ما يرام . وزاد عدد القضايا التي كنت أحيلها على السيد كاظم وبذلك أصبح عملي أسهل من السابق بكثير لأن رجال القبائل أصبحوا يعلمون انني على استعداد لإحالة أية قضية صعبة تواجهني على النجف فوراً ، ولذلك أخذوا يتصرفون بحذر خاصة وان الذي يعلن السيد كاظم اليزدي بطلان ادعائه يتحمل جميع مصاريف السفر الى النجف وهي رحلة يبلغ مداها ٢٥٠ ميلاً بواسطة الزوارق او على ظهور الخيل .

وقد أصبح السيد كاظم اليزدي المجتهد الأكبر للشيعة ، كما يعلم ذلك الشيعة في العراق وإيران ، في سنة ١٩١٠ . وهو رجل له مكانته ضليع وواسع المعرفة بشؤون الدنيا . وكان معجباً بالبريطانيين وخاصة السير بيرسي كوكس . وقد رفض ، وهو الرجل المتفوق بين جميع الزعماء الدينيين في العراق وإيران ، خلال الحرب العالمية الأولى كل المحاولات والمساعي التي بذلها الأتراك وعلى رأسهم انور

بنا حمله على تحويل الصراع الى جهاد او حرب مقدسة ضد الحلفاء فيما يتعلق بالطوائف الشيعية التي يمتد نفوذه إليها . ووجد الجيش البريطاني في العراق ان السكان ليسوا معادين له بل على العكس فقد كان أربعة أخماسهم من المؤيدين ، كل ذلك بفضل مهارة السيد كاظم اليزدي في مواجهة الوضع .

المضيف

ولكي اتمكن من استقبال الضيوف والزائرين ، حصلت على ترخيص رسمي ببناء مضيف أو دار للاستراحة . وقد كلف البناء الضخم الفين وتسعمائة روبية ويبلغ طوله ٧٠ قدماً وعرضه ١٨ قدماً وارتفاعه أيضاً ١٨ قدماً . وقد بناه رجال من أهل الاهوار من قبيلة بني أسد اتوا من شويش وهي نقطة متوسطة في المستنقعات الكبيرة المحيطة بسوق الشيوخ .

وقد استخدمت ٦٠٠ حصيرة من اوراق البردي التي تكثر في بحيرة الحمار لبناء سقف المضيف وجدرانه فقط . ووضعت هذه الحصر فوق هيكل من اقواس كبيرة صنعت من حزمات من اوراق البردي ربطت ببعضها البعض بشدة واتصلت عند الرأس . اما اساسات المضيف فقد حفرت في الارض ويبلغ طول قطرها قدمين ونصف ، ويبلغ ارتفاع الباب الضيق خمسة اقدام وهو في مواجهة النهر .

ولأن الضيوف كانوا سيجلسون على الارض ، فان التهوية كان ينبغي ان تكون على مستوى منخفض ، ولذلك فقد تركت فجوات بين الاقواس على ارتفاع قدمين . وفي الايام التي يشتد فيها الحر كانت تنزع الحصر عن جوانب المضيف ويترك مفتوحاً من جميع الجهات . وفي الايام الاخرى كانت الحصر توضع مكانها من الخارج باستثناء فتحة أو فتحتين من الناحية الفوقية حيث كان يجلس الزائرون ويشربون القهوة . وكانت تغطي ارض تلك الجهة سجاجيد زاهية الالوان . اما الوجاق الذي كانت تصنع عليه القهوة فقد وضع في الجهة الأخرى بالقرب من المدخل . وكان الخدام والحراس يجلسون حول الوجاق بينما كان

الزائرون الاكثر اهمية يسيرون الى داخل المضيف ويجلسون في الجهة المخصصة للاستقبال .

ونظراً لموقع المضيف على شاطىء النهر وتحت ظلال عدد من اشجار النخيل، فقد كان ابرد مكان يمكن المرء ان يتقي فيه حرارة ايام الصيف الشديدة . ويسترعي انتباه الداخل الى المضيف بالاضافة الى كبر حجمه الضوء الخافت الذي يسوده . وهو بذلك اشبه بكاتدرائية .

في ذلك المكان كنت اقوم بأعمالي وادعو ضيوفي العرب الى حفلات غداء أو عشاء . وهناك كنت ادعو شيوخ القبائل ووجهاء المدينة الى مجلسي الاسبوعي . وهناك ايضاً كنت اتشاور مع مستشاري الحجي حسن حمداني، والحجي عباس الصنيت، والحجي علي الدبوس، والحجي ابراهيم العماري .

وليمة عامرة

وقبل حلول عيد ميلاد الملك بعشرة أيام قررت الاحتفال بهذه المناسبة باقامة مأدبة غداء فخمة في المضيف على الطريقة العربية . فارسلت دعوات الى ابرز شيوخ عائلة السعدون الذين كان يرئسهم ثامر بك السعدون، والى جميع شيوخ الجره وبني حيقان وعددهم ٧٠، والى الشخصيات البارزة في سوق الشيوخ بالاضافة الى مستشاري . وكانت وليمة عامرة: ٣٠ خروفاً مسمناً حمرت ووضع كل منها فوق كومة من الارز على طبق . وحول هذه الاطباق صف مئة صحن وصحن فيها اوز محمر، ودجاج، وسمك مقلي، ومرق، وكباب، وتمور، ومهلبية، وقطع من البطيخ، وطبق كبير عليه خبز عربي مرقوق بدونه لا تكتمل اية وليمة عربية، وقدور اللبن .

وقد اعددت ايضاً كل شيء لصنع القهوة والبيضان (شراب اللوز) للذين يحبونه . واستعرت عدداً من الجرار والاوعية لكي يتمكن ضيوفي من غسل ايديهم . ولهذا الغرض اشتريت دزينة من الواح الصابون وعدداً مماثلاً من المناشف .

ويرجع الفضل في شراء الحاجيات والمأكولات واعداد الطبخ لكاظم حمداني. وقد قمت انا باستعارة عدد من البسط يكفي لتغطية ارض المضيف كلها ، وعدد كاف من المساند ليتكيء عليها الضيوف .

وقد قبل الجميع دعوتي ما عدا واحداً وهو الحجي مزبان احد أربعة شيوخ في قبيلة الحكام اما الثلاثة الآخرون فهم : قاصد الناحي وفرهود القندي والحجي ناصر العايل . وهذا الأخير لا يمت بأية صلة الى محمد العايل رئيس الشبانه .

وبعث لي الحجي مزبان برسالة اعتذار يقول فيها انه لا يستطيع القدوم لأن طريقه يمر في ارض اعدائه . ويقول انه مستعد للحضور اذا اعطته الحكومة حظ وبخت ويقصد بذلك الحماية والتكريم .

ولهذا الغرض ارسلت للحجي مزبان وثيقة موقعة مني ومهمورة بالخاتم الرسمي تقول ان الشيخ مزبان قادم بمهمة رسمية ضيفاً على الحكومة ، ولذلك فان أي تعرض له في الطريق يعتبر اساءة للحكومة البريطانية . وقالت الوثيقة أيضاً ان قدوم الشيخ مزبان يتعلق بدعوة لمناسبة عيد ميلاد الملك وعليه فان الحكومة ترغب ان يتناسى الجميع بهذه المناسبة نزاعاتهم وخصوماتهم لمدة ثلاثة أيام .

وجاء اليوم الموعود وبدأ ضيوفي يفدون بعضهم على الاقدام وبعضهم على ظهور الخيل وبعضهم الآخر بواسطة المشاحيف (جمع مشحوف وهو زورق نهري مطلي بالاسفلت) . وكان يصحب كل منهم عدد من الاتباع والحراس يختلف عددهم حسب منزلة ومقام الرجل بنظر نفسه . ونظراً لوجود حالة حرب بين البريطانيين والاتراك ، وبسبب اضطراب الاوضاع ، فقد جاء كل منهم مسلحاً ببندقية وعلى صدره جناد او اثنان ، مليئان بالذخيرة .

وكان واحدهم يدخل المضيف ويحييني ثم يجلس في المكان الذي يتناسب مع مكانته . ففي مثل هذه المناسبات يعرف اعيان عائلة السعدون وشيوخ القبائل العاديين مكانهم واين يجلسون فلا يحاول أحد ان يحشر نفسه في غير مكانه . وكان الجميع باحلى حللهم وكان منظرهم رائعاً وقد اسند كل واحد منهم بندقيته الى جدار المضيف خلفه . وجلس ثامر بك السعدون على يميني ويوسف بك المنصور

على يساري . وعلى جهة اليمين ايضاً جلس الحجي مزبان الذي طلب الحماية بين قاصد الناحي الذي كان متقدماً في السن ولم تكن له إلا عين واحدة ، وبين فرهود الفندي . وعلى مسافة منهم جلس الشيخ ناصر العايد الى جانب الشيخ فرهود المفشفش الرئيس الاسمي لبني خيقان .

وكانت وليمة رائعة شهد لها الجميع . ولا عجب لأنها اقيمت باشراف كاظم حمداني ومجموعة كبيرة من الخدم وامتدت على طول المضيف بين صفوف الشيوخ الجالسين . وبعد ان أكمل الضيوف طعامهم وعادوا الى الجلوس بعد ان غسلوا أيديهم جاء دور الخدم والحراس والاتباع وهم مجموعة من الزنوج والبدو ورجال الاهوار كانوا يلتهمون الطعام بطريقة عجيبة .

وبعد ذلك جاءت القهوة وسط احاديث المجاملة التي تسود في مثل هذه المناسبات . وبدأ الضيوف بعد ذلك يغادرون المكان بصمت وعلى رأسهم ثامر بك ويوسف بك . فكان كل واحد منهم ينهض بدوره يصافحني ويشكرني بعبارات تقال في مثل هذه المناسبات مثل : انعم الله عليك ، وكثر الله خيرك . وكنت أنا أرد عليها بعبارات اعتيادية مثل : حلا لكم ، وشرفتوا المحل .

وعندما جاء دور مزبان ليودعني سألته مازحاً عن عدوه الذي يخاف أن يلحق به الأذى فقال : يادكسان ، بين الذين صافحوك هو الثالث بعد قاصد الناحي .

وعرفت انه يقصد الحجي ناصر العايد .

فقلت له : لا تخف يا صديقي .

فضحك مزبان وكان رجلاً طويلاً جميل الطلعة يبلغ من العمر ٣٥ عاماً يلبس زبوناً ازرق داكن من الحرير المطرز الذي يعرف بالعراق باسم « بشا » ، وقال : لن يصيبني شر ما دام حظ وبخت الحكومة في جيبي .

وكانت تلك آخر كلمات سمعتها منه . فبعد عدة ثوان عندما كان مزبان يهم بالخروج من باب المضيف انطلقت خمس رصاصات متتالية فخر مزبان على الأرض صريعاً .

كان الحجي ناصر ينتظره خارج المضيف وكان خادمه يمسك بحصانين تحت ظل شجرة نخيل على بعد عشرة ياردات . وعندما خرجت كان الحجي ناصر وخادمه قد امتطيا حصانيهما وتواريا عن الانظار بمحاذاة النهر . وحاولت بصورة جنونية ان انظم فوراً فريقاً لمطاردتهم ولكن الذين معهم الخيل قد غادروا المكان .

وانحنى عبد مزبان مشدوهاً فوق جثة سيده وهو يتمتم بعبارات هستيرية وأخذ يفتح رداء سيده . وتبين ان مزبان المسكين اصيب برصاصتين قرب القلب ، وبرصاصة في بلعومه اما الرابعة والخامسة فقد اخطأتاه .

وفي هذه الاثناء تجمع ما تبقى من الضيوف أخذ بعضهم يعربد بصوت عال وبعضهم الآخر يحتج بصمت وقد حشا الجميع بنادقهم بطريقة تنذر بالشر .

وقام الشيخ قاصد يخاطب المشاعر الملتهبة بصوت هائج مضطرب قائلاً انه ما لم اتخذ اجراءات سريعة في اخضاع القاتل للعدالة ، فان أحداً من شيوخ القبائل لن يتمكن بعد اليوم من زيارتي . لو لم اعط مزبان وثيقة الامان هل حدث ذلك ؟ ماذا سأفعل بعد هذا الخرق السافر لقوانين الضيافة ؟ اية ضمانة تمنع قتل أي شيخ يأتي الى سوق الشيوخ ليقابل الحاكم ؟

وبعد ساعة حذرني الحجي حسن حمداني وعلى وجهه علامات الأسى ان وراء الجريمة اكثر مما تراه العين . وربما كانت الاشارة لانتفاضة تقوم بها قبائل سوق الشيوخ يحاول الاتراك منذ وقت طويل اشعالها . قد يكون ذلك صحيحاً وقد لا يكون ولكن الثابت هو ان القبائل الموالية للاتراك في ذلك الوقت كانت أكثر من تلك الموالية للبريطانيين . والحقيقة هي ان محاولاتي لجمع الضرائب على التمور والقمح والارز والشعير لم تكن مستحبة . ومعنى ذلك ان سلطتي خارج سوق الشيوخ قد انتهت ما لم اقوم بعمل سريع حاسم لأن انباء الحادث ستنتشر في كل المنتفق خلال ساعات معدودات . وكنت أكثر ما أخشى ان يزداد الوضع سوءاً فتنقطع المواصلات ويسود الاضطراب على نطاق واسع ، فتذهب خططي لجمع الضرائب ادراج الرياح .

والمشكلة هي انه لم تكن لدي قوة تدعمني باستثناء ٢٠٠ من الشبانه وثلاثين من الخيالة بقيادة تامر بـــك . فالجيش البريطاني كان بعيداً . ولم تكن القيادة العامة في الناصرية لتشكرني إذا طلبت مساعدات عسكرية لأنها لم يكن لديها من القوات إلا ما يكفي لتثبيت مركزها في الناصرية .

وبقيت افكر ساعـــة من الزمن ثم اتخذت قراراً باصدار نشرات في المدينة وفي كل ناحية من النواحي تقول ان هنالك مكافأة قدرها عشرة آلاف روبيـة لمن يأتي بالحجي ناصر حياً أو ميتاً . وابرقت للسير بيرسي كوكس بذلـــك فجاءت الموافقة سريعة مما شجعني قليلاً .

عدالة قاسية

وحدث ما كنت أتوقعه . فقد ازدادت الحالة سوءاً ولم أعد استطيع التنقل خارج المدينة بأمان . وقد غامرت وخرجت مرتين وفي المرتين كان رجـــال القبائل ينصبون لي كمائن ويطلقون عليّ النـــار ولكنني نجوت بأعجوبة . ومرة ثالثة ابتعدت ميلين خارج سوق الشيوخ ولولا حكمة الحجي حسن حمداني لكنت قتلت على الفور . فقد أرسل الحجي حسن ورائي أربعة من الشبانه برئاسة محمد العايل وأمرهم ان يراقبوني دون ان يدعوني أراهم . وفجأة انقض عليّ ثلاثـــة رجال من وراء الأشجار الكثيفة وأطلقوا النار من بعد ١٠٠ ياردة وقد فوجئت عندما رأيت أربعة من رجالي يبادلونهم إطلاق النار فيصرعون واحـــداً منهم ويضطرون الآخرين للفرار . وعندما تفحصنا جثة الرجل الميت تبين أنـــه من قبيلة الحكام التي يرئسها الحجي ناصر .

وتملكني شعور باليأس والانقباض لا سيما وانني كنت أعرف انه من المستحيل ان أطلب النجدة من السير بيرسي كوكس او من الناصريـة لأنهم لا يستطيعون التخلي عن رجل واحد . وكنت اعلم انني يجب أن اجد خلاصي بيدي . ولكن كيف ذلك وقـــد تقلص نفوذي واخذت المقاومة السلبية تتزايد بين القبائل المجاورة . وقـــد امتد ذلك الى قوة الشبانه فأخذ بعضهم يطلب إجازات طويلة

بحجة ان لديهم أعمالاً خاصة وقدم آخرون استقالاتهم .

ومر شهران قاسيان مليئان بالقلق . لم أعــد احصل على شيء من الدخل وأخذ اصدقائي ينفضون من حولي واحداً بعد الآخر . وذات يوم وكان الوقت ظهراً لمحت زورقاً مسلحاً يرفع راية بيضاء ويتبعه زورق آخر يحمل جنوداً ، على منعطف في النهر قرب سوق الشيوخ . واقترب الزورقان من منزلي وبعــد دقيقتين كنت أرحب بالضابط قائد الزورقين وأعددت له طعام الغداء . وأبلغني انه قــادم مع فصيلة من الجنود تابعين للواء « كنت » المشهور لشراء المؤن من سوق الشيوخ ومعهم أربعة مدافع رشاشة .

وفي المساء تناولت طعــام العشاء على ظهر الزورق المسلح واخبرت مضيفي الضابط المشاكل التي تعترضني . وشرحت له انــــه من الضرورات القصوى في الوقت الحاضر معاقبة الحجي ناصر واستعادة نفوذ الحكومة ونفوذي الشخصي ، وانني لا املك من القوة إلا عدداً ضئيلاً من الشبانه موزعين على مراكز متباعدة في النهر بينما على بعــد خمسة أميــــال من سوق الشيوخ فقط يقف الحجي ناصر ووراءه سبعماية من المسلحين يتحدى الحكومة ان تأتي لمعاقبته .

وأنهيت قصتي بأن طلبت من الضابط الشاب ان نخرج في حملة لاستعادة هيبة الحكومـــة ونفوذها بين القبائل على أن لا يصل ذلك الى مسمع القيادة في الناصرية .

وكانت خطتي اشعال برج الحجي ناصر الحربي ومضيفه وقريته التي تبعــد نصف ميــــل عن ضفة النهر ووراء حزام من اشجار النخيل ، وبعد ذلك أشعل النيران في مزروعاته التي تغطي عدة مئات في الأفدنة . وشرحت للضابط انني سأقوم بالمهمة بنفسي وكل ما اطلبه منه التعاون لتأمين حمايتي في حــال تعرضي لهجوم أثناء اشعال النار وتمكيني من الفرار سالماً من أرض قبيلة الحكام .

ووافق الضابط على الفكرة بحماس وبعدها أخذت اشرح له الخطة بالتفصيل. وتقضي الخطة بأن نسير بعــد يومين في السابعة والنصف صباحاً بالسفينتين على طول الضفة اليمنى من النهر ونتوقف قبــالة قرية الحجي ناصر بالقرب من شجرة

سدر كبيرة يجتمع تحتها عـــادة ٤٣ من رؤساء فروع قبيلة الحجي . وفي الوقت الذي اقفز فيه انا الى الشاطىء تصوب المدافع الرشاشة فوق رؤوس الأشخاص المتجمعين . وكنت آمل انه تحت غطـاء من نيران المدافع الرشاشة استطيع ان أجرد هؤلاء من سلاحهم واقتـــادهم الى احدى السفينتين كرهائن الى وقت استطيع فيه تنفيذ برنامجي .

كنت أعـلم ان الخطة قذرة وفيهـــا الكثير من أساليب الأتراك ولكنني لم اقصد أذية احد وكان مبرري للقيام بتنفيذها النتائج التي أتوخى الحصول عليها . واكثر من ذلك كنت أعرف طبائع رجـال القبائل الدموية فإذا نجحت خطتي فإنهم سيمتدحونني لأنني أخذتهم بأساليبهم .

وبإضفاء طابع الكرم وحسن النية على العملية اقترحت إقامـــة مأدبة من الدرجـــة الأولى على ظهر ناقلة الجنود لتكريم الضيوف القادمين بالرغم منهم ، واقتيادهم بعد ذلك الى سوق الشيوخ واطلاق سراحهم بعد اتخـاذ الإجراءات اللازمة وإعطاء كل واحد منهم عباءة جديدة كهدية .

وفي اليوم التالي ابلغت الخطة لكاظم حمداني وطلبت منه ان يحفظ السر وان يحضر غداء فاخراً لثلاثة واربعين رجلاً وان يشتري ٤٣ عبـاءة جديدة على ان يكون كل شيء جـــاهزاً على ظهر السفينة في السابعة والنصف من صباح اليوم التالي . وبعد ذلك ارسلت صديقي ذا العين الواحدة الشيخ قاصد الناحي الذي اشتهر بقيادة عـــدة انتفاضات ناجحة ضد الأتراك في الماضي ، إلى قرية الحجي ناصر وأعطيته تعليمات ان يقول ان حـــاكم المنطقة سيصل بسفينتين حربيتين في الساعة الســابعة والنصف من صباح اليوم التـــالي ويحط بالقرب من شجرة السدر الكبيرة ، وان هدفه من ذلك اقامة هدنة بين قبيلة مزبان المتوفى وقبيلة الحجي ناصر وتحديد الدية التي يتوجب على الحجي ناصر دفعها .

وأبلغت قاصد الناحي ان ينـــذر جميع رؤساء قبيلة الحكام بالحضور الى المكان المحدد والذي يتخلف يضع نفسه تحت طائلة العقـــاب الشديد . وكنت اعرف ان الحجي ناصر لن يحضر . فقد سرت شائعات قوية مفادها انـــه اتصل

بالاتراك في شطرا ليجمع منهم المال الكافي لحمل قبائل سوق الشيوخ على القيام بثورة ضد البريطانيين .

وكنت واثقاً ان قاصد الناحي يؤيدني تأييداً كلياً لوجود ثارات قديمة بينه وبين الحجي ناصر وليس أحب إلى قلبه من اذلال الحجي ناصر وخضوعه لشروط الحكومة . وكانت هناك عقبات كبيرة . فشقيق الحجي ناصر كان مسيطراً على القبيلة ومن المتوقع أن يخرج ومعه عدد آخر من الشيوخ لمنع تأثير كلام قاصد الناحي في النفوس .

كل ذلك كان نوعاً من المقامرة ومع ذلك قررت تنفيذه بأي ثمن . ولكن الشيء الوحيد الذي كنت أخشاه ان تطلق النار على السفينتين وهما تسيران في النهر بمحاذاة ارض قبيلة الحكام لأن المنطقة كانت تغلي ، وتحدي سلطة الحكومة كان ظاهراً في كل مكان .

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي سارت السفينتان حسب الخطة الموضوعة وكان الجنود يتمتعون بروح عالية وكذلك قائدهم الشاب الذي بدا متفائلاً وانا اقف بجانبه على دفة القيادة . وأعترف انني لم اكن بمثل ارتياحه لأنني كنت اعرف اكثر منه مدى خطورة هذه المغامرة لأنها قد تكون سبباً في اشعال الثورة بين جميع قبائل الجزيرة القوية . وعندئذ ستظهر الأشياء وتصل المضاعفات والنتائج السيئة الى المقامات العليا . وكذلك لم أكن ارغب توريط الضابط الشاب في مشاكل هو في غنى عنها .

وظهرت الامور بمظهرها المشرق عندما رأينا بعد عشرين دقيقة من السفر مجموعة من العرب تحت شجرة السدر وبينهم قاصد الناحي الذي نجح في اقناع الرؤساء الثلاثة والاربعين بالقدوم .

ورست السفينتان على الشاطىء بعد أن عكستا الاتجاه وقفزت انا الى الشاطىء ومعي أربعة من جنود البحرية بسلاحهم الكامل . وحييت الشيوخ الواقفين قائلاً : السلام عليكم ثم دعوتهم للجلوس . وفي الحال أخذت نيران المدافع الرشاشة تنطلق فوق رؤوسنا فصرخت بأعلى صوتي مطمئناً الجميع بأنه لن

يصاب احد منهم بأذى اذا سلموا بنادقهم وساروا معي الى السفينة . وبعد ذلك قام قاصد الناحي واخذ يمتدحني ويمتدح الحكومة ويطمئن الجميع واعداً الجميع بأن يضع نفسه كفالة لسلامتهم . واضفت على ذلك قائلا ان غداء سخياً ينتظرهم على ظهر السيفنة وانهم سيكونون ضيوفي حتى صباح اليوم التالي وبعدها أعيدهم الى عائلاتهم معززين مكرمين .

وباشارة مني قام قاصد الناحي واخذ يجمع البنادق منهم واحداً بعد الآخر ويفرغها من الطلقات ويسلمها لجنود البحرية الذين نقلوا الاسلحة الى السفينة ودعوت الجميع ان يتبعوني ففعلوا بعد ان اسقط في يدهم .

وعندما بقيت لوحدي على الضفة مع قاصد الناحي امرت السفن ان تنتقل وترسو في وسط النهر . لأنني كنت اعرف ان عدة مئات من رجال القبائل يختبئون بين الاشجار والاقنية القريبة وشاهدت بعضهم يتنقلون من مكان الى مكان في حالة هياج وربما كانوا يعدون العدة لهجوم مفاجىء . ولكي يسمع هؤلاء ناديت ضيوفي بصوت عال باللغة العربية قائلا انني سأحرق قرية الحجي ناصر ومضيفه ، واذا مسني أحد بسوء او اذا لم اعد خلال ثلاث ساعات فإن القائد البريطاني الشرس سيقتلهم جميعهم .

وفي الوقت الذي تحركت فيه السفن اطل الضابط قائد السفينتين من ظهر السفينة وتمنى لي حظاً سعيداً . ولكي اشجعه قلت له : انتهى الفصل الأول الأكثر خطورة والآن بقي الفصل الثاني .

وبدت على وجه قاصد الناحي علائم الدهشة عندما ابرزت خطتي الى العلن التي حجبتها عنه وبعد ذلك ضحك بصمت ومد يده ليصافحني وقال: ان شاءالله لا خطر علينا الآن يا دكسان ولكن في المستقبل الله كريم. .ذاكرة العرب طويلة. يا الله فلنمضي .

وكان قاصد الناحي رجلاً شجاعاً. فتبعته بعيداً عن النهر في أرض معشوشبة ثم عبر حزام من اشجار النخيل يمتد مسافة ربع ميل . وعلى طرف الحزام وصلنا الى حقول واسعة فيها محاصيل ناضجة تنتظر الحصاد وبعدها بميل واحد

تقع قرية كبيرة مبنية من اوراق البردى والحصر ومحاطة بسور في احدى جهاته بني برج حربي (مفتول) .

« هذه هي قرية الحجي ناصر » قال قاصد ، « وتلك هي قلعته وعلى اليسار مضيفه » .

وكان المضيف الصغير الجميل الذي يشبه الى حد ما مضيفي في سوق الشيوخ ولكن اصغر منه ، قريباً منا وراء اشجار السدر على ضفة قناة صغيرة . وبجانب المضيف الجديد هذا يوجد مضيف قديم أكبر منه قــال قاصد ان الحجي ناصر يستخدمه حالياً مخزناً للحبوب .

وسرنا الى الامام . وبدون أي تأخير اخذت عود ثقاب واشعلت النار في المضيفين وبعد لحظات ارتفعت السنة اللهيب عالياً في الفضاء . وبدا قاصد عندئذ وكأن الرعب قد دب في نفسه ولكنه عاد وابتسم واظنه تذكر ان بينه وبــين الحجي ناصر احقاداً قديمة .

وصرخ قاصد بي « تعال » ، واخذنا نركض بسرعة نحو القرية .

وفي هذه الاثناء كانت اعمدة الدخان قد ارتفعت عالياً فوق اشجار النخيل وتطلعت الى الامام فرأيت رجالاً منهمكين في جمع امتعتهم وحوائجهم وبنادقهم في ايديهم . وكان هؤلاء يبتعدون على مسافة منا ولم يقترب أحدهم اكثر من ٥٠٠ ياردة منا . وعندما اقتربنا من القرية اشار قاصد الى جماعة من النساء والاطفال يخلون الجهة الأخرى من القرية . وقال قاصد : ها هم عيال الحجي ناصر يرحلون لقد علموا ان العقاب لقتل مزبان قد اتى ولذلك فقد هيأوا مصاغاتهم الذهبية الثمينة استعداداً للهرب فوراً .

وشعرت بالأسى والانقباض الاضطراري الى حــرق منازل هؤلاء الناس المساكين الفقراء لأنني كنت أحبهم . وربما رآني قاصد قد تلكأت فأخذ يركض بسرعة نحو القرية فوصل اليها قبلي بوقت قصير وهو يصرخ بعبارات والفاظ لم استطع سماعها بالضبط . وعندما لحقت به كان قد اشعل حزمة من سعف النخل وبدأ يضرم النار في الاكواخ وفي لحظات كانت القرية تحترق وكأنها اتون من نار .

وكان حرق المقتول في الجهة الاخرى من القرية اصعب بكثير من حرق الاكواخ ولكن قاصد وجد سلماً وصل بواسطته الى حافة البرج العليا واشعل فيها النار .

ولم يكن لدينا وقت نضيعه . فقد مضت ساعتان أو ثلاث وكان علينا بعد ان نحرق المحاصيل كلها أو نهرب بأمان الى النهر الذي يبعد عنا ميلاً ونصف الميل وساعدتنا الريح في حرق المحاصيل ، التي اعتقد انها قد دمرت جميعهـا ولكنني لست متـأكداً من ذلك لأن الريح كانت تهب باتجاه النهر وكان علينا ان نسبق امتداد النار . وعندما اقتربنا من حزام النخيل كانت البلاد وراءنا ملتفة بالدخان الاسود . وشعرت بهذه المأساة في اعماقي بشدة ولكن قاصد كان يرقص فرحاً ويصرخ صرخات الحرب كلما اقتربنا من النهر .

واخيراً وصلنا الى شجرة السدر . وباشارة منا انزل لنا عـن ظهر السفينة قارب صغير وبعد ان صعدنا رفعت المراسي وسرنا الى سوق الشيوخ بينما كانت على ظهر السفينة الأخرى تقام وليمة اعتقد ان رهائني الثلاثة والاربعين قد استمتعوا بها جداً . وقد أخذ كاظم حمداني مجده في ذلك اليوم .

وبعد الغداء وشرب القهوة اعطي كل منهم عباءة جديدة وسمح لهم بالنزول الى سوق الشيوخ احراراً . وودعونا بدون كثير من الكلام واظنهم قد ارتاحوا لما آلت اليه الامور .

وظل الناس عدة ايام يتحدثون كيف انتقم دكـان لمقتل ضيفه . اما بالنسبة لي فقد كان الامر مقامرة ضرورية وانتهت . وفي اليـوم التالي ودعت الضابط الشاب الجريء ، وقد اختلطت المشاعر في نفسي لأن أحداً غيري لم يكن ليعرف مدى خطورة هذه المغامرة التي لم تكن لتنفذ وتنجح بدونه .

واعطي قاصد مكافأة مناسبة واتفقنا على عدم ذكر هذه الحادثة . ومع ذلك اظن ان السير بيرسي كوكس قد علم بالأمر لأنه بعد عـدة اشهر في صيف سنة ١٩١٧ تلقيت منه وساماً بغير مناسبة .

ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد .

وساد الأمن والنظام في منطقة سوق الشيوخ . وانتشرت الانباء بأن مساعد الضابط السياسي له طريقة خاصة في انزال العقاب بالمخالفين . فوجد رجال القبائل ان الطريق الاسلم هي دفع الضرائب والحضور عند استدعائهم .

اما الحجي ناصر فقد اختفى . منهم من يقول انه هرب الى الصحراء ومات هناك ، ومنهم من يقول انه انضم الى مزهر باشا الضابط السياسي التركي الذي كان مقره الرئيسي في شطرا ، وآخرون يقولون انه على علاقة وثيقة بعجيمي بك السعدون الذي كان مع القوة التركية المسيطرة على السماوى .

ومضت اربعة اشهر اخذ يدور خلالها الهمس بأن عملاء تركيا ظهروا بين قبائل بحيرة الحمار ويعملون سراً من الاهوار لاشعال نار الثورة في منطقة سوق الشيوخ وغرضهم من ذلك قطع خطوط مواصلات البريطانيين مع الناصرية .

ولم تتأكد هذه الشائعات إلا انها بدأت بأن الحجي ناصر كان بين هؤلاء العملاء الذين كانوا يتخفون بشكل رجال الأهوار .

وأخذ الحجي حسن حمداني وابراهيم العماري هذه الشائعات على محمل الجد وطلبوا مني ان أكون حذراً . وهذان الرجلان يلفهما الغموض بشكل مزعج فلم يعطيا من الاثبات على صدق ما يقولون إلا مثلاً دارجاً بين اهل الاهوار وهو : هب الشمال وبعد قليل سيشتد حتى يصبح عاصفة هوجاء .

وتفسير الرجلين لهذا كله ان رجال القبائل يقصدون به ان الاتراك سيتحركون للعمل المضاد ، وان الاضطرابات ستنشأ في منطقة سوق الشيوخ .

وفي ذلك الوقت تلقيت دعوة من الشيخ المسن مزعل البشاره رئيس قبيلة الحسن لحضور المأدبة التي أقامها بمناسبة زواج ابنه حموده . وكان مركز القبيلة الرئيسي الى غرب بحيرة الحمار على قناة أم النخلة احد ثلاثة فروع من الفرات تصب في البحيرة . وذلك يعني انني سأسافر مسافة ٢٠ ميلاً في النهر بالزورق وبعدها اقوم برحلة طويلة مضنية حتى اصل الى المكان . ومع ذلك قبلت الدعوة بالرغم من التحذيرات الخطيرة التي وجهها الحجي حسن حمداني وابراهيم العماري،

والحجي علي الدبوس . حتى ان الحجي حسن جاء إليّ ليلاً وحاول بكل جهده ان يثنيني عن عزمي في الذهاب وقـــال : هنالك خطر محدق لا استطيع ان احدد طبيعته وزمـان حدوثه . ولكن نحن العرب لدينـــا طريقة في تحسس الأشياء . اقبل نصيحتي ولا تذهب .

وأجبته على قوله بأنه لم يعد من الممكن إلغـاء قبولي لدعوة الشيخ مزعل ، وإذا كان قد كتب ان يحدث لي شيء في اليوم التالي فلن استطيع ان امنع ذلك سواء ذهبت الى ام النخلة ام لم اذهب . وهنا نصحني الحجي حسن ان اصطحب معي ثلاثة على الأقل من شيوخ القبائل التي تسكن على ضفاف النهر حيث سأمر بزورقي . لأنه حسب العادات القبلية إذا اصطحب المرء رفيقاً او دليلاً (يدعى في العراق تسيار) في ارض قبيلة ذلك الدليل فإنه يصبح في مأمن من رجـــال تلك القبيلة فكيف إذا اصطحب معه ثلاثة شيوخ .

واستحسنت اقتراح الحجي حسن فطلبت منـــه ان يهيء لذهاب كل من الحجي فيصل الياسر من قبيلة الحسن ، وفرهود الفندي من قبيلة الحكام (الضفة اليسرى) ، وقاصد الناحي من قبيلة الحكام (الضفة اليمنى) ، الذين فهموا تماماً لماذا اخترتهم للذهاب معي .

وبالإضافة الى هؤلاء رافقني ثمانية من رجـــال الشبانه المسلحين . ولم يعكر صفو رحلتنا الى ام النخلة اي حادث وكانت وليمة الزفاف ناجحة للغاية . ومع أن الشيخ مزعل يبلغ اكثر من مئة عـــام من العمر فقد كان يمثل منتهى اللياقة والظرف والكياسة وكان ابنه حموده كأحسن ما يكون الشباب .

وعندمـــا انتهت الاحتفالات بدأنا طريقنا في العودة . وكان زورقي كبيراً وقوياً تمتد على سطحه ألواح خشبية مثبتة بقوة تستطيع حمل ثقل كبير . فعندما حل المساء واصبح الطقس لطيفاً مددت البسط والمساند فوق سطح غرفة القيادة ودعوت اصدقائي الثلاثة للانضمام إليّ .

وجلسنا نشرب القهوة وندخن السجاير ونقص الحكايات . وعندمـا قطعنا ارض قبيلة الحسن بالقرب من المكان الذي تفترق فيه أم النخلة عن مجرى الفرات

الرئيسي الى اليمين ادرت الزورق الى الضفة ودعوت فيصل اليـــاسر ان ينزل ويذهب إلى منزله . فوجوده معي خارج أرضه لم يكن ليفيد شيئاً في حمايتي ، فوافق وشكرني بحرارة لأنني اصطحبته معي الى الوليمة ونزل .

وفعلت نفس الشيء بفرهود الفندي . فبعد ان تخطينا ارضه بسلام انزلناه على الشاطىء عند الحدود الغربية . وصرنا بعد ذلك في ارض قاصد الناصي التي تمتد تقريباً الى سوق الشيوخ . وهنا شعرت بالاطمئنان فجلست اتجاذب اطراف الحديث مع قاصد على ظهر الزورق . وقبل سوق الشيوخ بأربعة أميـال وصل بنا الزورق الى منعطف ضيق في النهر يبلغ عرضه ١٥٠ ياردة فقط يجري فيه تيار قوي مما اضطرنا الى تخفيف السرعـة الى خمس عقد فقط . وعلى ضفتي النهر هناك تنمو اعشاب كثيرة وكثيفة . فلمـا اقتربنا من المنعطف لمحت بريق سلاح بين اوراق البردي قرب حافة المـــاء . ووقف رجل واخذ يلوح بعباءته ببطء وكأنه يعطي اشارة الى شخص او اشخاص مختبئين .

وبعد لحظات اطلقت علينا النار من بين الأعشاب الكثيفة على بعد ٨٠ ياردة فقط . وبلمح البصر دفعني قاصد الى الوراء لئلا اظل جالساً ولكن ذلك لم يمنع اصابتي بجرح في رجـلي وآخر تحت شفتي السفلى . وقذف قـــاصد بنفسه فوقي وغطاني بعباءته حتى لا يراني أحـد واخذ يصب الشتائم واللعنات على المعتدين الذين يريدون الأذى للشخص الذي يرافقه في ارضه . وصرخ بهم قـــائلاً : ألا تعرفون من أنا يا كلاب وأولاد الكلاب ! انا قاصد شيخكم .

وكنت اتخيل قاصد وهو يلوح بهراوته (مقوار) على اعداء غير منظورين . فلما رأوا شيخهم منبطحاً فوقي لم يتجرأوا ان يطلقوا النار عليّ ثانيـــة فصبوا نيرانهم على النخاده[1] (قائد الزورق) وعلى الذين يديرون المحرك على أمـل أن ينحرف الزورق الى الشاطىء . وسمعت أزيزاً هائلاً إذ بـــدأ رجالي الثمانية من الشبانه يردون على النار بالمثل ولكن على اهداف غير منظورة بينما أعطى النخاده أوامره بزيادة السرعة لكي يتخطى المنعطف بأسرع وقت ممكن .

وبعد ان عبرنا المنعطف توقف إطلاق النـار مثلما بدأ .. فجأة . فشكرت

قاصد الذي بدا عليه الانفعال لأنه أنقذ حياتي بهذه الجرأة . أما الزورق فقد اصيب بحوالي ٥٠ طلقة على جوانبه . وعلمت فيما بعد ان الضحية الوحيدة التي قتلها رجالي كانت بقرة تقف على جانب النهر فسقطت فيه ميتة .

وسمع سكان سوق الشيوخ صوت اطلاق النار لأن المدينة لم تكن تبعد عن المكان إلا اربعة اميال كما يطير الغراب ، فتجمهر عدد من الرجال والنساء والأطفال ينتظرون وصولنا بالقرب من مرسى الزورق . وكانت شفتي تنزف بشدة وقد تبللت مقدمة قميصي بالدم مما أثار هؤلاء الناس . وأخذت عدة مئات من النسوة تجمهرن هناك تولولن . وانقلب العويل الى صرخات فرح عندما قفزت إلى الشاطيء مطمئناً الجميع بأنني بخير .

وأثرت هذه العواطف التي اظهرها سكان سوق الشيوخ نحوي تأثيراً عميقاً في نفسي لأنني كنت وحيداً بينهم . وألقيت فيهم كلمة قلت فيها أنني ما دمت حياً لن انسى استقبالهم لي وشعورهم نحوي . ولا يزال حب هؤلاء الناس يتملكني حتى اليوم .

ولزمت الفراش ثلاثة او اربعة ايام لأن رجلي كانت تؤلمني . وخلال هذه المدة جاء قاصد لزيارتي وتبدو على وجهه علامات الغضب لوقوع هذا الحادث . وقال : يا صاحب . اصبح الآن بيني وبينك دم . فقد سفك دمك في ارضي وانت تحت حمايتي ورعايتي . انه عار عليّ كبير . ومن الآن وحتى امسح هذا العار يجب ان يرتفع فوق سطح منزلك علم أسود لكي يعرف الجميع .

وأخذ قاصد يلف علماً صغيراً اسوداً حول عصا قصيرة ليعلقه فوق المنزل بينما كنت أحاول التخفيف عنه والتقليل من أهمية الحادث فتركني والدموع في عينيه وكأنه طعن في قلبه ، وراح يبحث عن رجال قبيلته الذين نصبوا الكمين .

وعاد قاصد بعد خمسة ايام ليضع امامي كيساً فيه ثمانمائة روبية قال ان اربعمائة منها ثمن دمي والاربعمائة الاخرى حشم (بدل الشرف) لأن الاعتداء وقع عليّ وانا تحت رعايته . ولم يصغ قاصد قط إليّ وانا أحاول ان اقنعه وقال انه بهذه الطريقة فقط يستطيع ان يرفع رأسه عالياً بين قومه .

وخرج قاصد ليستدعي جماعة من النساء اتى بهن معه . فدخلن وبعد حديث قصير قدمن لي ابنة أخ قاصد وهي فتاة صغيرة طيبة تبلغ من العمر اربعة عشر عاماً . وقال قاصد ان الفتاة ستكون زوجتي لأن هذه هي طريقة القبيلة في الفصل . واخذ يشرح لي انه حسب عادات قبيلة الحكام ، إذا اعتدى احد أفراد القبيلة على رجل من قبيلة اخرى ، واعتبرت القبيلة ان رجلها مخطىء ، تعطى فتاة من اقرباء المعتدي ، بالإضافة الى التعويض المالي ، الى المعتدى عليه . فإذا كان المعتدى عليه قد قتل في الحادث فإن الفتاة تعطى الى اقرب الذكور إليه . والفكرة من ذلك هي ان الاطفال الذين سينتجون عن هذا الزواج يكونون وسيلة لإزالة الضغائن والأحقاد بين القبيلتين .

وكان معظم رجال قبائل سوق الشيوخ من أهل الاهوار ويعيشون حياة بدائية جداً . وكنت انا الرجل الانكليزي الوحيد الذي وقع نظرهم عليه ولذلك فلن يفهموا ان عاداتنا تختلف عن عاداتهم . وكان قاصد شرساً حاد الطبع ولكنني كنت أحبه لأنه كان مصلحاً ويرغب في احلال السلام . ولكي ارضيه اخذت منه المال ووزعته على الفقراء واهديته بدلاً منهما زبوناً وعباءة جديدين من أجود الأنواع التي وجدتها وذلك لكي اطيب خاطره . اما بالنسبة للفتاة فقد ارجعتها الى اهلها بعد ان استشرت الحجي حسن حمداني وبعد ان اهديتها ثوبين جديدين . فقد أشار عليّ الحجي حسن ان اردها مع عبارة مجاملة تستعمل في مثل هذه الظروف وهي : قبلناها ورديناها لكم .

ولن انسى منظر اولئك النسوة اللواتي جلبن الفتاة معهن الى منزلي .

وبعد ذلك جاءني قاصد بنتيجة تحقيقاته في الحادث . فقال ان الاعتداء جاء من ارض البوحميدي وهم فرع من قبيلة الحكام . وقد انكر ياسر الشولان شيخ البوحميدي معرفته بالامر وقال ان غرباء قدموا الى أرض قاصد ليقترفوا الجريمة هناك حتى يشينوا قاصد المعروف بصداقته للحكومة .

وقال قاصد ان ياسر يكذب وانه يعرف جيداً ان مدبري الحادث هم من قبيلة الحكام ينتمون الى الحجي ناصر الذي وعده الاتراك باعطائه خمسماية ليرة

عثمانية مقابل تصفية مساعد الضابط السياسي البريطاني في سوق الشيوخ . (وانا اشك في صحة هذه الراوية) . وقال قاصد ايضاً ان الكمين كان يتألف من اثني عشر رجلاً برئاسة احد رجال القبائل قتل والده على يد البريطانيين في معركة شعيبه قرب الزبير منذ سنتين ، وقد الهب الحجي ناصر مشاعره ضدي . اما الحجي ناصر فلم يقترب من مكان الحادث بل ظل بعيداً في المستنقعات الشمالية من بحيرة الحمار حيث كان ينتظر انباء مصرعي التي ستكون الشرارة الأولى لاندلاع الثورة بين قبائل الاهوار وجيرانهم قبائل الجره . (وهذه راوية معقولة) .

والح قاصد على معاقبة اقربائه البوحميدي . فارسلت تقريراً بالموضوع الى القيادة العامة في الناصرية فارسلت لي فرقة من المشاة مزودة بزوارق مسلحة . وقطع هؤلاء الجنود حوالي ثلاثمائة شجرة من اشجار النخيل التي يملكها ياسر الشولان وعادوا الى الناصرية دون وقوع أي حادث لأن قاصد عمل على ان لا تكون هناك مقاومة لهم . وكان ذلك بنظر أهل المنطقة عقاباً صارماً .

وما ان انتهى هذا الحادث حتى وقع حادث آخر مكمل له . فبعد شهرين كنت في مجلسي الاسبوعي وانا اشعر بسعادة مفاجئة . وكنت قبل ان احضر الى المجلس قد شربت زجاجة من البيرة الانكليزية الفاخرة تلقيت صندوقاً منها من البصرة . وكان من بين الرؤساء المجتمعين في المجلس جماعة من شيوخ آل السعدون يرئسهم ثامر بك ويوسف بك المنصور ورجل ممن يدعى راشد الصقر وينتمي الى فرع غامض من آل السعدون . وكانت تظهر في وجه راشد آثار جرح بالغ على طول خده . وكنت انا قد انقذت ابنه الجريح في معركة شعيبه التي كان يقاتل فيها ضدنا . واصبح ابنه صديقي منذ ذلك الوقت .

وقطعت علينا حديثنا ضوضاء من خارج المضيف اندفع بعدها الى الداخل ستة من رجال الشبانه يجرون رجلاً أوثقوا رباطه ورموه على قدمي . وقد استغرب الجميع هذا المشهد وبدت على وجوههم علامات الفضول والدهشة .

وانفجر محمد العايل رئيس الشبانه قائلاً بانفعال ان هذا الرجل المكتوف

هو رئيس العصابة التي نصبت لي الكمين ، وانه قد القي عليه القبض في أرض قبيلة الحسن باشارة من قاصد الناحي . وأخذ الحاضرون في المجلس يتمتمون ويترقبون ما سأفعله بالرجل .

واوقف الرجل على قدميه . ويبدو ان رجال الشبانه قد اوسعوه ضرباً بحيث انه لم يستطع الوقوف إلا بصعوبة . واعترف بصراحة بالتهم الموجهة اليه وقال انه يشعر بالأسف لانه اخطأني ولم يستطع قتلي . ولما سألته عن الدافع لقتلي أجاب بتحد ان والده قتل على يد الانكليز في معركة شعبيه ولذلك فقد شعر من واجبه ان يقتل اي رجل انكليزي يصادفه . ولما سألته عما سيفعله اذا اطلقت سراحه فرد بوقاحة متناهية انه سيحاول قتلي مرة ثانية ، وانه ان شاء الله سينجح في المرة التالية . وأخيراً اعترف بان الحجي ناصر قد أدخل له هذه الافكار في رأسه بعد ان وعده بمكافأة جيدة اذا نجح في مهمته .

وكانت القضية واضحة تماماً ولكنني شعرت بالأسف على هذا الرجل خاصة وانني كنت أعرف انني اتناول شخصاً شرساً وبدائياً للغاية ويشعر في قرارة نفسه ان الحق الى جانبه . واتخذت قراراً سريعاً وأمرت ان يفك وثاق الرجل ويطلق سراحه . وقلت له : اذهب ولا تفعل مثل هذه الأعمال ثانية لئلا يكون عقابك شديداً .

لا أعرف ماذا دفعني لاتخاذ مثل هذا القرار . ربما كان البيرة الانكليزية الفاخرة . وقد سمعت عبارات الاحتجاج والاستهجان من جميع الحاضرين وخاصة راشد الصقر الذي احمرت الندبة التي في خده وازرقت وصرخ في غاضباً : هذا تصرف مجنون يا حضرة الصاحب .

ومع تقديري لراشد الصقر اصريت على تنفيذ ما أمرت به . ودهشت عندما فك وثاق الرجل فانفجر باكياً وركض نحوي وركع على ركبتيه أمامي وأخذ يقبل قدمي وركبتي . وكان كل ذلك مؤلماً واكد اعتقادي بان الرجل التعيس يحمل في نفسه كثيراً من الطيبة .

وجاء هذا الرجل بعد يومين الى منزلي وأخذ يتوسل الي ان اعينه سايساً

عندي لأنه يعرف بشؤون الخيل ولأنه يريد خدمتي . فأعطيته الفرصة وظل الى يوم موته بعد ست سنوات من الحادث أخلص خادم عرفته في حياتي . وهل يعجب أحد بعد لماذا احببت رجال قبائل المنتفق ؟

وغضب مني قاصد طبعاً . وبعد مقابلة عاصفة بيني وبينه تركني وذهب الى عشيرته .

الفارس المتخفي

بعد هذه الاحداث التي رويناها سارت الامور على ما يرام في سوق الشيوخ. وقد استحدثت نظاماً لاعطاء المساعدات للشيوخ صغارهم وكبارهم مما ساعد على حفظ الهدوء في المنطقة . وبلغني ان الحجي ناصر العايل توجه شمالاً ورمى بنفسه نهائياً بين أحضان الأتراك . ويبدو ان ذلك فيه شيء من الصحة لأنه لم تعد هنالك مشاكل وساد السلام بين قبائل الحكام وبني خيشان والجره . وظل قاصد الناحي ينق كالضفدع ان الحجي ناصر لن ينسى احراق قريته ولا الدور الذي لعبه هو (اي قاصد) في ذلك . وكان حديثه المفضل ان الحجي ناصر يتقاضى راتباً ضخماً من الاتراك ويفاخر امامهم بانه يستطيع اشعال الثورة ضد الانكليز في لحظة .

ومرت ثمانية أشهر . وبعد ظهر أحد الايام ركبت حصاني واصطحبت كلبي السلوقيين وسرت في الفلاة مسافة ثلاثة أميال وراء سوق الشيوخ ولم أكن مسلحاً . ورأيت على مسافة بعيدة فارساً وحيداً يتجه نحوي وتطلعت الى كل الجهات فلم أجد أثراً لبشر غيره . وظل الفارس يسير ببطء ولم اكترث له في البداية ولكنه عندما اقترب مني لاحظت على وسط سرج حصانه بندقية تركية وكان وجهه ملثماً مما يثير ، في عالم القبائل ، مكامن الشك . وحاولت جهدي ان أظهر عدم اكتراثي فبقيت سائراً في اتجاهي . واتجه الفارسي نحوي وتوقف قريباً مني . فتوقفت أنا ايضا وحييته وسألته ما يريد . وبدون ان يتكلم ازاح الغطاء عن وجهه فتبينت انف الحجي ناصر المعقوف ووجهه الصارخ الجمال .

فبادرني قائلاً : هل عرفتني يا دكسان ؟ فأجبته : نعم ، اهلاً بك يا حجي ناصر إن الله الذي يدبر كل شيء قد رماك بين يدي . قلت ذلك ولم أكن اعرف لماذا تفوهت به ولكن شعوراً بالهلع تملكني .

ورد عليّ الحجي ناصر قائلاً : على العكس يا دكسان ان الأقدار رمتك أنت بين يديّ . قل لي ماذا يمنعني من قتلك انتقاماً ؟ ألم تحرق منزلي ومضيفي وقريتي ومحاصيلي ؟ ألم تشترك مع قاصد النـــاحي بإنزال الخراب والعذاب على عائلتي وقبيلتي ؟

وكان وهو يتكلم ببطء يستل بندقيته من جانب السرج والقمها طلقــة وهو لا يزال هادئاً على ظهر حصانه . ورفض دمــاغي ان يعمل كما اريده واستبد بي الخوف ولكنني حاولت قدر المستطاع ان أحــافظ على هدوئي ورباطة جاشي وقلت له : يا حجي ناصر ان الله بالحقيقة أرسلك إليّ وكأنه كتب ان يتم هــذا الامر في هذا اليوم بالذات . فــلا تنس ان هنالك مكافأة قدرها عشرة آلاف روبية ثمناً لرأسك حياً او ميتاً . ماذا يضرك لو دفعت أنت المبلغ وسلمت نفسك للحكومة ؟ ان ذلك أفضل من ان يقتلك أحد وينال المكافأة .

فضحك الحجي ناصر هازئاً وقال : لا . لا لقد جئت آخذ حقي . لقد جاء يومك أخيراً .

ويبدو ان كلمتي أصابت هدفاً في نفس الحجي ناصر لأنه بدا عليه الجد فجأة وانحنى إلى الأمام وسألني :

— ماذا تقصد ؟ انني لا افهم . أنت تتكلم بالاحاجي يا دكسان .

وقد شجعتني ولا شك فوهة البندقية المصوبة الى ممدتي فبدأ دماغي يشتغل بأقصى سرعته .

فقلت له بهدوء وتأن : يا حجي ناصر قصدي ... انك لو تدفع أنت العشرة آلاف روبية وتسلم نفسك دون قيد او شرط ، فان ذلك سيرضي الحكومـــة ويقنعها ويستميلها الى الاصغاء لنصيحتي . أمــا انا من جهتي فانني سأحاول حل قضيتك على الطريقة العشائرية ، فيذهب القسم الأكبر من المال دية لعائلة الشيخ

مزبان . والباقي يكون بمثابة غرامة للحكومة بعد اقتطاع الحشم منـه المستحق لي لأنك قتلت ضيفاً تحت سقفي . اعمـــل بنصيحتي يا حجي ناصر وثق انني سأحصل لك على عفو من الحكومة لكي يتسنى لك العودة الى ارضك وقبيلتك .

ونظر إليّ نظرة امتزج فيها الشك بالأمل وسألني : كيف سأدفع المـال ؟ وأنا لا احمل قبل هذا المبلغ ؟

فأجبته : انت تعرف أين وكيف تجده . اذهب واجلب المال وسألتقي بك عند الغروب بعد يومين عند البوابة الجنوبية من المدينة . ويجب ان تخفي وجهك بعناية وسأوافيك الى هناك لأضمن مرورك بسلام بين الحراس. انها كلمة شرف ولن أخدعك .

وصمت الحجي ناصر فترة ثم تنهد وادار وجهه إليّ وقـال : بالحقيقة ان الله كتب ذلك . سأكون عند البوابة يا دكـان بعد غد عند الغروب ان شاء الله ولكن قبل ان اذهب أحلف بوجهك انك ستحافظ على كلمتك .

فأكدت له ذلك بقولي : بوجهي يا حجي ناصر تيجي سالم ان شاء الله بعد تسليم الفصل والحشم على موجب قواعد العشاير .

ويبدو ان الحجي ناصر اقتنع بذلك فأدار فرسه وانطلق ، دون ان ينبس ببنت شفة الى الجهة الشمالية الغربية .

وحافظ الحجي ناصر على كلمته فوافيته الى البوابـة الجنوبية عند الغروب بعد يومين ومر وسط استهجان الحراس واستغرابهم فاقتدتـه الى منزلي رأساً . وهناك سلمني المبلغ المطلوب وكان معظمه اوراق نقدية من إصدار حكومـة الهند . اما من اين حصل عليهـا فسيظل ذلك لغزاً . ولمقتضيات الأمن ظل الحجي ناصر في منزلي الى ان تمكنت من عقد مجلس عشائري حضره جميع شيوخ قبيلة الحكام بإشراف ثامر بك السعدون والسيد عوده .

وهنا يجدر بي ان أعرف صديقي ذو العمامة الزرقاء السيد عوده . انه يعيش في عزلة كالناسك بالقرب من سوق الشيوخ بين قبيلة النواشي الصغيرة . وكنت استخدمه كثيراً في حل النزاعات العشائرية التي تتطلب حلف اليمين لأن أهل

المنطقة كانوا ينظرون إليه كأنه قديس او ولي بحيث انهم يعتقدون ان من يقسم يميناً كاذباً امـــام السيد عوده فإنه يتعرض لأن يصاب بمرض من الامراض او للانتقام او لفساد محاصيله او موت ماشيته او أيـة مصيبة اخرى ، ليس فقط على الشخص الكاذب نفسه بل على افراد عائلته ايضاً . وكان السيد عوده بذلك نافعاً لي أشد النفع .

وبمـــا ان قضية الحجي ناصر كانت مهمة فقد قررت ان أجعلها عبرة . فأصريت على ان يدفع الفصل مضاعفاً لأقارب مزبان وان يدفع مبلغ ممـاثل لي كحشم . وما تبقى من العشرة آلاف روبية يذهب الى الحكومة كغرامة .

وقـــد ساهم نفوذ ثامر بك في قبائل الجره التي تشكل قبيلة الحكام جزءاً منها ، كثيراً على وضع حل مرض لهذه القضية الشهيرة . ولن انس ان اخص بالذكر المساعدة القيمة التي اسداها السيد عوده في هـذا المضمار . امـــا الحشم ومقداره ألفان واربعماية روبية فقد انفقت قسماً كبيراً منه على مدرسة انشأتها ووزعت الباقي على فقراء المدينة ، ورضي الجميع .

وابلغت السير برسي كوكس بالامر في الوقت المناسب فأرسل إليّ برقيـة فيها بعض الملاحظات عن قبولي عشرة آلاف روبية ثمناً لحيـــاة الحجي ناصر ولكنه في النهاية وافق على الطريقة التي حلت بها القضية . وازداد بذلك نفوذي في المنطقة . فالعالم دائماً يحب الرجل المخادع وكان الحجي ناصر شهيراً .

الفصل الثامن

سوق الشيوخ

١٩١٧ - ١٩١٨

انهيار سد المجاشيه

واجهتني حالة صعبة أثناء موسم الفيضان سنة ١٩١٧ . فسوق الشيوخ تقع في وسط الدلتا التي يشكلها الفرات حيث يجري الى الناحية الغربية من بحيرة الحمار . وفوق المدينة وتحتها مباشرة ينقسم النهر الى قناة الحكيكة وقناة ام النخلة وقناة المزلق ، بينما تتفرع أربع أو خمس أقنية منه على الجانبين ، وبعد ان تروي مساحات شاسعة من الأرض تجد طريقها الى بحيرة الحمار عن طريق المستنقعات . واكبر هذه الأقنية الجانبية تدعى قناة المجاشية . وفي الوقت الذي كتبت فيه هذا الكلام كانت هذه القناة تتسع يوماً بعد يوم لانها تتفرع من النهر وسط منعطف واسع على شكل هلال . وقد تصبح في يوم من الأيام المجرى الرئيسي للفرات .

لم تكن لدينا دائرة للري في ذلك الوقت وكانت القبائل تفعل ما تشاء بالنسبة لاقامة السدود في الأماكن المناسبة لري أراضيها . وخطة القبائل هي جني موسمين من الارض : موسم قمح أو شعير وموسم أرز . أما الموسم الأول فيزرع

في الخريف ويحصد في أيار حين يرتفع نهر الفرات بسبب ذوبان الثلوج في تركيا وتغطى الأرض التي كانت مزروعة قمحاً بالماء عن قصد وذلك لأجل زرعها بالأرز الذي يحتاج الى كثير من الماء من وقت زراعته الى وقت نضوجه .

ويعتبر موسم الأرز الموسم الأفضل والأغلى وكانت طريقة القبائل كما يلي : يزرع القمح او الشعير اعتماداً على مياه الامطار . وعندما ينضج الزرع يروى بجر المياه اليه في وقت يكون النهر في أقصى انخفاض . لذلك كانت تبذل الجهود في كل مكان ، أما بالتعاون او بتنازع المصالح ، لبناء السدود عبر القنوات الكبيرة المتفرعة من المجرى الرئيسي ، وذلك لرفع مستوى المياه فيها ليصبح ري حقول القمح ممكناً بطريقة الجر .

ومع حصاد الموسم الاول يأتي الفيضان السنوي وتهدم معظم تلك السدود للتخفيف عن النهر الرئيسي . واذا لم يفعل ذلك فان مياه الفيضان لا تمنع زراعة الأرز فحسب ، بل تغرق القرى والأماكن المأهولة بين فيها .

والوقت بين حصاد المواسم الشتوية وموسم الفيضان ضيق ويمكن حسابه بدقة في السنوات العادية . ولكن هذه الحسابات تخطيء احياناً . فاذا تساقطت الثلوج على الجبال الشمالية البعيدة بكثرة وذابت بسرعة في وقت مبكر، فان الفرات سيرتفع ، قبل حصاد القمح او الشعير ، الى درجة غير طبيعية . وتمنع السدود القائمة المياه من الانحدار الى بحيرة الحمار عبر القنوات الفرعية فتتعرض بذلك الى الخطر جميع المساحات الشاسعة المزروعة. ويتأثر بذلك اكثر من غيرهم القبائل القريبة من بحيرة الحمار ويشعرون بالحاجة الى الانقاذ والغوث اكثر من أولئك الذين يعيشون قرب مدينة سوق الشيوخ حيث تعلو ضفاف الفرات .

ان الطريقة الوحيدة لانقاذ المحاصيل الزراعية في حالة طارئة كهذه هي فتح المجال للنهر ان يجري الى بحيرة الحمار بسرعة . ولتحقيق ذلك يتوجب هدم واحد أو اكثر من سدود القبائل . وهنا تنشأ المشكلة . فكل قبيلة لا تريد هدم سدودها وترغب ان ترى سدود جاراتها تهدم أولاً . ونتيجة لذلك في مثل هذه الظروف ، كانت القبائل تحاول هدم سدود بعضها البعض لاسيما واذا كانت

الحكومة المحلية ضعيفة او لا وجود لها كما كانت الحال في السنوات الخمس عشرة التي سبقت دخول الانكليز . وغالباً ما كان يدفع ذلك بالقبائل الى الاقتتال ويكون النصر عادة حليف الأقوى .

وشهدت سنة ١٩١٧ فيضاناً غير عادي . ففي نهاية شهر نيسان ارتفع الفرات الى درجة مخيفة . ولم يكن القمح قد نضج في كثير من المناطق ويحتاج الى سقاية بعد ، ولذلك كانت جميع السدود سليمة . وأسرع رجال القبائل وأصحاب البساتين من قريب ومن بعيد الى ضفاف النهر وبدأوا بتعلية الاتربة عليها على أمل انهم قد ينجحون في منع الماء من التدفق قبل قدوم الفيضان الرئيسي .

وكنت كل ساعة أتلقى في سوق الشيوخ طلباً باتخاذ اجراءات رسمية لمنع الكارثة . فاذا لم يفعل شيء ولم استخدم سلطتي فمعنى ذلك ان محاصيل المنطقة كلها ستتلف وستغرق معها مدينة سوق الشيوخ . اما نصائح مستشاري فكانت متناقضة . كل يبدي الرأي الذي يلائم اغراضه لأنهم جميعهم لديهم اصدقاء بين مختلف القبائل ووجدوا في ذلك فرصة لزيادة نفوذهم عن طريق اقناع الحاكم بهدم ذاك السد بدلاً من السد الذي قد تكون لهم فيه مصلحة . فوجدت انني سأتحمل اللوم مهما كانت النتيجة . وكان الوقت حرجاً وليس من يساعدني والمنطقة بأسوأ أحوالها .

وظلت مياه النهر الصفراء المحملة بالاتربة ترتفع في دلتا سوق الشيوخ حتى أصبحت أعلى من الأرض المحيطة بها بعشرة أقدام ، وبدأت تتدفق من فوق الحافة الترابية على الضفتين . وكان أي تصدع في أي مكان يعني اغراق المنطقة جميعها بالماء وتلف المحاصيل الزراعية . ومما زاد الامور سوءاً ظهور روح المقامرة العربية بأجلى صورها . فتهديم اي سد من السد سينتج عنه اغراق مئات الأفدنة المزروعة بالقمح وراء السد وعلى جانبيه . ولذلك كان اصحاب السدود على استعداد ان يدافعوا عن سدودهم الى الرمق الاخير . وكان هنالك حراس مسلحون يقومون بحراسة هذه السدود في الليل والنهار ، وكان الرأي السائد هو : فليتحمل الجميع النكبة افضل من ان تتحملها قبيلة واحدة .

وكان علي ان افعل شيئاً حاسماً وبصورة سرية للغاية . وفي حالة من اليأس قررت هدم سد المجاشيه الكبير الذي يبعد عن المدينة خمسة أميـــال . وكنت أعرف انه ليس عليّ إلا فتح ثغرة صغيرة في اعلى السد ، ومياه النهر المتدفقة كفيلة بالباقي . اما المشكلة هي كيف استطيع القيـام بذلك وحراس مسلحون يحرسون السد . فركبت زورقي البخـاري ورحت استكشف المكان وعرجت على عدة سدود اخرى حتى لا ألفت إليّ الانظار ، فوجدت ان اربعة حراس فقط يقومون بحراسة سد المجاشيه وكلهم من الجهة الشرقية ولم تكن حراستهم يقظة .

وعدت الى سوق الشيوخ متفائلاً لأضع خططي . وكنت على يقين انني إذا عرضت الفكرة على أصحاب السد سيعارضون ويقاومون ولذلك صرفت النظر عن محاولة هدم السد بالقوة في وضح النهار وقررت اللجوء إلى خطط سرية تنفذ تحت جنح الظلام .

وفي الليل ركبت مشحوفاً مع محمـد العايل واثنين من الشبانه واخذت معي معولاً ، واتجهنا إلى مدخل قناة المجاشيه من الجهة اليمنى . وكان السد يبعد عن مدخل القناة حوالي ثلاثمائة باردة . وكان الظلام شديداً عندما اسرعنا الى السد من الجهة الغربية للقناة ويبدو أن الحراس على الجهة الشرقية كانوا يغطون في النوم .

وتسلقت أنا ومحمد العايل الى ظهر السد الذي تبلغ سماكته ١٢ قدمـاً وبدأنا نحفر على طوله خندقاً عرضه قدمين . ولم يكن العمل صعباً وكان بالامكان حفر الخندق باليدين لأن تلك السدود مصنوعة من الطين المجبول بالقش . والعمـــل الاصعب كان فتح الثغرة في القسم الاعلى من السد وهو القسم المصنوع من الطوب المشوي . ولذلك استخدمنا المعول بحذر دون ان نتمكن من الضرب بشدة لئلا يستيقظ الحراس على الصوت .

واستمرينا في العمل بصمت مـدة ساعة كاملة حتى لم يبق أمامنا إلا ثلاثـة أقدام تقف في وجه ضغط الماء.وعندما فتحنا فجوة عميقة في السد حفرنا الاقدام

الثلاثة المتبقية بسرعة البرق واسرعنا الى المشحوف وهربنا فيه بأقصى سرعة ممكنة الى نقطة تبعد مئة ياردة عن السد ووقفنا هناك نرقب النتيجة .

وسار كل شيء حسب الخطة المرسومة . فبعد ان تدفقت الماء في الثغرة التي فتحناها سمعنا هدير مياه نهر وهي تشق السد لتنفذ منه . وعرفنا عندئذ ان الخطة نجحت اذ ان شيئاً لن يستطيع منع المياه من شق السد وجرفه في طريقها. وعدنا الى المدينة قبل ان يشتد التيار الناتج عن تدفق المياه عبر السد لئلا نعجز عن التجديف .

وطرح الحراس الصوت ولكن بعد فوات الأوان . وسمعنا عن بعد أصوات رجال القبيلة وصراخ النساء في القرية المجاورة وهم يحاولون عبثاً منع المياه المتدفقة .

ووصلنا الى المدينة في الساعة الثالثة صباحاً وهناك طلبت من محمد والرجلين ان يكتموا السر .

وأنقذت مدينة سوق الشيوخ من الغرق . ففي الصباح كانت مياه النهر قد انخفضت قدمين كاملين . وقد جاء الحجي حسن حمداني باكراً في الصباح ليبلغني ان سد المجاشيه قد تصدع أثناء الليل وجرفته المياه ، وقال : انه لطف الله ... رحمة الله هي التي قررت اي سد يجب ان ينهار .. شكراً لله .

وكنت لا أزال في فراشي في ذلك الوقت اغالب النعاس ومع ذلك نهضت لأستقبل وجهاء المدينة وأتقبل منهم التهاني والاخبار مع قهوة الصباح في المجلس.

وظل الأمر سراً . فلم يعرف احد الدور الذي قمت به في تهديم السد حتى بعد ان غادرت مدينة السوق . وظل رجال الشبانه الثلاثة عند كلامهم فكتموا السر أيضاً . ومع انني بذلك انقذت المدينة وعدة آلاف من الافدنة المزروعة قمحاً على مسافة عشرات الاميال من الضفة اليمنى للفرات ، فقد غرقت كل المنطقة الواقعة وراء سد المجاشيه على الضفة اليسرى من النهر وتلفت المزروعات فيها حتى بحيرة الحمار . ولم استطع تقدير الاضرار التي نجمت عن ذلك ولكن مما لا شك فيه انها كانت جسيمة للغاية . ولم أحاول ان احصل على تعويض عن ذلك من

الحكومة لانها سابقة لم يكن قد سمع بها أحد في تلك المنطقة .

وكرهت نفسي مدة من الزمن لأنني قمت بذلك الدور ولم أقدر ان انسى أولئك المساكين الذين حل بهم الدمــــار والخراب نتيجة لذلك العمل ولكنني اضطررت الى التضحية بالاقليـة لأنقذ الاكثرية . فهل هذا مبرر ؟ القبائل تقول « لا » حتماً !

وتلقى مساعدو الضباط السياسيين على الفرات، بما فيهم أنا ، دعوة الى العشاء ليلة عيد الميلاد سنة ١٩١٧ من الميجر يونغ (توفي سنة ١٩٥٠) مساعد الضابط السياسي في الناصرية .

وحتى ذلك الوقت كان كل منا يحكم منطقة ،منفصلة ويتعامل مباشرة مع السير بيرسي كوكس في البصره . ولكن الميجر يونغ كان طموحاً ، فأبلغنا ، بعد ان تناولنا طعاماً شهياً وشربنا كثيراً من الشمبانيا ، انه من أجل ان تكون الادارة أكثر فعالية ومن اجل الضرورات المـــالية ، سيقترح على السير بيرسي كوكس تعيينه (اي الميجر يونغ) ضابطاً سياسياً على الفرات وان نكون نحن تابعين له . فرحبنا بالفكرة دون أن نفهم ما وراءها ودون ان نهتم بمعرفة ابعادها وقد طغى علينا لسان مضيفنا الناعم وسخاؤه المنقطع النظير .

وإنصافاً للميجور يونغ أقول انه في زمن الأتراك كانت الناصرية هي المركز الاداري للواء المنتفق كله . وليس امراً سيئاً ان نحذو حـــذو الأتراك في مثل هذه القضايا لأنهم كانوا دائماً يحاولون ضم جميع القبائل التي تشكل اتحاداً واحداً، تحت إدارة واحدة . ولم يكن الخطأ في طريقة الاتراك هـذه ، بل في اساليب الموظفين الذين كانوا يتولون شؤون الادارة .

وكانت القيادة العامة للفرات في الناصرية . وربما كان الميجر يونغ قد فكر ، وليس بدون أسباب موجبة ، انه من الاسهل إدارة منطقة سيئة منقطعة تمـاماً عن البصره ، من المكان الذي توجد فيه القيادة العامة لا سيما وان تلك القيـادة كانت مسؤولة عن المنطقة كلها وعن خطوط المواصلات حتى القرنه .

ولم نظن بعد حفلة عيد الميلاد العامرة أن الميجر يونغ كان جاداً في الموضوع

او انه سيقوم فعلاً بتقديم اقتراحه الى السير بيرسي بصورة رسمية . ولكنه فعل ودفعنا نحن الثمن .

وغضب السير بيرسي عندما تلقى الاقتراح وبعد اسبوع امر بنقلنا جميعاً . وكنا ستة بما في ذلك الميجر بونغ الذي نقل مكاني الى سوق الشيوخ . وتلقيت برقية من السير بيرسي يبلغني فيها دون إعطاء الأسباب انه قرر اعادتي الى الجيش وامرني بالالتحاق بدائرة المشتريات في العمارة . وكنت أحب عملي في سوق الشيوخ والناس الذين كنت اتعامل معهم ولكنني لم أكف عن التفكير بأنني اعتبرت غير كفء وغير جدير بتحمل المسؤوليات . ولم أعرف حقيقة ما حدث إلا عندما وصل الميجر بونغ الى سوق الشيوخ وكيف ان تصرفه الأحمق سبب كل هذه المشاكل وهدم كل ما بنيته طيلة السنوات الماضية . وقد لمت الميجر بونغ لأنه هدم مستقبلي في الدائرة السياسية .

ولكن الأوامر هي الاوامر . فبعد ان سلمت اعمالي ، وأنا منكسر القلب ، الى الميجر بونغ ، جمعت حوائجي ونقلتها الى زورق صغير وودعت جميع الشيوخ وسرت في طريقي الى البصرة حيث كان علي ان اثبت وجودي قبل الانتقال الى العمارة .

واستغرقت رحلتي الى البصرة خمسة أيام اذ اعاقت سيري في بحيرة الحمار الامطار الغزيرة والرياح الشديدة ، فبقي زورقي غارقاً في الوحل يومين وليلتين خارج قناة المزلق . ولم يستطع صديقي حاتم المزان شيخ الجوابر الذين يقطنون على ضفتي المزلق ، ان يحركني خطوة واحدة من مكاني بكل ما لديه من خيول ورجال . ولم أستطع استئناف السفر إلا عندما هبت ريح جنوبية فارتفعت مياه البحيرة قليلاً .

وفور وصولي الى البصرة توجهت الى الدائرة السياسية لاثبات الوجود وتلقي الاوامر . ولشد ما كانت دهشتي عندما وجدت هناك جميع شيوخ سوق الشيوخ تقريباً وقد جلسوا في باحة مبنى الدائرة السياسية ومعهم امتعتهم . ولقد تضايقت من ذلك لانني سأتهم بأني دبرت الأمر . والحقيقة ان هؤلاء سبقوني الى

البصرة دون ان يخبروني . وقد جاء بعضهم على الخيل وبعضهم الآخر بالمشاحيف عن طريق ام النخلة والغبيشيه ، اي مسافة مئة ميل تقريباً . وكان عددهم حوالي ٥٠ شيخاً بينهم ثامر بـك وعجيل بك ويوسف بك وعبدالعزيز الراشد (وكلهم من عائلة السعدون) ، وجميع شيوخ بني خيقان والجره تقريباً برئـاسة قاصد الناحي .

وكانوا مجتمعين كلهم في الباحة عندمـا دخلت فهرعوا لتحيتي ، منهم من صافحني بالأيدي ومنهم من قبلني على الوجنتين . وعندمـا سألتهم عن سبب قدومهم ، أجاب قاصد الناحي بانهم أتوا ليرجعوني الى سوق الشيوخ وقال : ان شاالله كوكس ما يقصر . ويقصد بذلك انهم يأملون ان لا يخيب كوكس طلبهم .

وتركتهم ونزلت الى مكتب جيرترود بـل فأبلغتني ان الشيوخ أتوا في اليوم السابق وقـدموا عريضة تطالب باعادتي ، كما انهم رفضوا العودة او الخروج من الدائرة السياسية إلا اذا حصلوا على جواب مرض . ولم تنفع في اقناعهم ايـة حجة ، وذهبت عبثـاً كل المحاولات لحملهم على الانتقال الى فنـادق العشار او مقاهيها .

وأخبرتني الآنسة بل ان السير بيرسي ابدى انزعاجه لكل ما حدث ويعتقد انني انا الذي دبرت كل شيء ، ولذلك طلب ان اقابله فور وصولي .

ووجدت السير بيرسي بأسوأ حالاته . فسألني ببرود مـاذا أقصد بالسماح لجميع شيوخ السوق بالقدوم الى البصره دون استئذانـه ، وأمرني باعادتهم من حيث أتوا فوراً ، وقـال انه يرفض مقابلتهم أو مناقشتهم حول العريضة التي قدموها ، وأنه من الافضل ان اطيع الأوامر .

وعندما تمكنت من الكلام اقسمت له بشرفي انني لم أكن اعرف بقدومهم وإنني تأخرت على الطريق ، وأبلغته انني سلمت أعمالي الى الميجر يونغ الذي كان من واجبه ان يمنع الشيوخ من المجيء الى البصرة . وقلت له انني جندي مخلص وأعرف كيف اطيـع الاوامر ، ولكنني أود أن اعرف اي خطأ ارتكبته أو ذنب جنيته في سوق الشيوخ استدعى نقلي بهذه السرعة من الدائرة السياسية الى الجيش بدون اي تفسير ، وأنه يجب ان يعرف ان هذا العمل قد يقضي على جميع

آمالي ومطامحي . وأخيراً توصلت اليه ان لا يصب غضبه على الشيوخ لأنهم قوم طيبون ويسيرون على سجيتهم ، وأن تصرفهم هـــذا ناتج عن جهلهم لعادات البريطانيين وعن شعورهم بالولاء والاخلاص لي ، وطلبت منه أن يقابلهم ويصغي الى ما سيقولونه .

وأخيراً اقتنع السير بيرسي وأمرني ان ادعو الشيوخ اليه وان اطلب اعداد القهوة لهم . ودخـــل الشيوخ جميعهم الى الغرفـــة وقدمت كراسي لشيوخ آل السعدون بينما جلس الباقون على الأرض يحتسون القهوة التي قدمت لهم على الفور .

وكان موقفي صعباً اذ انني كنت سأقوم بالترجمـــة وانقل وجهة نظر السير بيرسي الذي كان لا يزال متوتراً . وعندمـــا بدأت الامور تتعقد نهض قاصد الناحي فجأة والدموع تنساب على خديه وخلع كوفيته وعقاله واندفع نحو السير بيرسي وطوق بهما عنقه وقال له : نحن داخلين على الله وعليك . اعطينا دكـــان .

وكان منظراً غريباً ان يشاهد المرء كبير الضباط السياسيين في العراق وقـــد تجمع حوله عدد من رجال القبائل يطوقون بكوفياتهم رأسه ويديه وحتى رجليه . وانكسر الجليد وبدأ السير بيرسي يضحك وهو يحـــاول التملص من قبضتهم فاستنجد بي . وبعـــد جهـــد ليس بقليل اقنعت قاصد والآخرين ان يعودوا للجلوس في أمـــاكنهم . كان منظراً مضحكاً بالفعل ولكن علامات الأمـــل والاستبشار كانت بادية على الوجوه .

وطلب السير بيرسي ان تحضر القهوة والسجاير وأبلغ الجمع بهدوء انه سيفكر بالأمر وانه مستعد للنظر بعطف على عريضتهم وسيعمل جهده لتحقيق رغباتهم ، ولكن هنالك بعض الصعوبات . وطلب منهم ان يذهبوا الى المدينة ويعودوا في اليوم التالي فيجتمع بهم ويعطيهم الجواب . وعندما رأى السير بيرسي التلهف في نظراتهم قال لهم انه يأمل ان يكون الجواب على خاطرهم .

وانتهت المقابلة وكلفت ان ابعد الشيوخ عن باحة الدائرة ففعلت وعدت الى مكتب السير بيرسي فواجهني بنظرة تأمل وقال : الى هنا كل شيء على ما يرام يا ديكسون ولكن كيف سأتراجع عن أوامري الى يونغ ؟ إنه الآن مسؤول عن

سوق الشيوخ .

فألمحت اليه بكياسة بأنني أعرف ان يونغ يكره فكرة البقاء في سوق الشيوخ واعتقد انه يقبل ان يبادلني المنصب فيأتي هو الى دائرة المشتريات في العمارة وأعود أنا الى سوق الشيوخ .

« حسناً جداً » قال السير بيرسي . « إذا كنت تستطيع أن تنهي الموضوع بهذا الشكل فسأصدر امراً بالتبادل بينكما . ولكن عليك انت ان تقترح ذلك على يونغ ، فأنا لا أقدر ان اتراجع عن أوامري فقد أبلغت قائد الجيش بها . »

واستأذنني دقيقة واخذ ورقة وكتب عليها شيئاً ثم سلمها إليّ قائلاً : أظن أن هذه ستسوي الأمور .

وكانت تلك الورقة مسودة برقية الى يونغ مكتوبة عن لساني تقول انني قد وصلت الى البصرة وقابلت كبير الضباط السياسيين ، وانني أعتقد انه نتيجة لذلك سينظر السير بيرسي بعين العطف إذا تقدم يونغ بطلب لتبادل المناصب معي ، وتتطلب البرقية في النهاية جواباً على جناح السرعة .

وفي اليوم التالي عندما تجمع الشيوخ في غرفة السير بيرسي ليستمعوا الى قراره ، أبرز لي السير بيرسي برقية كتب عليها « مستعجل » ويطلب فيها الميجر يونغ السماح له بالانتقال الى دائرة المشتريات في الجيش مكان ديكسون الذي فهم انه يرغب في العودة الى سوق الشيوخ . وأعطاني السير بيرسي ايضاً جوابه بالموافقة لأقرأه .

وابتسم السير بيرسي والتفت نحو الشيوخ وبعد أن سألهم عن صحتهم وعما إذا كانوا قد قضوا ليلة مريحة في فنادق المدينة ، أبلغهم انه فكر ملياً في طلبهم المتعلق بالكابتن ديكسون وقرر إعادته الى سوق الشيوخ . ولا يمكنني وصف الحماس الذي استقبل الشيوخ به القرار .

لقد كان السير بيرسي زكريا كوكس رجلاً عظيماً . ومن السهل ان يفهم المرء أسباب تمتعه بشعبية كبيرة بين أهل العراق ، والاحترام الكبير الذي لا يزالون يكنونه له حتى اليوم . وستمر سنوات كثيرة قبل أن يمحى اسمه من

اذهان هؤلاء الناس .

وكانت عودتي الى سوق الشيوخ نصراً لا ينسى . وحاولت ان تتميز بالهدوء وعدم التظاهر ولكن ذلك لم يكن بيدي . فقد كان ذلك يوماً عظيماً عند قاصد الناحي .

وبقيت في سوق الشيوخ بعد ذلك سنة واحدة أصبحت بعدها ضابطاً سياسياً على كل المنتفق وكان مقري الرئيسي في الناصرية على بعد ٢٠ ميلاً فقط من سوق الشيوخ .

حسين القبيح والبرج الحربي

حسين القبيح رجل مسن وهو شيخ الجوارين . والجوارين قوم شبه رحل من رعاة الأغنام في منطقة سوق الشيوخ يقيمون في الصيف بجوار أم البطوش ، ويتوجهون في فصل الخريف إلى الصحراء الجنوبية بين العراق والكويت حيث يقيمون لمدة ستة أشهر . وهم عرب أقحاح يفاخرون دائماً بأنهم من فرع أجود في المنتفق ، ولكنهم كانوا فقراء . وكان حسين القبيح يزرع بعض الارض عند تامر بك السعدون بين ام البطوش ومدينة السوق . ومع انه محبب للنفس ، لكنه كان شرس الطبع ولم يكن يتورع عن اغتصاب املاك غيره إذا سنحت له الفرصة ووجد في ذلك فائدة له . اما أتباعه فكثيرون ومسلحون جيداً .

وفي يوم من ايام صيف سنة ١٩١٨ جاء تامر بك مسرعاً ليقابلني ومعه كاتبه الكردي الملا أحمد . وشكا لي وهو هائج متوتر ان حسين القبيح استولى على أحد الابراج الحربية التي تحمي ارضه . ويشرف هذا البرج على مساحة من الأرض كان قد زرعها حسين أرزاً لحساب تامر بك .

ورفض حسين ان يخلي المفتول واكد نواياه واصراره على ان يصبح مالكاً للارض كما فعل غيره في الايام الأولى حين لم يكن احد يقيم في تلك المناطق . وجواباً على احتجاجات تامر بك اعلن حسين نفسه في خدمة الاتراك ، وأبلغ رسل تامر الذين ذهبوا لإقناعه بأنه لا يتعرف على تامر بك ولا على دكسون ولا

على حكومة الانكليز ، وانه يتحدى أي شخص ان يزحزحــه من مكانه او يجبره على إخلاء المكان .

وأعترف انه عندما كنت أصغي لتامر بك وهو يصب غضبه على « سركاله » السابق ، كانت مشاعري وعواطفي مــع حسين القبيح ، لأن تامر نفسه سرق الارض التي لم تكن ملكه في فترة الفوضى بين مغادرة الاتراك وقدوم الانكليز . وأخذت اهدىء تامر بك واطيب خـاطر الملا أحمد واعداً ان افعل كل مـا أستطيـع .

ويبعد المقتول المستولى عليه ثلاثة أميال فقط عن مدينة السوق على الطريق الى الحميسية ، ويمكن رؤيته بالعين المجردة من سطح منزلي .

وأرسلت في طلب حسين القبيح رسمياً فحضر الى مكتبي في الوقت المحدد . وكان في حوالي السبعين من العمر رث الثياب ، وقـد لفحته الشمس وتتطاير الشرر من عينيه . ويبدو انه لم ينتعل حذاء قط في حياته ، فكان قدماه اشبه بقدمي جمل . ويدل ذلك على انه رجل من الصحراء قبل كل شيء قضى معظم حياته يسير حافياً على الرمال الساخنة .

وكان يضحك ضحكة فيها الكثير من التمرد فلم اقدر إلا ان احبه . وقـال ان والده من قبله كان يزرع الارض التي استولى عليها ، وان تامر بـك السعدون حاول ان يطرده ويسلم الارض الى سركال آخر . ونظراً لوجود حـالة حرب فإن الكثيرين يستولون على املاك ليست لهم ، ولذلك فكر حسين أن الفرصـة مواتية ليحذو حذوهم . وبما ان المقتول كان يشرف على كل الارض التي زرعهـا لذلك كان لا بد من الاستيلاء عليه لتأمين حمايته .

وبعد ان أصغيت الى كل ما قاله حسين ذكرته بهدوء أن هنالك حكومة لها سلطة أمثلها انا ، وانه من واجبي ان امنع الافراد من اخـذ حقوقهم بأيديهم . وعليه ، يجب ان يخلي البرج بدون تأخير ويقدم بعدها الى محكمتي أيـة شكوى ضد تامر بك .

وبغمزة خبيثة من طرف عينه شكرني حسين لنصيحتي ووعدني ان يفعل كما

طلبت منه ، ولكنه طلب مهلة ثلاثة ايام ليقنع رجال قبيلته بالأمر .

وبعد ان تركني حسين توهمت ان القضية قد حلت . وبعد ثلاثة ايام تلقيت من حسين رسالة شديدة اللهجة يقول فيها ان رجاله لم يوافقوا على قراري . ويقول ايضاً انه نظرا لفقدان النظام عموماً فانه لم يستطع ان يفرض سيطرته عليهم ، ولذلك ، اذا كان بامكاني ان اثبت لهم هيبة الحكومة وسلطتها ، فان الجوارين سيسلمون المقتول ، دون شك ، بدون اية مشاكل . واقترح في رسالة شفهية ان اسير على رأس جنودي ومدافعي الثقيلة واهدد قبيلته بنسف البرج ، وبعد ذلك يستتب الأمن . وكان الثعلب العجوز يعرف جيداً انه ليس لدي جنود ولا مدافع، مما يعني انه سيظل مستولياً على المكان الى الوقت الذي اتمكن فيه من عمل شيء .

وفي تلك الاثناء جاءني تامر بك ثانية وسألني عما انوي عمله ، واكد لي أنه في اليوم السابق اطلق النار على رجاله من المقتول وقتل اثنين منهم . وقال انه ما لم اتخذ موقفاً حازماً لإثبات سلطتي فان الامور ستسير من سيء الى أسوأ ، وان جميع سكان المنطقة يرقبون الاحداث باهتمام وسيفترضون انه ليست هنالك حكومة تدعمني ، الأمر الذي سيشجعهم على الاقتداء بحسين والجوارين .

ووضعني الحاج تامر في موضع حرج يستوجب التفكير الشديد . فقد جعل من القضية امتحاناً لي وأراد ان يدفعني لعمل غير مأمون العواقب مما افقده احترامي وحبي . فقد كان بامكانه الانتظار الى وقت تكون فيه الظروف أكثر ملاءمة . اذ انه كان من الواضح انني لا استطيع ان افعل شيئاً بدون مدفعية ضد برج محصن مؤلف من ثلاث طبقات . فاذا حاولت حصاره فلن ينتج عن ذلك إلا تعرض رجال الشبانه الذين سيقومون بالمهمة الى الهجوم من الخارج . وفي الوقت نفسه لا استطيع ان اتراجع كما انني لا استطيع الحصول على قوات من الناصرية في الوقت الذي كانت فيه تلك القوات تعمل على مراقبة قبائل الغراف باتجاه شطرا .

وحاولت المماطلة فكتبت الى حسين القبيح طالباً اليه الحضور لمواجهتي

فرفض مدعياً ان جماعته لا يسمحون له بزيارتي لئلا انتقم منه واسجنه . وكانت تلك حجة واهية لأن جميع سكان المنطقة يعرفون تماماً ان أحداً من الجوارين لا يتجرأ على الانتقاص من سلطة حسين في القبيلة لكونــــه في الواقـع من اقوى شخصيات المنطقة .

وكتبت رسالة أخرى وأرسلت الحجي حسن حمداني يقنع الرجـل العجوز بأن يثوب الى رشده ويأتي عليه الأمان (حظ وبخت الحكومة) لبحث القضية، ولكن دون جدوى . وعـــاد الحجي حسن ليبلغني ان حسين كان في اشرس طباعه ورفض كل حجة ، وانه (اي الحجي حسن) تعرض لمخاطر كثـيرة في ارض الجوارين وكاد يلاقي حتفه .

وبذلك تطورت القضية فاصبحت امتحاناً عسيراً من اشد ما قـــد يتعرض له انسان . وكنت في حيرة من امري احاول يائساً ان اجـــد مخرجاً للقضية . وجاءني الحل من البحرية الملكية في دجلة والفرات على غير موعد كالعادة . ففي زحمة متاعبي ومشاغلي برزت سفينتان مسلحتان بالمدافـــع كانتا متجهتين من الناصرية الى البصرة ورستا بالقرب من مضيفي في مدينة السوق ومدافعها القوية تصعد زفرات القوة والعزم .

ولعبت ورقتي الأخيرة فأرسلت كتاباً مستعجلاً الى حسين القبيح قلت فيه ان الحكومة أرسلت سفناً حربيـــة افرض سلطتي وان رجاله وبرجـــه الحربي سيتعرضون للقصف في مدة قصيرة. وأبلغته ان الحكومة ، رفقاً منها ، ستعطيه فرصة أخيرة فاذا حضر خـلال أربع ساعات واعلن تسليم البرج فعلاً ، وأعلن خضوع ر.باله ايضاً لسلطة الحكومة ، فان السفن ستحجب نيرانها عنهم .

انني أشك فيما اذا كانت السفينتان قادرتين على القصف في مثل ذلـك المدى البعيد . ولكن خدعتي ، على كل حال ، نجحت . فبعد ثـــلاث ساعات فقط ارتمى حسين على اعتابي طالباً الرحمة . وعندما وقع نظره عـــلي لف كوفيته حول عنقي طالباً الأمان والغفران وقال : يكفي .. يكفي .. لقد اثبتت ان هنالك حكومة في هذه البلاد .. لقد اقتنعت .

وابلغني حسين ان رجاله قد أخلوا المقتول وطلب مني أرسل رجال الشبانه لاستلامه ، ففعلت . واحتل رجالي الشجعان المكان خلال ساعة بينما بقي حسين في مكتبي تحت الحراسة .

وانتهى كل شيء . ولكن الطريف في الموضوع هو ان سفن صاحب الجلالة لم تعرف شيئاً عما حدث. وقد ابلغت قائدي السفينتين بالخدمة الجلى التي اسدياها لي عن غير قصد او معرفة ، عندما كانا يهمان بمغادرة سوق الشيوخ بعد حفلة الغداء العامرة التي اقمتها على شرفيهما .

اما حسين القبيح فقد اطلق سراحه بعد ان قبل يد تامر بك في مجلس عام وطلب منه الصفح ، وبعد ان انذرته بأن لا يعود الى سوء السلوك . وقد زارني بعد ذلك عدة مرات واصبح أحد أخلص اصدقائي عندما انتقلت الى الناصرية . وتوفي حسين بعد ثمان سنوات وخلفه ابنه ناصر في رئاسة قبيلة الجوارين. واثبت ناصر انه عضو محترم في المجتمع القبلي أيام الحكومة العربية بقيادة فيصل . وكان يزورني في الكويت كلما انتقل رعاة المنتفق الى هناك في الخريف .

حرز ميرزا عنايه

ميرزا عنايه رجل متدين من اتقياء الشيعة كان يعيش بين قناة أم النخلة وقناة المزلق . وكان يتمتع بنفوذ كبير بين قبائل الحسن والجوابر وبني سعيد وغيرهم ممن يدينون بمذهب الاخبارية وهم أقلية اذا ما قيسوا بالقسم الأكبر من الشيعة وهم الاصولية . ويقطن ميرزا مع اثني عشر آخرين من العلماء على مرتفع من الارض بين القناتين المذكورتين وبعيداً عنهما ، حيث كانوا يؤلفون ما يشبه كلية قبائلية يلجأ اليها كثيرون طلباً للنصح فيما يتعلق بقضايا الشريعة .

وقد ساعدني ميرزا عنايه في حل عدد غير قليل من القضايا العشائرية المعقدة في كثير من الاحيان تتعلق بالنزاع على الحدود ، والطلاق ، والارث وما شابه ذلك . وكان اتصالي به عن طريق المراسلة .

ولم اطلب منه أن يزورني لأن مثل هذه الزيارة يقوم بها عالم ديني كبير

ضابط سياسي أجنبي تعني فقدان هيبته وجلاله في أعين إتباعه .

وفي خريف سنة ١٩١٨ قررت أن أتوجه لزيارة ميرزا عنايـــه لأنني كنت بأمس الحاجة إليه ليقف بجانبي في قضية هامة . فقد قررت الحكومة شق قناة للملاحة عبر بحيرة الحمار وعبر مساحة من الأرض تقع الى جنوب المزلق . وكانت هذه القناة ستتصل بالفرات بالقرب من قرية بني سعيد على بعد مسافة قصيرة من المكان الذي يقيم فيه ميرزا عنايه أي حيث تنفصل أم النخلة عن المزلق .

وقد أقلق هذا المشروع قبائل الجوابر وبني سعيد والحسن ظناً منهم ان قناة عميقة كهذه تجر معظم مياه النهر وتجفف أم النخلة والمزلق ممـــا يجعل زراعة الأرز في أرضهم غير ممكنة . ولم يكونوا يريدون قنـاة للملاحة هنـــاك لأنهم يعتقدون ان قناة مفتوحة دائمة تمنعهم من إقامـــة الـسدود المؤقتة عبر ام النخلة والمزلق لرفع مستوى المياه وتسهيل عملية زراعة الأرز . وفي رأيهم ان عملا « طائشاً » كهذا تقوم به الحكومة يعتبر انتهاكاً لأساليبهم وطرقهم التي درجوا عليها منذ أقدم الأزمان .

ونتيجة لذلك انتشرت الشائعات والهمس واللغط وعقدت اجتماعات معادية يومياً في مقر ميرزا عنايه . ومما زاد الأمور تعقيداً أن جرافـة حكومية أنهت شق القناة في بحيرة الحمار وانتقلت لتشق الأرض في منطقة قبيلة الجوابر باتجـاه قرية بني سعيد . وأخذت العرائض والاحتجاجات تنهـــال عليّ يومياً في سوق الشيوخ تبعتها بعثات غاضبة من رجال الاهوار . فخشيت انتشار هـــذا القلق وانقلابه الى اضطرابات وما ينتج عنها من مضاعفات ، فقررت القيام بعمل ما . وأشد ما كان يقلقني ان يتحرك المهووسون من رجال القبائل فيطلقوا النـار على عمال وموظفي الجرافة إظهاراً لعدم موافقتهم على العمل .

وكان من البديهي ان ينظر ميرزا عنايه بعين العطف الى وجهة نظر القبائل . وكان من الواضح ان الطريقة الوحيدة لاستعادة الثقة ومنع نشوء وضع خطير في المنطقة هي إقناع ميرزا ان القناة الجديدة من شأنها ان تسهل انتقال العرب عبر بحيرة الحمار الى سوق الشيوخ والناصرية ، وانه يمكن إقامة سدود مؤقتة عليها عندما

تأتي مواسم زراعة الأرز كل سنة .

وكتبت الى ميرزا عنايه طالباً مقابلته في يوم محدد ، فرد بأن دعاني الى الغداء . ووجدته رجلا ذكياً متقدماً في السن ويتمتع بشخصية منيعة . وتبين لي انه ذو عقل راجح وذو نفوذ كبير بين السكان المحليين . فشعرت انه بهذا النفوذ الكبير الى جانب الحكومة بصورة دائمة في منطقة من الاهوار لم تعرف الانضباط ، يساعدني كثيراً في العمل . فحاولت جهدي ان أكتسب صداقته وثقته .

وشرحت له في حديث طويل قبل الغداء وجهة نظر الحكومة وسبب إقدامها على شق هذا الممر المائي . وأكدت للعالم المحترم انه ليس لدى الحكومة أي اعتراض على إقامة سد لحصر الماء في موسم زراعة الأرز بشرط ان يزال السد بعد انتهاء الحاجة إليه . وفي تلك الفترة يتحول سير السفن الى طريق المزلق القديم الى ان يعاد فتح القناة . واقتنع ميرزا بوجهة نظري وأخبرني انه سيستعمل نفوذه لدى القبائل لإقناعهم ووعدني بأن كل شيء سيسير حسب الأصول . وكنت أعرف تماماً انه سيظل عند كلامه .

وقعدنا بعد ذلك على مائدة الغداء ، وكان مزيجاً فاخراً من الطعام العربي والفارسي ، لأن ميرزا عنايه ايراني الأصل ، كما يستدل من اسمه .

وبعد الغداء ، وأحاديث المجاملة ، نهضت لأودعه ولكنه استوقفني وربط حول ذراعي حرزاً هو عبارة عن اسطوانة فضية صغيرة طولها بوصتان ، قال انها تضم كتابات من القرآن الكريم كتبها بنفسه ، وانها تجعل من المستحيل على حاملها ان يتعرض للأذى أثناء سفره في النهر او في البحر .

ومما لا شك فيه انه عرف بالكمين الذي نصب لي في النهر سنة ١٩١٦ عندما أنقذ قاصد الناحي حياتي ، فأراد بدافع من عطفه ان يؤمن سلامة الضابط السياسي من وحشية القبائل في المستقبل .

وشكرته على حفاوته واهتمامه وأقلعت بزورقي عائداً الى المدينة حاملا الحرز ، مما ادخل السرور الى نفوس اتباع ميرزا ورجال القبائل الذين تجمعوا

على ضفاف النهر لوداعي .

وبعد شهرين بالضبط قررت زيارة قناة بني سعيد التي انتهى العمل فيها والتحدث الى المسؤول عن الجرافة قبل ان يغادر الى البصرة . وكانت الجرافة راسية على الجهة اليمنى من القناة عند نهاية بحيرة الحمار ، وكان القائد ينتظرني .

كان الطقس بارداً عندما أقلعت بزورقي في الصباح الباكر ، وكنت مرتدياً سترة من جلد الخروف التي لم أنس ان أضع في جيبها الحرز الذي أعطانيه ميرزا عنايه ، إذ كنت أحمله دائماً معي منذ اللحظة التي سلمه إليّ العالم المحترم . وربما كان ذلك إيماناً مني فطرياً بالخرافات ، ولكن السبب الاهم هو انه يرضي اتباعي من العرب . حملته معي ولم أعره بعد ذلك أي انتباه .

وكان الزورق مغطى ويجلس البحارة في غرفة المحرك ، بينما احتفظت لنفسي بغرفة خاصة فيه ذات نافذة مربعة .

ولم أكد انهي فطوري حتى دخلنا قناة بني سعيد الجديدة ولاحظت ان التيار كان شديداً مما دفع الزورق الى السير بأقصى سرعته . وكنت أعرف اننا سنصل إلى الجرافة بعد دقائق معدودات .

وفجأة ، وبدون تخفيف السرعة ، انقلب الزورق بعنف . فقد ربط قائد الجرافة أسلاكاً عبر النهر على ارتفاع خمسة أقدام فوقه . ولم يشاهد سائق الزورق الهندي الأسلاك إلا عندما وصل إليها ، فاصطدم بها وانقلبت مائدة الطعام في غرفتي وتحطمت بشكل مخيف . فقفزت من مكاني ولمحت الجرافة من النافذة . وفي تلك اللحظة انقلب زورقي الصغير واخذ يتدحرج في النهر عبر الاسلاك . ووصلت الى النافذة بصعوبة ومنها خرجت الى النهر وتعلقت بالاسلاك وبعد لحظة اختفى الزورق وبقيت معلقاً بالاسلاك نصفي في الماء والنصف الآخر في الهواء . ونظراً لشدة التيار كانت رجلاي تتأرجحان مع التيار في زاوية مقدارها ٤٥ درجة . وكان تمسكي بالاسلاك يؤلمني ، فقد أحسست أن يديّ تجمدتا وان جسمي أصبح ثقيلاً كالرصاص .

وبعد فترة قصيرة خلتها ساعات أنقذني بحارة الجرافة وانا على وشك الهلاك .

فقد بلغ مني الاعيــاء مبلغاً عظيماً بحيث انني كدت أسقط في النهر في اللحظة التي وصل البحارة لإنقاذي .

وبعد ان اعطيت جرعة من البراندي استعدت وعيي فسألت أول ما سألت عن زورقي فأبلغت انه غرق بسائقه وبحارتـه الاربعة وخادمي . فقد تدحرج الزورق وغرق كالحجر دون أن يعطي البحارة المساكين فرصة للنجاة . ولم ينج من الغرق إلا قبعتي وعليها شريط أبيض وشارتي السياسية .

وقلق قائد الجرافـة وأبدى انزعاجه من الحادث ، وتدبر امر عودتي الى سوق الشيوخ في زورقه الخاص . وكان عذره انه ربط الاسلاك عبر القناة لأنـه أراد ان يدير سفينته . وهو عمل لا يغتفر نظراً لكثرة الزوارق التي تسير في المنطقة .

وعلم ميرزا عنايه بالحادث فأرسل بعد يومين ابنـه ليستفسر عن صحتي . وأرسل لي معه كتاباً قصيراً يشكر فيه الله لأنني كنت أحمـل حرزه في تلك اللحظة . ولكن كيف عرف انني كنت أحمـل الحرز .. لست أدري ، لأنني لم أخبر أحداً بذلك .

ومنذ ذلك الوقت لم أعد اهزأ بأي حرز او تعويذة يعطيها أي سيد .

في ربيع سنة ١٩٥٤ جاء ابن ميرزا عناية المذكور الى الكويت ليقابلني وطلب مني أن أحصل له من الحاكم على تبرع لإعادة بناء مسجد والده الذي لحقت به أضرار من جراء الفيضانات في تلك السنة . وقد تمكنت من الحصول له على مبلغ متواضع. وأخبرني حينذاك ان والده توفي قبل خمس عشرة سنة .

الفصل التاسع

الناصرية

١٩١٨ - ١٩١٩

عبدالله بك الفالح باشا السعدون يقدم خضوعه

انتقلت من سوق الشيوخ الى الناصرية في شتاء سنة ١٩١٨ بعد وقت قصير من توقيع الهدنة . وقد اصبحت ضابطاً سياسياً على كل لواء المنتفق ومسؤولاً عن اتحاد القبائل الذي يحمل نفس الاسم . وخلفني في سوق الشيوخ الكابتن ديتشبورن .

والقصة التي سأرويها الآن بدأت عندما كنت لا ازال في سوق الشيوخ . فقد مضت أربع سنوات، تقريباً من الحرب العالمية الأولى ولم يقبل عبدالله بك الفالح باشا السعدون ولا عجيمي بك السعدون وهما من زعماء شيوخ المنتفق ان يعلنا خضوعهما للبريطانيين . وكان عبدالله بك رئيساً على أهل الجزيرة بينما كان عجيمي بك رئيساً على أهل الشامية .

وكانا كلاهما يقفان الى جانب الاتراك . ولما تحولت وجهة الحرب واتضحت معالمها لغير صالح الاتراك أخذ عبدالله بك وعجيمي بك يفكران في تقرير ما

اذا كانا يستسلمان للبريطانيين أو يتراجعان الى الفرات مع فلول الجيش التركي ويتركان له تدبير امريهما بعد ان تضع الحرب أوزارها. وكان الرجلان يملكان مساحات شاسعة من الارض على الفرات وفي منطقة البصرة مما يعني ان تخليهما عن الصراع واستسلامهما للبريطانيين يرجح كفة الميزان . وقرر عجيمي بك ان يبقى الى جانب الاتراك وظل على موقفه الى نهاية الحرب . وبعد ان عقدت هدنة مادروس في ٣٠ تشرين الأول سنة ١٩١٨ ، كافأه الاتراك بتعويض كبير ووهبوه اراضي في ماردين بتركيا .

اما عبدالله بك فكان متردداً بطبيعته وحاول التوصل الى اتفاق مع السير بيرسي كوكس . وجرت بينهما مراسلات سرية طلب فيها عبدالله اعطاءه ضمانات وغيرها . ولم يجلب له ذلك سوى الضرر لأن السير بيرسي فقد صبره ورفض استئناف الحوار معه . وأخيراً أبلغه السير بيرسي بصورة نهائية قطعية ان يستسلم دون قيد أو شرط او ان يذهب مع الاتراك الى غير رجعة .

ولم يناسب ذلك ما يصبو اليه عبدالله بك . فاختفى فترة يفكر في خطوته المقبلة موقناً ان البداية كانت سيئة لأنه اغضب السير بيرسي وقائد الجيش دون ان يحصل على شيء .

هكذا كان الوضع في كانون الثاني سنة ١٩١٩ بعد انتقالي الى الناصرية بوقت قصير وبعد ان احتليت شطرا بحركة سريعة قمت بها على رأس اربعمائة جندي جمعتهم من السكان المحليين وسرت بهم عبر اراضي الازارج وخفاجه وعبوده . ولم اكن في ذلك الوقت على علم بالمفاوضات السرية التي جرت بين عبدالله بك والسير بيرسي خلال السنة السابقة . وكان كل ما اعرفه هو ان عبدالله بك وعجيمي بك اختارا ان ينضما الى صفوف الاتراك ، وهو أمر مؤسف ، لأنه كان باستطاعتهما تحويل ولاء قبائل المنتفق التي كنت مسؤولاً عنها والتي كانت على استعداد لاثارة المشاكل في اية لحظة . ولكنني كنت اعرف انه ليست لي في الأمر حيلة .

وذات يوم فاجأني ضاري بك الفهد السعدون برسالة يقول فيها انه يريد

مقابلتي لبحث قضية مهمة وانه يفضل ان تتم المقابلة ليلاً حتى لا يرانا أحد .

وكان ضاري بك نموذجاً للدبلوماسيين من مدرسة السعدون القديمة وكانت معرفته ببواطن الأمور خارقة . وكان يحلم باحياء عائلة السعدون تحت رعاية الانكليز وإقامة دولة لآل السعدون بحماية بريطانيا على الفرات الأسفل ، على غرار دولة الكويت والبحرين ، وان يكون هو رئيسها او صاحب النفوذ فيها . فوافقت على طلبه لأنني كنت دائماً اشتاق الى أحاديث ضاري بك المبطنة اللاذعة والى معرفة رأيه في آخر التطورات السياسية والعسكرية .

وبعد الأحاديث والمقدمات التقليدية أبلغني ضاري بك ان عبدالله بك الذي هو أمل عائلة السعدون مختبىء في ضواحي الناصرية ويريد ان يبحث معي في مقابلة سرية أمر استسلامه . وقد ألهبت هذه السانحة حماسة ضاري بك بحيث أخذ يشرح لي كيف أنها عطية من الله لانتزاع هـذا الزعيم من ايدي الأتراك ، وكيف انها ستكون هزيمة لهم ، ثم انـه إذا تم التسليم على يدي كيف سأنال حظوة وشهرة وشرفاً عند السير بيرسي كوكس .

وأعربت لضاري بك عن سروري واغتباطي وترحيبي باستقبال عبدالله بك وأخبرته انه إذا كان قلقاً على سلامته فأنا على استعداد ان أعطيه الأمان لكي يتمكن من التجول . وقلت له ايضاً ان نصف ساعة من الكلام تساوي كل كتابة الرسائل في العالم ، وانني إذا استطعت اقناع عبدالله بك بالانضمام الى البريطانيين فيكون ذلك خير على خير . وفي الحقيقة ان عبدالله بـك لم يقاتل البريطانيين واكتفى من موالاته للاتراك بالوقوف عند طرف السياج .

وسر ضاري بك كثيراً ووعدني أن يأتي بعبدالله بك في تمام الساعة العاشرة من الليلة التالية ولكنه ألح عليّ ان يكون الاجتماع سرياً للغاية لكي لا يعلم بـه أحد حتى خدامي وموظفي . وكان ذلك سهلاً لأن جميع خدامي ينامون خارج منزلي باستثناء طباخ هندي . ولكن الأمر يمكن تدبيره بحيث انني أستطيع إدخال الزائر الى المنزل بنفسي . وقـد اتخذت جميع الاحتياطات لأمنع أي شخص من الاقتراب من المنزل وبلغ بي ذلك الى حد إلغاء تقديم القهوة للضيوف .

وفي مساء اليوم التالي وصل ضاري بك ومعه رجـل طويل أخفى رأسه بدقة . فاستقبلتهما بنفسي واقتدتهما الى غرفة الاستقبال حيث قـدم لي ضاري بك صاحبه عبدالله بك الفالح باشا السعدون . وكان عبدالله بك نحيلاً بهي الطلعة ويبدو واضحاً على وجهه انه من أصل عريق ، وكل شبر منه يدل على انـه شيخ عظيم . وأخذت به على الفور فوجدت ان الطريقة التي يجب أن أتناوله بهـا هي اللعب على كبريائه وتفخيمـه . أليس كل آل السعدون كذلك ؟ ولم لا ؟ أليسوا يدعون بأنهم من سلالة الرسول ؟ فمنذ قـديم الزمان وهم لا يزوجون بناتهم إلا لأفراد قبيلتهم .

وارتحت عندما تبين لي أن عبدالله بك جـاد في عرض استسلامه . ولكنه كان يخشى ان يرسله السير بيرسي ، بسبب حنقه عليـه ، سجيناً الى الهند . وأبدى استعداده لدفع اي مبلغ كغرامـة للحكومة إذا كان في ذلك تسهيل للأمور . وبعد مناقشة وجيزة وافقت على التوسط مـع السير بيرسي كوكس بشرط ان يسمح لي عبدالله بك بإرسال برقيـة الى بغداد أعلن فيها استسلامه دون قيد او شرط ، وانه سلمني مبلغ عشرة آلاف روبيـة كهدية لمستشفى الناصرية الذي تديره الدائرة السياسية ، تدليـلاً على نواياه الحسنة . وعرضت ايضاً أن أختتم برقيتي بالقول ان عبدالله بك يأمل من كبـير الضباط السياسيين أن يسمح له بالرجوع الى ممتلكاته ، إذ وعد انه سيخلد هناك الى الراحـة والهدوء .

وأيد ضاري بك اقتراحي واستطاع ان يقنع عبدالله بك بالموافقة على ارسال البرقية . أما بالنسبة للعشرة آلاف روبية فقد وعد عبدالله بك أن يرسلها في الصباح مع ضاري بك في الوقت الذي أكون فيه قـد رتبت الأمور مع السير بيرسي . وهكذا كان . فقد تلقيت العشرة آلاف روبية في الموعد المحدد ووافق السير بيرسي على قبولهـا كهدية للمستشفى ووافق أيضاً على اقتراحي بعودة عبدالله بك كبير شيوخ المنتفق الى ممتلكاته في كنيبان التي تبعد عدة أميال عن البصرة على الضفـة اليسرى من شط العرب . فالسير بيرسي لم يكن ليرفض أي

اقتراح معقول ومنطقي .

انه من المدهش كم من الأشياء يستطيع أن يحققها سياسي صغير حذر !

رجل الاهوار الشرير

رجل آخر لم يعترف بسلطة الحكومة البريطانية وهو بـــدر الرميض شيخ قبيلة البو صالح المشهورة في الاهوار الى الشمال من بحيرة الحمار . وكان بدر أشبه بشخصية اسطورية ، ويبلغ من العمر أكثر من ثمانين عامــاً وعنده حوالي ٢٤ زوجة . واستطاع هذا الرجل ان يكتسب لنفسه نفوذاً كبيراً في مجــاهل الاهوار الممتدة من بحيرة الحمار الى شطرا والعماره . وتروى حكايات كثيرة عن شدة بأسه في الحروب وعن نزعته الاستقلالية وشخصيته المنيعة التي تحدى بهــا الأتراك سنوات طوالاً قبل سنة ١٩١٤ .

ويقول رجال الاهوار ان ذلك أمر طبيعي إذ ان أحداً لا يستطيع الوصول إليه في الاهوار .

ويقال انه في مناسبات عديدة ردد على مسامع بعض زائريه قوله : لم أعرف الأتراك في حياتي قط لا ولا الانكليز . فإذا أراد كوكس ان يراني فليأت لزيارتي في منزلي على قناة البدعه بين أوراق البردي . أما انا فلن أذهب إليه .

وعندمــا كنت في سوق الشيوخ قمت بعدة محاولات بواسطة الحجي حسن حمداني لأجتمع ببــدر الرميض ولكن كل تلك المحاولات باءت بالفشل . ومرة واحدة فقط كدت اوفق في مسعاي . وعرضت عليــه مراراً وتكراراً ان اعطيه الامان ليزورني ويقدم خضوعه . وكان جوابه في كل مرة انــه لا يثق بالانكليز الذين قـــد يخونون الوعد ويسجنونه . وأعتقد ان موقفه هذا ناتج عن خطة ذكية . فقوله لرجــال الاهوار المتوحشين ولقبائل المنتفق التي تقطن على حدود البو صالح ، انه لم ير رجلاً انكليزياً في حياتـــه ولم يقابل اي ممثل عن البريطانيين منذ قدومهم الى العراق ، وانه لا يرغب في ذلك ، يظهره أمــامهم بمظهر الشجاع الذي يتحـــدى سلطة الأجنبي وبذلك يكتسب شهرة ونفوذاً

ويعظم في أعين اتباعه .

والحقيقة انه أرسل ابنه الأكبر حسن لمقابلتي مرتين في الناصرية بعد أن نقلت إليها ولكنه لم يقترب أكثر من ذلك . وبلسان ينطلق بالكذب أخذ حسن يشرح لي ان لوالده أعداء كثيرين وانه رجل طاعن في السن أحنى ظهره الروماتيزم وإلا لكان ، دون شك ، قام بزيارة الحكومة منذ زمن بعيد . ولم أحاول دفع الأمور لإحراجه اعتقاداً مني بأنني أستطيع كسب الثعلب الكبير عن طريق التودد الى الثعلب الصغير .

وحدث مرة ان جاء حسن الى الناصرية لينقل إحدى رسائل والده المعتادة عن حسن نواياه . وفي الوقت نفسه وصلني تقرير من سوق الشيوخ يقول ان سفينة كانت في طريقها من البصرة الى شطرا محملة بالبضائع مرت في بدعه ، فأطلقت عليها النار من مكان قريب من قرية بدر ، فقتل نصف عدد بحارتها واستولى بدر على السفينة وعلى البضاعة . وأرسلت في طلب حسين على الفور فتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً عن الحادث وأقسم ان قبيلة البوشما هي التي قد تكون ارتكبت هذا الجرم وليس رجال قبيلة البو صالح .

وساورتني ظنون بأن حسن يعرف كل شيء عن الحادث وان والده أرسله إليّ من قبيل ذر الرماد في العيون ، ولكي تكون له حجة أن يقول عندما يكتشف الأمر : كيف أتجرأ على ارتكاب مثل هذه الجريمة البشعة وولدي حبيبي فلذة كبدي كان في الناصرية وقت الحادث يؤكد النوايا الحسنة لممثل الحكومة البريطانية ؟ كيف يمكنني أن أعرض سلامة ابني الأكبر للخطر بهذا الشكل ؟

الخداع والاحتيال كانا من الوسائل الشائعة في تلك الأيام فكان على المرء ان يمارسها . لذلك وضعت حسن في السجن . وبعد ان قضى أسبوعاً كاملاً في السجن جاءني ثامر بك السعدون يصحبه الحجي حسن حمداني من سوق الشيوخ وتوسلا إليّ ان أطلق سراح حسن على ان يعدني بشرفه ان لا يغادر الناصرية إلا بإذن مني . وأشارا الى ان حسن هو ابن شيخ كبير ، وتحقيره بوضعه في

السجن يشبه أساليب الأتراك ، التي لا يمكن ، لا سمح الله ، ان تلجأ إليها الحكومة المعظمة . واشترك معها في الاحتجاج ضاري بك الفهد السعدون فاقنعوني باطلاق سراح حسن .

وأرسلت في طلب حسن ، افهمته ان اصدقاءه توسطوا لدي بشأنه ، وانني سأطلق سراحه اذا اعطاني كلام شرف انه لا يغادر المدينة بدون اذن مني ، على ان يقيم في منزل ضاري بك . فوافق حسن دون تردد واسرع ضاري الى كفالته بمبلغ ٥٠٠ روبية .

وهرب حسن بعد يومين

وأخذت أتساءل في نفسي الى أي مدى يقف بدر وراء زيارة اصدقائي الثلاثة ، وما اذا كان ضاري قد دبر الأمر بأن أخذ المبلغ من حسن قبل ان يفلت من يده لأن ضاري جاء ودفع المبلغ فوراً وهو يشتم « ذلك الكلب القذر » الذي كذب عليه . ولن أسيء الظن بضاري لأنه انتقل الى رحمة الله وكان رجلاً طيباً وصديقاً مخلصاً للانكليز .

ولم يكن هنالك حل مرض مع بدر الرميض بشأن الاستيلاء على السفينة إلا قصف مفاجيء لقريته وبرجه الحربي . فكان لا بد لي من طلب مساعدة الجيش لأن بدر وقبيلته بلغوا حداً كبيراً من العناد وإيواء كل مجرم فار من وجه العدالة .

وساعد السير ارنولد ويلسون في بغداد على ترتيب الأمر مع قائد الجيش . وفي ٢٦ شباط سنة ١٩١٩ هاجمت فرقة من الناصرية قرية بدر واحتلتها وأحرقت مزروعاته . ولكن العجوز الشرير أفلت من بين اصابعنا بالرغم من سد كل الطرقات في وجهه من جهة شطرا ومن جهة العمارة وقد قام بهذه العمليات جنود من الجيش والشبانه بقيادة الكابتن برترام توماس مساعد الضابط السياسي في شطرا والميجر روبرت مارش الضابط السياسي في العمارة .

وتمكن بدر من الفرار الى داخل الاهوار حيث قيل انه أخذ يستعد لإثارة

المتاعب بشن هجمات باتجاه الغراف حيث الأرض مكشوفة . وكانت لديه ، بالاضافة الى رجال الاهوار ، قوة متحركة قوامها اربعمائة خيال ، يستطيع معها وبنفوذه الذي لا شك فيه ان يثير كثيراً من المتاعب .

وبعد احتلال منزله وقريته وارضه تقرر بناء حصن هناك تقيم فيه كتيبة من المتطوعين . وزيادة في الحذر تقرر الاحتفاظ بقوة عسكرية في المكان ريثما يتم البناء الذي انجز بسرعة باشراف الكابتن ديتشبورن مساعد الضابط السياسي في سوق الشيوخ . وبقيت مخيماً بجوار قرية بدر مع قائد الجيش الذي استخدم مجلس بدر ذا الاعمدة السبعة كمكتب وكغرفة للاجتماع .

وبعد عشرة أيام من احتلال قريته بعث بدر برسالة شفهية يقول فيها انه على استعداد لأن يستسلم لقائد الجيش ولكنه ، تمهيداً لذلك ، يرغب في مقابلة الضابط السياسي المرافق للجيش – أنا – لكي يستطلع منه رغبات الحكومة ويقف على شروط الاستسلام .

وبعثت له بجواب شفهي أبديت فيه استعدادي لمقابلته في أي وقت يشاء وفي أي مكان يختار ، وأبلغته انه إذا كان بإمكانه الحضور لبحث الأمور فإن قائد الجيش يضمن مجيئه وعودته سالماً بعد المقابلة . وبعث له الحجي حسن حمداني أيضاً رسالة مقنعة .

وبعد يومين أرسل بدر رسالة باللغة العربية يقول فيها انه يريد مني ان أقيم خيمة في وسط سهل واسع مكشوف يبعد ثلاثة أميال عن قريته بالقرب من شجرة تقف وحدها في ذلك السهل . وقال ان الاجتماع سيتم هناك بشرط أن أصطحب معي رجلين فقط وان نكون نحن الثلاثة غير مسلحين . اما من جهته فقال انه سيحضر مع ولديه وبدون سلاح أيضاً . فإذا وافقت على اقتراحه فإن أنسب وقت للاجتماع هو ظهر اليوم التالي .

ووافقت انا وقائد الجيش على الاقتراح وأمرنا بإقامة الخيمة في المكان المحدد. وفي صباح اليوم التالي بينما كنت أحضر نفسي وأتأهب للخروج الى الاجتماع زارني في خيمتي حزام بك المشاري السعدون قائد خيالة المنتفق ، وفهد بك

السليمان السعدون وأخذا يقنعاني بأن لا أخرج الى الاجتماع بدون قوة ترافقني وقالا إنهما يعرفان غدر بدر وفظاظته أكثر مني. وعندما اصطدما بمنادي لأنني كنت قد أعطيت كلمتي ، ألحّا عليّ ان أصحبهما معي او على الأقل ان تختبىء قوة بجوار مكان الاجتماع لئلا يقدم بدر على اختطافي . وقالا بالحرف الواحد : ان بدر لا يتورع عن ارتكاب أفظع الجرائم ويعرف كل حيلة .. لا تذهب وحدك .. نرجوك .

وأخبرت هذين الصديقين انه لم يعد بالامكان تغيير الخطة . وتوجهت بعد ذلك الى مكان الاجتماع برفقة الكابتن ديتشبورن وحسن حمداني . وكنا نحن الثلاثة غير مسلحين . واعترف أنه بعد تحذيرات حزام بك وفهد بك ، وكلاهما متزن يدرك الأمور ، تسرب القلق والخوف إلى نفسي .

ووصلنا الى الخيمة قبل الوقت المحدد بربع ساعة . ولم يكن هناك ، وعلى مد النظر ، أثر لأي مخلوق . ولم نشاهد إلا السراب الذي خدع رؤيتنا فتوهمنا أن هناك بركة واسعة من الماء فيها أشجار باسقة من الشمال الشرقي ، وهي الجهة التي كنا نتوقع قدوم بدر الرميض منها . وكنا نعرف طبعاً انه لا وجود للماء وان الأشجار الباسقة ليست إلا شجيرات لا يزيد ارتفاع الواحدة منها على قدمين .

وكانت الشمس محرقة فدخلنا الى الخيمة بعد أن ربطنا الخيول بحبالها . وقد أحضرت معي بساطاً فكان لنا ما نجلس عليه . ومر الظهر وأصبحت الساعة الواحدة ولم يظهر بدر .

وبدأ الشك يتسرب الى نفسي وظننت اننا سنذهب ضحية خدعة . ولاحظت ان الحجي حسن حمداني بدا قلقاً مضطرباً ولكنه كان يستجير بالصبر ويعلل نفسه بأن بدر لا يعرف شيئاً عن الوقت وضبط المواعيد . وأخيراً عندما بلغت الساعة الثالثة بعد الظهر رأيت حركة غريبة وسط سراب بعيد . وبدت تلك الحركة وكأنها تلة مخروطية الشكل تسير نحونا بالمقلوب . وأخذت أراقب هذا المشهد بمنظاري فقررت انه عمود من الغبار يسير بسرعة مذهلة ويتجه نحونا. وأخيراً عرفنا الحقيقة . فقد خرج من وسط السراب حوالي ٢٠٠ خيّال

أطلقوا العنان لخيولهم باتجاهنا . وأخذنا نراقبهم وهم يقتربون منـا حتى وصلوا وكانوا جميعهم مسلحين . وكان على رأسهم رجل بديع القوام ذو لحيـة حمراء طويلة . وتوقف هؤلاء الرجال على بعد ٢٠ ياردة منا. وبخفة ترجل قائدهم واتجه نحونا وهو يبتسم .

هذا إذن هو بدر الرميض العجوز المنحني الظهر الذي يبلـغ من العمر ٨٠ عاماً !

لقد صعقت عندمـا وجدته رجلاً أنيقاً يبلغ طوله حوالي ستة أقدام وعلى رأسه عقـال محلى بالذهب وعلى جنبـه سيف طويل مذهب الغمد . وفي يده اليسرى كان يحمل بندقية « موزر » وعلى صدره تتقاطع أحزمـة الذخيرة . وكانت مشيته تدل على حيويته وعلى انه شاب حذر في مقتبل العمر . ولم يكن شيء يدل على كبر سنه سوى تلك اللحية الطويلة التي تمتـد الى خصره . ولم أعرف عربياً في حياتي له مثل تلك اللحية . وكان لونها أحمر برتقالي مما يدل على انها صبغت بالحنة . وكان بدر الوحيد الذي يرتدي عباءة بين رجاله الذين اكتفوا بلبس الدشاديش التي تزينها أحزمة الذخيرة مما يدل انهم متهيئون للحرب أكثر منه للسلم .

وبخطى ثابتة ، تقدم بـدر نحونا وبصحبته ابنه الأكبر حسن وابنه الأصغر حميدي الذي يبلغ من العمر ثمان سنوات . وعندما وصل اليّ أخذني بين ذراعيه وقبلني على الوجنتين وقال بصوت عال وهو يضحك : السلام عليكم . وبعد ذلك صافح الكابتن ديتشبورن والحجي حسن ، بينما ظل رجاله يراقبون ما يجري من مسافة قليلة .

ويمكن لأي واحد ان يتصور مشاعري في تلك اللحظة فقـد كنت متوتراً لأنني بقيت انتظر كل هذه المدة ، وكنت في نفس الوقت خائفاً من أن اكون قد وقعت فريسة لخدعة وضعتني تحت رحمة الرجل . ولكن فوق كل ذلك كنت غاضباً لأن الثعلب المحتال نكث بوعده .

وسألته حانقاً عن السبب الذي دفعه الى المجيء مسلحاً مع هذا العدد الضخم

من الرجال بينما كان الشرط ان يأتي مثلي وحيداً أعزل . واخذت أكيــل له الاتهامات. ولا أدري لماذا فعلت ذلك ولكن ربما شعرت بدون وعي انالهجوم هو الفرصة الأخيرة .

وكان بدر يسمع مــا أقول بصبر وطول أناة وضحك ضحكة عريضة وفعل شيئاً عجيباً لم أعهده بأي عربي من قبل .

وسألني : هل انتهيت ؟

وأخذني من يدي وقادني الى الخيمة فأجلسني وجلس قبالتي. وفجأة أمسكني من رقبتي بكلتا يديه وطبع قبلة على فمي وقال : والله انت رجل.. والله أحبك.

وبعد ذلك أمر احد رجاله ان يبتعد ببقية الرجال الى مسافــة ٢٠٠ ياردة وقال له : دكسان لا يحب ان يرى رجالاً مسلحين ويقول انه كان ينبغي ان احضر بمفردي معه .

أما وقد انكسر الجليد ، فقد بــدأ الحجي حسن حمداني الحديث . فأخذ ، بلباقته المعهودة ، يهدىء من روعي ويطيب خاطري . وقـــد حذا بدر حذوه فأضفى على الجلسة طابعاً من المرح والانشراح . ولم يمض وقت طويل حتى كنا كلنا نقهقه ونحكي الحكايات، ولكن ليس قبل ان يضمني بدر مرة أخرى ويقبلني على شفتي ووجنتي ويقسم ألف إيمان انه يحبني . كان اجتماعاً غريباً حقاً .

وشعرت أنني أقوى موقعاً عندما بدأ الحديث الجدي . فشرحت لبدر انــه هو كان السبب في المتاعب التي وقعت بينه وبين الحكومة . وذكرته بالجهود التي بذلتها طيلة السنوات الاربع السابقة محاولاً اقناعه بأن يقدم خضوعه، وبالرسائل الودية الكثيرة التي أرسلتها اليه عارضاً عليه الأمــان بشرفي وبوجهي . وأبلغته أن الحكومة لا تريد منه شيئاً سوى القيام بخضوع شكلي ، وأنه اذا كان يود أن يذهب معي ذلك المساء ليسلّم على قائــد الجيش ويقدم خضوعه له ، فإنني أضمن عودته سالماً الى رجاله ومرافقيه .

لقد نال الرجل جزاءه فأحرق منزله ودمرت محاصيله . وكنت أعرف انــه عندما تعود العلاقات طيبة ، فان الحكومة ستكون سعيدة بالتخلص منــه ،

الأمر الذي يحقق وعودي .

وفي الواقع كنت على استعداد لأن أفعل أي شيء من شأنه ان يحمل الحكومة على العفو عن بدر ونسيان الماضي ، لأنني كنت اعتقد انني أعرف الاسباب التي جعلته يتصرف بتلك الطريقة تجاه الانكليز .

وعندما لاحظت أن بدر تردد برهة عرضت عليه ان أبقى مع رجاله كرهينة ، ويذهب هو مع الكابتن ديتشبورن والحجي حسن الى قائد الجيش في المخيم . ولكنه رفض ذلك ووعد انه اذا قابلته في المكان ذاته في صباح اليوم التالي فسيذهب معي الى قائد الجيش ويعلن استسلامه له دون قيد او شرط . وحرصاً مني على الفوز بتقدير السيد ارنولد ويلسون ، وافقت على الاقتراح . وافترقنا عند هذا الحد بعد أن تعانقنا فذهب بدر ورجاله في طريقهم وعدت أنا مع ديتشبورن والحجي حسن الى المخيم .

وبعد أن ابلغت القائد بكل ما حدث عدت الى خيمتي وأنا واثق بأن كل شيء سينتهي في الصباح التالي . ولكنني في ساعة متأخرة من الليل تلقيت رسالة ودية قصيرة من بدر يقول فيها انه مسرور جداً لأنه قابلني ، وأكد انه سيظل يحبني الى الأبد . وطلب في الرسالة أن أرسل له كتاب الامان فوراً لكي يحضر بموجبه الى الناصرية ويعلن خضوعه هناك . وأرسلت له الوثيقة التي طلبها باكراً في الصباح يوم ١٢ آذار سنة ١٩١٩ .

ولم أر وجه بدر الرميض منذ ذلك الوقت . وعلمت في وقت لاحق انه عندما تسلم رسالتي ركب حصانه وانطلق الى أرض بني سعيد . أما ماذا أفزعه في الامر فسيبقى لغزاً من الالغاز . وربما كان ذلك لأنه أحس بتحركات توماس من شطرا ومناورات مارس ليقطع عليه الطريق من العمارة .

كان بدر الرميض ، بين جميع العرب الذين قابلتهم ، أغربهم واكثرهم لفتاً للنظر . واعتقد ان الكابتن ديتشبورن وأنا الانكليزيان الوحيدان اللذان قابلهما بدر في حياته . ولا أظن انه قابل أحداً من ابناء بلادي بعد ذلك . وبعد أربع وعشرين عاماً زارني ابنه الأصغر حميدي في الكويت واخبرني ان والده توفي منذ

زمن بعيد ، وطلب مني أن أساعده في جمع مبلغ من المال ليقدمه مهراً لفتاة يريد ان يتزوجها . وساعدته إكراماً للأيام الماضية .

بنيّـــه

وفي يوم شديد الحرارة من أيام صيف سنة ١٩١٩ عدت إلى بيت الحكومة من مهمة قمت بها باكراً خارج المنزل . وبعد أن تناولت طعام الافطار في الطابق العلوي نزلت مكتبي في الطـــابق السفلي الكائن في الجهة الباردة من الباحة الرئيسية . وبسبب حرارة الشمس ووهجها كنت احتفظ بغرفة المكتب مظلمة بواسطة حاجز من الخيزران على الباب . أمـــا النافذتان فكانتا مسدودتين بشجيرات العقول الخضراء ينساب فوقها الماء بصورة متقطعة لكي يحفظ جـــو الغرفة بارداً . ولم يكن قد حضر أحد من الكتاب ساعة وصلت .

ولأنني دخلت من مكان يشتد فيه نور الشمس الى مكان مظلم، لم أعد أرى شيئاً على الاطلاق وجلت وراء مكتبي انتظر فترة يعتاد فيهـا بصري على ضوء الغرفة الخافت . وبعد مضي ثلاث دقـائق أحسست بيدين تمسكاني من ركبتي فقفزت مذهولاً . وتطلعت تحت المنضدة فتبينت شكل امرأة تحـاول تغطية وجهها ورأسها بعباءتها . فأخرجتها من مكانها ورأيت أنها فتاة في مقتبل العمر ترتعد من الخوف حتى خانها النطق . وظلت تزحف ملتصقة بمقعدي وانا أحاول ان أطمئنها بكل العبارات الودية التي أعرفها . وطلبت منهـا أن لا تخاف شيئاً وان تخبرني ماذا جـاءت تفعل في مكتبي . وأخبرتني بصوت متقطع مرتجف وهي تبكي ان اسمها بنيّه وانهـا من قبيلة الغزي التي يرئسها الشيخ منشد الحبيب وهو رجل أعرفه جيـداً وكانت له سمعة عطرة بين شيوخ المنتفق . وقالت لي انها لجأت الى مكتبي لأنها تخاف ان يقتلوها .

وتمكنت في هذه الاثناء ان أميز وجهها فوجدتها فتاة جميلة تبلغ من العمر حوالي ستة عشر ربيعاً . ولاحظت أيضاً ان بشرتها ناصعة البيـاض تكسوها آثار خفيفة من الجدري . وعندمـا تطلعت إليّ بوجـه عليه علامات الرعب

وبعينين واسعتين تنساب منهما الدموع ، تحركت مشاعري وعواطفي بصورة غريبة لأنني كنت أعلم انه لا بد من أن يكون الأمر بالغ الخطورة حتى رمت نفسها عليّ بهذه الصورة طالبة الحماية .

وأخذت أقنعها شيئاً فشيئاً ان تقص عليّ قصتها . فعلمت ان أهلها يعيشون في بتا وهي قرية على الفرات تبعد عشرين ميلاً عن الناصرية . وظلت بنيّه تعيش سعيدة مع والديها في خيمتهم السوداء الى أن أبلغت أنها ستتزوج ابن عمها ، وان الزفاف سيتم عندما يهل القمر . ونزل عليها هذا النبأ نزول الصاعقة لأنها كانت تحب شاباً آخر من القبيلة وكان يبادلها الحب . وبنفس كئيبة أخبرت فتاها ان والدها سيزوجها الى ابن عمها عندما يهل القمر ولذلك جاءت تطلب نصيحته ومساعدته . وأخبرته أنها تفضل الموت على أن تتزوج أحداً سواه . وتلقى الفتى هذه الأخبار بهدوء ولكنه غضب في قرارة نفسه ووضع الشر نصب عينيه . وأبلغ بنيه انه يجب ان يفكر بخطة ما على ان يفضي إليها بتفاصيلها بعد ثلاثة أيام . واتفقا على ان يلتقيا على ضفة النهر حيث اعتادت بنيه ان تحضر الماء وقت الظهر .. وهناك سيخبرها كل شيء .

وأمضت بنيّه ثلاثة أيام طويلة في حيرة ويأس . ما هي فرص النجاح أمام حبيبها؟ وأي أمل لها أن تنجو من الزواج الذي هيأه والدها ؟ وفضلاً عن ذلك، ان لابن عمها ، بموجب العادات العربية ، الحق في أن يتزوجها ولا تستطيع ان تتزوج شخصاً آخر إلا إذا سمح هو بذلك . وكانت تعلم أنها إذا تزوجت شخصاً آخر بالرغم من إرادة الجميع ، يهدر دمها ويحق لابن عمها قتلها مسحاً للعار . فرصتها الوحيدة – ونجاحها ضئيل – هي أن تهرب مع حبيبها الى مكان بعيد عن أهلها وعشيرتها وتقطع كل أمل في رؤيتهم ثانية . وإذا هربا فإنهما سيطاردان والويل لهما إذا وقعا في أيدي المطاردين. فقوانين العشائر لا ترحم في مثل هذه الحالات .

وبعد ثلاثة أيام حضرت في الموعد المحدد على شاطىء النهر . وكانت هنالك عدة نساء ينقلن الماء ولكن حبيبها تمكن أن يكلمها وهي عائدة . كانت لديه

خطة واحدة وهي أن يهربا تلك الليلة بالذات . وقال انه سيأتي إلى وراء خيمتها بعد منتصف الليل ومعه فرس سريعة . وعندما يطلق ثلاثـة أصوات تشبه أصوات ابن آوى ، تتسلل هي من الخيمة وتنضم إليه على ظهر الفرس ، وينطلقان بها الى سوق الشيوخ ويلجآن الى قبائل الجره حيث يتزوجان . وإذا لم يجـدا أماناً هناك ينتقلان الى البصره .

إنها نفس القصة القديمة قدم الانسان . فكانت بنيه تواجـه اختياراً قاسياً بين الهرب والمطاردة وربما الموت ، وبين التخلي عن حبيبها والقبول بمـا أعده الوالدان . وبسرعة الرأي المعهودة في الفتيات العربيات ، قررت بنيه أن تهرب تلك الليلة حسب الخطة . إنهـا مغامرة عقوبتها الموت ونتيجة نجاحها السعادة . كانت تعرف كل شيء ولكن ماذا ؟ إنها كغيرها من بنات القبائل ولدت لتغامر وخاصة إذا كانت سعادتها في الميزان .

وافترقا ليعدا للهروب : هي لتجمع حوائجهـا وهو ليعد فرسه وسلاحه . وجمعت بنيه ما تحتاج إليه من أمتعة دون ان تلفت النظر ، أما الفتى فقد نظف مسدسه وخنجره لأنه لم يكن يريـد أن يمرقل نفسه ببندقية ، ولم ينس أن يطعم فرسه وجبة إضافية ويحملها كيساً من الحبوب ليطعمها إياه في الطريق .

وجاء منتصف الليل فتسللت بنيه من مؤخرة الخيمة عندما سمعت أصوات ابن آوى . وهرب الحبيبان بصمت دون أن يراهمـا أحد واتجها نحو حزام أشجار النخيل قبالة الناصرية .

ولكن نباح كلب أيقظ أهلها النائمين . ولم يطلع الفجر إلا وكان فريق من الخيالة يطارد الحبيبين الفارين واصبح على قاب قوسين او ادنى منهما .

وكانت أمامها مسافة ثلاثة أميال يجب أن يقطعاها بسرعة فائقة ، لأن أملها الوحيد بالنجاة هو الوصول الى بساتين النخيل قبـل مطارديها . وهناك يتركان الفرس ويكمنـان بعض الوقت في الاختفـاء بين الأقنية المتشعبة حتى يتمكنا من الوصول الى ضفة النهر قبـالة الناصريه ، فيعبران النهر بعد حلول الظلام ويلجآن إلى المدينة .

ونجحت الخطة وسار كل شيء على ما يرام الى أن بلغا ضفة النهر . ولاحت لهما فرصة النجاة مع أنهما كانا يسمعان أصوات الباحثين عنها ، فأيقنا ان البحث لا يزال جارياً بكل قوة وإصرار ، فقد اكتشفت آثار أقدامهما في الأقنية ، وأصبحت المسألة مسألة وقت فقط . وكانت فرصتها الوحيدة أن يتجنبا الوقوع في أيدي مطارديهما قبل حلول الظلام ، ولذلك اتجها على شاطىء النهر الى أن وصلا الى مكان كثيف الأشجار قبالة الحي الصابئي من المدينة ، واختبأا هناك .

وغابت الشمس وبدأ الليل يرخي سدوله وشعرت بنيه بسعادة غريبة . ولكن سرعان ما خاب أملها دفعة واحدة . فقد فكر الشاب أن بنيه تعيقه ، وانه معها قد لا يستطيع الفرار والنجاة . فأخبرها فجأة أنه سيتركها ويهرب بمفرده قائلاً انه لا فائدة أن يقتلا كلاهما في الوقت الذي يستطيع فيه الهرب إلى سوق الشيوخ ومن هناك الى البصرة عن طريق بحيرة الحمار . ولم يعط بنيه فرصة لتناقشه او لتتوسل إليه ، بل أدار ظهره واختفى في الظلام تاركاً المسكينة لحظها التعس . أليست الحياة لذيذة ؟ فلماذا يفقدها من أجل امرأة ؟

وانهارت بنيه عندما ابلغتني هذا القسط من حكايتها وغصت بدموعها وهي تتنهد وكأن قلبها قد تمزق . وبعد ان هدأ روعها أخذت تصف لي كيف قضت الليل بطوله بين الاشجار ، وكيف انها تمكنت عند الفجر من العبور الى الحي الصابئي من المدينة حيث استدلت على بيت الحكومة ، لأنه قيل لها ان الانكليز قوم في غاية اللطف ، وأن دكسان يستطيع ان يحميها . وعندما وصلت الى منزلي سألت عن الحاكم السياسي فأدخلها الحاجب الى الدار . ولما رآها الحاجب كئيبة عطف عليها وطلب منها أن تجلس وراء الحاجز المخصص للنساء اللواتي يأتين لتقديم الشكاوى ، وتنتظر حتى يأتي الصاحب . وظلت خائفة ان يتبعها المطاردون الى بيت الحكومة ويختطفوها من هناك . فلما أدار الحاجب ظهره انسلت من مكانها ودخلت الى مكتبي حيث اختبأت تحت المنضدة .

وعندما طلبت من الحاجب أن يحضر دهش عندما رأى الفتاة في مكتبي ، لانه لما بحث عنها فلم يجدها حيث أوصاها ان تنتظر ، ظن انها ذهبت لتعود فيما

بعد . واخبرته انها فتاة من القبائل لجأت الى غرفتي خوفاً على حياتها ، وان عليه أن يسكنها مع عائلة السايس إلى أن أبتّ في قضيتها.

ولم أكد انهي كلامي ، ونبيه لا تزال أمامي ، حتى دخل حاجب آخر يعلن وصول الشيخ منشد الحبيب في مهمة عاجلة .

وارتعدت الفتاة من الخوف عندما سمعت ذلك . ولكنني أدخلتها بسرعة غرفة داخلية كنت احتفظ فيها بأوراقي السرية واغلقت الباب ، وأمرت بالسماح للشيخ منشد بالدخول .

وكنت أحب منشد اكثر من غيره من الشيوخ لأنه ذو اخلاق عالية ، ويتناول القضايا المعقدة بكثير من الكياسة والحنكة والتعقل . وبعد التحيات المعتادة وشرب القهوة دخل منشد في الموضوع ، وأخذ يقص علي كيف ان فتاة من قبيلته هربت من منزل ذويها في الليلة السابقة بعد ان خدعها شاب طائش، وان رجال القبيلة طاردوهما فأمسكوا بالشاب بين أشجار النخيل اما الفتاة فقد عبرت النهر وهربت الى المدينة ، ويعتقد انها لجأت الى منزلي. وطلب مني بلطف ان اسلمه الفتاة اذا كانت لا تزال عندي بصفته شيخ قبيلة الغزي . وقال إنه سيحتفظ بها بين نسائه الى ان يستطيع تسليمها بأمان الى والديها . وأكد لي أنه لن يدع ان يلحق بالفتاة اي أذى نظراً لأنها غرر بها ولا تتحمل تبعة هربها . وكان يتكلم بدون أي انفعال وبلهجة تدعو الى الارتياح والاقناع ، ومع ذلك ظلت تساورني الشكوك .

وجواباً على كلامه ، اعترفت له ان نبيه جاءت الي في الصباح ، وطلبت منه ان يقسم بشرفه ان الفتاة لن تعاقب اذا ما سلمتها اليه . وتلكأ منشد وتردد ، عندئذ اقترحت ان نسأل الفتاة ما اذا كانت ترضى ان تضع نفسها في عهدته ، فوافق في الحال . ودخلت الى الغرفة حيث توجد نبيه واغلقت الباب ورائي . وأمسكت الفتاة المسكينة بيدي وشدت عليها . وهمست في أذني وهي تبكي ، انه اذا سلمتها له فمعنى ذلك موت محتم .

وأخذت تتوسل الي قائلة : لا تصدق منشد .. ولا يغرنك لسانه الطلق .

انه يريد ان يأخذني من بين يديك ومن حماية الحكومة وبعدئذ يسلمني الى ابن عمي لينتقم مني .

وكنت أعرف معنى ذلك كله ، فاقتدت الفتاة الى مكتبي وقلت لها :

— يا بنيتي ، ان شيخك منشد قد جاء ليعيدك الى القبيلة . وقد وعدني انه سيحتفظ بك بين نسائه الى ان يحل القضية مع والدك واخوتك. وأخبرني انه يغار على مصلحتك ، فاقترحت عليه أن يسألك بنفسه لأن الكلمة الاخيرة هي لك وحدك ولن يجبرك أحد ان تفعلي شيئاً ضد إرادتك .

ولاذت الفتاة المذعورة بالصمت ولكنها قعدت على الأرض بيني وبين منشد الذي أخذ يخاطبها بلهجة رقيقة تنم عن كثير من الاحترام . وسألها ما إذا كانت تود أن ترافقه الى منزله ، وان لا تخشى شيئاً لأن سلامتها مضمونة عنده . وقال لها انها ستعيش سعيدة مع عائلته .. اما في الناصرية ماذا سيحل بها ؟ فالحكومة لن تحميها الى الأبد وحتى دكسان لا يستطيع إيواءها الى أبد الدهر .

ومضت عدة دقائق قبل أن ترد عليه بنيه وأخيراً قالت له : لا أقدر .. لا أجرؤ أن أعود معك يا منشد .

وهناك أجهشت بالبكاء وهي تقول : أنت تعرف قوانين العشائر .. انها لا تغفر لفتاة خاطئة مثلي .. وأنت تعرف جيداً انك ستسلمني عندما يطلبني والدي واخوتي منك .. أخاف أن أموت .. فأنا ما زلت في مقتبل العمر .

وقلت لها عندئذ : يا بنيه ، لا تخافي أبداً . لن يسلمك أحد رغم إرادتك لأنك الآن في ذمة الحكومة ولكن هنالك سؤالاً أود ان أسألك إياه بحضور شيخك . هل حدث شيء مخجل بينك وبين الفتى قبل أو بعد هروبكما ؟ سألتك بالله ان تجيبي بصراحة وتخبريني الحقيقة .

ولم تكد بنيه تسمع هذا الكلام حتى انتفضت ورفعت رأسها ووجهها المبلل بالدموع وأجابت بصراحة قائلة : الست أنا من بنات قبيلة الغزي ؟ كيف أسمح بأن يحدث مثل هذا الشيء ؛ يشهد الله انني لم أرتكب خطأ .

وصدقتها .

وقلت لمنشد : أرأيت الحقيقة بعينك . لقد كنت أرغب أن تسمع من فمها أن شرفها وشرف بيتها لم يدنسا . ولكنها لا ترغب في العودة معك .

وهز منشد كتفيه واخذ يتمتم أشياء لم أفهمها عن « عقل الحرمه ». ووعدته اني سأرسل في طلبه إذا استطعت ان أقنع بنيه بتغيير رأيها ، وأنها في هذه الأثناء ستكون في عهدة نساء من المدينة . وودعني منشد متردداً وأعتقد انه لم يكن مرتاحاً . أما بنيه فلم تغير رأيها أبداً . وفي احاديثي معها كانت تردد على مسامعي كل مرة انني إذا اعدتها الى منشد فإنها ستذبح كالنعجة بهدوء .

وقالت لي أنها لن تغادر الناصرية أبداً من اليوم فصاعداً لأنها ستكون تحت المراقبة .

ولكي أجد حلا عادلاً لقضيتها ، أخذت أستشير بعض وجهاء الناصرية ، عما يحدث لفتاة في مثل وضع بنيّه ، ولكن دون أن أذكر بنيه بالذات . وأكد لي الجميع أنها تقتل . هذا ، بالاضافة إلى انني لم أستطع الحصول على جواب مقنع من منشد أو من رجال قبيلة الغزي عما حدث للشاب الذي فرت بنيه معه ، مما دفعني الى التمسك بعدم إعادة الفتاة الى شيخ قبيلتها .

وفي بحثي عن حل لقضيتها ، توجهت لاستشارة ضاري بك الفهد السعدون ، وأخبرته القصة كاملة . وأشار ضاري بك أن الأمل الوحيد للفتاة هي أن تزوج من مواطن محترم من أهل المدينة . ورأيه أنها إذا تزوجت واستقرت في المدينة ، فإن أهلها سيكفون عن ملاحقتها وقد يغفرون لها خاصة إذا استرضاهم زوجها بمبلغ من المال كتعويض لابن عمها الذي يعتبر ان شرفه قد طمن .

ووافقت بنيه على هـذا الرأي ، وعملت انا بموجب نصيحة ضاري بك . وبعد عدة أيام وجدت رجلا محترماً يدير مقهى على مسافة من منزلي ، وافق ان يتزوج بنيه . وتم عقد القران بهدوء وكان زواجاً سعيداً . واحتفاء بهذا الحدث السعيد تبرعت للعريس بمبلغ ٦٠٠ روبيه على ان تدفع الى ابن عم العروس .

ما أتعب هؤلاء القوم !

فتاة صويبج الكردية

وهنا قصة مشابهة ولكن نهايتها مؤسفة .

الصويبج قرية صغيرة تقع بين النـــاصرية وشطرا على بعد ٢٠ ميلاً تقريباً . ولأنها تقع في منتصف الطريق فقد كانت مكاناً ملائماً ليقضي فيه المرء ليلته إذا كان يقوم برحلة طويلة على ظهر الخيل . وقبـل أن يصبح بإمكان السيارات ان تصل الى شطرا ، اعتدت ان أتوجه الى الصويبج بعيد الظهر فأقضي الليل عند الحجي شعبان ، وفي الصباح الباكر استأنف السير إلى شطرا .

والحجي شعبان رجل كردي متقدم في السن استقر في الصويبج قبل عـــدة سنوات ويعيش على الاعتنــــاء بالمسافرين وعلى بيع الأرز والسجاير والحاجات الأخرى التي يستحضرها من المدينة ، الى قبائل عبوده وخفاجه . وبالاضافة الى ذلك كان يدير « شايخانه » (أي مقهى يسقى فيه الشاي) وكانت عـائلته تقيم وراء الحانوت . وكانوا يستقبلونني وكأنني واحد منهم ، فلم يعاملوني قط كأي مسافر عابر .

وتتألف عائلة الحجي شعبان من ربة بيت أنيقة ، وابنة يافعة جميلة تبلغ من العمر اثنين وعشرين عـــاماً . وللحجي شعبان ابن آخر في كردستان البعيدة لم أقابله قط .

كنت دائماً أتوق الى البقاء مع هذه العائلة المتواضعة ، لأنني كنت أعـــامل كفرد منها حالما أصل . وكانت الأم والابنة تجلسان معي سافرتين وتشتركان في الأحاديث المتنوعة . وكان الحجي شعبان مضيفاً كريمـاً بشوشاً ، يحث زوجته دائماً أن تقدم لي أفخر الأكل عندمـــا كنت أمر في جولة تفتيشية مرة كل أسبوعين . ولم أكن أهتم باحضار فراشي معي لأن زوجة الحجي شعبان كانت تقدم لي أنظف الشراشف في الصيف ، ولحافاً دافئـاً في الشتاء . وكان ذلك يناسبني لأنه يسهل سفري في أية لحظة .

وكنت أقضي أمسيات ممتعة مع العائلة تشكل أجمـــل واسعد ذكرياتي في الفترة التي كنت فيها ضابطاً سياسياً في المنتفق .

كان أهل القرية ورجال القبائل المجـــاورة يكنون للحجي شعبان احتراماً كبيراً ممزوجاً بالخوف منه لكونه كردياً . أما الحجي شعبان فكان يعيش لعمله وللحفاظ على شرفه وسمعته بين جيرانه العرب . وأحياناً كان مملاً لكثرة مـــا يتحدث عن هذا الموضوع .

وكان حسون يساعـــد والده في تجارته فكان يذهب من وقت لآخر الى شطرا والناصرية لابتيـــاع بضائع جديدة . أمـــا الأم وابنتها فكانتا تهتمان بالشؤون المنزلية ، وتخيطان الملابس في أوقات الفراغ كأي عائلة انكليزية . إن هذا الجو هو الذي اجتذبني الى هذه العائلة الكردية الرائعة في أرض غريبة .

وأحبهم إليّ كانت الابنة ، لأنها مزيج من المرح والجدية . وكانت تذكرني بفتاة انكليزية أعرفها . وكلما حللت ضيفاً على العائلة كانت تريدني ان أعلمها أسماء الأشياء باللغة الانكليزية وان أخبرها عن انكلترا او لندن .

وفجأة نزلت المأساة كالصاعقة . وأية مأساة ؟ لقـــد غيرت كثيراً من نظرتي الى الحياة ، وزرعت في نفسي بذوراً من الانتقام وعلمتني كيف يصبح الشرقيون في لحظة من الزمان مخلوقات كاسرة إذا مـــا تناهى إليهم أي طعن بشرف نسائهم .

وذات يوم كنت أصرف أعمالاً كثيرة تراكمت عـــليّ في مكتبي بالناصرية عندما دخل الكابتن هول مساعدي المسؤول عن خيالة المنتفق وأبلغني ان أحد رجـــاله قدم من صويج وأخبره ان ابن شعبان أطلق النار على شقيقته في اليوم السابق ، وهي لا تزال ملقاة في الشمس على كومة من القمامة والدماء تنزف من جرحها البالغ بغزارة ، وان أحداً لم يجرؤ على نجدتها .

وبعد ان حصلت على بعض التفاصيل الاخرى امرت الكابتن هول ان يتوجه الى صويج على جناح السرعة ، ويأخذ معه الجراح الهندي وعدداً من الرجال مع حمالة ، فاذا وجدوا الفتاة على قيد الحياة فلينقلوها الى المستشفى ، وامرته ايضاً ان يلقي القبض على الفتى فوراً .

حدث ذلك في الساعة التاسعة صباحاً . وفي الساعة الخامسة مساءً جاءني

الكابتن هول متعباً ليقول ان الفتاة قد نقلت الى المستشفى الصغير الذي تديره الدائرة السياسية ، وان حسون قد اعتقل وأودع السجن . وأكد هول ان الفتاة ألقيت في الشمس على كومة القمامة مدة لا تقل عن خمس عشرة ساعة قبل أن يخف لإنقاذها . وقال إن الرصاصة مزقت فخذها الأيمن ، ولكنها لا تزال على قيد الحياة في حالة سيئة . وأخبرني ان الوالدين المفجوعين طلبا منه أن يرافقاه وأنها يجلسان بالقرب من ابنتهما . وقال ان الجراح الهندي فعل كل ما في وسعه لتخفيف الآلام المبرحة التي تشعر بها الفتاة .

وكتبت رسالة مقتضبة الى الضابط المسؤول عن المستشفى العسكري في الناصرية طالباً منه أن يزودني بتقرير فوري عن حالة الفتاة . وكنت ممنوناً لهذا الضابط لأنه جاء بنفسه عندما تلقى رسالتي . وقال لي ان جرح الفتاة بالغ وان الغنغرين بدأ يتسرب إليها نظراً لإهمالها مدة طويلة . وقال ان الأمل الوحيد هو بتر الساق كلها ، ولكن حالة الفتاة سيئة بحيث ان عملية من هذا النوع ستودي بحياتها . وأضاف ان الفتاة ليست فاقدة الوعي وتلح في أن تراني بأسرع وقت ممكن . ومع انها لا تزال تحت تأثير المخدر لكنها تستطيع أن تفهم الكلام الموجه إليها .

وبدون إبطاء صحبت الضابط الى المستشفى الصغير السيء التجهيز على ضوء قنديل خافت لأن الكهرباء لم تكن قد وصلتنا في ذلك الوقت . وكانت غرفة الفتاة تقع في الباحة الخلفية . فاقتادني مساعد الجراح إليها ، ولا زلت أذكر انه أخذ يشرح لي ان الرائحة الكريهة التي تنبعث من المستشفى ناشئة عن الغرغرين الذي أصيبت به الفتاة .

ولما دخلت عرفتني على الفور . وكان وجهها الجميل قد تغير وتشوه . فأشارت إليّ ان أجلس بجانبها وطلبت من الطبيب أن يعطيها مزيداً من المخدر . وكانت والدتها منكفئة في زاوية من زوايا الغرفة تذرف دموعها بصمت . وحقنها الطبيب بالمخدر وخرج مع مساعده من الغرفة .

وأخذت يد الفتاة بين يديّ وسألتها ما إذا كانت تشعر بألم شديد . فقالت

ان الألم ليس شديداً ، ولكنها كانت تعرف انها ستفارق الحياة ولذلك أرادت أن تطلعني على شيء .

وأخبرتني ان امرأة في القرية ظنت ان الشخص الذي تحبه انصرف عنها بسببها ، وبدافع من الغيرة أخذت تنشر الشائعات عن ابنة الحجي شعبان . وكانت كل تلك الشائعات كاذبة ولكنها كافية لتحمل شقيقها على الانتقام لشرف العائلة . فأخذ بندقيته وأطلق النار على شقيقته وهي جالسة على الأرض تخيط مع والدتها بعض الملابس . فأصابتها الرصاصة في فخذها . ولم يكتف شقيقها بذلك بل جرها الى كومة القمامة خارج المنزل وألقاها هناك . وهدد كل من يقترب منها باطلاق النار عليه . ولم يكن والدها هناك لينقذها لأنه كان قد سافر الى شطرا في اليوم السابق .

وقصت علي قصتها ببطء وبصورة متقطعة لأن الالم أخذ يشتد عليها . وكنت أرقب وجهها الحزين على ضوء القنديل الخافت . وكانت الرطوبة تنز من أرض الغرفة وجدرانها ، والرائحة التي تنبعث من جرحها مزكمة للأنف . وبعد الجهد الذي بذلته في اطلاعي على قصتها ، ارتمت في السرير منهكة القوى وهي لا تزال تشد على يدي .

وبعد قليل عادت تكلمني ولكن بصوت أشبه بالهمس . فطلبت مني ان أعدها ان افعل شيئاً من أجلها قبل ان تفارق الحياة . وعندما سألتها عن الشيء الذي يجب ان افعله ، تنهدت بعصبية وطلبت مني أن لا أسألها قبل ان أعدها بشرفي .

ولما أقسمت لها واكدت انني سأفعل طلبت مني ان أمد يدي تحت وسادتها واخرج نسخة من القرآن كانت تحتفظ بها هناك . وأمسكت بيدي ووضعتها على القرآن الكريم وقالت : أقسم بهذا الكتاب المقدس انك ستفي بوعدك .

ففعلت .

وعادت الى الكلام بصوت لا يكاد يسمع والدموع تنهمر على وجهها، وقالت: أريد منك يا دكسان ان تطلق سراح أخي ساعة أفارق الحياة ، لأنه فعل

الذي فعله بدافع من حبه لشقيقته وحرصه على شرفها . وعندما تطلق سراحه اخبره انني طلبت ذلك منك ، وان شقيقته كانت فتاة طيبة لم ترتكب خطأ في حياتها ، وانها سامحته قبل ان تموت .

وعندما انهت كلامها دخل الطبيب وطلب مني أن ادع الفتاة تستريح . ولكنه جاء متأخراً . فقد شعرت بقبضة الفتاة على يدي ترتخي شيئاً فشيئاً وأخذت ترتعش ويهتز جسمها وغابت عن الوعي . وانحنى الطبيب فوقها وجس نبضها .. ثم هز رأسه قائلاً : انتهت .

وأحست الأم بما يجري وكأن قلبها دليلها فقفزت من مكانها وحضنت ابنتها وأخذت تصرخ وتولول . وكان منظراً مريعاً لم أستطع ان اتحمله فتسللت من الغرفة دامي القلب . ودفنت الفتاة تلك الليلة ، لأن الامور تتحرك بسرعة في الشرق !

وكان اليوم التالي يوم الخميس وهو اليوم الذي اعقد فيه مجلسي . وتجمع عدد كبير من الشيوخ ومن اعضاء عائلة آل السعدون وفي مقدمتهم ضاري بك وابراهيم بك ابن مزعل باشا . وحضر المجلس ايضاً الحجي شعبان وكان حزيناً ولكن مرفوع الرأس .. ولم ينبس ببنت شفة . وبعد ان تداولنا بالامور العامة طلبت من الجميع ان يعيروني انتباههم . فأخبرتهم بحادث الصويح وبقصة ابنة الحجي شعبان وكيف طلبت مني ان اعفو عن شقيقها. وعندما انتهيت قلت للمجتمعين: هل رأيتم أبشع من هذه الجريمة .. وأنبل من طلب كهذا يطلبه انسان على فراش الموت ؟

ولاذ الجميع بالصمت فترة طويلة . وأخيراً تكلم ضاري بك فقال : يا دكسان .. لا يحدث إلا ما كتبه الله . ان الفتى فعل ما ظن انه واجبه . وليس من الحق ان تعاقبه .

وحزنت لدى سماعي ذلك من ضاري بك ولكنني لم افاجأ . واجبته بقولي: لا تخف .. سأطلق سراحه ولكن ليس بالطريقة التي تفكر بها .

وبعد ربع ساعة كان الفتى حسون يقف امامنا مكبل اليدين والرجلين .

وكان وجهه شاحباً كالاموات لا ينم عن اية مشاعر . وأخبرته بهدوء مـا حدث في الليلة السـابقة أثناء مقابلتي لشقيقته ، وعن طلبها الأخير .

وخاطبته بقولي : يا بن الحجي شعبان ، وعدي سأفي به مع أنـك حقير لا تستحق الشفقة . ساطلق سراحك لأنني أقسمت ان افعل ذلـك ، ولكن اذا سمعت ، بعد ثلاثة ايام ، انك في اي مكان من لواء المنتفق سأطاردك اينما كنت ، وأصطادك كأي جبان حقير على شاكلتك .

وفكت الاغلال من يديه ورجليه فيما بدا عليه الذعر والدهشة ، واندفـع خارج الغرفة دون ان ينطق بحرف . وخيم السكوت على المجلس فـترة طويلة وقطعته بأن طلبت القهوة ثم اعلنت انتهاء الاجتماع .

وكان آخر من غادر المجلس ضاري بك الذي توجه الي وشد على يدي قائلاً : يا دكسان ، اعتقد أنك كنت قاسياً على ابن الحجي شعبان وعلى والده . ربما قد تكون فعلت عين الصواب ولكن يجب ان تتذكر يا دكسان انه لا تحدث إلا الاشياء التي يرتضيها الله . ولسنا نحن إلا مجرد ادوات . انها نصيحة رجل عجوز .

مسكينة اينها الفتاة الكردية . لقد انتهيت اشرف نهاية . ولسوف اذكرك ما دمت حياً .

انتقام الحجي ناصر

وفي صيف سنة ١٩١٩ عدت الى انكلترا . وهنـاك علمت من السير بيرسي كوكس ان صديقي الشيخ قاصد الناحي قد قتل على يـد عدوه الحجي ناصر العايل . ولم استطع معرفة التفاصيل في ذلـك الوقت ، ولكنني عندما عينت وكيلاً سياسياً في البحرين في خريف تلـك السنة ، عرفت كل شيء من شيوخ وأعيان المنتفق الذين قدموا لزيارتي . انهـا قصة محزنة اعادت الى ذهني كلمات قاصد يوم احرقنا سوية مضيف الحجي ناصر ، وهي ان ذاكرة العرب طويلة .

ويبدو ان الحجي ناصر رتب أوضاعه واستكان لمدة سنتين ، ولكنه لم يغفر لقاصد اشتراكه في حرق مضيفه . فكان ينتظر مغادرتي للمنتفق حتى يثأر من

قاصد . وكان قاصد من جهته يضمر الكراهية للحجي ناصر ولكنه لم يكن بينهما خصام مكشوف .

وذات يوم دعـــا الحجي ناصر الشيخ قاصد الى وليمة احتفالاً ببناء مضيفه الجديد . وارتكب قاصد الذي لم يتطرف الخوف الى قلبه قط خطأ مميتاً عندما قبل الدعوة . واثناء المأدبة ، وعندما كان قاصد يرفع بده بقطعة لحم الى فمه ، اطلق عليه الرصاص من الخلف . وكان احد عبيد الحجي ناصر قـــد صوب بندقيته نحو قاصد من ثقب في جانب المضيف ، واصابه في مؤخرة رأسه .

وتبع ذلك لغط كثير ، واختفى الرجل الذي ارتكب الجريمة مـــدة من الزمان . واستاءت قبيلة الحكام كلها من هذا الغدر الرهيب لا سيما وان قاصد كان ضيف الحجي ناصر مما يشكل انتهاكاً فظيعاً للعادات والاعراف العربية . ونشب قتـــال متقطع بين اتباع قاصد واتباع ناصر ، وانضمت قبيلة المرحوم الشيخ مزبان الى جماعة قاصد .

واستطاع الشيخ فرهود الفندي رئيس قبيلة الحـــكام على الضفة اليسرى من النهر ان يقيم هدنة بين الطرفين بمساعدة الحكومة . ولكن ناصر أصبح منـــذ ذلك الوقت محكوماً بالموت ، لأن مزهر وريسان ابني قاصد الصغيرين صمما على قتله وأخذا يتتبعانه ليلاً نهاراً . ولم يمض اسبوعان حتى تمكنا من قتله وهو عائد الى مضيفه في مكان كثيف النبات .

واعتبر جميع أهل الجوار الأمر انه جزاء عادل وكان عطفهم على أولاد قاصد ظاهراً . واعتقد ان الحكومة اعتقلت الشابين وسجنتهما فـترة قصيرة . ولكن مزهر في النهاية اصبح شيخاً على القسم الأكبر من قبيلة الحكام على الضفة اليمنى من النهر . وقد قابلته مرة سنة ١٩٤٣ فوجدتـه رجلاً فهيماً . وسررت كثيراً بلقائه لأنه أتاح لي فرصة التحدث عن الايام الماضية وعن صداقتي لوالده . واستطعت ان اكتب له رسالة امتدحت فيهـــا ولاء قاصد لي وللحكومـــة البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى . وذكرته فيهـــا كيف ان والده خاطر بحياته لإنقاذي .

وكتبت الرسالة اعتقاداً مني بأنها قد تكون ذات فائــدة في المستقبل لمزهر وشقيقه ريسان . وفي سنة ١٩٥٣ أصبح مزهر نائب منطقة سوق الشيوخ في البرلمان العراقي . . بينما كان ريسان يدير شؤون القبيلة .

الفصل العاشر

الاخوان يشنون الحرب على الكويت ١٩١٧ - ١٩٢١

وقبل ان أسترسل في قصصي الشخصية ، يجب ان أسجل بعض الاحداث التي وقعت في الجزيرة العربية اثناء اقامتي في لواء المنتفق .

في الخامس من شباط سنة ١٩١٧ توفي الشيخ جابر ابن مبارك الصباح حاكم الكويت بعد ان حكم مدة تزيد عن سنة بقليل . وخلفه شقيقه سالم والد الحاكم الحالي . وكان سالم ابن مبارك الصباح يختلف كل الاختلاف عن شقيقه الراحل . فقد كان مسلماً متعصباً وعنيداً . وقبل ان يأتي الى العرش ، قضى حياته في الصحراء ، وكان يكره الاختراعات الحديثة . ولكنه كان فائق الشجاعة ، وعليه يقع اللوم في النزاع الذي نشأ مع ابن سعود .

وفي نهاية سنة ١٩١٧ قاد سان جون فيلبي من الدائرة السياسية في حكومة الهند والذي كان في ذلك الوقت يقوم بمهمة خاصة في بغداد ، بعثة سرية الى نجد بقصد اقناع ابن سعود باستئناف التحرشات بابن رشيد. وسبق هذا الاجتماع ، ارسال ضابطين الى الرياض من البصرة هما : الكولونيل هاميلتون ممثل السير بيرسي كوكس ، والكولونيل كانليف – اوين ممثلا الاستخبارات البريطانية في العراق . وقد عاد الضابطان فور وصول فيلبي .

وفي شباط سنة ١٩١٨ فرض الاسطول البريطاني حصاراً على الكويت ، لأنه تبين ان المؤون والذخائر تهرب الى الاتراك في دمشق من الكويت عبر الصحراء .

وفي شهر تموز من السنة ذاتها انذر الشيخ سالم بأن التأكيدات المعطاة له ولوالده من بريطانيا ، والصداقة والحماية والمساعدات التي كان يتمتع بها والده ، لن تستمر إلا اذا أخذ على عاتقه شخصياً منع كل الاعمال المضرة بمصالح بريطانيا في أراضيه ، وسواء ارتكبها رعاياه او غيرهم .

وفي تلك السنة اجبر ابن سعود جميع البدو في نجد ، باستثناء عجمان ، ان يعتنقوا الاخوانية ، وان يعترفوا بـه اماماً عليهم . ولكي يضمن ولاء تلك القبائل وبقاءها تحت سيطرته ، استدعى ابن سعود الزعماء الوهابيين الى الرياض لإصدار فتوى تقضي بأن يقوم المؤمنون من الاخوان ببناء القرى والمدن ، وان يتعاطوا الزراعة ، لأن ذلك فريضة من الوجهة الدينية ، ولأنه يتيح تقسيم الاتباع الى نخبة وجهلة . والجهلة في معظمهم هم البدو الذين اعتنقوا المذهب الجديد . وفرض على الاخوان ان لا تزيد البيوت التي يبنونها عن طابق واحد . وربما كان ذلك لضمان عدم استخدامها كحصون في المستقبل .

ونتيجة لزيارة فيلبي الى الرياض استأنف ابن سعود مناوشاته مع ابن رشيد في خريف سنة ١٩١٨ ، فزحف على جبل شمر ولكنه فشل في اقتحام حايل مع انه وصل الى اسوارها . وكان ذلك كافياً لإجهاض حملته .

وفي تلك الاثناء عاد عبدالله ابن الشريف حسين الى التدخل في شؤون نجد ، فادعى ملكية مدينتين على الحدود هما : ترابة وخرمـه . وجهز عبدالله قوة كبيرة من المشاة تدعمها المدافع وظهر فجأة امام خرمه التي احتلها بعد فترة من القتال . وبعد ثلاث ليال شن عليه الاخوان بقيادة الامير خالد بن لؤي هجوماً صاعقاً ودمروا معسكره ، واستولوا على مدافعه وبنادقه وذخائره . ووقعت في يد ابن سعود غنائم كثيرة . ونجا عبدالله الشريف من الموت بأعجوبة . وظلت بريطانيا بعد ذلك الحادث بعدة سنوات تعمل جاهدة لحفظ السلام بين الملك

حسين وابن سعود .

وفي ٢٦ كانون الأول سنة ١٩١٩ اتفق ابن سعود مع الحكومة البريطانية حول الاتفاقية الانكليزية ـ التركية المعقودة سنة ١٩١٣ . وتنص الفقرة الرابعة من الاتفاقية الجديدة على ان قضية الحدود بين الكويت والسعودية يجب تسويتها فيما بعد .

مستشفى للنساء في الكويت

وكتبت السيدة اليانور تايلور كالفرلي تقول : ومع مرور الزمن أخذت الثقة تنمو .. وكذلك عائلة كالفرلي ... فقد رزقنا ثلاث بنات شاركتنا البيت الجديد الذي بني لنا خلال اجازتنا الأولى . ويقع هذا البيت على شاطىء البحر في الصحراء الممتدة عند طرف المدينة . وكانت نوافذه العديدة وشرفاته الواسعة مريحة وخاصة في ايام الصيف الشديدة الحرارة . وكان هنالك منزل آخر للارسالية يشغله الدكتور ميلري وزوجته اللذان عينا في الكويت لدى نقل الدكتور هاريسون الى مقر آخر . وهنالك ايضاً المستشفى الجديد الذي عملت فيه مع الدكتور ميلري عدة سنوات . واثناء اجازتنا كانت زوجة الدكتور ميلري تعاونه في معالجة النساء المريضات . ونادراً ما كانت اولئك النسوة يسمحن له بفحص اي شيء ما عدا النبض واللسان الذي كان غالباً يمد من ثقب في الحجاب الذي يغطي الوجه .

وفي سنة ١٩١٩ انشأنا مستشفى للنساء من طابق واحد ، الى جانب مستشفى الرجال .

واقمنا فيما بعد جناحين للعائلات بين المستشفيين . وهناك كنا نحتفظ بالمرضى القادمين من مسافات بعيدة ومعهم عائلاتهم . ولم يكن الا نفر قليل من اهل المدينة يسمحون لنسائهم بالاقامة في المستشفى . وحتى هؤلاء يفضلون ان تتم المعالجة في المنزل إلا في حالات المرض الشديد او العمليات الجراحية الكبرى . وغالباً ما كان الناس يشاهدون « السيدة الطبيبة » راكبة حمارها الابيض وسط

شوارع المدينة . وكانت بعض العمليات تجرى على سطح منزل المرأة المريضة في الصباح الباكر حين يكون ضوء النهار جيداً والحرارة ليست شديدة . وكان يشارك في العمليات بعض المساعدين الذين يمكن للمستشفى الاستغناء عنهم .

واذكر اني اجريت عملية على السطح ، وعمليتان في العين في غرفة الطابق العلوي . وفي ليلة شديدة الحر أنقذت حياة امرأة تعسرت ولادتها ، على ضوء قنديل . ولم يكن الطبيب يستدعى في قضايا الولادة إلا عندما تعجز القابلات المحليات عن اداء المهمة .

ووجود المستشفى قرب المنزل كان يساعدني على تلبية احتياجات العائلة اثناء اوقات العيادة . واحياناً كان يتجمع في الصباح اكثر من مئة امرأة للمعاينة . وكان لدينا في المنزل طباخ ماهر من غـوا ، وخادم ايراني ، وممرضة عربية . وفي الحالات الطارئة كانت السيدة ميلري والنساء الاخريات في المقر يساعدن على الاعتناء بالاطفال اثناء غياب او انشغال امهاتهم . وكان الدكتور ميلري ، كالدكتور هاريسون من قبله ، على استعداد ان يساعدني كيفما استطاع. ولكن عطف وتعاون زوج « السيدة الطبيبة » اكثر من اي شيء آخر هو الذي جعل انسجام الحياة المهنية والحياة العائلية ممكناً .

اما وصول الممرضة رافا موني التي تلقت تدريبها في مستشفى الارسالية مدانا بالي بجنوب الهند ، الى الكويت فقد كان يوماً عظيماً . وبعد ذلك ارسلت لنا سيارة فورد لتحل محل الحمار . وعينت كذلك الآنسة جاين سكاردفيلد لتعيش معنا وتعاوننا في مستشفى النساء . وقد اكتسب العمل الطبي قوة وفعالية بتعيين الآنسة ماري فان بيلت رئيسة ومشرفة على المستشفيين.

« ميريلاي »

ولد تشارلز ستانلي غارلاند ميلري في لندن في ١٨ تشرين الثاني سنة ١٨٧٦. ودرس الطب في اميركا . وبعد ان تخرج من فيلادلفيا انضم الى الارسالية الاميركية وجاء الى البحرين مع زوجته الاميركية بسي اوغوستا سنة ١٩٠٧ .

وقضى في البحرين اربع سنوات تعلم خلالها اللغة العربية ونقل بعدها الى الكويت سنة ١٩١١ .

وكان عرب الخليج يسمونه « ميريلاي » تحببا . وكان اهل الكويت بصورة خاصة يكنون له حباً واحتراماً كبيرين . وشاركته زوجته كل تلك السنوات الاولى واكتسبت بذلك حب واحترام العائلات العربية التي كانت تقطن بجوارهم.

وغالباً ما كان ميلري يروي القصة التالية :

بينما كان الشيخ سالم في رحلة صيد سنة ١٩١٦ ، استدعي ميلري فجأة لمعاينة ابن الشيخ . وركب ميلري حصانه فوراً وفعل كل ما باستطاعته لمعالجة الفتى المريض ، تاركاً للخدم الذين وقفوا على خدمة الفتى تعليمات واضحة في كيفية استخدام الدواء الذي وصفه له . وعندما عاد الى القصر في اليوم التالي لمعاينة المريض وجد ان تعليماته لم تنفذ وان الفتى لم يعط الدواء الذي وصفه ، فترك القصر غاضباً ورفض ان يعاين الفتى او يعالجه .

واخبر ميلري زوجته بتصرفه الطائش وعن خوفه من غضب الشيخ سالم عندما يعود من الصيد . وبعد عدة ايام شاهد ميلري جماعة من الجنود تقترب من منزله فظن انهم قادمون للانتقام منه ومن عائلته . وتعجب عندما عرف ان الشيخ قدم للاعتذار اليه من سوء تصرف الخدم وابلاغه انهم عوقبوا بالجلد . وقد احضر الشيخ معه بعض الهدايا « للحكيم » هي عبارة عن سجادة عجمية وعقد من اللؤلؤ لزوجته . ولم يكن في وسع ميلري ان يرفض الهدية . اما الفتى فقد تماثل للشفاء وعادت العلاقات مع الشيخ الى طبيعتها .

زيارتي للهفوف

كان اول اتصالي بالاخوان في كانون الثاني سنة ١٩٢٠ ، عندما كلفتني الحكومة البريطانية ان ازور الهفوف واحل ضيفاً على ابن سعود . وكنت يومها وكيلا سياسياً على البحرين . وكان علي ان اقوم بمهمة صعبة وهي معرفة كل ما يمكن معرفته عن الحركة الجديدة . واينما حاولت ان استفسر عن الحركة كنت اصطدم

بجدار من الصمت والكتمان . واستنتجت من ذلك ان ابن سعود لا بد وان يكون قد اصدر تعلياته بعدم الافصاح عن شيء فيما يتعلق بالحركة امام الغرباء .

ولم تكن اسباب هذا التصرف بعيدة عن التصور . واعتقد ، اولاً ، ان ابن سعود الذي اقترن اسمه بحركة الاخوان، كان يخشى الفكرة التي قد ترتسم عنه في اذهان العالم الخارجي . وثانياً ، كان قلقاً من الدعايات غير الضرورية عن الحركة ، والتي اطلقتها تقارير مبالغ بها صادرة عن مصادر مغرضة . وثالثاً ، كان يعلم ان بعض الجهات ، وخاصة القاهرة وبغداد ولندن ، تنظر الى الحركة بعين الخوف وعدم الائتمان . ورابعاً ، لم يكن يريد ان يعرف أحد انه يشجع الحركة ويقودها تنفيذاً لغاياته ومآربه الخاصة .

وعندما قابلته في الهفوف أصر على ان حركة الاخوان ليست الا نسخة جديدة عن الوهابية القديمة . وقال لي بالحرف الواحد : ان الوهابية القديمة اليوم ممزوجة باندفاع الاخوان ، هي اصفى وانقى الديانات في العالم .

وفي المناسبة ذاتها قال لي : يا ديكسون لا تخف . الاخوان هم انا ولا احد غيري .

ويمكنني الاستنتاج بصورة عامة من كل ما رأيته وسمعته من ابن سعود ومن مساعده الامين فيصل الدويش الشيخ الأعلى في قبيلة مطير، ان حركة الاخوان ليست في كليتها حركة سيئة كما اريد لها ان تكون في البداية . فهي اولاً احياء ديني حقيقي للوهابية القديمة ، ومحاولة من قبل جماهير اواسط الجزيرة العربية لتحسين اوضاعهم الاخلاقية والدينية . وهي خاصة تبدو وكأنها محاولة جديدة لتطهير الاسلام من الشوائب التي علقت به بفعل النفوذ الاوروبي . ومما لا شك فيه ان الحركة ذات طابع دفاعي قومي لا تثق بكل ما هو اجنبي ، وتحاول باصرار اعادة الجزيرة ونجد الى العرب بأي ثمن .

ومهما تكن المطامح والافكار السياسية التي سيرت رجالاً كابن سعود في البداية ، فالثابت هو ان الجماهير كان يحركها شعور طافح بالعداء للأجانب . ان صفوف الاخوان كانت في الايام الاولى للحركة مؤلفة كما ذكرت سابقاً من

القرويين الجهلة السذج في نجد. وامتدت فيما بعد الى قبائل البدو في داخل الجزيرة العربية والبلدان المجاورة لها .

اما الطبقات المثقفة من اهل المدن والتجار في نجد فقد كانوا وهابيين في الاصل . ومع ان هؤلاء لم يوافقوا على بعض نزعات الاخوان ، وخاصة عدم التسامح، لكنهم اعتبروا ان الحركة جديرة بالتأييد لأنها تعطي الوهابية المحتضرة دافعاً جديداً نحو اسلام اصفى ، ولانها تعطي ابن سعود السيطرة اللازمة على قبائل نجد التي كان كبح جماحها ضرورياً .

ان احداً من الذين عرفوا ابن سعود معرفة جيدة لا يستطيع ان يتهمه هو شخصياً بالتعصب الوهابي ، او بالهيجان والاندفاع الديني الأعمى الذي كان يحقن به اتباعه من الاخوان . فقد كان في المناسبات ، وحسب ما يلائم اغراضه ، يتظاهر امام اتباعه بان له نفس نظرتهم وافكارهم ، لا سيما عندما يحتك بالجنود عشية غزوة من الغزوات ، او عندما يرغب في ترك انطباع لدى بعثة انكليزية او اجنبية . وعلى كل حال ، فان اوليفر كرومويل كان يتبع نفس الاساليب !

وليس أدل على أن ابن سعود لم يكن متعصباً متهوساً في سريرته من الحادثة اللطيفة التي واجهتني اثناء زيارتي للهفوف. كانت حركة الاخوان في عز تأججها ، وعندما يجتمع شيوخ القبائل في كل المناسبات ، وحتى في حضوري ، كان ابن سعود يندد بالاجانب ويتكلم ضدهم . ومثالاً على ذلك ، قال مرة ان المساعدة الشهرية ومقدارها ٧٥ ألف روبية التي كانت تقدمها له الحكومة البريطانية ، والتي حملت قسطاً منها إليه أثناء زيارتي ، هي جزية كان يدفعها المسيحيون الى قادة الاسلام الأوائل بدلاً من الخدمة العسكرية . وقد حذرني في المجلس ان التبغ حرام وخطيئة مميتة ، وان من يدخنه في نجد يكون قد خرق القانون وبذلك يعرض نفسه الى الاذى . ومع ذلك ، وتبعاً لقواعد الضيافة العربية والاعتناء براحة الضيوف ، أرسل إليّ ابن سعود الموقر بعد حلول الظلام علبتين من أفخر السجاير المصرية بيد الدكتور عبدالله سعيد الدملوجي ، طالباً مني أن أدخنها ضمن جدران غرفتي .

وكان نجاح حركة الاخوان وتقدمها من خطوة إلى خطوة ، يدل على عبقرية ابن سعود ومهارتـه في وضع خططه . فلم تأت سنة ١٩٢٠ حتى كانت الحماسة للمذهب الجديد قد بلغت حداً كبيراً بين البدو بحيث انه لم يبق أحد إلا وانضم إليه .

وتجاوب الجميع بحماسة مع الأمر الذي أصدره ابن سعود ببناء القرى والمدن لتوطين القبائل . وأصبح البدوي يفاخر بأنه سيصبح من أهل الحضر .

وأخبرني ابن سعود ان اثنتين وخمسين حاضرة قد بنيت في نجد نتيجة لهذا الأمر الشهير . وقد اظهرت الطريقة التي لقت بها القبائل وحملت على الاستيطان والعمل في الزراعة دون ان تشعر بأي نفور ، أن ابن سعود ليس قائداً عادياً . فأخذ يفاخر انه أعطى القبائل الرحل حصة في الأرض وجعلهـا قبائل مقيمة . وفي الوقت ذاته جعل هـذا النظام الجديد مرناً لكي يسمح لقسم من كل قبيلة ان يبقى في الصحراء خلال السنة يرعى الجمال والمواشي .

أما اختيار الحاضرة التي كانت ستقطنها هـذه القبيلة أو تلك من الاخوان ، فكان من اختصاص ابن سعود نفسه . فكان يقربهم من الرياض او يبعدهم عنهـا حسب سهولة او صعوبة مراسهم .

ولم تكن قبيلة عجمان في ذلك الوقت قـد انضمت الى الحركة . وليس ذلك لأنهم يعترضون على الاخوان وحركتهم ، بل لأنهم كانوا يعرفون نوايا ابن سعود في اخضاعهم على طريقته الخاصة . وهي ، للذي يعرف رجل الصحراء ، عقوبة صارمة . فقد كان ابن سعود ينوي نقل قبيلة عجمان من منطقة الاحساء الساحلية موطنها الأصلي، الى داخل نجد، حيث يقسمها الى الاقسام العشرين التي تتألف منها، ويضع كل قسم في حاضرة من حواضر الاخوان ، وذلك لكي يشتت شملهـا . وقد اخبرني ابن سعود بنفسه ان هذا هو مقصده لأن عجمان خانته مرتين : مرة أثناء القتال مع ابن رشيد في مجمع (جراب) في كانون الثاني سنة ١٩١٥ ، ومرة في تشرين الثاني من نفس السنة عندما هاجمته في الاحساء وكادت تتغلب عليه . ومنذ ذلك الوقت ، قال ابن سعود ، وعجمان تلعب عليه بخفة ونجـاح . فهي

تارة تقطن في الكويت وتارة في العراق . وفي الوقت الذي كنت فيه ضيفاً ع
ابن سعود كانت عجمان قد ضربت خيامها في الزبير ، وكانت على وشك الوصو
الى مصالحة مع ابن سعود .

ومن أحاديثي المختلفة مع ابن سعود استنتجت انه على استعداد لأن يتساه
مع عجمان ويخفف العقوبة التي ذكرتها ، علماً بأنه ربما يستطيع أن يكون قاس
الى أبعد حدود القسوة .

مسألة الحدود مرة ثانية

شهدت سنة ١٩٢٠ اضطراباً شديداً في العلاقات بين ابن سعود والشيخ س
حاكم الكويت .

وكان هذا الأخير قد وضع الحصار البحري البريطاني للكويت على أبوا
ابن سعود . وقد فرض ذلك الحصار بشدة حتى تم توقيع الهدنة مع تركيـا
وظن الشيخ سالم ان ابن سعود كان أذكى منه مع الحكومة البريطانية ال
خدعها ابن سعود بملء إرادتها ، وان ما فاته الكويت من خسارة في التجار
والنفوذ لا يمكن تفسيره إلا بأن البريطانيين اعتقدوا ان ابن سعود هو صديقهم
فلما اقترح عليهم ان الشيخ سالم موال للاتراك ، صدقوا الحكاية .

وظن الشيخ سالم انه ليس من غير المحتمل ان يهاجم ابن سعود الكويت ،
على الأقل يحاول ان ينقض الاتفاقية الانكليزية ــ التركية المعقودة سنة ١٩١٣

وكانت تلك الاتفاقية قد أعطت الكويت سيطرة إداريـة مباشرة ع
مساحة صغيرة حول مدينة الكويت ، وسيطرة غير مباشرة مع حق فرض
الضرائب على القبائل في منطقة واسعة جنوبـاً ، تمتد من جبل منيفة على البح
الى حفر الباطن في الغرب ، وحتى الباطن مقابل جبل صنم في الشمال . وكان م
المقصود ان تشمل هذه المساحة الكبيرة نطاً والجاريتين والصفا وحبـ ووبر
وغيرها .

واحتياطاً للمستقبل وخوفاً من مطامع عبد العزيز آل سعود ومساعد

الأحدب فيصل الدويش القائد الروحي للاخوان ، أخذ الشيخ سالم بعد العدة لأسوأ الاحتمالات . فاقترح بناء حصن في دوحة بلبول على الشاطىء شمال جبل منيفه لتكون بمثابة حدود له في أقصى الجنوب . واعترض ابن سعود مدعياً ان دوحة بلبول تقع ضمن أراضيه ، ورد بأن أمر ابن شقير قائد قبيلة مطير ان يستولي على جاريه عليا التي يدعيها الشيخ سالم .

وبدأ ابن شقير في بناء قرية للاخوان في جاريه عليا الامر الذي دفع الشيخ سالم الى إرسال الشيخ دعيج ابن سلمان ابن صباح الفاضل قائد قوات الكويت الى حمض التي تبعد خمسة عشر ميلاً إلى الشرق من جاريه عليا ، حاملاً راية الحرب بقصد دب الخوف والذعر في مطير .

وبينما كان دعيج مخيماً في حمض مع قوة لا بأس بها ، ضرب فيصل الدويش ضربته مفاجئاً دعيج بهجوم عند الفجر على رأس قوة كبيرة من الاخوان في مطير . وهزم جيش الكويت هزيمة شنعاء واستولى الاخوان على المخيم وعلى عدد كبير من الجمال . وكان عدد القتلى في صفوف جيش الكويت كبيراً ، ولم ينج دعيج ومعه الشيخ عبدالله الجابر الصباح من الأسر والموت إلا بأعجوبة .

ولما عادت فلول جيش دعيج إلى الكويت تحقق الشيخ سالم من خطورة الوضع المحدق به ، فأمر ببناء سور دفاعي حول مدينة الكويت دون ابطاء . واشترك جميع سكان المدينة ببناء السور الذي انتهى العمل به خلال شهرين .

وطلب الشيخ سالم مساعدة الحكومة البريطانية مدعياً بأن فيصل الدويش اقدم على الهجوم في حمض دون ان يستفز . وانكر ابن سعود ذلك في عدة رسائل وجهها الى الحكومة البريطانية ووضع اللوم كله فيها على الشيخ سالم . وعندما طلب منه ان يحدد الأراضي التي يدعي ملكيتها أصر على أن حدوده تمتد الى أسوار مدينة الكويت . وعندئذ أبلغته الحكومة البريطانية انها تعترف فقط بالحدود المنصوص عنها في الاتفاقية الانكليزية - التركية المعقودة سنة ١٩١٣ .

وفي أول حزيران أرسل الشيخ سالم بعثة الى الرياض لتبلغ ابن سعود ما

حدث في حمض ، وتطلب منه إعادة الجمال والممتلكات المستولى عليها ، ودفع تعويض عادل الى عائلات الذين قتلوا في المعركة .

وعادت البعثة في الثاني من تموز يصحبها ناصر ابن سعود الفرحان حاملاً رسالة مطولة من ابن سعود الى الشيخ سالم . وتضمنت الرسالة سلسلة من الاخطاء قالت إن الشيخ سالم ارتكبها ضد ابن سعود وشعبه ، وأكدت ان الشيخ سالم ليس له ادنى حق في جاريه عليا أو أي منطقة أخرى يدعيها ابن سعود .

وضمن ابن سعود رسالته وثيقة طلب من الشيخ سالم ان يوقعها ويعيدها إليه متعهداً فيها بالتنازل عن المناطق التي يدعي ملكيتها إلى الشرق والى الغرب من جاريه .

ووجد الشيخ سالم ان لا سبيل الى تفاهم شريف مع ابن سعود إلا عن طريق بريطانيا . فاتصل فوراً بالحكومة البريطانية لاستشارتها بشأن الرد على ابن سعود ، مشدداً على ان المناطق المتنازع عليها هي ملك صريح له بموجب الاتفاقية الانكليزية – التركية المعقودة سنة ١٩١٣ .

وطلبت الحكومة البريطانية من الشيخ سالم في جوابها على طلبه ان لا يوقع وثيقة التنازل التي أرسلها إليه ابن سعود ، وان يطلب رسمياً التحكيم الودي من قبل الحكومة البريطانية . وفي الوقت ذاته أشارت الى أن الاتفاقية الانكليزية – التركية المشار اليها لا يمكن للشيخ سالم ان يعتمد عليها لأنه ليس طرفاً فيها ، ولأن الفقرة الرابعة التي اتفقت عليها الحكومة البريطانية مع ابن سعود في ٢٦ كانون الأول سنة ١٩١٩ ، قد حلت محل الاتفاقية ، وأصيب الشيخ سالم بخيبة أمل مريرة .

وبعد مراسلات طويلة بين الكويت وابن سعود والمندوب السامي البريطاني في العراق ، وافقت الحكومة البريطانية على تعيين حكم بشرط ان يتعهد كل من ابن سعود والشيخ سالم خطياً نيابة عن شعبيهما بقبول مسبق لما قد يسفر عنه التحكيم والالتزام به مدى الحياة .

واشترطت الحكومة البريطانية كذلك على الطرفين ان يحافظا على السلام في

تلك الأثناء . وبعد سيل من المراسلات الأخرى قبل الشيخ سالم هذه الشروط في السابع عشر من أيلول مؤكداً ادعاءاته السابقة . وحذا ابن سعود حذوه فبعث بموافقته في الخامس من أيلول معلناً انه ليس للشيخ سالم اي حق خارج أسوار مدينة الكويت .

وفي تلك الأثناء بعث ابن سعود برسالة الى ابن شقير في جاريـة عليا يأمره فيها ببناء حصن هناك . ووقعت الرسالة في يد الشيخ سالم ممـا اثار الغضب في الكويت ، نظراً لأن الرسالة ارسلت بعد قبول شروط التحكيم التي وضعتهـا الحكومة البريطانية .

معركة جهرا

وتلقى الشيخ سالم معلومـات خاصة تفيد ان فيصل الدويش يتحرك شمـالاً إلى صبيحية جنوب غربي تلال برقان بناء لأوامر ابن سعود . وخشي الشيخ سالم ان يكون ذلك مقدمة لهجوم صاعق على جهرا التي يعلق عليها اهمية استراتيجية كبرى ، فسار اليها بما لديه من قوات وبدأ يعد للدفاع عنها .

ووصل فيصل الدويش الى صبيحية في التـاسع من ايلول، وأمر الشيخ سالم بدوره بتحصين أسوار مدينة الكويت وتجنيد جميع الرجال القادرين جنديـاً لهذا الغرض .

وكان السير بيرسي كوكس قد عين مندوباً سامياً على العراق. وفي طريقه إلى الخليج الفارسي التقى بابن سعود في عقير وأجرى معه محادثات حضرتها بنفسي ، ونقل اليه خلالها أوامر الحكومة البريطانية ، ووصل السير بيرسي إلى بغداد في العاشر من تشرين الاول .

وفي الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم شن الاخوان بقيادة فيصل الدويش هجوماً على جهرا . وكانت قوات الشيخ سالم تحمي الجهة الجنوبيـة الغربية من القرية بينما كانت الميمنة من خيالة شمر بقيادة ابن طوالة وكان قائد خيالة الميسرة دعيج الفاضل. وشن الاخوان هجومهم على المواقع الغربية، وبعد ان شتتوا خيالة

ثمر استداروا نحو المواقع الشمالية الغربية . ولم تأت الساعة التاسعة حتى كانت القرية كلها بأيديها . وحوصر الشيخ سالم وغيره من الشيوخ ومعهم ستمائة رجل في الحصن الواقع جنوب غربي القرية ، بينما تشتت قواته الباقية . وبعد الظهر بعث فيصل الدويش برسالة الى الشيخ سالم يعرض عليه الصلح اذا أخلى الحصن وتنازل عن طلب الجمال التي استولى عليها الاخوان . ورفض الشيخ سالم . وخلال الليل شن الاخوان ثلاث هجمات مركزة على الحصن ولكنهم فشلوا في اسقاطه .

وتوترت الأعصاب في مدينة الكويت على اثر الشائعات الكثيرة المثيرة التي سرت فيها، وبدأ الجميع يتخوفون من هجوم مفاجيء على المدينة ، فأرسل جميع الرجال الموجودين فيها الى السور لتدعيم الدفاع عنه . وفي صباح الحادي عشر من تشرين الأول أرسل الشيخ أحمد الجابر الصباح آمر مدينة الكويت حينذاك نجدة الى جهرا قوامها ستماية رجل توجهوا الى جهرا بطريق البحر في سفينة الشيخ الخاصة المسماة « مشرف » . وتوجه ابن طوالة على رأس فرقة من الخيالة بطريق البر .

وقبل أن تصل هذه الامدادات أرسل فيصل الدويش الى الشيخ سالم عالماً يدعى ابن سليمان يعرض عليه مقترحات محددة لعقد الصلح . وطلب ابن سليمان من الشيخ سالم منع التدخين والمشروبات الروحية ولعب القمار والدعارة في الكويت . وأجاب الشيخ سالم انه لا يقر هذه الموبقات وهو على استعداد أن يمنع رعاياه من ممارستها علناً . ولكنه لا يستطيع ان يمنع الناس من ان يفعلوا ما يشاءون داخل بيوتهم ، كما انه لا يستطيع تحمل مسؤولية ما يفعله الاجانب الذين لا يخضعون لسلطته .

وعاد الشيخ سالم الى مسألة الجمال والسلائب الاخرى قائلاً انه اذا كان الاخوان على استعداد لأن ينسحبوا ويتركوا خلفهم كل شيء أخذوه ، فهو لن يعترض سبيلهم . وكان رد ابن سليمان على ذلك ان الاخوان لهم حق الاحتفاظ بغنائم الحرب ، ولا يستطيع الموافقة على التخلي عنها دون الرجوع الى فيصل الدويش . وعاد ابن سليمان الى خيمة فيصل الدويش في الطرف الآخر من القرية .

وبعد هذه المقابلة بوقت قصير انسحب الاخوان دون قتال آخذين معهم كل شيء . وبعد مسيرة ثلاث ساعات ذلك اليوم ، استأنفوا السير نحو صبيحيه في الثاني عشر من تشرين الأول .

وكانت خسائر الكويتيين في الأرواح قليلة نسبياً اذ لم يتجاوز بمجموع القتلى مايئي رجل. اما الاخوان الذين قاموا بهجوم مكشوف دون ادنى اهتمام بسلامتهم فكانت خسائرهم جسيمة . وقد ابلغني الميجر مور الوكيل السياسي في الكويت آنذاك انهم تركو ثمانماية قتيل على ابواب جهرا . ويقال ان عدد الجرحى منهم كان اكثر من ذلك بكثير ، وقد مات منهم حوالي اربعماية رجل قبل ان يصلوا صبيحية ، واكثر من مائة رجل ماتوا بعد ذلك .

وهكذا انتهت معركة جهرا التي يرى فيها العرب انتصاراً مبيناً للكويت في صراعها الطويل مع ابن سعود أيام الشيخ سالم .

تدخل الحكومة البريطانية

وعاد فيصل الدويش فأرسل رسالة الى الشيخ سالم من صبيحية في ١٤ تشرين الأول، طالباً منه ارسال صديقه هلال المطيري احد كبار تجار الكويت ليجري معه مفاوضات حول حل النزاع . ورفض الشيخ سالم هذا الاقتراح ، وأبلغ الدويش انه اذا كان يرغب في اجراء محادثات معه فليرسل بعثة خاصة الى الكويت لهذا الغرض .

ونتيجة لذلك أرسل الدويش بعثة برئاسة جفران الفقم في ١٨ تشرين الأول . ولكنه بدا واضحاً منذ البداية ان شروطها لن تقبل . وتتلخص هذه الشروط في ان ينضم جميع أهالي الكويت الى حركة الاخوان .

وامتنع الشيخ سالم عن مقابلة الوفد لمدة اسبوع طلب خلاله رسمياً مساعدة بريطانيا . وأخيراً استقبل الوفد في ٢٤ تشرين الاول بحضور الميجر مور الذي نقل اليهم بلاغاً، كتابة وشفاها، كانت نسخ منه قد القيت من الطائرات مسبقاً. وينص البلاغ على انه ما دامت النزاعات محصورة في الصحراء وفي جهرا ،

فإن الحكومة البريطانية لا تملك ان تفعل اكثر من استخدام الجهود الودية لصالح السلام. ولكنه اذا تعدى الامر ذلك وشملت التهديدات مدينة الكويت والرعايا البريطانيين القاطنين فيها، وتعرضت تأكيدات بريطانيا الى شيخ الكويت للخطر، فإن حكومة صاحب الجلالة لا تستطيع ان تبقى مكتوفة الايدي او ان تقف موقف المتفرج.

ومضى البلاغ قائلاً: ان الحكومة البريطانية على ثقة، كما يستدل من تصريحات ابن سعود المتكررة، ان اعمال الاخوان العدوانية جاءت خلافاً لرغباته وأوامره. ومما لا شك فيه انه أوضح ذلك فور سماعه بانباء الهجوم على جهرا.

واكد البلاغ انه اذا ما حاول الاخوان مهاجمة الكويت، فان ذلك يعتبر تصرفاً معادياً للسلطات البريطانية ولشيخ الكويت، الأمر الذي لن يترك امام حكومة صاحب الجلالة خياراً سوى معارضة الاعمال العدوانية بكل الوسائل الممكنة.

ورد جفران الفقم على ذلك بقوله ان تصرفات الاخوان المعادية للشيخ سالم جاءت بناء لأوامر مباشرة من ابن سعود. وقال الميجر مور انه لا يصدق اقوال جفران نظراً لأن ابن سعود صديق للبريطانيين وأكد لهم أكثر من مرة انه ليست لديه اية نوايا لاجتياح الكويت، وان ابن سعود رجل شريف يحافظ على كلامه.

وكرر الميجر مور تحذيراته بان بريطانيا ستقاوم أي هجوم على الكويت، وانسحب من الاجتماع.

وغادرت البعثة الكويت في اليوم ذاته وعادت الى صبيحيه يصحبها مبعوث من قبل الشيخ السالم. وعاد المبعوث في الثامن والعشرين من الشهر حاملاً رسالة فيصل الدويش يؤكد فيها انه صدق وعود الشيخ سالم التي قطعها لابن سليمان في جهرا، ولذلك امتنع عن متابعة القتال وحاول ايقاف زحف قوات ابن سعود. واستطرد قائلاً ان الشيخ سالم خدعه ولم ينفذ وعوده. وبهذا انتهت الهدنة.

وقال الرجل الذي حمل الرسالة انه عندما غادر صبيحيه كان الاخوان يحملون المـــاء استعداداً للسير نحو الصفا في صباح السادس والعشرين لانتظار الذخائر والمؤن التي ستصلهم الى هناك . وقـــد ثبتت صحة هذه الاقوال . ولم يكن منظر الطائرات والسفن البريطانية في خليج الكويت بدون اثر على قرار فيصل الدويش بالانسحاب .

وفي ٣٠ تشرين الأول ابلغ الشيخ سالم ان المندوب السامي البريطاني السير بيرسي كوكس يعتبر وقف سفك الدماء الى ان تحل القضية بين الكويت وابن سعود بصورة ودية ، مسألة ملحة للغاية . ونقل اليه ايضاً ان آبار صبيحيه يجب ان لا يستولي عليها أحـد من الطرفين المتنازعين ، وان أي عمل في غير هـــذا الاتجاه يعرض مرتكبه الى قصف الطائرات الملكية البريطانية . وقـد ارسلت رسالة مماثلة الى ابن سعود عن طريق البحرين .

على بعد ثلاثين ميلاً الى الشرق فالجنوب الشرقي من البصره تقع مدينة محمره الايرانية . وفي كانون الثاني سنة ١٩٢١ عرض خزعل خان شيخ المحمره ان يرسل ابنه الاكبر الى نجد برفقة الشيخ أحمد ابن شقيق الشيخ سالم ، لكي يحاول ايجاد صيغة لإقامة هدنة بين الشيخ سالم وابن سعود .

وقبل هذا العرض ، وتوجهت البعثة الى نجد عـــن طريق البحرين في شهر شباط . وقد وصلت البعثة الى معسكر ابن سعود في الخفس الى الشمال من الرياض في الثاني من آذار . وبعد يومين من ذلك التاريخ بلغتهم انباء وفاة الشيخ السالم . وقد توفي الشيخ سالم في السابع والعشرين من شباط بعد ان فاجأه المرض في جهرا في الثالث والعشرين .

وقد قال ابن سعود لدى سماعه النبأ انه لم يعد هنالك نزاع حله ، ولم تعـد هنالك حاجة للحدود بين بلاده والكويت .

حاكم جديد للكويت

كان من عـــادة شيوخ الكويت ان يحكموا شخصياً وبصورة اوتوقراطية ،

ويتجنبون دائماً تفويض غيرهم بالسلطة . ومن الامور التي يباهون بها ان مقابلتهم متوفرة لجميع رعاياهم بدون استثناء . وكان من عادتهم ايضاً تقبل الظلامات والمطالب شخصياً لمدة ساعتين أو ثلاث في سوق المدينة ، ويقررون حل جميع المشاكل ، صغيرها وكبيرها ، بطريقة الحكم المباشر .

ولما توفي الشيخ سالم ، كان أهل المدينة قد تعبوا من الحرب التي فرضت عليهم ضد ارادتهم ، فقرروا ان تكون لهم في المستقبل كلمة في شؤون الدولة والحكم . فأبلغوا عائلة الصباح انهم لا يقبلون إلا بالحاكم الذي يقبل بانشاء مجلس استشاري.

وقع الاختيار على احمد الجابر الصباح ، الابن الاكبر للمرحوم الشيخ جابر ابن مبارك الصباح . وكان أحمد يتمتع بشعبية كبيرة الى جانب رضا عبد العزيز آل سعود. وقد ارتقى أحمد العرش اثر عودته من نجد في التاسع والعشرين من آذار.

وقد تم الاتفاق بين الحاكم الجديد وبين اهالي الكويت على ان يحكم في جميع القضايا الجنائية بموجب الشريعة الاسلامية . وفي حال الاستئناف يجب على كل من الطرفين ان يرفع طلباً مرفقاً بصورة عن حكم القاضي إلى العلماء الذين يكون حكمهم نهائياً. أما اذا اتفق الطرفان المتخاصمان مسبقاً على رفع القضية الى فريق ثالث للتحكيم بينهما ، فيكون قرار الحكم ساري المفعول .

وعلى الحاكم ان يطلب المشورة في القضايا الداخلية والخارجية التي تهم اهل المدينة . واذا كان لأحدهم اقتراح لمصلحة المدينة ، يرفعه الى الحاكم الذي يستشير بشأنه الشعب ، ويتبناه اذا وافقوا عليه .

وتم انتخاب مجلس استشاري من اثني عشر عضواً برئاسة حمد بن عبدالله الصقر احد كبار تجار المدينة . وكان ستة من الاعضاء يمثلون المنطقة الشرقية من المدينة ، والستة الباقون يمثلون المنطقة الغربية . ولكن هذا المجلس لم ينعقد الا نادراً ، وكان الشيخ أحمد يحكم بنفس الطريقه القديمة المتبعة من قبل .

وكان الشيخ أحمد قوياً ، مرحاً ، وبهي الطلعة ، يشبه والده الى حد بعيد .. وكانت ابتسامته الجذابة المرحة تجعل منه شخصاً لائقاً بمركزه وخاصة القسم الاحتفالي منه. ويقول عنه النقاد المغرضون انه لا يملك قوة حقيقية ويتميز

بالعناد اكثر منه بالقوة . اما انا فأقول عكس ذلك تماماً نظراً لانني عرفته عن كثب مدة عشرين سنة استطاع خلالها ان يبدد كثيراً من الغيوم التي تلبدت في الجو السياسي . وقد عرفت فيه رجلا هادىء الطباع حازماً وقادراً على اتخاذ قرارات سريعة خاطفة . وكان طموحه في الحياة ان يسير على خطى جده الشهير وعلى خطى الملك عبد العزيز آل سعود .

لقد كان قطعاً ذا عقل مصيب راجح ، ويعتمد عليه في عمل الشيء الصحيح في المكان الصحيح . ولكنه ككل عربي أصيل ، كان شديد الاعتزاز بنفسه . فبينما كان يستجيب للمعاملة الطيبة الكيسة ، لم يكن يستطيع تحمل عدم اللياقة او نسيان الأذى والتغاضي عنه . وهو صعب المراس اذا تناوله المرء بصورة خاطئة .

وكان دائماً يتمتع بشعبية كبيرة بين اهالي الكويت مع انه اشتهر بالبخل والتقتير ، وخاصة بين البدو ، عندما حاول وضع امور الدولة المالية في نصابها في الفترة ما بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٣٧ ، عندما حظر ابن سعود التجارة بين نجد والكويت . ولكنه في الواقع لم يكن كذلك .

وكان حريصاً على تنفيذ وتطبيق روح الدين الاسلامي ، فتشدد في منع الخمر واخماد البغاء والدعارة . ولم يكن هو يدخن التبغ اطلاقاً .

وتصرف تجاه البريطانيين بصورة حسنة ، فأعطوه جميع التأكيدات التي أعطيت لأسلافه من قبل . وكان يحب الاستقبال والترفيه على الطريقة البريطانية فخصص جناحاً في قصر دسمان وأثثه على طريقة المنازل الاوروبية . وكان مولعاً بالبنادق والمسدسات والصور السينمائية وآلات التصوير والسيارات وغيرها من المخترعات الحديثة . وغالباً ما كان يشاهد وهو يقود سيارته بنفسه . وكان قناصاً ماهراً يجيد الرماية . ويمكن التدليل على أفكاره الغربية في الرياضة من تشدده ضد صيد الغزلان بواسطة السيارات .

ولد الشيخ أحمد سنة ١٨٨٥ وكان في السادسة والثلاثين عندما ارتقى الى العرش وظل فيه حتى وفاته سنة ١٩٥٠ .

حب سعود العرفه لنورا

السيدة نورا امرأة رائعة ، تشبه بشخصيتها واخلاقها وكرمها وجاذبيتها شقيقها الكبير ابن سعود . وكان شقيقها يقيم وزناً كبيراً لأفكارها وآرائها السياسية . وعندما كانت تنعقد امور الدولة ، كان يختلي بها ساعات طويلة ليتلقى منها النصح والرأي .

وكانت نورا متزوجة من سعود العرفه آل سعود حفيد سعود بن فيصل آل سعود الامير الثاني عشر في نجد . ويقال ان هذا الزواج كان وليد حب جارف بالنسبة لسعود العرفه ، ولكنه بالنسبة لابن سعود كان ذا ابعاد سياسية . الم يكن فرع عرفه من آل سعود مصدر خطر دائماً ؟ وأخيراً وليس آخراً ، اليست هنالك اواصر قربى بينهم وبين قبيلة عجمان التي كانت دائماً شوكة في جنب الحاكم ؟

فقد كانت قبائل عجمان ومره تنظر بعين العطف الى سعود العرفه لأن أمه وضحى تنتسب الى بيت الشيوخ الحاكمين في عجمان . فهي ابنة الشيخ حزام الهذلان . وكانت هذه القبائل تعتبره شيخها وتتبعه على بكرة أبيها اذا ما نشأ خلاف في العائلة المالكة . وفي حياة ابن سعود كانت القبائل اذكى من ان تظهر كثيراً من الولاء لسعود العرفه ، لان الملك يعرف كل شيء ولا يخطىء شيئاً . ومع ذلك كانوا يلقبونه بسعود الكبير ولا يزالون الى اليوم .

وكان سعود العرفه شديد التعلق بنورا فكان أحياناً يصرح أمام اصدقائه في عجمان بقوله : نورا .. لا استطيع ان أعيش بعيداً عنها . . انها الضياء في ناظري .

وفي صيف سنة ١٩٢١ جهز ابن سعود نفسه لإخضاع اواسط الجزيرة العربية لسلطانه بالاستيلاء على حايل وتحطيم سلطة آل الرشيد الى الابد . وفيما يتعلق بذلك اخبرني ظنيفر ابن حويلة من عجمان القصة التالية قال :

عندما خرج عبد العزيز لغزو ابن رشيد في حايل ، امر القوم ان يتجمعوا على بعد عدة أميال من الرياض تأهباً للسير نحو الحرب الجديدة . ومعه ذهب

سعود العرفه بعد ان ودع زوجته الحبيبة نورا .

وشاء الله أن يتأخر الزحف عدة أسابيع . وقبل المسيرة النهائية ، اشتاق سعود العرفه لنورا وأراد أن يلقي عليها نظرة أخرى ، فتخلف عن الجيش سراً وامتطى حصانه عائداً الى الرياض على بعد ثلاثين ميلاً ، فوصل الى المدينة عند غروب الشمس . وهناك تنكر لئلا يعرفه الحراس عند الباب ويكتشفوا انه تخلف عن الجيش .

ترك سعود حصانه بين أشجار النخيل خارج المدينة، واقتطع عدة شجيرات حملها على رأسه ودخل المدينة بجرأة كأنه حطاب . وغطى وجهه جيداً فاستطاع أن يمر دون أن يشعر به الحرس . ولكنه سمع رجلاً شيخاً يقول لآخر في الشارع : يا لله.. ان مشية هذا الرجل تشبه مشية الامام أو مشية سعود العرفه .

وأسرع سعود نحو قصر زوجته فوصله عند حلول الظلام ، فاستقبل بصرخات الفرح وسرت نورا بقدومه كثيراً . وقبل أن تستفسر عن سبب قدومه أمرت بإغلاق جميع النوافذ والأبواب حتى يبقى قدوم زوجها سراً . وأمرت جميع خدامها وعبيدها بعدم التفوه بحرف واحد تحت طائلة الموت ، ومنعتهم جميعاً من مغادرة القصر مهما كانت الظروف . وعندما سألته عن سبب مجيئه قال : يا نورا لم استطع الذهاب دون ان أقضي ليلة أخيرة معك .

وتضاجعا تلك الليلة . وعند الفجر نهض سعود العرفه ليغادر القصر . ولم تسمح له نورا بالذهاب إلا بعد أن أتت بخادمين مخلصين ليشهدا أن زوجها عاد تلك الليلة وضاجعها . ولم تكتف بذلك بل حملته على توقيع ورقة يقول فيها انه تخلف عن الجيش تلك الليلة وعاد الى زوجته متنكراً ليقضي الليل معها . وبررت نورا له ذلك بقولها : ذلك يا سعود يثبت لأخي وللعالم أجمع انني إذا حملت ، تكون أنت والد الطفل وحتى لا يظن بي السوء .

وعاد سعود العرفه وانضم الى قوات ابن سعود . وسقطت حايل في شهر آب . واغتصب ابن سعود لقب أمير جبل شمر وأرسل من بقي حياً من آل الرشيد الى الأسر في الرياض .

الفصل الحادي عشر

تخطيط الحدود

١٩٢١ - ١٩٢٣

عودتي الى العراق

بعد القيــام بواجبي في البحرين ، أعدت الى العراق ضابطاً سياسياً في لواء الحلة . وكانت معي هذه المرة زوجتي فيوليت بنلوب لوكاس – كالكرافت التي تزوجتها في بومبــاي في كانون الاول سنة ١٩٢٠ . ووصلنا الى البصرة في أول كانون الثاني سنة ١٩٢١ ، توجهنا بعدها الى بغداد حيث قضينا عشرة أيام مـــع عائلة فيلبي قبل أن أتسلم مهام منصبي في الحله .

مهمتان كبيرتان كان علي انجازهما في الحله : أن اعيد تنظيم الادارة المحليـة بعد ان دبت فيهـا الفوضى على اثر الثورة ضد البريطانيين سنة ١٩٢٠ ، وان أحاول لأم الجراح واصلاح الامور بين البريطانيين والعرب بعـد المعاملة القاسية التي تعرضت لها القبائل العربية حول الحله على يد الجيش البريطاني .

وبدأت أبحث عن موظفين عرب اكفاء ليشغلوا المناصب الادارية الشاغرة . وكان بين الذين عرضوا خدمـاتهم ، عبدالله ابن أحمد باشا السنا الذي كان والده أحمد باشا ، وهو نجدي الأصل، اول متصرف في البصره بعد الاحتلال البريطاني

(1) - عبدالله بن أحمد باشا الصانع

سنة ١٩١٥ . وبرهن انه صديق مخلص للانكليز حتى وفاته . وقد كتب لي أحمد باشا رسالة يوصيني فيها بابنه ، تاركاً لي الحرية ان أتصرف به كما أشاء .

وأصبح عبدالله السنا قائمقاماً على الحلة وأظهر منذ البدايـــة مقدرة فائقة . وقد نال تقدير المندوب السامي والحكومة المركزية لأنـــه استطاع حل عدة مشاكل معقدة وخطرة بين القبائل ، أظهر خلالها شجاعة شخصية نادرة . وقد دفعته الى كل ما يستحق .

قصف مسجد الإمام علي

وحدث مرة أن توجهت الى بغداد لمقابـــلة المندوب السامي السير بيرسي كوكس . وفاجأني حال وصولي بسؤال عما اذا كنت أعرف السيد كاظم اليزدي الذي سعيت الى مشورته كثيراً عندما كنت في سوق الشيوخ. وأجبت المندوب السامي بانني لم أقابل الرجل ولكنني كنت أراسله فترة طويلة من الزمن .

« ذلك يكفي » قال السير بيرسي وسلمني على الفور رسالة شخصية منه الى المجتهد الاكبر ، أمرني ان احملها بأقصى سرعـــة الى النجف الاشرف وأسلمها بيدي الى السيد كاظم .

وأبلغني السير بيرسي ان حادثاً مؤسفاً وقع عندمـــا كان احد الطيارين البريطانيين يقوم بحملة تأديبية على فرع المشخاب من الفرات بالقرب من قرية ابو صخير . وقد ألقى الطيار المذكور صدفة قنبلة سقطت فوق الكوفة وهي مدينة على النهر تبعد اثني عشر ميلاً عن النجف . وقد أصابت القنبلة الجدار الخارجي لمسجد الامام الاعلى ففتحت فيه ثغرة كبيرة . ومع إن هذا الحادث المؤسف كان خطأ غير مقصود البتة، لكنه كان كافياً لإشعال نار الثورة بين الشيعة في مقاطعة أود الهندية ، وأوشك ان يحرك جميع الشيعة في العالم ضد الانكليز. وقد نشأت اضطرابات بالفعل في كل مكان ، وكانت إيران ، بصورة خاصة ، تغلي .

وشرح السير بيرسي في رسالته الى السيد كاظم ان القنبلة ألقيت عن غـــير قصد ، وان الضابط الطيار قـــد عوقب لفعلته . وخلص الى الاعتذار نيابة عن

حكومة صاحب الجلالة وعن نفسه لما حدث ... الخ

وحملت الرسالة دون ابطاء وتوجهت الى النجف. وهناك ذهبت الى المتصرف حميد خان وطلبت منه ان يأخذني لمقابلة السيد كاظم اليزدي على الفور . ولم تمض نصف ساعة حتى كنا في غرفة الاستقبال عند المجتهد الأكبر . ولم يكن السيد كاظم قد حضر بعد . وكانت الغرفة عبارة عن حجرة صغيرة لا مقاعد فيها ولا مساند باستثناء حصيرة خشنة من أوراق البردي . وقد ترك ذلك انطباعاً رائعاً في نفسي عن الرجل الذي يقود نصف العالم الاسلامي .

وجلست أتحدث الى حميد خان والى كاتب شاب لمدة عشر دقائق قبل ان يدخل علينا الرجل الكبير . وكان السيد كاظم صغير الحجم ، طاعناً في السن ، وعلى رأسه عمامة خضراء . وكانت لحيته طويلة صبغها بلون الحنة .

وقد حيانا بأدب جم واستقبلنا بعينين تطفحان بشراً بالرغم من السنوات السبعين المحفورة فيها . وبعد ان تناولنا الشاي المصنوع على الطريقة الفارسية ، استأذنته في الكلام . فقلت اني أحمل اليه رسالة من صديقه المندوب السامي في العراق ، أبلغت ان أسلمها يداً بيد مع فائق الاحترام والتبجيل . وتناول السيد كاظم الرسالة ووضعها امامه على الأرض دون ان يفتحها وسألني :

من أنت ؟ إنك تتكلم العربية جيداً .

وأجبته بقولي :

— سيدنا، أنا تلميذك ، حافظ جميلك، في سوق الشيوخ. أنا الانكليزي المسمى بدكان وقد ساعدتني قدامتك مراراً في حل المشاكل المستعصية منذ عدة سنوات .

وغمرني الرجل الشيخ بيديه ونظراته قائلاً :

— يا بني .. يا بني .. انه سرور عظيم .

وانتقل بعدها الى التكلم بلغة فارسية رفيعة وظل لمدة ثلاث دقائق يطرب اذني بالمديح والاطراء الذي بلغ الجوزاء . ولكنني لم أفهم إلا فحوى كلامه لا أكثر . وبعد أن انتهى من الكلام تجرأت وقلت له :

ـ يا سليل النبي ، اعذرني لأنني لا افهم الفارسية جيداً فهل تسمح بإعادة ما قلته باللغة العربية ؟

وضحك السيد كاظم طويلا وغمز بعينه مازحاً ثم أعاد ما قاله من قبل بلغة عربية فصحى من صميم القرآن وهي اللغة الكلاسيكية المعروفة بين الكتاب والأدباء بالنحو . وبعد نهاية حديثه قلت له وقد لفني الخجل والإحراج :

ـ أعذرني وسامحني يا سيدنا .. لم أفهم ما قلته بعد. فهل تزعج نفسك وتلقي على مسامع تلميذك ما قلته باللغة العربية العادية ؟

وضحك الرجل ثانية وقال :

ـ سأفعل جهدي يا بني .. ولكن يجب أن تتعلم أجمل لغتين في الدنيا: الفارسية والنحو .

وأخذ يخاطبني بأجمل العبارات وألطفها بلغة أهل الاهوار في سوق الشيوخ وبحيرة الحمار . لقد كان كلامه أشبه بكلام امرأة من الاهوار تخاطب ابنها . وفهمت كل كلمة قالها وعجبت كثيراً . ورأيت أنه أراد ان يختبرني ببلاغته والآن أراد ان يجعلني أشعر انني من أهل البيت . ومنذ احساسي بهذا التملق شعرت براحة كبيرة .

وبعد ذلك أخذ السيد كاظم رسالة السيد بيرسي ففتحها وقرأها . وكنت أنا أراقب تقاطيع وجهه وهو يتأمل الرسالة ويفكر في مضمونها . وأخيراً التفت إليّ وقال لي بهدوء :

ـ لم تلق أية قنبلة على مسجد الإمام علي في الكوفة. من قال ذلك؟ انها كذبة يقصد بها الإجحاف بالإنكليز . يجب أن أعرف .

وأكدت له بكل تواضع ان ما ورد في الرسالة صحيح مع الأسف ، وان السير بيرسي لم يكن ليكتب له رسالة بهذا المعنى لو لم يتأكد من صحة الخبر .

وانتفض قائلاً :

ـ لا . لا انها أكذوبة شريرة. إن شيئاً من هذا لم يحدث. سأكتب الى السير بيرسي كوكس بهذا المعنى .

وعندئذ غامرت وقلت :

– إذن، لماذا لا تصدر فتوى أيضاً تعلن فيها ان القصة مصطنعة من أولها الى آخرها .. وانه لا خوف أبداً من ان تكون هنالك نية للتعرض للدين الاسلامي ؟

فضحك ونص على كاتبه الصيغة التي يجب ان تكتب بها الفتوى . والتفت إليّ بعد ذلك وأخذ يشيد بالسير بيرسي كوكس قائلاً انه رجل عظيم جداً يعرف كيف يتصرف في المسائل الشائكة . وخاطبني قائلاً : أبلغه انني أشكره لمعرفته بكلام الله في القرآن الكريم وقوله تعالى مخاطباً بني الانسان : ادخلوا البيوت من أبوابها .. لا تنزلوا من السطح . وفي هذه الحالة يكون السير بيرسي قد فهم تماماً أين هو باب هذا البيت .. ولذلك أقول انه لم تلق أية قنبلة في الكوفة لا صدفة ولا غير صدفة .

وحملت الرسالة والفتوى وعدت مسرعاً الى بغداد . وقد سر السير بيرسي كوكس سروراً عظيماً بالفتوى . فصورها وطبع عنها مئات النسخ وأمر بتوزيعها في لكنو وغيرها من مدن الهند ، وفي طهران ، وفي مدن العراق الرئيسية . وقد كان اسم السيد كاظم اليزدي وخاتمه المعروف في اسفل الفتوى كافيين لإخماد كل اضطراب .

وتبقى حقيقة صارخة وهي ان القنبلة ألقيت ودمرت الزاوية الشمالية الغربية من جدار مسجد الامام علي في الكوفة . ولكن تلك هي حكمة السير بيرسي كوكس وعظمة صديق بريطانيا السيد كاظم اليزدي .

معاهدة محمره

وفي ربيع سنة ١٩٢٢ قامت قبائل نجد بعدة غزوات على الأرض العراقية . وكذلك قامت قبائل شمر ، التي لم ترض بسيادة ابن سعود فلجأت الى لواء الحلة في العراق ، بغزوات معاكسة ، مما أوجب اتخاذ إجراء لوقفها . وقد تكررت هذه الغزوات ، والغزوات المعاكسة ، والدعايات المناوئة لابن سعود في العراق .

في خريف وشتاء سنة ١٩٢٧ – ١٩٢٨ .

وأعتقد ان بعض المسؤولين البريطانيين والعرب في العراق لم يعرفوا ان المشكلة في أساسها اقتصادية بحتة ، زادها سوءاً العداء الشخصي المستحكم بين الملك فيصل الأول وابن سعود .

انه لأمر معروف جيداً ان القبائل الشمالية والشمالية الشرقية في نجد، وخاصة عجمان وحرب ومطير وشمر وعوازم وظافر الأقرب الى العراق ، لا تستطيع أن تكتفي نفسها في بلادها . ولذلك ، ومنذ قرون ، ترحل كل سنة في أشهر الخريف نحو الفرات والكويت، حتى تحصل على ضرورات الحياة، وهي بالنسبة لها ثلاث : التمر، والأرز، ومراعي الجمال. وهنالك مراع غنية تقع إلى الجنوب من الفرات وتمتد من كربلاء الى الخليج الفارسي . وهذا الكلام ينطبق أيضاً على قبائل عنيزة الشرقية – عمارات والدهامشة – . ولكن بعض شيوخ هذه القبائل كانوا يملكون أرضاً في جوار كربلاء ، فلذلك يصنفون ضمن القبائل العراقية ولا حاجة إلى التعرض لهم هنا .

أما الطرق والسبل التي كانت تسلكها قبائل شمر وغيرها في هجرتها السنوية، فقد كانت منذ أقدم الازمان كما يلي :

شمر وحرب تتجهان نحو الشنافية (قرب النجف) ونحو السماوى . أما الفروع الشرقية فكانت تتجه نحو الزبير .

ظافر كانت تتجه نحو السماوي والناصريه وسوق الشيوخ .

مطير نحو الكويت والزبير

عجمان وعوازم نحو الكويت .

والطرق المتبعة هي نفسها . يقوم البدو بتقديم الهدايا الى القبائل القوية المسيطرة على المنطقة (كشيوخ آل السعدون في المنتفق مثلاً) ويطلبون السماح لهم بأن يخيموا قرب النهر . ومن تلك المخيمات كانوا يندفعون كل واحد نحو المدن والقرى المنتشرة على الفرات لشراء حاجياتهم .

ولم يكن يرد مثل هذا الطلب لأن الفريقين يستفيدان : فالبدوي من

الصحراء يجلب معه الجمال والمال ، بينما كان ابن الفرات يبيعه ما لديـــه من تمور وشعير وارز . فيجدد بندقيته وذخيرته .

وكانت مدن الفرات وقبائله — والكويت ايضاً — ترحب بهـذه الهجرات السنوية . وكان البـــدو من شمال نجد ينظرون الى العراق والكويت على انها سوقهم الطبيعية في نهاية كل صيف وبداية كل شتاء ، عندمـــا تقل المراعي في اوطانهم ويصبح الرحيل امراً لا بد منه . واذا ما رفضت قبائـــل النهر السماح للبدو بالمرور الى الفرات للمسابلة فإن ذلك يكون بمثابة اعـلان الحرب ، وتنتج عنه مشاكل كثيرة . ولكن ذلك لم يحدث إلا نادراً وفي الاحوال التي يستفحل فيها العداء بين رؤساء الدول كأمراء حايل ، وآل سعود، وشيوخ آل السعدون في المنتفق وغيرهم .

وقد بدأت سنة ١٩٢٢ بمثل هذا الوضع المشحون بالعداء مما ادى الى قيـام تلك الغزوات والغزوات المعاكسة التي اشرنا اليها .

وفي الخامس من ايار وقع ممثلون عن الحكومة البريطانية وممثلون عـن نجد معاهدة محمره التي نصت على وجوب معاقبة القبائل التي تبـدأ الغزو ، كما نصت على وجوب تأمين سلامة طريق الحج ، وتطرقت الى مشكلة الحدود بين العراق ونجد . وظلت تلك المعاهـــدة خاضعة لاقرار المندوب السامي في العراق وابن سعود .

« اميرال » القطيف الاسود

في ايلول سنة ١٩٢٢ ارسلني السير بيرسي كوكس الىالبحرين في مهمة خاصة وهي الاتصال بابن سعود واقناعه بالمجيء الى عقـــير على الساحل للاجتماع بالسير بيرسي وبحث مسألة الحدود. وأبلغني السير بيرسي انه لن يغادر العراق الى عقير الا إذا أبرقت له بأن ابن سعود غادر الرياض فعلاً الى مكان الاجتماع .

وكان الميجر دالي الذي خلفني كوكيل سياسي على البحرين يقضي اجـازته وقتئذ فيالهند ، فنزلت انا وزوجتي في ضيافة عبد العزيز القصيبي الممثل التجاري

لابن سعود في البحرين . وأحسن عبد العزيز القصيبي وفادتنا في منزله الكائن على شاطىء البحر شرقي مبنى الجمارك. وقد ابلغت القصيبي اسباب زيارتي للبحرين. واحتللت انا وزوجتي غرفتين واسعتين مريحتين في الطابق العلوي. ولما كنا نفرغ من كتابة التقارير ، كنا نقوم برياضة ركوب الخيل التي صحبناها معنا الى البحرين ، في أرض منامة وبديعة .

وبدأت عملي بمراسلة ابن سعود وأخذت أستميله شيئاً فشيئاً الى قبول فكرة المؤتمر في عقير . ولكن الصعوبة كانت في استدراجه الى تحديد موعد لعقد المؤتمر .

وأذكر أنني كنت قد تقربت من ابن سعود عن طريق العمل الممتاز الذي ادته زوجتي التي كانت تعمل سكرتيرة خاصة لي وتطبع رسائلي . فكانت تترجم له الى الفرنسية برقيات رويتر اليومية التي كانت تردني ، وترسلها بأسرع ما يمكن الى الرياض حيث كان يترجمها الى العربية الدكتور عبدالله سعيد الدملوجي الذي كان بمثابة وزير خارجية ابن سعود .

وبعد وصولنا الى البحرين بشهرين قصدني عبد العزيز القصيبي وقال ان رجلا يدعى الميجر فرانك هولمز وهو مهندس تنقيب ، وآخر يدعى الدكتور مان وكلاهما ينتميان الى الشركة الشرقية العامة المحدودة في لندن ، سيتوجهان قريباً الى خارج البحرين للعمل ، وسيحفظان الفضل لي اذا قبلتهما في منزلي طوال مدة اقامتهما في البحرين . وقد قدم الرجلان الى البحرين بناء على تعليمات ابن سعود وسيخرجان الى البر حالما يتلقيان كلمة منه .

وقد أثار هذا الكلام شكوكي رأساً. فعندما كنت وكيلا سياسياً في البحرين قبل سنتين سرت شائعات قوية مفادها ان هنالك منابع للنفط وراء واحة القطيف على بعد ستة أميال الى الشمال الشرقي من مدينة القطيف . وقمت في ذلك الوقت بعدة جولات تفتيشية في المنطقة بحثاً عن تلك المنابع ولكن لم الاق اي نجاح .

وقمت بعد ذلك بإذن من ابن سعود بجولة على ظهر الجمال والحمير في كل منطقة

جبل الظهران ظناً مني ان الشائعات التي أطلقها البـــدو قد أخطأت المكان . وكنت على يقين ان تلك الشائعات ليست بدون أساس ، لأنني عندما كنت في القطيف عبرت الى دارين عاصمة جزيرة طاروت حيث اطلعني الشيخ جاسم بن عبد الوهاب باشا الذي يقيم هناك على نسخة من تقرير تركي يفيد بأن منابع للبترول موجودة فعـــلاً وراء القطيف . اما التقرير الاصلي فقد ارسله المتصرف التركي في الاحساء الى استانبـول عندما كان الاتراك يحتـــلون المنطقة قبل عدة سنوات .

وقد بدا واضحاً ان ابن سعود علم بالتقرير التركي فأرسل في طلب الميجر هولمز للبحث عن البترول ، ولذلك كان يتهرب من تحديد موعد للمؤتمر لأنه يريد ان يقابل الميجر هولمز اولاً. واتضح لي ايضاً ان الميجر هولمز قد يحاول الحصول على امتياز للتنقيب عن البـــترول من ابن سعود اذا كانت ابحاثه الأوليـة تبشر بأي نجاح .

وفي الوقت الذي كنت فيه أفاوض ابن سعود للوصول معه الى موعد محـدد لمؤتمر عقير ، كنت أقضي بعض الوقت في الكتابة الى السير بيرسي عن آرائي في قضية البترول،ووصفت له مفصلاً زياراتي الى البر بحثاً عن المنابع.وكانت زوجتي تطبع كل تلك الرسائل والتقارير ولذلك كانت مطلعة على القضية من أولهـا الى آخرها ، فشاركتني شكوكي عندما علمت بالزيارة المقترحة التي سيقوم بهـا ممثلا الشركة الشرقية العامة الى منزلنا .

وأرسلت برقية بالشيفرة الى السير بيرسي اخبرته فيها عن زيارة الميجر هولمز وضمنتها شكوكي بان الميجر هولمز قـــدم ليطلع ابن سعود على امكانيات وجود البترول في جوار القطيف وجبل الظهران ، وان ابن سعود قد يثير هـذه القضية اذا جاء الى عقير لحضور المؤتمر الخاص بتخطيط الحدود. وبذلك تكون رسائلي السابقة أساساً مفيداً للتطورات الجديدة .

وفي اليوم التالي وصل الميجر فرانك هولمز والدكتور مان الى منزلي بصحبة القصيبي ليقيا معنا . وقد استرعى انتباهي وانتباه زوجتي امران مسليان للغاية

أولها مظهر الميجر هولمز . فقــد كان يحمل مظلة كبيرة بيضاء ذات خطوط خضراء ، وعلى رأسه قبعة بيضاء كالتي يلبسها الجنود الفرنسيون في افريقيا ، وفوق قبعته ووجهه كان يضع قناعاً شفافاً أخضر اللون تماماً كالصور التي يشاهدها المرء للسياح الذين يذهبون لزيارة الاهرام. والشيء الآخر الذي استرعى انتباهنا هو ذلك العدد الضخم من الهدايا التي حملها هولمز الى ابن سعود . فقد حمل معه ما لا يقل عن خمسين حقيبة وصندوق وبنادق .

ولم يمض وقت طويل حتى شعر الضيفان وكأنهما في منزلهما . وكان الميجر هولمز رجلاً لطيفاً ومرحاً للغاية ويروي قصصاً أشبه بالخيال . وكان يضفي جواً من المرح وخفة الظل ولكنني اكتشفت انه مريض يعاني من ألم في المرارة. وظل دائماً يتساءل كيف سيستطيع القيام برحلة على ظهر الجمل الى الهفوف وربما الى أبعد من ذلك . وقد أعطيته بعض المعلومات والملاحظات التي تفيده اذ انني قمت بمثل هذه الرحلة من قبل عندما كنت وكيلاً سياسياً في البحرين .

وبعد اسبوع من الزمان حان موعد رحيلهما فأحضر لهما زورقان بخاريان ربطا أمام منزلي . وبينما كنا نتناول طعام الافطار سألت الميجر هولمز عن سبب حاجته الى زورقين اثنين فأجاب قائلاً :

– واحد للدكتور مان الذي سيذهب عن طريق عقير والآخر لي لأنني سأقوم برحلتي عن طريق القطيف .

وأبديت دهشتي قائلاً :

– ولكنك مريض ! لماذا تركب مئة ميل على ظهر الجمل في الوقت الذي لا تحتاج فيه إلى الركوب أكثر من خمسين ميلاً إذا سافرت عن طريق عقير ؟

وفجأة اعترته الدهشة وبدأ يطلق كلاماً غامضاً وقال :

– يا دكـون انني من هواة جمع الفراشات . وقد أبلغت ان مجموعة من الفراشات السوداء عجيبة لا يوجد نظير لها في العالم يمكن العثور عليها في واحة القطيف ، ولذلك فقد أطلقت عليها اسم « اميرال القطيف الأسود » وسأتوجه للحصول على عينة منها ستكون سبب شهرتي وارتفاع شأني !!

وكان هولمز منهمكاً في أكل قطعة من البيض ولحم الخنزير عندمـــا فجرت زوجتي قنبلتها . فقالت بصوت هادىء :

– يا ميجر هولمز ، إنها المرة الأولى التي أسمع فيها ان منابع البترول تسمى باسم الفراشات .

وكان تأثير كلمات زوجتي سريعاً ، فقفز هولمز من مقعده وقال مذعوراً :

– بربك ماذا تقصدين يا سيدة ديكسون ؟

– الذي قلته تماماً .

وارتد هولمز الى الوراء قليلاً ثم اندفع حول المائدة وأمسك زوجتي من يدها وقال متعجباً :

– يا لله .. انك امرأة رائعة .. سأبرق اليوم إلى مدير حدائق الحيوان في لندن وأطلب منه أن يضمك الى مجلس إدارة الحدائق .

وقد حافظ هولمز على كلامه ، فبعد فترة قصيرة تلقت زوجتي رسالة لإعلامها بأنها انتخبت عضوة في المجلس .

وتركنا الرجلان وسافرا في الزورقين على ان نلتقي بالميجر هولمز ثانية .

مؤتمر عقير

في العاشر من تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ أبلغني ابن سعود خطياً أنه سيصل الى عقير في الحادي والعشرين من الشهر نفسه ، فأبرقت إلى السير بيرسي كوكس لإعلامه . وتلقيت من السير بيرسي جواباً يفيـــد بأنه سيحضر الى البحرين على ظهر إحدى السفن الملكية طالباً مني ان أدبر أمر سفره الى عقير . وقـال إنه سيصحب معــه صبيح بك الوزير العراقي للمواصلات والأشغال ، والميجر مور الوكيل السياسي في الكويت الذي سيمثل الشيخ أحمد الجابر حـاكم الكويت ، والشيخ فهد بك الهذال رئيس فرع عمارات في قبيلة عنيزه ، ومساعده الشخصي وهو ضابط سابق في سلاح البحرية البريطانية ، وعـــدد من الموظفين والكتبة العرب .

وقد وصل هـذا الفريق في الموعد المحدد واتجهنا جميعنا إلى عقير في زورق بخاري يملكه عبد العزيز القصيبي .

وكان ابن سعود قد وصل قبلنا فأقام خياماً بيضاء من كل حجم على بعـد نصف ميل الى الغرب من الحصن القديم حيث توجد دائرة الجمارك .

واصطحب ابن سعود معه صهره سعود العرفه آل سعود الذي كان في يوم من الأيام ثائراً على سلطته ، وعبد اللطيف باشا المنديل ، وهو تاجر نجدي مرموق له أعمال مصرفية في البصره ، والشاعر والمؤرخ اللبناني أمين الريحـاني ، وعدد من الموظفين بينهم الدكتور عبدالله سعيد الدملوجي ، وحرسه الخاص المؤلف من حوالي ثلاثمائة رجل . وكان هنـاك أيضاً الميجر هولمز الذي التقى ابن سعود في الهفوف وجاء معه .

ونصبنا خياماً مريحة للاقامة فيها ، وخيمة كبيرة على الطراز الأوروبي كما يسميها الهنود لتكون بمثابة غرفة للاجتماع وقاعة للطعام . وقد أقـام ابن سعود خيمتين بيضاوين عليهما مظاهر الفخامة ، واحـدة للاستقبال وأخرى للنوم والراحة .

واستقبلنا ابن سعود جميعنا استقبالاً ملكياً رائعاً باستثناء فهد بـك الهذال الذي أزعج وجوده ابن سعود الذي تصرف بشكل يراد منـه اطلاع الحاضرين على أن فهد بك شخص غير مرغوب فيه . فمـا كان من فهد بك إلا أن انسحب الى خيمته وظل قابعاً فيها طوال فترة انعقاد المؤتمر وهي سبعة أيام بسبب تلك الإساءة .

لقد أخطـأ السير بيرسي في إحضار فهد بك معه ، لأن فهد بك ونوري الشعلان زعيم فرع الروَلي في قبيلة عنيزه يعتبران نفسيهما زعيمي اتحاد قبائل عنيزه كلها، ويدعيان أنهما أعلى منزلة من آل الصباح في الكويت ومن ابن سعود نفسه . إذ انـه أمر طبيعي ان يتعض عبد العزيز آل سعود سيد الجزيرة العربية من وجود احد أفراد القبيلة مهما علا شأنه في مخيمه او في المؤتمر ، ينظر إليه وكأنه أوضع منه نسباً .

كان هم المؤتمر الاساسي تخطيط الحدود بين العراق ونجد . وكان يمثل العراق صبيح بك ويمثل نجد ابن سعود . اما السير بيرسي فكان بمثابة الحكم الذي ظل دائماً كأبي الهول صامتاً صبوراً رحب الصدر يضفي على الجو انفاساً من المرح والهدوء ، ولكنه كان مصمماً ان لا يذهب إلا وقد وضع صيغة للاتفاق في جيبه .

وكانت المحادثات مثالاً رائعاً للمساومات المتبعة عندما يلتقي ممثلو دولتين شرقيتين كبيرتين لحل مشكلة من المشاكل . فلم يكن هنالك أخذ ولا عطاء من اي نوع منذ البداية ، اذ أن كلا الطرفين ظلا طوال الوقت يعرضان مطالب عجيبة غريبة . ومثالاً على عقم تصرفات المفاوضين الرئيسيين سأذكر حادثة وقعت بعد فترة قصيرة من ابتداء المؤتمر . فبعد ان القى الجانبان خطباً ترحيبية تقليدية، ألقى السير بيرسي كلمة أعرب فيها عن رغبة حكومة صاحب الجلالة ، صديقة الطرفين،في الوصول الى حل ودي،وطلب من صبيح بك ان يعرض وجهة نظر العراق فيما يعتبرة خطاً عادلاً للحدود . ونهض صبيح بك وقال :

« منذ ان خلق الله العالم ومنذ بدء تدوين التاريخ وحدود العراق تمتد جنوباً الى بعد اثني عشر ميلاً عن الرياض عاصمة ابن سعود . وتلتف هذه الحدود غرباً الى البحر الاحمر فتشمل حايل والمدينة وينبع ، وشرقاً فتضم الهفوف والقطيف على الخليج الفارسي . ويشهد الله ان هذه وهذه فقط هي الحدود الصحيحة بدون منازع .

« لست أعرف شيئاً عن الخليقة ولكنني أعرف انه منذ أيام ابراهيم ، جدي الأكبر ، واراضي نجد وعالم البادية يمتدان شمالاً الى حلب ونهر العاصي بشمال سورية ويضمان كل البلاد الواقعه على الضفة اليمنى من نهر الفرات حتى البصره على الخليج الفارسي .

بمثل هذا الكلام بدأت المناقشات واستمرت خمسة أيام كاملة .

ومع ان ابن سعود كان يعتبر نفسه حليفاً وصديقاً لبريطانيا ، إلا انه كان يشعر بأنه مطوق من جميع الجهات بعدد من الدويلات الدمى التي خلقتها حليفته .

إن عواطف ابن سعود الحقيقية كانت مع شعبه الذي يرغب في طرد الملك حسين من الحجاز في الغرب، واجتياح شرق الاردن في الشمال الغربي ، والغزو في أرض العراق والكويت شمالاً كما في السابق. ولكنه كان يعرف تماماً ان تحدي بريطانيا سيكون كارثة عليه . فقد تصرف في مؤتمر عقير على أساس ان ممثليه في محمره عملوا بعكس تعليماته في موافقتهم على امكانية وضع خط ثابت للحدود بين العراق ونجد .

وقد عمل ابن سعود المستحيل لحمل المؤتمر على وضع حدود عشائرية بدل خط تحكيمي برسم على خارطة، على اساس تصنيف القبائل التي تذهب الى نجد وتلك التي تذهب الى العراق والكويت . فبدا بالإصرار على أن ظافر وهي قبيلة من البدو في العراق هي له ، ولذلك فانه من الضروري ان تمتد حدوده الى الفرات، لا لأنه يرغب في السيطرة على النهر بل لأن ظافر والقبائل البدوية الكبيرة الأخرى تنتقل سنوياً الى الفرات ولا يمكن ان تحرم هذا الحق لأنه مسألة حياة أو موت بالنسبة لرجال الصحراء .

ولما أشار السير برسي ان هذا الادعاء غريب ولا يمكن أن يجري بحثه ، تخلى ابن سعود عن قبيلة ظافر وتبنى خطاً أكثر تعقلاً على أساس الحدود العشائرية يضمن حقوق القبائل العائدة له ويمنع قيام اضطرابات في المستقبل . وقال انه من السهل وضع نظام للآبار والمراعي التي تملكها كل قبيلة لأنه منذ أيام ابراهيم وكل قبيلة تعرف آبارها ومراعيها من تلك التي ليست لها .

واقترح ، على سبيل المثال ، ان تشكل الحدود الآبار الواقعة الى أقصى الجنوب والتي تدعي ملكيتها عنيزه وظافر وقبائل الكويت (باستثناء مطير وعوازم وعجمان التي أكد ابن سعود انها تقع تحت سيطرة حكومته) ، اما الآبار التي عرفت بانها ملكية مشتركة كتلك التي بين عنيزه وظافر وبين ظافر ومطير ، فيجب ان تعلن منطقة محايدة .

ولما سئل كيف يستطيع اثبات ملكية هذه الآبار أجاب بأن جميع أهل الصحراء يعرفون ذلك كضوء النهار ، فضلاً عن ان هنالك وصمات قديمة العهد

موجودة على جدران الآبار الداخلية . وفي حال حدوث نزاع فان أهل الخبرة يستطيعون تصحيح الأمر .

والى جانب ذلك اصر ابن سعود على حق قبائل نجد في الوصول الى الفرات لشراء حاجياتهم كل سنة .

وأعلن صبيح بك عندما سئل عن رأيه في تلك المرحلة من المحادثات ، ان العراق لن يقبل بأي تخطيط للحدود يعطيه أقل من مائتي ميل الى الجنوب من الفرات .

وفي اليوم السادس للمؤتمر تدخل السير بيرسي في الأمر وأبلغ الطرفين انه اذا استمرت المفاوضات على هذا الشكل فإنهما لن يتوصلا الى أي اتفاق قبل سنة من الزمان . ففي اجتماع خاص ضم السير بيرسي وابن سعود وانا فقط ، فقد السير بيرسي صبره واتهم ابن سعود بأنه تصرف تصرفاً صبيانياً في اقتراح فكرة الحدود العشائرية . ولم يكن السير بيرسي يجيد اللغة العربية فقمت أنا بالترجمة . ولقد ادهشني ان ارى سيد نجد يوبخ كتلميذ وقح من قبل المندوب السامي لحكومة صاحب الجلالة الذي ابلغ ابن سعود بلهجة قاطعة انه سيخطط الحدود بنفسه بصرف النظر عن كل اعتبار .

هكذا انتهى هذا الفصل من المسرحية فانهار ابن سعود واخذ يتودد ويتوسل معلناً ان السير بيرسي هو أبوه وأمه ، وأنه هو الذي صنعه ورفعه من لا شيء الى المكانة التي يحتلها ، وانه على استعداد لأن يتخلى عن نصف مملكته بل كلها إذا أمر السير بيرسي بذلك .

وحسبما أذكر لم يلعب ابن سعود دوراً يذكر في المحادثات تاركاً الأمر للسير بيرسي ليقرر حل مشكلة الحدود. وفي اجتماع عام للمؤتمر أخذ السير بيرسي قلماً أحمر ورسم بعناية فائقة على خارطة للجزيرة العربية خطاً للحدود من الخليج الفارسي الى جبل عنيزان بالقرب من حدود شرق الأردن . وبذلك يكون قد أعطى العراق مساحة كبيرة من الأراضي التي تدعي نجد ملكيتها . وارضاء لابن سعود حرم الكويت بدون شفقة من ثلثي أراضيها تقريباً وأعطاها لنجد

بحجة ان سلطة ابن صباح في الصحراء أصبحت أقل مما كانت عليه يوم وضعت الاتفاقية الانكليزية ـ التركية . والى الجنـــوب والغرب من الكويت رسم منطقتين اعلن انها ستكونان محايدتين سميت الأولى منطقة الكويت المحـــايدة وسميت الأخرى منطقة العراق المحايدة .

وجواباً على اعتراضات عبداللطيف باشا المنديل على وجـــود منطقة محايدة للكويت قال السير بيرسي ان قبائل الكويت يجب ان يكون لديها مزيـــد من المراعي .

وعندما الح الباشا في الاعتراض استشاط السير بيرسي غيظاً وقال له :

ـ بربك ، لماذا تصر على ان تكون تلك المنطقة لنجد ؟ .

فأجابه الباشا بقوله :

ـ بصراحة لأننا نعتقد انـه يوجد نفط في تلك المنطقة .

ورد السير بيرسي قائلا :

ـ وهذا بالضبط هو سبب جعلها محايدة حتى يكون لكل واحـد حصص متساوية .

وحوالي الساعة التاسعة من ذلك المساء حدثت مقابلة مدهشة . فقـد طلب ابن سعود مواجهة السير بيرسي على حدة . وصحبني السير بيرسي معه فوجدنا ابن سعود واقفاً وحده وسط خيمة الاستقبال بادي الاضطراب .

وبادر ابن سعود السير بيرسي قائلاً بصوت كئيب :

ـ ياصديقي لقد حرمتني من نصف مملكتي. الأفضل ان تأخذها كلها ودعني اذهب للمنفى .

وظل ذلك الرجل القوي العظيم واقفاً رائعاً في حزنه وانفجر باكياً . وتأثر السير بيرسي كثيراً وامسك بيد ابن سعود وأخذ يبكي هو الآخر والدموع تنحدر على وجنتيه . ولم يكن حاضراً تلك اللحظة سوى نحن الثلاثة . وأنا أقص هنا ما شاهدته بكل امانة .

ولم تدم تلك العاصفة العاطفية طويلاً فقال السير بيرسي وهو لا يزال ممسكاً

بيد ابن سعود :

– يا صديقي اني أعرف حقيقة شعورك، ولهذا السبب اعطيتك ثلثي الكويت ولست اعرف كيف سيتلقى ابن صباح هذه الصدمة .

وكما قلت في فصل سابق من هذا الكتاب ، لقد كان السير بيرسي رجلا عظيماً . وكذلك كان عبد العزيز آل سعود رجلا عظيماً وممثلا عظيماً ايضاً وكلاهما الآن في ذمة الله – رحمهما الله . وظل خط الحدود الذي رسمه السير بيرسي قائماً لم يتغير الى اليوم .

واعادة لما ذكرته في الفصل الأول فإن حدود الكويت الجديدة تبدأ في الغرب عند ملتقى وادي العوجا بوادي الباطن . ومن تلك النقطة ، تاركة رقبع في حوزة نجد ، تمتد في خط مستقيم الى ملتقى خط العرض ٢٩ بنصف الدائرة الحمراء المشار اليها في الاتفاقية الانكليزية – التركية ثم تتبع نصف الدائرة الحمراء الى نقطة على الساحل الى جنوب رأس القليعة تماماً .

والى جنوب خط الحدود هذا تقع منطقة الكويت المحايدة التي يحدها من الغرب المنخفض الواسع المسمى الشق ، ويحدها من الشرق البحر ، ومن الجنوب خط يتجه من الشق عبر عين العبد الى نقطة على الساحل شمالي رأس المشعاب .

وهذه الحدود مع حدود العراق ونجد ثبتها جميعها السير بيرسي بالاضافة الى بعض المقترحات هنا وهناك قدمتها انا والدكتور عبدالله الدملوجي والميجر مور . وقد أرخت الاتفاقية بين نجد والكويت باسم الله الرحمن الرحيم في الثاني من كانون الأول سنة ١٩٢٢ ووقعها الدكتور عبدالله الدملوجي نيابة عن ابن سعود كما وقعها الميجر مور نيابة عن شيخ الكويت. وقد مهر ابن سعود الاتفاقية بخاتمه الرسمي .

وكان الدافع الى مثل هذه الاتفاقية الغريبة التي سلمت دولة صغيرة ضعيفة بكل بساطة الى دولة قوية ، المصلحة والرغبة في ارضاء حاكم قوي مشاكس كابن سعود . وبذلك تكون الحدود الجنوبية المعترف بها للكويت قد اقتطع منها مئة وخمسون ميلا مما جعل مساحة الكويت تتقلص الى ستة آلاف ميل

مربع فقط .

ومما يذكر ان الميجر مور المفروض فيه ان يدافع عن مصالح شيخ الكويت لم ينطق بكلمة واحـدة طيلة المحادثات . فقد سيطر السير بيرسي على كل شيء وعلى كل شخص وكسب الجولة . واشك ان أي شخص آخر يستطيع ان يحقق النجاح الذي احرزه ولكن على حساب السمعة العطرة التي اكتسبها بين العرب على مر السنين . فالشيخ الشاب أحمد الجابر الذي لم يكن قد مضى على ارتقائـه العرش أكثر من سنة تلقى على يد السير بيرسي ضربة زعزعت ثقته ببريطانيا ولم يشف منها ابداً .

وقد وقع البروتوكول الخاص بين نجد والعراق في الثاني من كانون الاول أيضاً . وقـد حـدد البروتوكول خط الحدود ومنطقة العراق المحايدة وسمح للقبائل الرحل بحرية التنقل عبر الحدود كما سمح لقبائـل البلدين استخدام الآبار القريبة من الحدود .

وللتغلب على الصعوبات التي كان ابن سعود يعتقد انها ستنشأ في حـال وضع خط ثابت للحدود بين البلدين، فقد حظرت المادة الثالثة من البروتوكول المذكور اقامـة الحصون والحشود العسكرية في منطقة الحدود . ولكن الكلمات التي صيغت بها تلك المادة كانت مطاطة بحيث انها قادت الى نزاع كبير بعـد خمس سنوات .

ان الحدود الاعتباطية التحكيمية بين العراق ونجـد كانت في رأيي خطأ كبيراً . اذ ان ابن سعود حصر تنقلات قبائل نجد السنوية ، ربمـا لأول مرة في التاريخ ، باتجاه الشمال . فكان يشعر ، بدون شك ، ان مندوبي العراق والسير بيرسي كوكس تغلبوا عليه ، وان المشكلة قد حلت حسب المقاييس الأوروبية وليس حسب تلك المقاييس المفهومة في العالم العربي . ولذلك يبدو أنـه قرر اتباع سياسة تحويل انظار شعبه ، بصورة بطيئة ولكن محكمة ، عـن خط اتصالهم القديم بالعراق والكويت ، محاولاً بدل ذلك دفعهم الى الحصول عـلى ضروريات الحيـاة اليومية من عقير والقطيف وجبيل ، موانئه عـلى الخليج

الفارسي .

ومما لا شك فيه أنه كان يعتقد ، لأسباب سياسية ومنعاً للتآمر ، أنـــه من الأفضل ان يمنع القبائل التابعة له من الاتصال المباشر بدول يظن أنهـا معادية . ولكن خطوط التجارة الطبيعية لا يمكن تحويلها بسهولة أو اهمالهـــا ووضعها جانباً . ولذلك لم ينجم عن تلك السياسة سوى المشاكل والمتاعب .

فلو ان ابن سعود ترك وشأنه فانه من غير المحتمل ان تقوم ثورة الاخوان في سنة ١٩٢٩ – ١٩٣٠ ، أو الاحتكاك الذي سبقها بين العراق ونجـــد ، أو مرارة مقاطعة الكويت الطويلة التي استمرت أربعة عشر عاماً .

وبصرف النظر عن خط واحد طويل مستمر يشكل المنطقة المحايدة بـين العراق ونجد ، فان الحل الأنسب من ذلك الذي توصل اليه مؤتمر عقير ، هـو الحل الذي اقترحه ابن سعود على أساس حدود عشائرية . فعندما كنت ضابطاً سياسياً في المنتفق كانت لي تجربة مريرة بسبب الحدود الاعتباطية التي وضعهـا لاتراك بين الالوية . ولم اكن ارتاح من اقتتال القبائل بـــين الألوية إلا عندما كنت اقنع السير بيرسي كوكس بالسماح لي في اتباع الحدود العشائرية . ولكان فعل حسناً لو أنه اتبع نفس الخطة في عقير .

اما الميجر هولمز فلم يلعب أي دور إلا في اليوم الأخير للمؤتمر. ففي محادثات خاصة بين ابن سعود والسير بيرسي حضرتهـــا انا فقط ، اثار ابن سعود مسألة منح امتياز للنفط الى الشركة الشرقية العامة . واخبر ابن سعود السير بيرسي كل شيء عن زيارة الميجر هولمز للاحساء ، وابلغه ان الميجر هولمز قـــدم له تقريراً ايجابياً اعرب له فيه عن رغبته في الحصول عـــلى امتياز فوراً . واستوضح ابن سعود ما اذا كان لحكومة صاحب الجلالة أي اعتراض على ذلك .

واجابه السير بيرسي قائلاً :

– لا يوجد أي اعتراض . اعطه الامتياز ولكنني احذرك من ان الشركة الشرقية العامة ليست شركة للنفط وأخشى ان تبيع الامتياز لغيرها .

وشكره ابن سعود وقال انه فهم كل شيء . وبعد ذلـــك استدعي الميجر

هولمز وقدم الى السير بيرسي ثم عرض قضية النفط وآماله فيها . وذكر ايضاً ان هنالك امكانية للعثور على النحاس ، ثم اشار عـــلى الخارطة مدى اتساع رقعة الأرض التي يطلب ان يشملها الامتياز الذي يسعى اليـــه . وكانت تلـك المنطقة أشبه بمستطيل طويل تحده من الشمال منطقة الكويت المحايـــدة ، ومن الجنوب سلوى التي تقع في داخل أراضي قطر ، ومن الغرب خط مستقيم بمحاذاة البحر ويبعد عنـــه ستين ميلاً فيشمل وادي المياه وضلعة الكبريت في منطقة الجوف عـــلى بعد خمسة وعشرين ميلا الى الجنوب الغربي من منطقة الكويت المحايدة .

اما الميجر هولمز فلم يحظ باعجاب السير بيرسي الذي اعتبر وجوده هنـــاك ضد مصالح حكومة صاحب الجلالة . فقد دخل هولمز ، اذا جاز التعبير ، من الباب الخلفي . ومما لا ريب فيه ان السير بيرسي كان يمكن ان يدينه هو واعماله أمام ابن سعود لو استطاع ان يفعل ذلك بصورة سليمة . ولكنه لكونه معجباً اعجاباً شخصياً بابن سعود ورغبة منه في عدم اغاظته بعد قضية الحدود ، طيب خاطره بجره الى الاعتقاد ان حكومة صاحب الجلالة تريد مساعدته على تطوير بلاده وافساح المجال أمامه للحصول على دخل محترم .

وبعد عدة سنوات عرفت كيف انني لم استطع العثور عـلى منابع النفط . فقد كانت مغطاة بكثيب هائل من الرمل هو واحـــد من عدة كثبان تتحرك باستمرار الى الغرب من حزام النخيل في القطيف . فعندما بـدأت شركة النفط العربية الاميركية (ارامكو) وهي فرع من شركة ستاندرد اويـــل ، العمل واكتشفت حقل النفط الكبير في جبل الظهران ، لم يمض وقت طويل قبـــل اكتشاف حقل أصغر وراء القطيف تماماً في المكان الذي تمنيت العثور فيه عـلى المنابـع من قبل . ويضم هذا الحقل اليوم على ما اعتقد ست آبار .

ردود الفعل في الكويت

وعدنا الى البحرين بينما اكمل السير بيرسي والميجر مور طريقهما الى الكويت .

وبعد وقت قصير تبعتها أنا وزوجتي وبصحبتنا الشيخ فهد بك الهذال والوفد العراقي . وأذكر اننا وجدنا صعوبة فائقة في الصعود إلى ظهر السفينة التي أقلتنا بسبب العواصف الشديدة . وقد عانى أكثر من الجميع الشيخ المسن فهد بك لأنه كان علينا جميعاً أن نتسلق على سلم من الحبال وعلى خصورنا أحزمة النجاة.

ولدى وصولنا إلى الكويت ، وكان ذلك بعد يوم واحد فقط من وصول السير بيرسي والميجر مور ، نزلت أنا وزوجتي فيما أكمل فهد بك والوفد العراقي طريقهم إلى البصره .

كنت أنا والميجر مور حاضرين عندما أفضى السير بيرسي بالنبأ الى حاكم الكويت معتذراً لأنه اضطر الى إعطاء ابن سعود ثلثي مملكة الشيخ أحمد . وسأله الشيخ أحمد وقد بلغ به التأثر حداً كبيراً ، لماذا فعل ذلك دون استشارته على الأقل . وأجاب السير بيرسي انه في تلك المناسبة السيئة كان السيف أقوى من القلم ، وأنه لو لم يسلم تلك الأراضي لابن سعود لكان بكل تأكيد أخذها وربما أخذ أكثر منها بقوة السلاح . وكما هي الحال ، فقد أرضى السير بيرسي الجار القوي للشيخ أحمد وزرع في نفسه شعوراً ودياً تجاه الكويت . وسأل الشيخ أحمد ما إذا كانت بريطانيا قد دخلت في حروب دفاعاً عن حقوق الدول الصغيرة ،فأجاب السير بيرسي بالايجاب معترفاً بأن ما قاله الشيخ أحمد صحيح .

وقال الشيخ أحمد :

– إذا توفي ابن سعود في يوم من الأيام وأصبحت انا قوياً كجدي مبارك ، فهل تمانع الحكومة البريطانية إذا رفضت خط الحدود غير العادل واستعدت أراضيّ التي فقدتها ؟

وضحك السير بيرسي وقال :

– لا .. وليبارك الله جهودك .

ولما وجد الشيخ أحمد نفسه أمام الأمر الواقع وافق على الاتفاقية ووقع عليها . ولكنه ظل الى يوم وفاته شاعراً بالغبن معتقداً انه عومل معاملة سيئة وكان يدلي أمام أخصائه بكلام من هذا النوع كأن يقول لهم :

– اني لم أحضر محادثات عقير على بعد ثلاثمائة ميل من هنا كما انني لم أطلع على مـا كان يجري هنـاك . لقد كنت أثق بالسير بيرسي كما أثق بوالدي . ولم أكن لاعترض لو أن بضعة أميـال من أرضي اقتطعت مني ، ولكن أن أسلب من ثلثي مملكتي دون أن يكون لي رأي في الأمر وأرى بعيني تلك الأرض تعطى لغيري ، فذلك أمر يصعب عليّ تحمله .

وفي السنوات التالية ظل الشيخ أحمد يقول لي إنه يعتبر كل منطقة الكويت المحايدة جزءاً من أراضيه ولن يوافق مطلقاً على اقتسام امتيازات النفط مع ابن سعود . وكان ابن سعود قد منح فعلاً امتيازاً للشركة الشرقية العامة المحدودة في شهر أيار سنة ١٩٢٤ ، يشمل منطقة الاحساء . ولكنه اعتبر الامتياز لاغياً لأن الشركة لم تف بتعهداتها في بدء العمليات خلال ثلاث سنوات من توقيع الاتفاق .

وقبل وفاته سنة ١٩٥٠ بوقت قصير وافق الشيخ أحمد مـع ابن سعود على منح امتيـاز لشركة النفط الأميركية المستقلة (امينويل) . وقـد فعل ذلك ، على حد قوله ، رغبة منه في المحافظة على صداقة ابن سعود الذي أصبح تأييده للكويت أجدى من تأييد بريطانيا . ذلك لأن استثمار بريطانيا للنفط في أراضيه، وسياستها التي كانت تميل الى إسرائيل أكثر مما تميل الى العرب ، حمله على تغيير خطته تجاه بريطانيا تمشياً مع الشعور العام في العالمين العربي والاسلامي .

وفي نيسان سنة ١٩٢٣ أبلغ الشيخ أحمد ان بريطانيا تعترف بالحدود التي يراها هو صحيحة بين العراق والكويت والتي تعطيه جزر وربا وببيان ومسكان وفيلكه وعوحه وكبّر وقارو ومقطع وأم المرادم وغيرها من الجزر المجاورة .

وقد كتب السير بيرسي كوكس الى الميجر مور طالباً منـه أن ينقل ذلك الى الشيخ أحمد . ويقول السير بيرسي في رسالته الى الميجر مور :

– وكما تعلم ، ينطبق ذلك مع الحدود المشار إليها بالخط الأخضر في الاتفاقية الانـكليزية التركية الموقعة في ٢٩ تموز سنة ١٩١٣ ، ولكنه ليس من الضروري ان تذكر ذلك أمام الشيخ أحمد أو أن تشير الى الوثيقة من قريب او من بعيد في حديثك معه حول الموضوع ...

الفصل الثاني عشر

مقدمة للثورة

١٩٢٣ - ١٩٢٨

كان المتعصبون من الاخوان ما زالوا يشيعون جواً من الرعب عن طريق ضم الناس الى مذهبهم بالقوة . وقد أخبرني ابن سعود بصورة خاصة في عقير في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ ، انه لم يؤيد أبداً تلك الأعمال ولكنه لم يتمكن من ان تكون له يد في كبح جماحها إلا مؤخراً. واضاف انه في صيف سنة ١٩٢٢ أصدر أشد الأوامر حول هذا الموضوع وأخذ يعظ يوماً بعد يوم بين الناس شاجباً تلك الأعمال التي قال انها تجلب غضب الله والدول الصديقة . وقد اضطر الى تنفيذ احكام الاعدام في عدد من الاخوان لعدم امتثالهم للأوامر المتعلقة بهذا الشأن .

وقال لي ابن سعود ان الشيعة من أهل الأحساء والقطيف منعوا من التدخين حتى في منازلهم ولم يكن يسمح لهم اداء فرائضهم الدينية في حسينياتهم . وكانت تنزل أقصى العقوبات بكل من يخالف ذلك، وقد قتل الاخوان عدداً من البحارنة ومن الشيعة في القطيف لمحاولتهم خرق القانون . اما الآن وقد آلت الأمور أكثر فأكثر الى سيطرة ابن سعود فقد امكن التساهل في تطبيق القانون . فقد سمح للشيعة بالعبادة والتدخين في منازلهم الخاصة شرط ان يحافظوا على القوانين في الأماكن العامة . وأشار ابن سعود الى ان حالة الشيعة اصبحت في عهده أفضل

بكثير مما كانت عليه زمن الاتراك . ففي ذلك الوقت لم يكن الشيعي يستطيع الادعاء بان اي شيء بما في ذلك حياته هي ملك له . أما في عهد ابن سعود فقد أصبحت الطائفة الشيعية آمنة وازدهرت تجارتها وتحسنت اوضاعها كما لم يعرف من قبل .

واعتقد ان ابن سعود قصد الدعاية في ابلاغي ذلك ظناً منه انني سأنقل ما قاله للسير بيرسي كوكس لإعطائه فكرة بأن التنكيل ليس من شيم الاخوان كما انه ليس من سياسة ابن سعود .

وقد نفذ الاخوان الأمر الخاص ببناء الحواضر للاستيطان فيها تنفيذاً دقيقاً في نجد والاحساء بحيث انه لم تأت سنة ١٩٢٢ إلا وكانت الهجرات التالية قد تمت فعلا . أما القائمة الواردة ادناه فليست كاملة بشكل من الأشكال وقد وجدت ان الارقام التي أعطانيها اصدقائي البدو لعدد الرجال المقاتلين في كل حاضرة مبالغ فيها فاقتطعت منها كثيراً — الثلثين في أغلب الأحيان . ويمكن ان أكون قد تطرفت بعض الشيء .

اسم القبيلة	الهجرة	عدد الرجال
مطير	ارتوائية	١٠٠٠
	الفريضان	٦٠٠
	مقبظ	٩٠٠
	مليح	٧٠٠
	العمير	٧٠٠
	العذله	٦٠٠
	جارية عليا	١٨٠٠
	جارية سفلى	١٦٠٠
	نقير	١٢٠٠
	الشعب	٣٠٠
	ضريعه	٦٠٠
	مشاع	٤٠٠

عوازم	ناج	١٦٠٠
	الهنات	١٠٠٠
	الهيسي	٧٠٠
	العتيقي	٨٠٠
عتيبه	غطغط[*]	٧٠٠
	الدهانه	٨٠٠
	الصوح	٣٠٠
	السجر	٧٠٠
	عرجه (او العرج)	١٠٠٠
	أصيله	٣٠٠
	نفيع (أو النفع)	٩٠٠
	هجرة خالد بن لؤي	٤٠٠
	عرمه	٧٠٠
	انغبا	٢٠٠
	الروضه	٧٠٠
	العرق	١٠٠٠
حرب	عجيبه	١٠٠٠
	دخنه	٦٠٠
	الشبيكيه	٩٠٠
	الذليميه	٧٠٠
	الصادقه	٦٠٠
	القرين	٤٠٠
	حنيظل	٥٠٠
	البروق	٨٠٠

* – دمرها ابن سعود بعد معركة سبيلة سنة ١٩٢٩ .

	ابو حليفه حليفه	٩٠٠
عجمان	صرار	١٦٠٠
	الشافي الصافي	٥٠٠
	الحنين ؟ خنيز	٨٠٠
	عوينه	١٢٠٠
	عريره خريعره	١٠٠٠
	عقير	٥٠٠
قحطان	الحياضين / الهياثم	١٨٠٠
	الجفير	١٠٠
	الحساة / الحصاة	٧٠٠
	الغل الغيل	٥٠٠
	هجرة ابن غنام	٥٠٠
	هيف زهران	٤٠٠
	الصبحه صبحا	٥٠٠
	العبره ؟	٦٠٠
	رهيان (العيا) / الريم العاليا	١٢٠٠
	رهيان (السفلى) / الريم السفلي	١٠٠٠
آل مره	عمبق ؟	٩٠٠
	عبيرق ابيرقه	١٠٠٠
بني هاجر	الظهر	٧٠٠
دواسر	مشيريم مشرفه	١٥٠٠
	الوسيطه / الوسيطى	٨٠٠
بني يم	أهل نجران	٤٠٠٠
عمار (عتيبه)	الجفر	٢٠٠٠
	روض العيون	١٠٠٠

حطيم هتيم	بن وان نبوان	١٥٠٠
منطقة الخرج	المنيصفه	٥٠٠
	الضبيعه	٦٠٠
	البدعه	٥٠٠
	الاخضر	٥٠٠
	الطيب اسم	٤٠٠
	الرويضه	٤٠٠

لقد كنت في الهند من سنة ١٩٢٣ حتى تعييني سكرتيراً للمقيم السياسي في الخليج الفارسي سنة ١٩٢٨ ، وبذلك فقدت الاتصال الشخصي بالاحداث في الجزيرة العربية . وفي تلك الفترة أيضاً رزقت ولدي الاثنين ابني هائمر يورك وارينغثون سعود الذي ولد في تريتات بسويسرا في الثاني عشر من حزيران سنة ١٩٢٣ ، وابنتي ايرين زهرة التي ولدت في بيكانير بالهند في الحادي عشر من كانون الثاني سنة ١٩٢٥ . ولدى عودتنا الى الجزيرة العربية أخذ البدو ينادون زوجتي بام سعود وأصبحت انا معروفاً بأبي سعود .

ان اعتقاد ابن سعود بأن تحدي بريطانيا هو بمثابة كارثة تنزل عليه تأكد عندما قام حوالي الف وخمساية رجل من الاخوان بغزوة على بعد خمسة عشر ميلاً من عمان عاصمة شرق الاردن بعد ان ساروا مسافة الف ميل في منتصف شهر آب سنة ١٩٢٤ . وقد تصدى لهم سلاح الجو البريطاني ويقال انهم قتلوا جميعهم باستثناء عدد لا يتجاوز المئة رجل . وقد ساهم رجال قبيلة بني صخر في انزال الهزيمة بالاخوان الغزاة .

وفي تلك الاثناء كان الملك حسين ملك الحجاز ، بعناده ورعونته ، يكتب نهايته بيده . فعندما زار شرق الاردن واعلن نفسه هناك خليفة في العالم الاسلامي ، اعلن ابن سعود عليه الحرب . وقد احتلت قوات الاخوان الطائف في ايلول سنة ١٩٢٤ باسرع مما كان يتوقع ابن سعود . وفي الخامس من تشرين الأول تنازل الملك حسين عن العرش الى ابنه الأكبر علي وذهب ليعيش في العقبة .

وانسحب علي من مكة وتراجع الى جده . واحتلت قوات الوهابيين مكة في كانون الأول وحاصرت جدة والمدينة .

وتوجه جيش سعودي آخر الى ما وراء وادي سرحان قرب الحدود السورية قاطعاً الطريق بين شرق الأردن والعراق . وأوفدت الحكومة البريطانية السير جيلبرت كلايتون الى الحجاز ليلفت نظر ابن سعود الى ان امتداد حدوده التي تقع عبر خط الانابيب المقترح في الصحراء والطرق البرية والجوية الى بغداد والشرق ، لا يمكن ان يحتمل .

وتراجع ابن سعود تحت الضغط البريطاني مظهراً بذلك بعد نظره وقدرته على ضبط النفس وهما امران يعود اليهما نجاحه الى حد كبير . وعقدت بعد ذلك معاهدتا جده وبحره . فمعاهدة بحره التي وقعت في أول تشرين الثاني ١٩٢٥ تنص على اقامة محكمة خاصة للنظر في شكاوى قبائل نجد والعراق على بعضهم البعض .

وكان الملك علي بن الحسين يخوض حرباً خاسرة فقد استطاع ان يثبت لحصار جده ولكن سقوط المدينة بأيدي قوات الاخوان بقيادة فيصل الدويش في الخامس والعشرين سنة ١٩٢٥ ، ادى الى تنازله عن العرش . وفي الثامن من كانون الثاني سنة ١٩٢٦ نودي بابن سعود ملكاً على الحجاز في المسجد الكبير بمكة المكرمة . وظل يحمل لقب سلطان نجد الى السنة التالية عندما أصبح يحمل لقب ملك الحجاز ونجد وتوابعها.

وفي سنة ١٩٢٦ ايضاً اصبحت منطقة عسير في غرب الجزيرة العربية والتي يحدها من الشمال والشرق والجنوب على التوالي كل من الحجاز ونجد واليمن ، تحت سيطرة ابن سعود . وحتى سنة ١٩٢٠ كان الادريسي يحكم عسير ، ولكن الاخوان في تلك السنة احتلوا ابهة والاقسام العليا من المنطقة تاركين لسعيد محمد الادريسي ما تبقى منها . وتوفي سعيد محمد سنة ١٩٢٢ وخلفه ابنه الذي طرده عمه حسن سنة ١٩٢٥ . ووجد الحاكم الجديد نفسه ضعيفاً فوضع بلاده سنة ١٩٢٦ تحت سيطرة ابن سعود وعين هو حاكماً مدى الحياة في عسير .

بوادر عدم الارتياح بين الأخوان

عمل ابن سعود كل جهده بين عام ١٩٢٥ وعام ١٩٢٧ في القضاء على العصابات وقطاع الطرق في الحجاز ونجد تأميناً لسلامة طرق الحج وكبحاً لجماح قبائله الهائجة التي بدأ أكثرها يشعر أن سياسته يمليها عليه البريطانيون. وكان قبوله للمخترعات الحديثة كالسيارة والهاتف والراديو دليلاً، من وجهة نظرهم، على عدم ايمانه بمذهب الاخوان. وبدا واضحاً ان الشعور بعدم الارتياح أخذ يتفاقم.

وعندما عاد زعماء الاخوان الى نجد بعد سقوط جده كانوا يتبرمون ويشعرون بخيبة أمل لأن حملة الحجاز لم تعطهم الفرصة للنهب والتنكيل. وكانوا ايضاً غير راضين عن فكرة ابن سعود في تنظيم حكومة مدنية في الحجاز وعن منعهم من الغزو عبر الحدود.

وقد كتبت في أماكن أخرى عن طبيعة البدو وقلت ان الغزو هو وريد الحياة بالنسبة للبدوي، فاذا منع عن الغزو يصبح اكثر الرجال تقاعساً. وكما ان الرجل الغربي المتمدن يحافظ على ممارسة هواياته في الرياضة والصيد كأبواب لسعادته والابقاء على حيويته، كذلك البدوي البدائي في الجزيرة العربية لديه رغبة طبيعية في الغزو لأن فيه المجال لإثبات رجولته وفروسيته. إن الغزوات في الصحراء لا تحمل معها الكثير من سفك الدماء لان الدافع او المحرك الاساسي للغزاة هو نهبهم للجمال بالدرجة الأولى.

وكان بين اكثر زعماء الاخوان استياءً فيصل الدويش قائد الحملة على المدينة والشيخ الأعلى في قبيلة مطير القوية واحد الذين يشكلون عصب حركة الاخوان. وكان الى ذلك الوقت لا يزال أقرب صديق الى ابن سعود وأكثر ضباطه حماسة واندفاعاً.

وقد حث فيصل الدويش سلطان بن حميد الشيخ الأعلى في قبيلة عتيبه، وضيدان الهذلان الشيخ الأعلى في عجمان على قسم اليمين لمساندة بعضهم البعض إذا حاول ابن سعود الاقتصاص من أي واحد منهم.

هكذا كان الوضع عندما رفضت حكومة ايران السماح للخطوط الجوية

الامبراطورية في إنشاء محطة لخدمة الطائرات المتوجهة إلى الهند ، على ساحل ايران الجنوبي ، فحمل الاقتراح الى ابن سعود على أساس انشاء المحطة المذكورة على الساحل العربي من الخليج الفارسي . وكما كان متوقعاً ، فان مجرد عرض تلك الفكرة كان سيصطدم بمعارضة الاخوان ونفورهم . وأعلن ابن سعود أنه لا يستطيع الموافقة على الاقتراح عملاً بنصيحة عبدالله بن جلوي آل سعود أمير الاحساء .

وبعد ذلك جاءت قضية انشاء مخفر للشرطة العراقية في بسوه في صحراء العراق الجنوبية . وقد ربط الاخوان ذلك في ذهنهم بقضية مشروع الخط الجوي ظناً منهم أنه سيكون مركزاً ضخماً بتجميع النفط وقاعدة لإدخال العادات الأوروبية الى بلادهم .

وكانت معارضتهم لاقامة المخفر المذكور قوية الى حد حمل ابن سعود على الاحتجاج على اقامته بحجة انه يشكل خرقاً للمادة الثالثة من بروتوكول عقير . وكانت حجته واهية يصعب عليه شخصياً تصديقها لان المخفر كان سيقام على بعد ٥٥ ميلاً من أقرب نقطة الى منطقة العراق المحايدة .

وبالرغم من احتجاجه وموقفه ، فان وجود المخفر ساعد على توسيع شقة الخلاف بينه وبين زعماء الاخوان . فقد قام فيصل الدويش بحملة دعائية واسعة النطاق ضد ابن سعود مشيراً الى أن وجود المخفر دليل على ان ابن سعود قد باع حقوق بلاده الى البريطانيين .

وقد فعلت حملة فيصل فعلها فبدأت القبائل تستحث بعضها للجهاد ضد العراق على اعتبار انه حليف البريطانيين ومتسامح بشأن العادات والاعمال المغايرة للدين .

ولم ينحصر شعور العداء لابن سعود بالأخوان فقد تعداه الى بعض أفراد العائلة السعودية والىأهل الحجاز الذين كانوا يعتبرونه محتلاً اجنبياً مخالفاً لإيمانهم . ففي صيف سنة ١٩٢٧ اكتشفت مؤامرة في حينها لاغتيال ابنه سعود في الرياض وأخرى لاغتيال عبدالله ابن جلوي في الاحساء . وانتشر همس بين الناس بأن

محمد شقيق ابن سعود وخالد بن محمد هما اللذان حرضا على المؤامرة .

وحوالي الساعة الحادية عشرة من ليل الخامس من تشرين الثاني سنة ١٩٢٧ هاجم أربعون رجلاً من قبيلة مطير بقيادة الشيخ مطلق السور أحد اعوان فيصل الدويش ، مخفر الشرطة في بسوه وهو قيد البناء وفيه ستة من رجال الشرطة وموظف مدني واحد واثنا عشر عاملاً وامرأة واحدة . وقد فوجيء هؤلاء بالهجوم تحت جنح الظلام فقتلوا جميعهم باستثناء شرطي واحد اصيب بجراح . وتمكن شرطي آخر كان يقوم بواجبه في مركز ناء من الفرار وأعطى اشارة التحذير في ابي غار .

وفشلت طائرات الاستكشاف في صباح اليوم التالي في تحديد مواقع المهاجمين الذين استطاعوا الفرار في الوقت المناسب الى ما وراء حدود نجد . وقد دبر الهجوم فيصل الدويش مع انه أنكر ذلك في محادثة اجريتها معه سنة ١٩٢٩ ووضع فيها اللوم كله على ابن سعود .

وكان من نتائج هذا الهجوم ارجاء مؤتمر كان من المقرر عقده في الكويت في ٢٠ تشرين الثاني بين وفد من العراق وآخر من نجد برئاسة الميجر مور الوكيل السياسي في الكويت ، الى أجل غير مسمى .

ونظراً لكثرة الدعاوى المقدمة من قبائل البلدين ضد بعضهم البعض ، وجد ان المحكمة الخاصة المنصوص عنها في معاهدة بحره ليست عملية . لذلك ، وبما ان نجد والعراق قد اتفقتا مسبقاً على اسقاط جميع دعاوى قبائلها ، فان مؤتمر الكويت كان سيحل محل المحكمة الخاصة . وكان الهدف من المؤتمر التوصل الى اتفاق حول اسقاط جميع الدعاوى المتبادلة ، وبحث الاجراءات الواجب اتباعها في معالجة القضايا المشابهة التي قد تنشأ في المستقبل .

وفي ١٨ تشرين الثاني وصل الى الكويت الشيخ حافظ وهبه وهو مصري قدير وذو مكانة رفيعة أصبح فيما بعد سفيراً للسعودية في لندن ، ليمثل نجد في المؤتمر . ولكن ابن سعود كان قد أبلغ في تلك الاثناء من قبل بريطانيا ان المؤتمر قد ارجيء الى أن يعاقب المسؤولون عن مهاجمة المخفر وتدفع التعويضات للقتلى

والجرحى وتعطي تأكيدات بان إجراءات حاسمة ستتخذ لمنع مثل تلك الغزوات الى داخل الاراضي العراقية .

وقد وصل الى الكويت تقرير في ٢٦ تشرين الثاني يفيد ان مخيما لقبيلة عوازم قرب الحدود الجنوبية للكويت قد أبلغ سراً بالابتعاد الى الجنوب لإفساح الطريق امام الاخوان الذين قرروا مهاجمـــة الأراضي الكويتية . وفور وصول التقرير حذر جميع البدو في المنطقة وسيرت دوريات مسلحة للمراقبة .

وبالرغم من كل تلك الاحتياطات فقد نجح أربعمائة رجل من الاخوان بقيادة تراحيب بن شقير الدويش وأحد أبناء سهود بن لامي في غزو عربدار الكويت في أم رمام قرب زقلة على بعد سبعة أميال الى الشمال الشرقي من جهره وذلك في الرابع من كانون الأول .

وحالما وصلت الأنباء الى الكويت ، وكان ذلك بعـــد الظهر ، جمعت قوة قوامها مئة رجل وأرسلت على جنـــاح السرعة بالسيارات للتصدي للمهاجمين ، ولكنها وصلت متأخرة وبعد أن تمكن الغزاة من الاستيلاء على عدد كبير من الجمال والفرار بها .

وأرسل الشيخ أحمد حـــاكم الكويت رسلا يحملون رسائل الى ابن سعود يشكو فيها الاعتداء على رعاياه .

وقد أحدثت الحالة المضطربة في الصحراء والشائعات التي كانت تروج يومياً، موجة من القلق في مدينة الكويت . فقد أعيد بنـــاء السور في الأماكن اللازمة وشددت عليه الحراسة ليلياً حتى نهاية السنة . وجند عدد من المرتزقـــة لتدعيم حامية جهرا التي زيد عددهـــا حتى بلغ ثلاثماية رجل ، هذا بالاضافة الى البدو المخيمين في الجوار .

وفي صباح الثامن من شهر كانون الأول ، قام الشيخ حافظ وهبه بزيارة الميجر مور وأبلغه أنه تلقى برقية من ابن سعود عن طريق البحرين يطلب منه فيها أن يخبر الميجر مور — لكي ينقل بدوره الى المندوب السامي البريطاني في العراق — أن اضطرابات خطيرة قد وقعت في نجد ، وان ابن سعود علم ، بكل أسف ،

ان قوة من الاخوان بدأت تزحف نحو الشمال خلافاً لأوامره . وقد أرسل تحذير مماثل الى شيخ الكويت .

وفي صباح اليوم التـــالي تعرضت ثلاث طائرات تابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني لنيران بنادق فريق من الهجانة يبلغ عدده ثلاثمائة رجل بالقرب من أم العبيد ، وذلك فيما كانت الطائرات الثلاث تقوم بمهام الدورية فوق منطقة العراق المحايدة . وقد جرح نتيجة للحادث عامل لاسلكي في إحدى الطائرات . وردت الطائرات على القوة المعادية بوابل من نيران مدافعها الرشاشة .

وقد شاهدت الطائرات التي أرسلت من بسوه في اليوم ذاتـه قوة من حوالي ستمائة رجل مـــع جمالهم في الرخيميه وبالقرب من جيلده[1] في منطقـة العراق المحايدة . وكانت تلك القوة تتحرك بسرعـــة نحو الجنوب فقصفتها الطائرات وأوقعت فيها خسائر جسيمة . وكانت تلك القوة ، قبل ساعات من قصفها ، قد هاجمت مخيمات فرع الغليظ من الرعاة العراقيين في المنتفق ، ومخيمات قبيلة ظافر البدويـــة الى الشمال من شعيب الأمة . وكان هؤلاء الغزاة ، كالعـــادة ، من قبيلة مطير .

وفي الثـــاني والعشرين من كانون الأول عبر فيصل الدويش على رأس قوة من رجاله الحدود العراقية وهاجم قبيلة الزياد وقبيلة عبده شمر في جوخه على بعـد ٣٥ ميلاً الى الشمال الغربي من بير انـــاب[2] في الزاويـــة الغربية من منطقة العراق المحايدة . وقد أعمل الغزاة السيف في رقاب القبيلتين وخاصة في قبيلة الزياد ممـا أدى الى مقتل عدد كبير من الرجال .

وتحرك فيصل الدويش بعد ذلك الى الشمال الغربي لمهاجمـــة الداهمشاه الذين فروا أمامه هاربين . ويبدو أنه عاد بعد ذلك بالتحرك جنوباً . وظلت تحركاته حتى نهاية السنة يلفها الغموض .

إن قيام فيصل الدويش ورجال مطير بتلك الغزوات على نطـــاق واسع ، ليس فقط بدون اذن ابن سعود بل تحدياً لأوامره أيضاً ، قـد أثار الكثير من الشائعات والأقاويل المبالغ فيهـا حول حقيقة الأوضاع في نجد . ويظهر أن

(١) الجلده
(٢) نصاب

البعض قد ظنوا أن قبائل أخرى وخاصة عتيبه قـد تحدت هي أيضاً سلطة الملك. ولكن المعلومات الموثوقة المتوفرة حتى نهاية عام ١٩٢٧ تشير الى أن مطير وحدها كانت خارجة عن السيطرة . أمـا القبائل الأخرى فقد لزمت الهدوء . وكان الرأي السائد بـين العرب العارفين ببواطن الأمور هو ان ابن سعود سيتمكن سريعـاً من استعادة سلطته في الصحراء ولكنه سيفعل ذلك بالطرق السلمية لأنه ليس من الحكمة معاقبة مطير .

وفي تلك الأثناء وصلت الى مراغه ، وهي منطقة مشهورة للآبار على بعـد ١٦٥ ميلاً جنوب الكويت وفيها يتجمع القسم الأكبر من قبيلة عوازم ، قوة من الاحساء كان ابن سعود قد أمرها بحفظ النظام بين القبائل . وقيل ان كتيبة أخرى قد أرسلت من حايل .

وفي أوائل كانون الثاني سنة ١٩٢٨ عاد رسل الشيخ أحمد حـاكم الكويت الذين أوفدهم الى ابن سعود بعد غزوة تراحيب بن شقير ، حاملين رسالة يعرب فيها ابن سعود عن أسفه للحادث واعداً بإصلاح الخطأ . وقد أبلغ الرسل ان ابن شقير قد ترك أمره لقوة من الاحساء بقيادة فهد بن عبدالله بن جلوي آل سعود، ولكن هذا الوعد لم ينفذ . فقد أخلى ابن شقير موقتاً قرية جارية عليـا وانسحبت قوة بن جلوي في شهر شباط .

ووصلت أنباء الى الكويت مساء ٢٧ كانون الثاني تفيد ان علي بن عشوان من فخذ أولاد واصل من قبيلة البريح مطير ، قـد هاجم عربدار الكويت في أم رويسات بقوة قوامها ثلاثماية وخمسون رجلاً من الهجانة وخمسون من الخيالة . ويبعد مكان الهجوم ٣٨ ميلاً الى الشمال الغربي من جهرا . وقد قتل المهاجمون ثلاثة أشخاص وحملوا معهم عدداً لا يستهان به من الجمال والأغنام

وقد استنفرت جميع السيارات في الكويت حالاً وملئت بالرجال المسلحين وأرسلت الى جهرا في الليلة ذاتها ومعها أوامر بالتقدم الى رقيع على بعد ٩٠ ميلاً الى الغرب فالجنوب الغربي ، عندما يبزغ ضوء النهار أملاً في قطع طريق العودة على المهاجمين . ونجح الكويتيون في ذلك . ففي الساعة الرابعة والنصف من بعد

ظهر ٢٨ كانون الثاني وصلت الى رقيـــع خمس عشرة سيارة من أصل السيارات الخمس والعشرين التي غادرت الكويت . وكان ذلك عملاً خارقاً بالفعل لأنــه لا توجد طريق للسير بعــد جهرا ولأن السيارات كانت مكتظة بالركاب إذ أن بعضها كان يحمل تسعة رجال .

ومع ان القوة الكويتية لم تزد عن ٧٥ رجلاً إلا أنها كانت أفضل تسلحاً من الغزاة . هذا بالاضافة الى أنهم أدخلوا السيارة كعامل جديد في الحرب . وكانت النتيجة ان القوة الكويتية كبدت العدو خسائر جسيمة وأجبرته على التخلي عن جزء كبير من غنائمه . وكانت الإصابات في صفوف الكويتيين قليـــلة ولكن قائدهم الشيخ علي الخليفة الصباح أصيب بجراح بالغة .

وبعد انتهاء الاشتباكات وصل الى أرض المعركة الشيخ علي السالم الصباح ابن المرحوم الشيخ سالم وهو شاب شجاع عنيد . وكان قد تأخر عن القتــال بسبب عطل في سيارته الأمر الذي أزعجه جداً . ولكي يعوض عن ذلـــك اصر على وجوب التقدم متحدياً بذلك الأوامر المباشرة . وكانت النتائج انه حوصر مع جماعته في الباطن حيث قاتلوا حتى نفدت ذخيرتهم فاستسلموا ولكنهم ذبحــوا بكل برودة دم . ولولا هذا الحادث المؤسف لكان ما قامت به القوة الكويتيــة عملاً خارقاً لا يضاهيه نجاح .

وكانت خسائر الكويتيين احد عشر قتيلاً وأحد عشر جريحاً توفي واحـــد منهم فيما بعد ، بينما تكبد العدو ٣٥ قتيلاً على الأقل . وتخلى الكويتيون مؤقتــاً عن أربع سيارات عادوا فاحضروها فيما بعد. وتجدر الاشارة هنا الى ان احدى هذه السيارات وقعت في ايدي الاخوان فأرادوا تعطيلها بأن حطموا أبوابها وظل محرك السيارة سليماً اذ انها اعيدت الى الكويت بقوتها الخاصة .

وفي ٢٩ من الشهر ذاته حددت الطائرات البريطانية مواقع الغزاة على بعــد خمسة عشر ميلاً الى الشمال من حفر الباطن . وقد فتح الغزاة نيران بنادقهم على الطائرات البريطانيةالتي ردت عليهمبالقنابل والمدافع الرشاشة.وقامت الطائرات بمهاجمة الغزاة مرة ثانية على بعد ثمانية أميال من حفر الباطن بعد ظهر الثــــلاثين

من الشهر وكبدتهم خسائر فادحة في المرتين .

وفي التاسع عشر من شباط تعرض الجوارين من قبائل المنتفق وبعض القبائل الأخرى قرب جريشان في الباطن على بعد خمسين ميلاً الى الجنـــوب الغربي من الزبير ، لهجوم عنيف شنته قوة من الاخوان بقيادة فيصل الدويش يقدر عددها بألفي جمل يحمل كل منها رجلين وعدد كبير من الخيالة ربما بلغ ٢٣٠٠ رجـل . وبلغت خسائر القبائل العراقية نتيجة لهذا الهجوم ٢٦ قتيلاً و١٨ جريحاً، وفقدت ١٣٠ جملاً وحوالي ١٨٠٠ رأس غنم .

وفي اليوم ذاته شاهدت طائرات الاستكشاف فريقين من الغزاة أحدهما كبير على بعد عشرة أميال الى الجنـوب من جريشان والثـــاني صغير قرب رقيع . وشاهدت طائرة استكشاف أخرى جماعة من الغزاة منتشرين في منطقة واسعة قرب جريشان ومعهم الغنائم والأسلوب. وقد هاجمت الطائرات جميع الفرق التي شاهدتها وتعرضت بدورها الى نيران شديدة، فسقطت احدى الطائرات مشتعلة وقتل قائدها . وهو البريطاني الوحيد الذي قتل في تلك الحوادث .

وقد هوجم الغزاة وهم يتراجعون مرتين من الجو : في العشرين من شباط وفي الحادي والعشرين منه . وفي المرة الثانية كانت اصوات انفجارات القنابل تسمع بوضوح في الكويت . وفي صباح الرابع والعشرين توجهت طائرات من منطقـة العراق المحايدة الى الصفا عن طريق حفر الباطن . وشاهدت تلك الطائرات على بعد عشرين ميـلاً الى الشمال فالشمال الغربي من الصفا عـــدداً كبيراً من الخيام البيضاء تحيط بها الجمال والخيول وقطعان الغنم من كل صوب . واسقطت بعض تلك الطائرات قنابلها على الخيم بينما تقدمت الطائرات الأخرى الى الصفا وقصفتها. وفي كلا المكانين لم تكن النتائج كما كان يرتجى . ويبدو ان فيصل الدويش ظل في الصفا حتى صباح ذلك اليوم ثم غادرها الى قريته ارتوائية قبـل وقت قصير من القصف .

وجاءت تقارير أخرى تفيد ان سلطان بن حميد الشيخ الأعلى في قبيلة عتيبة القوية دعا زعماء الاخوان الآخرين الى الاجتماع به في السابع من آذار في شقرا

على بعد ٩٠ ميلاً الى الجنـوب من ارتوائيه وذلك للقيام بغزوة كبرى مشتركة . وقد اكد ذلك أحد الأسري من فريق من قبيلة مطير اطلقوا النار على سيارات بريطانية مصفحة في حفر الباطن في الثاني عشر من آذار . وقـال ذلك الاسير ان فيصل الدويش اقترح ان تكون الغزوة المشتركة بعد رمضان الذي ينتهي في ٢٢ آذار ، ولكن بن حميد اصر ان يكون ذلك فوراً . ويقال ان الغزوة تقرر ان تكون ضخمة للغاية وهدفها البصره .

ولم تتحقق تلك الغزوة على كل حال. وعلم فيا بعد انه بالرغم من ان بن حميد غادر قريته غطغط فعلا حسب البرنامج ولكنه لم يذهب الى أبعد من شمس على بعد ٧٠ ميلاً الى الغرب فالشمال من الرياض حيث لحق به خالد بن لؤي احـــد أفراد العائلة الشريفة في الحجاز وقائد من قادة الاخوان هناك . وكان بن لؤي قد قدم الى الرياض قبل عدة أيام فأرسله ابن سعود لكي يحاول اقناع بن حميـــد بالعودة . ونجح في مهمته مؤقتاً اذ ان ابن حميد عاد فعلا الى غطغط تاركاً قواته في شمس .

وقام بن حميد بزيارة فيصل الدويش في ارتوائيه بتاريخ ٢١ آذار واقـــترح عليه ان تبدأ الغزة المشتركة من هناك فوراً . ولكن مطـــير لم تكن راغبة في التعاون لان القتال كان قد انهكها في ذلك الوقت .

وفي ٢٤ آذار غادر بن حميد جراب على بعد عدة أميال الى الشمال الغربي من ارتوائيه بقصد مهاجمة مركز عراقي في سلمان . وفي ذلك الوقت كان ابن سعود قد قبل دعوة بريطانية لبحث المسائل المهمة مع السير جيلبرت كلايتون، فأرسل سعود العرفه آل سعود والرجل الموقر المعروف الشيخ الانقاري ليثنيا بن حميـد عن عزمه ، ونجحا في ذلك . ولحق الرجلان بابن حميد في عجيبه واقنعاه بعـــد جهد جهيد ان يتوقف ويعود الى التشاور مع ابن سعود .

وتحقيقاً لهذه الغـاية غادر ابن سعود الرياض في العاشر من نيسان قـــاصداً بريده ، وفي الرابع عشر انضم فيصل الدويش الى بن حميد في جاله على بعد ٢٥ ميلاً الى الشمال من بريده . وصحب كل من الرجلين معهما قوات كبيرة من رجـال

قبيلتيهما . ودعاهما ابن سعود الى الحضور الى بريده معاً ، ولكنهما رفضا وطلبا من ابن سعود ان يخرج لمقابلتهما في الصحراء . وخشي ابن سعود بدوره ان يفعل ذلك فلم يتم الاجتماع ولكن الطرفين توصلا الى اتفاق مؤقت بواسطة سعود العرفه آل سعود وعبد العزيز بن مسعد الجلوي آل سعود حاكم حايل .

وتعهد زعماء الاخوان بموجب الاتفاق ان يمتنعوا عن القيام باعمال عدوانية ضد العراق في الوقت الحاضر ، وان يطلقوا يد ابن سعود في التفاوض مع السير جيلبرت كلايتون . وغادر ابن سعود بريده الى حايل في طريقه الى الحجاز في ٢٠ نيسان ، ورجع زعماء الاخوان كل الى مقره .

وفي ١٤ نيسان حدثت غزوة صغيرة على بعد عدة اميال إلى الجنوب الغربي من وفره في منطقة الكويت المحايدة وذلك عندما قام فريق من الغزاة من العراق بمهاجمة مخيم للعوازم . ويعتقد ان قائد الغزاة هو مدبح بن شويربة الذي ينحدر من عائلة مرموقة في فرع برزان من قبيلة بريح مطير التي انفصلت عن الاخوان ولجأت الى العراق وسببت عدة مشاكل بغزواتها المتكررة الى نجـد ، الى ان نقلتها الحكومة العراقية عن الحدود في سنة ١٩٢٥ .

وفرد آخر من أفراد تلك العائلة واسمه علي بن شويربة حاول إثارة المشاكل في الشهر السابق عندما تقرب الى شيخ من شيوخ عجمان يعمل في خـدمة شيخ الكويت، وأوهمه انه ينطـق بلسان الملك فيصل عندما أخذ يحثه على القيام بغزوات الى داخل نجد . وكان الشيخ أحمد قد أبعده في وقت سابق لقيـامه بنشاط مشابه .

محادثات جده

وصل ابن سعود الى جده في السابع من أيار ليبدأ محادثاته مع السير جيلبرت كلايتون .

وقد استمرت تلك المحادثات من التـاسع الى العشرين من شهر أيار . وكانت القضية الرئيسية في المحادثات حق العراق في بناء مخافر للشرطة في الصحراء على

مسافة من خط الحدود .

ولم يحاول ابن سعود ان يقدم الاعذار لهجوم فيصل الدويش على مخفر بسوه ولتحريضه على الغزوات الاخرى ، ولكنه أكد أن بناء المخفر كان نقضاً صريحاً للمادة الثالثة من بروتوكول عقير . وقال ان هذا هو السبب الذي حفز مطير على الهجوم . واعتبر ابن سعود غارات سلاح الجو الملكي البريطاني على القبائل داخل حدود نجد خرقاً فاضحاً لنصوص معاهدة محمره وبروتوكول عقير . وأضاف الى ذلك قوله ان البعثة التي أوفدها لكبح جماح مطير ومعاقبتها قد قصفت هي الاخرى من قبل الطائرات البريطانية .

وقد عرض السير جيلبرت كلايتون وجهة النظر البريطانية بكياسة فائقة ، فشرح لابن سعود ان حكومة صاحب الجلالة كان عليها ان تحافظ على المبدأ القائل ان كلا الحكومتين لها الحرية في اتخاذ أية اجراءات ترى انها مناسبة للسيطرة على الصحراء والدفاع عنها كل داخل حدوده . ولكنه لم يستطع اقناع ابن سعود في تغيير رأيه من ان المادة الثالثة من البروتوكول قد انتهكت .

وطلب ابن سعود ان تدمر مخافر بسوه وسلمان وفي غيرها من مناطق الصحراء . وسواء كان يؤمن بحججه الخاصة أم لا ، فلقد كان من الصعب على ابن سعود أن يقف غير هذا الموقف ، لأن رجال القبائل التابعين له كانوا يشعرون بأن تلك المخافر هي بمثابة حد للاسفين الذي سيخترق نجد نفسها ، فكان من المستحيل عليه ان يستعيد سلطته لو انه وافق على الاعتقاد بان العراق له ما يبرر بناء تلك المواقع .

وهكذا انتهى المؤتمر دون التوصل الى اتفاق حول المسألة الرئيسية . ولكن ابن سعود عاد فأكد استمرار نواياه الحسنة تجاه بريطانيا .

وتجددت المباحثات في مطلع شهر آب — من الثاني حتى التاسع منه — . وعاد ابن سعود فرفض الموافقة على التفسير البريطاني للمادة الثالثة . وقال إنه أعلن نص المادة المذكورة على القبائل التي اعتمدت عليه في وجوب إزالة تلك المواقع ، فاذا تراجع فقد كل سلطته ونفوذه بين شعبه وفي صفوف الاخوان .

وقال أيضاً انه ووجه بالاختيار بين قطع علاقاتـــه ببريطانيا ، الأمر الذي لا يستطيع ان يفعله ، وبين ابلاغ القبائل أن الاتفاقيــة التي وقعها وعرضها عليهم هي غير ذات قيمة .

وتبين من تلك المفــاوضات ، بالرغم من العقبات المستعصية ، ان موقف ابن سعود من الحكومة البريطانية هو موقف صداقة حقيقية واحترام . ويبدو انــه كان يخشى فعلاً ان يؤدي عناده الظاهر إلى انقطاع العلاقات الطيبة القائمة بـــين بلاده وبريطانيا ولكنه كما قــال لا يستطيــع ان يرى حلاً من شأنه ان يضعف سلطته على القبائل .

قرارات الملك

ولم يكن أحـــد يعرف كالملك عبدالعزيز آل سعود ان الهزات المختلفة التي تعرض لها البيت السعودي في الماضي تعود الى سببين رئيسيين :

١ – قناعة رؤساء الدولة بالبقاء كحكام بدو .

٢ – عدم ضبط التعصب الديني عند أهالي نجد .

ولذلك قرر تعديل وتصحيح السبب الأول بادخال الامور الآتية :

أ – شكل حديث للحكومة مع مجلس للدولة وعـدد من الوزراء ورؤساء الدوائر والسفراء المنتدبين لدى الدول المجاورة على غرار البلدان الاكثر تمدناً .

ب – نظام لمحطات اللاسلكي مما يسهل السيطرة والاشراف على حكام الأقاليم والبقاء على اتصال دائم معهم .

ج – جيش مدرب وسكة حديـد وطائرات وسيارات ونظام واسع للنقل الثقيل في جميع أنحاء الدولة، الامر الذي اذا اضيف له افتتاح خطوط جوية وطرق برية يمكنه من تدبر أمر البدو من سكان نجـد الذين كانوا في الماضي سبب قوة أو ضعف كل حاكم .

ولكي يعالج السبب الثاني قرر في سنة ١٩٢٨ اضعاف قوة الاخوان ، السلاح الذي صنعه بنفسه، خلافاً لنصائح أقرب اصدقائه وذلك بقصد ان يصبح سيد

الجزيرة العربية . فعندما كانت هنالك مجالات للفتح كان يستطيع الهاء فرسانه وجعلهم طوع بنانـه . فقد أخضع جبل شمر وعسير والحجاز وواحة الجوف . وعندما لم يبق هنالك مجال للفتح واجهته ضرورة اخماد نار من الصعب اخمادها .

لقـد كان من الممكن معالجة المسألة بنجاح في وقت مبكر لو لم يعقد حادث بسوء الأمور . فالاخوان بـدأوا يتمردون على السلطة اكثر فأكثر وزادت غزواتهم الى داخل العراق والكويت . وحتى هـذا اليوم يدعي زعماء الاخوان باصرار ان ابن سعود نفسه أمر بكل تلك الاعمال العدوانية عندما كان في ذلك الوقت لا يزال رئيسهم الديني والعسكري .

ومهما كان الامر فمشاعر قبائل الاخوان في نجد كانت تغـلي . وكانت مطير تمقت سياسة ابن سعود بمنع الغزوات بين القبائل والغزوات الخارجية عبر حدود الكويت والعراق . وكانت تمقت اكثر استخدامه للاسلكي والسيارات وغيرها . وأثار حنقهم قصف الطائرات البريطانية لهم، وادعوا ان امامهم قد أصبح أداة في أيدي الانكليز ، وانه لم يسمح بالغزو إلا خوفاً من الاخوان ولكنه عندما تلقى احتجاج البريطانيـين وقف في طريقهم وأمرهم باعادة كل الغنائم التي حصلوا عليها .

وكان هنالك خطر حقيقي من ثورة تقوم بها قبائل نجد بقيادة فيصل الدويش وسلطان بن حميد ، لأن كلا القائدين كان يطالب ابن سعود علنا باثبات ايمانـه بالله عن طريق اعلان الجهاد ضد العراق .

وضبط ابن سعود نفسه بحذر شديد . فهو لم يكن يستطع المجازفة والتعرض لهزيمة نكراء ناتجـة عن هجوم متسرع على مطير وعتيبه وعجمان التي انضمت أخيراً الى الحركة ضده بقيادة ضيدان الهذلان . ولذلك كان يكسب الوقت .

مؤتمر مع الاخوان

ولدى عودة ابن سعود الى الرياض من جـده في ٨ أيلول ، أرسل في الحال رسلاً الى زعماء نجد وقادة الاخوان يدعوهم لحضور مؤتمر في الرياض في نهايـة

أيلول .

وقد لبى الجميع الدعوة باستثناء فيصل الدويش وسلطان بن حميد وضيدان الهذلان . لكن الدويش أرسل ابنه الأكبر عبد العزيز ممثلاً عنه ، فرفض ابن سعود مقابلته في بادىء الأمر طالباً حضور الدويش شخصياً مع بن حميد وبن هذلان .

وتأخر انعقاد المؤتمر زمناً طويلاً أملاً في حمل هؤلاء على الحضور ولكنه في النتيجة عقد في غيابهم وعاقبهم بأن عزل كل منهم من رئاسة قبيلته . وكان هذا الاجراء مجرد تظاهر لم يأخذه أحد في نجد على محمل الجد .

وتقدم الاخوان بثلاثة طلبات :

١ – إلغاء جميع الضرائب التي فرضها ابن سعود مجدداً على القبائل بالاضافة إلى الزكاة الشرعية .

٢ – إلغاء السيارات واللاسلكي والبرق ومخترعات الكفار الأخرى .

٣ – تدمير مخافر الحدود العراقية في سلمان وبسوه .

ووافق ابن سعود على الشرط الأول . اما عن الثاني فقد أجاب بأنه يعتبر تلك الاشياء منافع حقيقية للمؤمنين وبالرغم من ذلك فانه على استعداد ان يدمر جميع السيارات واجهزة التلفون واللاسلكي وغيرها ويعمل بدونها في المستقبل ، بشرط ان يدمر الاخوان جميع اسلحتهم وذخائرهم التي هي أيضاً من اختراع وصنع الكفار . وقد بحثت المسألة على صعيد علماء الدين الذين اصدروا فتوى تقول ان كلا الامرين شرعي يجوز اقتناؤه .

امـا الشرط الثالث الذي كان من الصعب او من المستحيل على ابن سعود الرضوخ له ، فقد سبب معظم المشاكل . وأقصى ما كان يمكن لابن سعود فعله هو اقناع الاخوان بالمحافظة على السلام وعدم القيام بأي عمل مضاد لمراكز الحدود العراقية لمدة شهرين آخرين ، لكي يقوم بمسعى أخير لضمان ازالة تلك المراكز بالمفاوضات السلمية . ولكنه وعدهم انه اذا فشل في محاولته سيكون معهم قلباً وقالباً في مهاجمة تلك المراكز . وليس هنالك أي شك بأنه لن ينوي

تنفيذ وعده .

وطلب ابن سعود من جهته ان يحصر الاخوان تجارتهم بالاماكن التي يعينها لهم فوافقوا على ذلـك . والقصد من هـــذا الاجراء منع التجارة مع الكويت لأسباب مالية . وكان عبدالله بن جلوي أمير الاحساء قد حصر مؤخراً التجارة بجبيل والقطيف لكي يحث القبائل على المجيء الى الهفوف . ولكن ذلـك أعطى نتائج عكسية منها ان القبائل أخذت تقدم بزيارات أكثر للكويت . ولم يأت تشرين الأول حتى كانت مطير والقبائل الأخرى تــذهب إلى الكويت علناً متجاهلة الخطر . وقد توقف ذلك بعد المؤتمر وزيادة في المنع أرسلت فصيلة لهذا الغرض من قبل بن جلوي .

وبعد ان نجح ابن سعود في التغلب على كثـير من المعارضة له ، اختتم المؤتمر علماً منه بأن لديه من التأييد ما يكفي لاخضاع ومعاقبة قبائــل مطير وعتيبه وعجمان الثائرة . وتفرق عبد العزيز الدويش وزعماء الاخوان بعد ان أغـدق عليهم ابن سعود هدايا كثيرة مغرية من المال والسلاح والجمال .

وابلغ ابن سعود ، عن طريق وكيله في البحرين ، الكولونل لوك الوكيـل السياسي هناك بأنه يود مقابلته في الاحســاء . وقبلت الدعوة ولكن بعد ذلـك بوقت قصير ، في ٥ كانون الأول ، أرسل ابن سعود الى الكولونل لوك كلمــة يقول فيها انـــه تأخر في الرياض ولا يستطيع القـدوم الى الاحساء في الوقت الحاضر . وهكذا لم يتم الاجتماع بين الرجلين .

وفي الوقت ذاته تقريباً تلقى ابن سعود رسالة عن طريق الوكيل البريطاني في جده تتعلق بمفاوضاته مـــع السير جيلبرت كلايتون . وتقول الرسالة ان الحكومة البريطانية وافقت من حيث المبدأ على اقتراحـــه بأن تعرض النقاط المتنازع عليها للتحكيم . وربما كان ذلــك هو الذي حمله على تأجيل اجتماعـه بالكولونل لوك – وربما كان السبب اعراض القلق والاضطراب التي بدأت تظهر بوضوح بين القبائل القوية .

وفي اوائــل كانون الأول وصلت شائعات الى الكويت تقول ان سهود بن

لامي أحد زعماء مطير الذي ألمح الى عدم ولائه بمغادرته مؤتمر الرياض دون استئذان، يهيء غزوة ولكن فيصل الدويش منعه من تنفيذها ضمن مهلة الشهرين المتفق عليها . وجاء الى الكويت رجل غادر الرياض في ٩ كانون الأول وقال انه سمع بعد ذلك بعدة أيام ان الدويش بعث يبلغ ابن سعود انه سيستأنف الغزو فور انتهاء المهلة . وفي ٣٠ كانون الأول وصلت معلومات الى الكويت تفيد ان الاخوان يخططون لغزوة كبرى . فقد انضم بن هذلان الى جفران الفقم في جاريه ، وبدأ الدويش يتقدم من ارتوائيه ، وابن لامي بدأ التحرك فعلا .

وأرسل الشيخ أحمد حاكم الكويت دوريات الى الحدود مع انه كان يعتقد ان لا خوف من الهجوم على قبائله – إلا ربما من ابن هذلان اذا تصرف بصورة افرادية – ويعتبر ان الهجوم على المراكز العراقية هو الاحتمال الاقرب الى العقل.

وقد قام ابن لامي بغزوة صغيرة على جزء من شمر في منطقة هجرة الى الغرب من منطقة العراق المحايدة ، لكنها لم تترك أية ذيول سياسية . وتفسير ذلك يمكن معرفته من رجل موثوق غادر الرياض في ٢١ كانون الأول . قال الرجل ان هنالك أحاديث جرت منذ زمن عن غزوات مقبلة . ويقول الرجل ايضاً ان ابن سعود أرسل الى ابن حميد يبلغه انه اذا كان لا يريد ان يأتي لزيارته في الرياض ، فانه سيذهب هو لمواجهته في غطغط . ورد ابن حميد بانه لا يوافق على ذلك ولكنه اذا رغب يمكنه ملاقاته في الصحراء . وتم الاتفاق على ان يتم الاجتماع في شوقي على بعد ٩٣ ميلا الى الشمال فالغرب من الرياض . وقد دعا ابن حميد فيصل الدويش وابن هذلان لحضور الاجتماع .

ولم يكن من المنتظر ان يحدث شيء قبل ان يتم الاجتماع ويعرف ما اذا كان ابن سعود يستطيع حمل الاخوان على المحافظة على السلام . وكان المرجح انه سيحاول اقناعهم بذلك الى ان ينتهي التحكيم .

الفصل الثالث عشر

ثـــورة الإخـــوان

١٩٢٩ - ١٩٣٠

كان الوضع في نجد غامضاً للغاية في أوائل كانون الثاني سنة ١٩٢٩ . فقــد تعددت الشائعات واختلفت بحيث انه كان من الصعب معرفة الصحيح من الخطأ. ولكن مما لا شك فيه ان العلاقات بين ابن سعود وزعماء الاخوان أخذت تزداد توتراً ، وصارت مهمته في منعهم من مهاجمة المراكز العراقية في الصحراء أصعب. وبلغ به الحذر حداً انه وجد معه من الضروري اصدار الأوامر لجبيل والقطيف وغيرهما من المدن بمباشرة بناء التحصينات . ومن جهة أخرى كانت هنالك دلائل تشير الى ان الفتور قد دب بين ابن حميــد وابن ربيعان أقوى شيخين في قبيلة عتيبه . وليس أمهر من ابن سعود في استغلال مثل هذا الوضع .

وفي ٢١ كانون الثـاني تحرك ضيدان الحذلان زعيم قبيلة عجمان على رأس قوة مختلطة باتجاه الأراضي الكويتية عن طريق الباطن مستهدفاً غزو قبائل المنتفق المخيمة في الجزء الشمالي من الكويت. وكان يصحبه في هذه الغزوة سهود بن لامي وعدد من فروع مطير ورشايده . وضرب هؤلاء ضربتهم في اليوم التـالي فقتلوا ستة رعاة واستولوا على عدة مئات من الاغنام والحمير وغيرهـــا . ومن المؤسف حقاً انه في صباح ذلـــك اليوم بالذات كان هنري بيلكرت المبعوث الاميركي في

البصرة متوجهاً الى الكويت بالسيارة برفقة تشارلز كراين سفير الولايات المتحدة السابق في الصين. والتقى الرجلان بعدد من الغزاة اطلقوا النار على السيارة فقتل بيلكرت .

وفي أوائل شهر شباط علم ان فيصل الدويش توجه ليقوم بمصالحة ابن حميد وابن ربيعان ، ووصلت تقارير في ١٢ شباط تفيد انه نجح في مهمته . وعلم بعد ذلك انه توجه الى جراب حيث ترك قواتــه بانتظار ان ينضم اليه ابن هذلان والفقم وغيرهما .

وقد جعل غموض الاحداث وارتقاب وقوع أشياء كبيرة من جهة نجد حياة سكان مناطق الكويت المتاخمة لنجد غير مأمونة؛ اذ انتشر الاشقياء واللصوص الذين أخذوا ينهبون كل ما وصلت اليه أيديهم . ونظراً لاضطراب الاحوال في البلاد فقد أقفل طريق البصرة — الكويت وصار البريد يرسل بطريق البحر .

وفي ليل ١٥ — ١٦ شباط سرق لجماعة من قبيلة ظافر كانت تخيم على مسافــة قصيرة من جهرا أربعة عشر جمــلا وعدد من الاغنام ، فأمر الشيخ عبدالله الجابر الصباح بتنظيم فريق للمطاردة من أربع سيارات . وفي صباح السادس عشر لحق المطاردون بالغزاة وأسروهم وأعادوا البهائم المسروقة .

واستفاقت الكويت في ٣ آذار على صوت اطلاق النار على بعد عدة أميــال من أسوار المدينة من جهة طريق جهرا . واتضح ان جماعة من بني مالك يقيمون في أربعين خيمة هناك قد هوجمت عند الفجر من قبل جماعـــة من مطير يبلغ عددها ٦٠٠ رجل بقيادة تراحيب بن شقير الفقم . وبنو مالك هؤلاء قبيـلة من الرعاة العراقيين ينتقلون في الصيف على خط يمتـــد الى جوار البصرة والزبير ، وكانوا حينئذ قد خيموا قرب جالب الشيوخ على بعد سبعة أميال من الكويت . وقد قاوم الرعاة مقاومة مستميتة وحاولوا التراجع الى المدينــة فقتل منهم ٣٧ رجلا وجرح خمسة آخرون جروحاً بالغة . وباستثناء الف رأس غنم وعــدد من الحمير ، فقد بنو مالك كل بهائمهم أي حوالي ستة آلاف رأس غنم وستماية وخمسين حماراً . وقد حرمت ثلاثون عائلة من كل ممتلكاتها .

(١) الشيوخ

وكانت خسائر الغزاة في الأرواح مساوية لخسائر بني مالك ان لم تكن أكثر
وقد قتل عدد آخر منهم عندما طاردتهم الطائرات البريطانية .

وقد عامل أهالي الكويت رجال القبيلة المنكوبة بالحسنى فأمدوهم بالطعا
وجمعوا لهم الأموال . واعيد ١٥٠ من الذين ظلوا على قيد الحياة الى خور
بالزوارق في ١٣ آذار وأرسل الباقون بطريق البر في اليوم التالي ترافقهم سيارات
البوليس .

وفي ٩ آذار هاجم حوالي ٤٠ خيالاً دورية من سيارات البوليس العراقي
كانت تقترب من حدود الكويت – نجد في رقيع . وقد هزمت سيارات البوليس
المهاجمين وكبدتهم خسائر جسيمة . وتراجعت السيارات العراقية الى الشمال
فتبعها خيالة الاعداء .

وفي ١٤ آذار سرق فريق من الخيالة التابعين لقبيلة الزياد في العراق قطيعين
من الغنم يبلغ عدد الواحد منها ٥٠٠ رأس يملكها رجال القبائل الكويتية المخيمين
في ممر مطلع بالقرب من جهرا . وقد استعيد القطيعان بعد وساطة الكابتن جون
غلوب(*) ضابط التفتيش البريطاني في صحراء العراق الجنوبية ، وبعد معاقبة
زعماء العصابة .

والأمثلة التي قدمناها دليل على حالة انعدام الأمن والقانون فيما وراء الكويت
في تلك الفترة . ولم نذكر هنا سوى الحوادث المهمة .

معركة سبيله الغامضة

وبدا واضحاً في ذلك الوقت ان ابن سعود انتقل الى قسيم عازماً على الدخول
في جولة حاسمة مع ابن حميد والدويش . فقد صدرت الأوامر لابن حميد بإعادة
عدد كبير من الجمال كان قد استولى عليها في عقيل . ورفض ابن حميد ذلك
صراحة مع ان الدويش لم يكن يؤيده بحرارة لأنه لم يوافق على فعلته بالاستيلاء

* – المعروف بغلوب باشا في الاردن

على الجمال . ولما ألح الملك طلب ابن حميد الذى صار الآن يتمتع بتأييد الدويش المطلق ، ان تحل القضية حسب الشريعة المقدسة .

وكانت خطتهما وضع ابن سعود في مأزق لكي يتسنى لهما إحراجه حسب الحجة الآتية :

يا عبد العزيز ، أنت كإمام كنت تدعو الى الجهاد ضد الكفار والمشركين . ولطالما دعوت وكررت الدعوة الى أن العراق كدولة شيعية يجب ان يدمر ، وأن كل ما يؤخذ من أهله حلال . ولطالما رددت قول القرآن الكريم لإثبات ان كل الأعمال التي يقوم بها المؤمنون ضد الكفار والمشركين يجب أن يكافأوا عليها . والآن ، وبأمر من الانكليز الكفار أنفسهم ، تدعونا نحن فرسانك المختارين سيف الاسلام ، الى إعادة ما أخذناه لأنك تعتبر ما فعلناه خطأ . فاما أن تكون انت دجال منافق تحب ذاتك وتبحث عن منفعتك ، واما أن يكون القرآن كتاباً غير صحيح . فليحكم علماء نجد بيننا .

وقرر الملك ان يقابلهم في عقر دارهم فدعا الى مؤتمر يعقد خارج مدينة زلفي في شمال نجد الوسطى . ومما لا شك فيه ان الرعب دب في قلبه بحيث انه لم يفكر قط في عرض القضية على أية هيئة من علماء الدين الوهابيين . وبدل ان يقرر القطيعة مع البريطانيين ، قرر ضرب الاخوان بسرعة مرة واحدة والى الأبد . وربما كان في اعتقاده أن البريطانيين سيساعدونه لبلوغ هذا الارب .

وأقام ابن سعود معسكراً لجيشه في زلفي . ثم جاء فيصل الدويش ومعه فرقة صغيرة وخيم في سهل سبيله[1] المكشوف قرب زلفي حيث انضم إليه بعد ثلاثة أيام ابن حميد الذي احضر معه قوة كبيرة وخيم بالقرب من الدويش .

سبله

وبموجب ترتيب سابق ظل زعيم الاخوان الثالث ضيدان الهذلان يحرس ميسرة الاخوان من أي هجوم طارىء يشنه فهد بن جلوي ابن أمير الاحساء الذي يملك قوة كبيرة في شمال تلك المقاطعة . وقد خيم بن هذلان مع بن شقير وبن لامي قرب جاريه في الطرف الجنوبي من منخفض الشق على بعد ١٣٠ ميلا الى الجنوب من مدينة الكويت . وقد استخدم ابن سعود كل مهارته الدبلوماسية

في منع ضيدان الحذلان من ان يرمي بثقله مع الزعيمين الثائرين . وفي الحقيقة أن الحذلان رفض الاشتراك في المؤتمر لأنه اعتبره تحدياً لسلطة الملك . وظلت قبيلة العوازم القوية في الاحساء موالية لابن سعود .

أما فيصل الدويش فقد تناول طعام الغداء مرتين على الأقل على مائدة ابن سعود قبل وصول بن حميد الذي رفض أن يفعل ذلك . وفي نيسان وصلت الى الكويت تقارير تفيد أنه بعد اجتماع أخير مع الدويش وبعد محاولة غير ناجحة لحمل بن حميد على القدوم الى زلفي ، تحرك جيش ابن سعود فجر ٢٩ آذار وهاجم قائدي الاخوان في سبيله بدون سابق إنذار وأنزل بهما هزيمة نكراء .

فالدويش الذي كان يعتقد أن مفاوضات أخرى ستجري ، أخذ مع فرقته الصغيرة على حين غرة وهم يهيئون طعام الافطار ، فأصيب بجراح خطرة في معدته دون قتال . أما بن حميد الذي كان أكثر تهيؤاً فقد تمكن من الفرار بعد ان شق طريقه الى التراجع بمهارة فائقة في القتال .

وقد أظهرت وقائع هذه المعركة الغامضة التي فقد فيها الثوار حوالي ٢٥٠ رجلاً ، ابن سعود على غير ما كان يبدو به . فانه من المؤكد ان ابن سعود قبل ان يشن هذا الهجوم المفاجيء على الدويش وابن حميد ، أعطى تأكيدات جازمة بأنه سيجتمع بالدويش مرة ثانية لبحث الأمور بموجب الشريعة .

ونقل فيصل الدويش الجريح الى قريته ارتوائية بأمر من ابن سعود ، وعاد ابن حميد الى غطغط حيث تبعه عبدالله بن عبد الرحمن شقيق الملك فاستسلم بدون قتال . ونقل ابن حميد سجيناً الى الرياض ودمرت غطغط .

وبعد ان اطمأن ابن سعود الى أن الثورة قد سحقت وان الدويش يحتضر متأثراً بجراحه ، ذهب لأداء فريضة الحج في مكة . ويقال إنه قبل ذهابه بعث برسالة الى ضيدان الحذلان يشكره لعدم انضمامه الى الدويش وابن حميد في سبيله ، وأرسل له طيها كتاب أمان لكي يتسنى له التنقل أينما شاء .

قتل ضيدان الحذلان

أخمد ابن سعود ثورة الشيوخ وشتت اتباعهم بعمل وصفه أصدقاؤه بأنه

عقاب حق ووصفه أعداؤه بأنه الغدر بعينه. ويمكن إرجاع ثورة الدويش التالية التي كلفت ابن سعود كثيراً الى هذه الحيلة غير الملكية، لأن العربي لا ينسى.

إن تلك الانتفاضة كان يمكن أن لا تكون خطيرة لو لم تستفز قبيلة عجمان القوية للوقوف ضد الملك بسبب تصرفات فهد بن جلوي الحمقاء الذي اشتهر بالغدر والقسوة.

ونتيجة لدسائس الأمير بن جلوي والد فهد، فقد ابن حذلان مؤقتاً كثيراً من نفوذه في عجمان ولكنه استعاد زعامته على القبيلة كلها بعد موقعة سبيلة.

لقد كانت لابن جلوي قوة مخيمة في عواينه على بعد سبعة عشر ميلاً من الصرار حيث كان ابن حذلان ورجاله. ودعا فهد بن جلوي قائد القوة المذكورة ابن حذلان ليأتي اليه لبحث رسالة تلقاها من ابن سعود. ولم ينس فهد ان يرسل له كتاب أمان بخط يده. وعقد ضيدان مجلساً لقبيلته وعرض عليهم الرسالة فنصحوه بعدم الذهاب الى عواينه لأن رائحة الغدر كما قالوا تفح من الرسالة.

وذهب ضيدان ومعه اثنا عشر رجلاً فاستقبله فهد بحفاوة بالغة ولكنه عندما نهض ليغادر المكان القى القبض عليه وكبل بالأصفاد. ولكن احد مرافقيه تمكن من الفرار لينذر القبيلة فتحركت قوة من عجمان قوامها الف وخمسماية رجل نحو معسكر فهد بقيادة حزام الحذلان في ساعات النهار الاولى. وكان ذلك في اليوم الأول من أيار.

ولما شعر فهد انه سيخسر المعركة أمر عبده ابن منصور وهو جلاد زنجي ان يقطع رقبة ضيدان، وقتل هو نفسه على يد شاب من عجمان يدعى عبدالله بن العيد الخيال الذي أمسك بعنان فرسه عندما كان يحاول الهرب واطلق عليه النار في رأسه.

كانت الخسائر في قوة ابن جلوي جسيمة فجميع رجاله كانوا من أهل مدينة الهفوف الذين أعمل السيف في رقابهم جميعاً. اما بعض البدو الذين اذهلهم ما صاب ضيدان فقد تركوا وشأنهم. واعترف بمحمد الحذلان ابن عم ضيدان المعروف بأبي الكلاب زعيماً على عجمان.

وانتشرت انبــــاء الاغتيال المجل كالنار وحركت المشاعر في شمال شرق الجزيرة العربية وانقلب الكثيرون على ابن سعود مع ان المسؤولية لا تقع عليه بل على عبدالله بن جلوي الذي كان ابنه فهد ينفذ اوامره .

وفي الثاني من أيار وصل فرحان بن مشهور من عائلة الشعلان الحاكمة في فرع الرولى من قبيلة عنيزه وأحد زعماء الاخوان البارزين ومؤيد سابق لابن سعود ، الى آبار صبيحية في الجهة الجنوبية للكويت ومعه عدد كبير من الجمال اغتصبها من ابن مسعد أمير حايــــل ومن شمر والداهمشاه في غزوات قريبة العهد . وفي الرابع من أيار تحرك شمالاً الى جهرا حيث قابل الشيخ أحمد . وصرح بأنه تلقى كتاب أمان من ابن سعود وانه أرسل اليه رسلاً ليستعلم عن الشروط التي سيسمح له بالدخول بموجبها .

وبموجب تعليمات الحكومة البريطانية أمر الشيخ أحمد فرحان بن مشهور ان يغادر جهرا في الثاني عشر من أيار بعد ان تزود ورجاله بمــؤن تكفيهم حتى الوصول الى الرياض . وعبر الحدود من قرين صباح الرابع عشر من أيار ولكنه بدل ان يتوجه الى عاصمة ابن سعود كما كان مفترضاً انضم الى قبيلة عجمان في اواسط الاحساء . وهنالك قليل من الشك بأن يكون قد غير رأيه نتيجة لحادثة عوايته .

عجمان ترفع مستوى الثورة

كان فيصل الدويش الذي تركه ابن سعود في ارتوائية ظناً منه أنه سيموت بين لحظة وأخرى ، يتماثل الى الشفاء ويتظاهر أمام الملأ بأن لا أمل من شفائــه وان وفاته هي مسألة وقت . اما ابن حميد فكان لا يزال اسيراً في الرياض .

وفور مقتل زعيمها رفعت عجمان القوية مستوى الثورة يدعمها فرحان ابن مشهور وغيره من زعماء الاخوان . ولم يمض زمن طويل حتى كان شمال نجد كله من جبل شمر الى الخليج الفارسي في يدهم .

وفي اوائل أيار تحركت عجمان بقيادة نايف الهذلان وخيمت في وفره في

منطقة الكويت المحايدة ومعها فرحان بن مشهور . وتلقى الشيخ أحمد تعليمات من الحكومة البريطانية ان لا يسمح لعجمان وغيرهم من الثائرين بالحصول على المؤن من الكويت ، أو ان يأتي أحدهم اليها . وابلغ ابن سعود بذلك .

في تلك الفترة الحرجة وبعد مئة من الخدمة كسكرتير للمقيم السياسي في الخليج الفارسي ، عينت وكيلا سياسياً في الكويت ، فتسلمت مهام عملي في الثاني والعشرين من أيار . وفي الثاني من حزيران أرسل ابن سعود احتجاجاً شديد اللهجة اتهم فيه الكويت بتزويد قوات عجمان وفرحان بن مشهور بالمؤن والذخائر خلافاً لتعليمات الحكومة البريطانية . وبعد تحقيقات دقيقة تمت بها بنفسي تبين لي ان اتهامات ابن سعود لا أساس لها بالرغم من ان بعض التهريبات كانت تتم سراً عن طريق الاقرباء والمؤيدين المقيمين في الكويت . وقد اثبت بالدليل القاطع ان الشيخ أحمد ينفذ تعليمات حكومة صاحب الجلالة بهذا الصدد بكل امانة .

وفي ٤ حزيران تمكن غزاة من قبيلة ظافر من الاستيلاء على مئة جمل يملكها رعاة من الكويت بالقرب من جهرا . وقد القي القبض على أحد الغزاة وأدلى باسماء شركائه فتبين انهم جميعهم من الرعايا العراقيين. ونتيجة للاتصالات مع الحكومة العراقية اعيدت الجمال وعوقب الغزاة .

وفي ١٠ حزيران احتج الشيخ أحمد رسمياً على دخول سيارات الشرطة العراقية اراضيه دون ابلاغه . وكان العراقيون يفعلون ذلك منذ ان اندلعت ثورة الاخوان ولكن الامر اعتبر غير مرغوب فيه من عدة نواحي . وتم الاتفاق ان الشرطة العراقية لن تعبر الحدود قبل ان تحصل عن طريقي على موافقة الشيخ أحمد .

وفي ١٤ حزيران غادرت قوة كبيرة من ثوار عجمان معسكرها في وفره الى جهة مجهولة في الجنوب . وبعد خمسة ايام كشف فيصل الدويش القناع عن وجهه مستغلا غياب ابن سعود في مكة ، وانضم الى عجمان . فبعد ان جمع حوالي خمسة آلاف رجل ومئة الف جمل من مطير وعجمان وابن حميد في قبيلة

عتيبه ، وصل الى جاريه عليا على بعد ثمانين ميلا من حدود الكويت في اليوم ذاته أي في التاسع عشر من حزيران . اما انتقاله الى هذه المنطقة الصالحة للمراعي الى جنوب الكويت يفسر حاجته الى الابقاء على قوة كبيرة .

وقد رفعت عودة الفارس الجريح معنويات الثوار وزادت في قوتهم . ولما علم ابن سعود بذلك جمع السيارات الموجودة في مكة وأسرع بالعودة الى الرياض . وجمع قوة قوامها ثمانية آلاف رجل معظمهم من منطقة قصيم . ولم يهاجم ابن سعود القبائل الثائرة فوراً اعتقاداً منه ان كل يوم يمر سيخلق صعوبات في التموين لفيصل الدويش ورفاقه من الصعب التغلب عليها . وحرص ابن سعود على ان يحصل على تأكيدات من الحكومة البريطانية للتعاون في منع فرار الثوار الى العراق والكويت في حالة هجومه عليهم . وكان ذلك يحتاج الى وقت .

وكان أول عمل قام به فيصل الدويش لدى وصوله الى شمال الاحساء هو دعوة الشيخ أحمد للانضمام الى الثوار واعداً باعادة الاراضي التي اقتطعت من الكويت في عهد الشيخ سالم . وبعث له برسالة أخرى يطلب فيها السماح له باقامة مخيم في صبيحية وبالقدوم الى الكويت لشرح خططه والحصول على مؤن. وابلغت الحكومة البريطانية الشيخ أحمد فوراً ان يضع مطير في نفس منزلة عجمان وان يمنع الدويش أو أياً من اتباعه من عبور الحدود . واذا ما حاولوا ذلك فانهم سيتعرضون للقصف .

اما القوات المشتركة لعجمان وابن مشهور التي اتجهت جنوباً من وفره فقد هاجمت العوازم في رضا بالقرب من جبيل في ٢٣ حزيران . وكان العوازم على استعداد لأن أمير الاحساء قد امدهم بالجنود ، فصدوا الثوار وكبدوهم خسائر فادحة بلغت ٤٥ قتيلا بينما لم يفقدوا هم سوى ١٥ قتيلاً بينهم عدد من النساء . ولم يقتل في الاشتباك أي من زعماء الطرفين لكن عجمان فقدت بعض رايات الحرب . اما تفاصيل المعركة المبالغ فيها والتي اذيعت في كل مكان في الاحساء والحجاز على انها نصر مبين انما تدل على سير الامور في الجزيرة العربية . ولما تلقى فيصل الدويش انباء هزيمة عجمان انتقل الى حمض في الاحساء ليوبخ ابن

مشهور وزعماء عجمان على سوء استعدادهم وطريقتهم ويبلغهم انهم يستحقون ذلك .

وحاول الدويش مرة أخرى في ٢٨ حزيران ان يحمل الشيخ أحمد على الانضمام الى الثوار ، فقد بعث له برسائل مع عدد من كبار زعماء الاخوان بمن فيهم ابنه الأكبر عبدالعزيز وذلك لاقناع الشيخ أحمد باتخاذ نهج قوي . وقد صيغت تلك الرسائل بلغة فصيحة وبيان بليغ تركت أثراً عميقاً في نفس حاكم الكويت وشعبه . لقد حفز الشيخ أحمد لكي يلعب دور رجل الموقف ويتصرف كما كان مبارك يمكن ان يتصرف بدون شك . وقال الدويش ان كل ما يطلبه الثوار هو المؤن والذخائر ، واذا ما اشتركت الكويت معهم فهو يتعهد بالباقي .

ومن حسن حظ جميع المعنيين بالأمر بقي الشيخ أحمد أميناً لوعوده التي قطعها لي بصفتي وكيلاً سياسياً لحكومة صاحب الجلالة بالرغم من الاغراء للقيام بهجوم ضد العائلة السعودية واستعادة المناطق الجنوبية وخاصة القبائل التي عليها كالعوازم وعجمان ومطير ، كان شديداً لا يقاوم . فلو انه انضم الى الثوار واتخذت الحكومة البريطانية موقفاً محايداً ، لكان من المحتمل جداً خلع ابن سعود لأن القوات المقاتلة في نجد كانت الى جانب الثائرين .

ونقلت قطاعات عجمان ومطير وابن مشهور عائلاتها وجمالها الى الجنوب من وفره في ١٥ تموز بسبب الجهود القوية التي بذلها الشيخ أحمد الذي كان همه الوحيد لمدة أسابيع ان يبعد الثوار عن حدوده ويبعد معهم الاغراء الذي تناديه اليه صبيحيه والمراعي الجميلة بجوارها .

ووصلت انباء في ١٨ تموز تفيد ان فرقاً من عجمان توغلت حتى ابو جيفان بالقرب من الرياض وقطعت طريق الرياض — الهفوف .

وفي تلك الفترة اخذ اللاجئون النجديون البارزون المقيمون في العراق — وكان بعضهم يتلقى مرتبات من الحكومة العراقية — يتدفقون الى الكويت في طريقهم للانضمام الى الثوار . وتعرض الشيخ أحمد وتعرضت أنا معه لقضية احراج في كيفية التصرف مع هؤلاء السادة . والقصة التي كان يرويها كل واحد منهم (وربما

كانت قصة مختلفة) هي ان الملك فيصل سمح لهم بالانضمام الى الثوار ليجربوا حظهم . ولكن لابن سعود عملاءه في الكويت . وكان هؤلاء يبلغونه عن كل دفعة جديدة تصل وعن تحركاتها ، وتعقدت القضية بالنسبة لكل من يهمه الأمر في الكويت . وأخيراً ، وبعد استطلاع رأي المقيم السياسي في الخليج الفارسي ، حصلنا على اذن باعتقال وارجاع كل شخص يصل من العراق ويشك في انه يرغب بالانضمام الى جيش الثوار .

وكان من بين أولئك الاشخاص البارزين علي بن شويربة (١) احد زعماء بريح (٢) مطير ، الذي زادت في مكانته زياراته السرية المتعددة بين بغداد ومعسكر الثوار . وهنالك قليل من الشك في انه كان يحمل معه مساعدات مادية ومعنوية ، وانه كان يشجع الثوار على الاستمرار في المقاومة . وبين اولئك الاشخاص ايضاً عبيد بن حميد من قبيلة عتيبة الذي كان يقوم بدور الرسول بين فيصل الدويش وبين نايف الهندي بن حميد (٣) زعيم عتيبة السابق الذي فر من نجد قبل ثلاثة أعوام وأقام في بغداد .

كان فيصل الدويش في ذلك الوقت يعسكر مع قوات الثوار الرئيسية في الطوال الجنوبي وهو مكان مستطيل في الوسط تشكله آبار الصفا (٤) ووبره وقرعه وحبه (٥) . ومن ذلك المكان كان بامكانه ان يضرب نجد والاحساء متى شاء . وفي ٢ آب شن غزوة صاعقة على قاية (٦) بالقرب من ارتوائيه ودمر قوة من رجال سبيع وسهول تدعمهم قوة صغيرة لابن سعود .

وبالرغم من أن الدويش لم يستول على الجمال في هذه الغزوة ، لكن الانباء انتشرت فاثارت الرعب في كل مكان مما حمل قوات ابن سعود المتقدمة على الانسحاب الى الرياض من معسكرها في حفر الأتز (٧) .

ان ما يميز هذه الغزوة سلوك الثوار تجاه الأسرى والمساجين . فقد عاملوهم اطيب معاملة ورحبوا بهم خلافاً لأساليبهم السابقة .

وفي ١٠ آب تلقى الشيخ أحمد وتلقيت معه رسائل مطولة من ابن سعود يشكرنا فيها على جهودنا في قطع المؤن عن الثوار .

وفي اليوم ذاته ضرب محمد بن خالد الهذلان وهو قائد شاب في عجمان ، قوة نجدية بالقرب من نطا (١) في اواسط الاحساء . وفي ١٥ آب وصلت انباء الى الكويت تفيد ان قافلة تحمل امتعة الأمير سعود الابن الأكبر للملك ، كانت في طريقها من الرياض الى الهفوف ، تعرضت في الخامس من شهر آب لهجوم شنته عجمان بقيادة محمد الهذلان مما ادى الى تدمير ١٤ سيارة شاحنة .

وبقصد ايهام القبائل الأخرى بقوة الثوار واقناع المتشككين بانهم يفعلون حسناً اذا انضموا الى المعسكر المناوىء لابن سعود ، أرسل فيصل الدويش ابنه عبد العزيز وهو شاب في الخامسة والعشرين من عمره على رأس غزوة طويلة الأجل الى بلاد حرب وشمر وعنيزه الجنوبية . وسار عبد العزيز في ١٥ آب على رأس قوة مختارة قوامها ٦٥٠ شاباً من الهجانة ينتمون الى مطير وعجمان ومعهم فيصل الشبلان الذي يأتي في القيادة بعد الدويش مباشرة ، وغيره من رجال الخبرة ليكونوا بمثابة مستشارين لعبد العزيز الشاب النشيط المتسرع .

وقد استولت هذه الغزوة على قطعان كبيرة من الجمال تعود لشمر ولعبارات، واستولت أيضاً على قافلة سعودية تحمل زكاة من حايل قدرها عشرة آلاف ريال . وعاد الغزاة بعد ذلك من حيث اتوا ليحققوا غرضهم الأول وهو الاستيلاء على آبار ام الرضمة جنوب غرب منطقة العراق المحايدة حيث يستطيعون سقاية جمالهم . وقبل ان نصف هذه الاحداث يجب ان نذكر اموراً أخرى .

وشهد شهر آب انتصارات للثوار في كل مكان بينما كان ابن سعود في موقف المدافع وكانت سياسته في تلك الفترة الاحتفاظ بالمدن الى ان يأتي فصل البرد . تلك كانت استراتيجية صحيحة ولكنها تعني انه سيخسر أكثر فأكثر من اتباعه البدو . وكان سيد الموقف في ذلك الوقت فرع الروقة من قبيلة عتيبه الكبيرة بقيادة الشيخ ابن ربيعان الذي كان الملك والثوار يتنافسان على خطب وده وكسب رضاه . فالروقة والحميد يعتبران اقوى اتحاد للقبائل في قلب الجزيرة العربية . امـا الحميد فقد انحازوا الى جانب الثوار وأصبح واضحاً ان الغلبة بالنتيجة ستكون للجانب الذي تنضم اليه الروقة .

وفي ٢٠ آب وصل الى الكويت الرباعي العميل السري المؤتمن لابن سعود . وبعد يومين جاء الى الكويت ايضاً ابن مشهور يرافقه محمد العثين . ولم يسمح لهما بالبقاء في المدينة فخرجت انا لمقابلتهم على بعد أربعة أميال من المدينة . وتوسل ابن مشهور ان يسمح للثوار في نصب خيامهم في صبيحيه فرفض طلبه وأمر بمغادرة الكويت فوراً . وطلب ان يسمح له بزيارة بغداد ورفض هذا الطلب ايضاً .

وفي تلك المقابلة أكد محمد العثين القصير القامة العريض المنكبين الدائم الابتسامة صاحب الانف المستقيم واللحية السوداء المعقوفة ، التقارير القائلة انه هو الذي هاجم قافلة الأمير سعود . وابلغني ان جميع الشاحنات قد احرقت وان أحداً من ركابها لم ينج من الموت . ويبدو ان اعادة ذكر وقائع هذه الحادثة كان تسلية كبرى له .

وفي اليوم ذاته ، ٢٢ آب ، انتقل فيصل الدويش الى حفر الباطن واستطاع ان يستميل الى جانبه فرع البريح الكبير من قبيلة مطير ، الذين حملوا خيامهم البالغ عددها ثمانمائة خيمة وساروا نحو الاحساء وانضموا الى قوات الثوار . وبعد عدة اسابيع دخل قسم من البريح الاراضي الكويتية وخيموا في جهرا . وقد تسببت انا في طردهم من هناك .

فيصل الدويش يعطيني كلمته

ان اجتماعي الأول بفيصل الدويش الذي يعتبر أكبر مخطط عسكري بدوي بعد ابن سعود شهدته الجزيرة العربية في هذا القرن ، ذكرت وقائعه في مكان آخر . ولكنني شعرت بضرورة اعادته هنا لأنه يشكل جزءاً مهماً من الصراع من أجل السلطة بين خصمين لدودين كانا صديقين حميمين .

دفعت ضرورة ايجاد مراع جديدة للاعداد الضخمة من الجمال والاغنام فيصل الدويش واتباعه الى غزو الاراضي الكويتية من جهة الجنوب بصورة مفاجئة في الثلاثين من شهر آب ، وأقاموا لأنفسهم معسكراً ضخماً حول صبيحيه والآبار

الملاصقة لها . ولقد قدرت قوتهم بحوالي خمسة آلاف مقاتل والفي خيمة ومئة الف جمل . وكان ذلك منظراً رائعاً .

وبعد ان أبلغت الحادث طلب مني ان احذر فيصل الدويش من انه اذا لم ينسحب عبر الحدود خلال يومين فان طائرات سلاح الجو البريطاني المقيمة في شعيبه بالبصرة ، ستقصفه مع رجاله وممتلكاته .

وقد استقبل الرسول الأول الذي أرسلته الى صبيحيه باستهزاء . ولكي اتجنب وقوع كارثة مقيتة لا سيما وان هنالك عدة آلاف من النساء والاطفال مختلطون بالرجال المقاتلين، دعوت فيصل الدويش ليقابلني في ملح في اليوم التالي على بعد خمسة عشر ميلاً الى الجنوب من مدينة الكويت وثلاثة اميال الى الجنوب من المستشفى القائم الآن والتابع لشركة نفط الكويت مع مدرسة التدريب في مقوع (١) . وتوجهت الى ملح لوحدي اقود سيارتي بنفسي بالرغم من نصيحة الشيخ أحمد الذي كان يخشى علي من الغدر . ووصلت الى ملح مساء الواحد والثلاثين من شهر آب . وفي اللحظة الأخيرة تبعني الشيخ أحمد ومعه أربعة عبيد مسلحين وداً منه في مشاركتي نفس المصير اذا ما لحقني أي اذى . وسأذكر له ذلك بكل امتنان ما دمت حياً .

وقابلنا فيصل الدويش في الموعد المحدد على رأس تلة تشرف على الآبار الواقعة الى الشرق من المكان الذي ينزلون فيه ومعه ابرز زعماء الاخوان وعددهم أربعون من الرجال المتعصبين الاشداء . ذلك الرجل الذي فعل أكثر من أي عربي آخر ليساعد ابن سعود الارتقاء الى اعلى مراتب السلطة والشهرة ، كان قصير القامة عريض المنكبين له رأس وأنف كبيران . وكان يسير بعزم وثقة وكأنه محدودب الظهر قليلا، عبوساً صامتاً بطبيعته ولكنه لم يكن يرى الاشياء بوضوح كابن سعود من وجهة نظر السياسي .

وقلت له ما جئت لأقوله واضفت انني استطعت الحصول على موافقة حكومة صاحب الجلالة في ارجاء عملية القصف لمدة يومين ضناً مني بأرواح النساء والاطفال ، ورجوت فيصل من أجلهم ان يعدني بالتراجع عبر الحدود

ضمن المهلة المحددة . وتردد ان يفعل ذلك لمدة ساعة كاملة قال خلالها انه ليس على خصام مع البريطانيين ، وانه وقبيلته كانوا في السابق من رعايا شيخ الكويت ويريدون العودة الى ولائهم القديم ، وانهم يعانون نقصاً رهيباً في الاغذية والمؤن. وكان جيشه جائعاً ولذلك كان يأمل بالسماح له ان يشتري الطعام من الكويت .

ومع انني تأثرت كثيراً بكلامه تصرفت بقساوة قلب واقنعته اخيراً بأن يعطيني كلمته ففعل بينما كانت كتلة الشمس الحمراء تنحدر وراء تلال مناقيش فقال فيصل انه يريد الصلاة . فدعا الى الصلاة بنفسه وقاد رجاله ومرافقيه الى صلاة المغرب واضعين بنادقهم امامهم على طريقة الاخوان . وبعد ان انتهت تلك الصلاة الهادئة استدار الزعيم الصحراوي الكبير نحو مرافقيه وهو لا يزال على ركبتيه وأدى السلام الذي يتلو الصلاة . وقبل ان ينهض واجهني وقال : اعدك بشرفي انني سأفعل ما طلبته مني . اذهب بسلام .

وحافظ فيصل على كلمته .

وفي ٤ أيلول وقع حادث غريب . وسأذكره هنا لأظهر مدى اضطراب حبل الأمن والقانون في كل مكان . هاجم فريق من بني حسين والعرايف من قبيلة ظافر في العراق بقيادة شويلح بن شريف مكاناً بالقرب من جهرا واستولوا على بعض الاغنام . وعلى الفور اطلق فداثية الشيخ المقيمين في جهرا النذير وطاردوا الغزاة فلحقوا بهم في القضي واستعادوا منهم الاسلاب بعد ان قتلوا منهم رجلاً واحداً وأسروا ثلاثة آخرين. وفقدت الدورية المطاردة ستة خيول وجملاً واحداً واصيب احدهم بجراح . وبموجب افادة الاسرى الثلاثة تمكنت السلطات العراقية فيما بعد من القاء القبض على بقية الغزاة . وقد استحق فداثية الشيخ والشرطة العراقية الشكر والتهنئة على توليهم هذا الحادث بنجاح .

قتال حتى الموت من أجل الماء

ونعود الآن الى عبدالعزيز الدويش وقوته الضاربة في طريق عودتها . فلما اقتربوا من لينا شمالي حايل تناهى اليهم ان ابن مساعد الجلوي أمير حايل يحاول

قطع الطريق عليهم بالاستيلاء على آبار الماء، وانه قد تحرك فعلاً عبر خط تراجعهم بقصد قطع الماء، الذي هم بأمس الحاجة اليه، عنهم. وكانت تلك الانباء خطيرة للغاية، لأن حرارة آب كانت شديدة وجمالهم لم تذق طعم الماء منذ أربعة أيام، والمسيرة كانت طويلة بحيث ان الجمال التي استولوا عليها كانت تسقط ميتة من الإعياء في الطريق.

واقترح فيصل الشبلان تغييراً فورياً في الاتجاه نحو الشمال الشرقي وكان عبد العزيز يحبذ إكمال السير نحو ام الرضمه. وأتى اربعة من الكشافة بانباء مفادها ان آبار ام الرضمه وقعت في يد قوة أكبر من قوتهم بثلاث مرات على الأقل. وأعلن فيصل الشبلان في الحال انه سيتوجه الى الشمال الشرقي ودعا كل رجل ذي عقل ان يتبعه. اما عزّيز* العنيد فقد رفض العمل بهذه النصيحة فافترق فيصل الشبلان عنه ومعه حوالي مئة وخمسين رجلاً وعدة مئات من الجمال.

واندفع عزّيز الى الامام بسرعة ومعه حوالي خمسماية رجل فقط بالرغم من ان جماله كانت تموت من المشقة والاعياء، فوصل الى جوار آبار ام الرضمه عند منتصف النهار. وتبين له ان انباء الكشافة كانت صحيحة جداً لأن الآبار كانت محاطة بحوالي الف وخمسماية رجل نشيط من شمر وحرب والبدو الحضر حفروا خنادق على مدار المنطقة باكملها. لقد كانت حالة يائسة فالرجال والجمال بحاجة ماسة الى الماء. وقد ابلغني احد الناجين فيما بعد بان قرب الماء التي يحملها الرجال للطوارىء كانت قد فرغت كلها منذ زمن، وان احداً من رجال عزّيز لم يذق طعم الماء لمدة ثماني ساعات. وكانت حرارة الشمس توازي تقريباً ١٧٠ درجة فهرنهايت.

وأمر عزّيز رجاله بالتوقف على مرأى من العدو الذي كان يعرف قوته فأخذ يراقب باستهجان خطوته التالية. وبعد ذلك دعا عزّيز رجاله الذين انهكهم التعب الى الصلاة فركعوا جميعهم، ولم يثنهم الجوع والعطش والحرمان واحتمال وقوع معركة رهيبة، عن عزمهم لحظة واحدة.

وصرخ قائدهم بأعلى صوته قائلاً:

---

* - اسم للتحبب يطلق على عبدالعزيز الدويش.

ـ ألسنا نحن اخوة اختارنا الله ؟ يجب ان نتقدم ونحصل على المـــاء . ان الكلي القدرة سيساعد ابناءه .

وكان آخر أمر اصدره الى عبده ان يقود فرسه وينقذها اذا امكن ذلك ، وبدأ هجوم رهيب قام به خمسماية رجل اصيبوا بجنون العطش . وتلقى المدافعون عن المكان الهجوم بشجاعة . وقد ساعد السراب المهاجمين لأنه منع المدافعين من التسديد الجيد في الرمايـــة ، فنشبت معركة ضارية رهيبة . وكادت شجاعة الاخوان الفائقة لمدة من الزمن ان تربح المعركة ولكن الاعداد كانت متفاوتــة ، وكان ابن مسعد يأتي بفرق جديدة واحدة بعد الاخرى . ودنت النهاية عندمـا كانت الشمس تتوارى عن الانظار . ولما فقد عزيّز ثلاثة أرباع رجاله ووجد ان المعركة انقلبت لغير صالحه اقتاده خمسة من خدامه الخصوصيين الامناء من الميدان وقاموا بجهود أخير لانقاذ قائدهم المحبوب . ولكنهم لم يشاهدوا بعد ذلـك على قيد الحيـاة فقد عثر على جثثهم يابسة بعد شهرين في قلب صحراء هجرا وقـــد هلكوا من العطش .

وقتل اربعماية وخمسون رجلا من الاخوان على أرض المعركة . ومن بين الخمسين الذين تمكنوا من الفرار وصل ثمانية وثلاثون على قيـــد الحياة كان من سوء حظ ثمانية منهم ان يقتلوا في نقير بعد شهر عندما هاجم فيصل الدويش العوازم . اما ابن مسـعد فقد فقد في معركة آبار ام الرضمه اكثر من خمسماية رجل .

وقد احضرت لي فرس عزيّز الاصيل الى الكويت بعد اسبوع من تاريخ المعركة وهي جلد وعظم وفي ظهرها جرح ينزف بحجم راحة الكف . وآويتها سراً في منزل بالقرب من منزلي حيث كنت وزوجتي نطعمها ونعتني بها حتى اصبحت على أحسن حال بعد مضي ثلاثة أشهر . وبعد ذلك ارسلتها الى مكان أمين في البصره حيث توفيت بعد أربع سنوات . لقـد كانت من اجمل الحيوانات التي وقع عليها نظري .

الملك يهاجم

وأخيراً في ايلول بدأت الحيـاة تدب في قوات ابن سعود . وعززت العوازم

برجال من المدن وأمروا بالتحرك شمالاً لضرب الثوار عند حدود الكويت الجنوبية . وشكل تجمع قبلي آخر في حفر الأتز وجمع ابن مسعد قوة من حرب قوامها ثلاثة آلاف رجل في عجيبة الى الجنوب الغربي من منطقة بشوك . ووضعت عدة طائرات مقاتلة حصل عليها من الحكومة البريطانية وكان يقودها طيارون سابقون في سلاح الجو الملكي ، في جزيرة تاروت بمحاذاة القطيف في جنوب الاحساء . ووجه ابن سعود كل اهتمامه الى قبيلة عتيبة التي رفعت مستوى الثورة أخيراً . وقد عالج الامور بمهارة فائقة في الغرب بحيث انه نجح في غرس بذور الخلاف بين أعدائه هناك .

وفي الخامس من تشرين الاول هاجم فيصل الدويش العوازم في نقير باواسط الاحساء واحرز عليهم نصراً كاملاً . وفقد الثوار في المعركة ٤٨ رجلاً وفقد العوازم ٢٥٠ وكلاهما رقم كبير بالنسبة للمعارك العربية . واستولى الدويش نتيجة المعركة على ثمانية آلاف جمل وغيرها من الاسلاب . وهرب محمد السهلي أحد قادة ابن سعود من المعركة مع خمسة من مرافقيه . وطلبت العوازم شروط الصلح فأعطيت لها في ١٠ تشرين الأول .

وقد وافق الدويش بموجب تلك الشروط ان يسمح للعوازم ان تنتقل الى الاراضي الكويتية وتبقى هناك . وقد انكر ابن سعود ذلك فيما بعد بشدة .

لقد اعطت معركة نقير الثوار ثلاثة ارباع مقاطعة الاحساء . ولكن هذا النصر طغت عليه الانباء القائلة ان ابن سعود قد احرز نصراً ساحقاً في غرب نجد وابعد عتيبه نهائياً عن المعركة . كان ذلك نكسة سيئة للثوار الذين لم يخامرهم ادنى شك بأن عتيبة ستنتصر في النهاية . وفي ٣٠ تشرين الاول ارسل الدويش يطلب مقابلة الشيخ أحمد ومقابلتي . وأتبع هذا الطلب بأن عبر الحدود بنفسه مع عدد من مرافقيه وخيموا بالقرب من جهرا . وعملاً بتعليمات الحكومة البريطانية أبلغته ان ينسحب فوراً . واتضح انه كان يرغب في ان يوجه الاسئلة الثلاثة الآتية التي عاد فأرسلها برسالة خطية :

١ — اذا تحرك جنوباً الى نجد وترك نساءه وجماله في شمال الاحساء ، فهل

تعد الحكومة البريطانية بأن لا تقصفهم وان لا تسمح للقبائل العراقية بمهاجمتهم؟

٢ ـ اذا هاجم ابن سعود نساءه من الغرب اثناء غيابه فهل تسمح الحكومة البريطانية لهن باللجوء الى الكويت والبقاء هناك بحماية الشيخ ؟

٣ ـ اذا ما أسقط رجاله طائرة من طائرات ابن سعود التي يقودها بريطانيون فهل تعتبر الحكومة البريطانية الثوار مسؤولين عن ذلك ؟

وبعد ان أحلت هذه الاسئلة على حكومة صاحب الجلالة ابلغت ان اعطي جواباً غامضاً بالنفي على السؤالين الاولين وجواباً قاطعاً بالإيجاب على السؤال الأخير . واصيب الدويش تبعاً لذلك بخيبة أمل مريرة .

وبعث الدويش برسالة جوابية يقول فيها انه طالما ان الحكومة البريطانية تقف الى جانب ابن سعود ، وطالما انه لا يستطيع الهجوم على نجد لحسم الموقف مع الملك في الوقت الذي تكون فيه نساؤه ومؤنه وجماله تحت رحمة القبائل العراقية بموافقة الحكومة البريطانية ، فلا خيار لديه إلا ان يتوصل الى شروط مرضية مع ابن سعود .

إن مما لا شك فيه ان اجوبة الحكومة البريطانية على الاسئلة الثلاثة كانت تعني نهاية الثورة . فمنذ ذلك اليوم لم يعد فيصل الدويش يبذل اي جهد لمقاتلة ابن سعود بل كان ينصح علناً كل من يرغب في القتال في الانفصال عنه وعقد صلح منفصل مع الملك .

لقد كانت لدى الثوار كميات من الذخائر والمؤن تكفي للاستمرار في حرب طويلة الأمد . وكانت هزيمة عتيبة تحتم مهاجمة نجد وانزال الهزيمة بابن سعود في الميدان . ولكن جواب الحكومة البريطانية بأنها لا تأخذ على عاتقها منع القبائل العراقية من مهاجمة النساء والاستيلاء على المؤن في غياب الدويش ، حمل على انه يعني ان الحكومة البريطانية ستشجع على مثل تلك الأعمال ولذلك وجد الدويش انه من المستحيل عليه ان يقوم بأي عمل ضد نجد .

ولم يأت العاشر من تشرين الثاني حتى كانت فلول الثوار تتراجع الى وسط هضبة قرعه على بعد سبعين او ثمانين ميلاً من الحدود الكويتية وعددهم يتقلص

تدريجيا .

وفي ١٩ تشرين الثاني وصل الشيخ حافظ وهبه ممثل الملك ابن سعود في لندن الى الكويت وبدأت حملة دعاية واسعة النطاق ضد الثوار . وفي ٢٣ تشرين الثاني وبعد ان بدأت مستنقعات الماء تجف في الصحراء اخذت جمال الثوار تفد الى الاراضي الكويتية للحصول على الماء من جهرا . ولكن خطوات حاسمة اتخذت لمنع ذلك في المستقبل . وفي الخامس والعشرين من الشهر نفسه حاول نايف بن محمد الهذلان ان يعبر الحدود لمقابلة الشيخ أحمد ، ولكن الشيخ أحمد رده بنفسه .

وفي التاسع والعشرين بعث ابن سعود بسيل من رسائل التهديد الى الكويت تفيد انه يقترب على رأس جيش قوي ، فاذا سمح شيخ الكويت لواحد من الثوار ان يعبر حدوده ، فإنه يحمله المسؤولية شخصياً . وقد وزع الشيخ حافظ وهبه رسائل مماثلة على زعماء ووجهاء الكويت . وفي السادس والعشرين اشتكى الشيخ أحمد رسمياً من ان الشيخ حافظ وهبه يمارس صلاحيات قنصلية بصورة غير صحيحة وطلب من[1] الحكومة البريطانية ان توقف نشاطه فوراً . وصدر له تحذير في الوقت المناسب وتحسنت الأمور .

وعلم ان مقدمة جيش ابن سعود وصلت في ١٨ كانون الاول الى الصفا ، وقد تأكد ذلك في اليوم نفسه بعد ان وصلت خمس من سياراته الى الكويت حاملة رسائل بهذا المعنى . وفي الوقت ذاته كانت قوات الثوار تنتقل على طول الباطن ، وقد تقلص عددها واخذ المزيد من زعمائها ينتقلون الى معسكر ابن سعود او يجدون طريقهم بهدوء الى الجنوب ، بينما بدأ فيصل الدويش مفاوضات رسمية مع ابن سعود . وقد أرسل الدويش رسلاً الى المعسكر الملكي لطلب السماح له بالتسليم ومعرفة الشروط التي سيتم على اساسها .

كان الثوار يقيمون على جانبي منخفض الباطن من حفر الباطن الى رقيع حيث تلتقي الحدود الكويتية – العراقية في اقصى الجنوب . وعند الغروب في الثامن والعشرين من كانون الاول تقدم محسن الفرم شيخ قبيلة حرب التي كانت تشكل القوة الغربية او الجناح الايسر لابن سعود ، من شعيب فليج بقوة كبيرة

مختلطة من حرب وشمر وظافر وهاجم الثوار عند الفجر .

وقد أخذ فيصل الدويش بهذا الهجوم على حين غرة فيما كان ينتظر شروط الصلح من ابن سعود . وعلى كل حال ، لم تحدث خسائر كبيرة . فقد تجمع الثوار بسرعة وصدوا المهاجمين ولكن ليس قبل ان يفقدوا خمسين قتيلاً واربعة آلاف جمل .

لقد شن محسن الفرم هجومه بدون ان يتلقى اوامر من الملك ، ورد على اعقابه ، ومع ذلك صور مؤرخو مكة الحادث بأنه معركة عظيمة ونصر حاسم للحملة وذلك ليس صحيحاً على الاطلاق .

نهاية الثورة

تجمعت القوات الارضية لسلاح الجو الملكي والسيارات المسلحة وغيرها من العراق بالقرب من رقيعي لتمنع عبور الثوار الى العراق او الكويت . وفي ٣٠ كانون الاول انضمت مطير التي تحملت اذى هجوم محسن الفرم ، الى عجمان في أم عمارة المهزول حيث قابلهم قائد القوة الجوية الملكية في العراق المرحوم السير تشارلز ستوارت بيرفيت الذي خيرهم بين الاستسلام او العودة عبر الحدود . وبينما كانت المفاوضات جارية حاول الشيخ علي بن عشوان ومجموعة بريج في قبيلة مطير ان يهربوا في ٣١ كانون الاول الى الجنوب الشرقي من وراء ميمنة ابن سعود . وتصدت لهم قوة الى الجنوب من سلسلة المسناة وقتلوا جميعهم باستثناء علي بن شويربة تمكن من الدخول الى خيمة الملك ليلاً وطلب حمايته .

وبعد محادثات طويلة في أم عمارة المهزول رفض الثوار شروط السير تشارلز للاستسلام وعادوا جنوباً عبر الحدود دون ان يعرفوا مدى قرب جيش ابن سعود . وفي هذه المرحلة تمت زيارة لمعسكر عجمان في وادي الباطن بالأراضي الكويتية وألححت على نايف الهذلان ان يرمي بنفسه تحت رحمة ابن سعود ، وقلت له بالحرف الواحد :

ـ اذ كانت لديك القوة الكافية للقتال .. قاتل . اما اذا لم تكن لديك

القوة فتخل عن القتال من اجل نسائك واطفالك .

ولم يصغ لكلامي .

وبانت قوات ابن سعود في رقيع في الخامس من كانون الثاني فعاد الثوار وغيروا اتجاههم ثانية نحو الشمال الشرقي وشقوا طريقهم بصورة اضطرارية الى واحة جهرا تاركين عدة آلاف من الاغنام والجمال تموت في الطريق .

وتخفيت انا وعدد من رجال الشيخ أحمد بثياب البدو وسرنا معهم في الليل وكنت أبلغ سلاح الجو الملكي تباعاً باتجاه سيرهم . وفي اليوم التالي فاجأتهم قوة مشتركة من الطائرات والسيارات المسلحة قرب الاطراف على بعد عشرة اميال الى الغرب من جهرا فوجدتهم بحالة من الفوضى يهربون في كل اتجاه. وخشي الثوار وهم في هذه الحالة هجوماً من جيش ابن سعود ، ولم يكن لديهم علم بانه محظور عليهم عبور الحدود . وفي السابع من كانون الثاني انتقلوا الى جهرا حيث قامت الطائرات بالقاء قنابلها حول القرية في فترات منتظمة لتجميعهم .

هناك توجهت لزيارة فيصل الدويش معرضاً سيارتي لنيران الطائرات الملكية البريطانية عندما اقتربت من المكان . وتوسلت الى الدويش مدة ساعتين كاملتين ان يستسلم لسلاح الجو الملكي وان لا يحاول شق طريقه كما يريد ان يفعل لئلا يدخل في معركة حاسمة مع قوات ابن سعود التي تنتظره عند حدود الكويت الجنوبية . وتركته دون ان أستطيع اقناعه .

وفي اليوم ذاته – ٨ كانون الثاني – حاول فريق من جبلان ورشايده ومعهم عدد من عجمان ان يعبر جنوباً الى جاريه في مؤخرة قوات الملك . وتصدت لهم في الشق ، جنوبي منقاش، قوة من السيارات يقودها ابن سعود بنفسه وافنتهم عن بكرة ابيهم .

وتمكن واحد او اثنان من كبار زعماء الاخوان من الفرار من جهرا في غمرة الفوضى التي احدثها القصف الجوي . ومن الذين فروا فيصل الشبلان رئيس عشيرة الشبلان في مطير والذي يلي الدويش منزلة في القيادة . وعلم انه توجه الى مدينة الكويت حيث كان يأمل في الاختباء عند بعض المؤيدين . وذكر في هذا

المجال انه قد يحاول الدخول على حاكم الكويت والاحتماء به الامر الذي يعرض الشيخ أحمد الإحراج لأنه سيرفض في هذه الحـــالة تسليمه الى ابن سعود عملاً بالعادات العربية . وفي تلك الفترة اختفى فيصل الشبلان .

وبعد عدة مراسلات سرية مع نايف الهذلان اقنعته ان يستسلم في التاسع من كانون الثاني الى فرقة السيارات المسلحة التابعة لسلاح الجو الملكي ، الأمر الذي دفع فيصل الدويش الى تغيير رأيه في شق طريقـــه عبر قوات ابن سعود للاستيلاء على نجد . واستسلم الدويش ومعه سهود بن لامي في العاشر من كانون الثاني . وركب معي فيصل الدويش ، بصورة احتفالية مؤثرة ، الى معسكر القيادة الجوية حيث سلم سيفه . وارسل الزعماء الثلاثة الى البصرة بطريق الجو وهناك نقلوا الى سفينة حربية بريطانية في شط العرب . (١)

وابلغ فلول الثوار من مطير ومعظمهم من الدوشان والدياهين ، والقسم الاكبر من عجمان ان ينتقلوا شمالاً الى منطقة جريشان – روضتين في دولة الكويت على بعد خمسة عشر ميلاً الى الجنوب من مركز الحدود في صفوان حيث بقوا بحراسة السيارات المسلحة التابعة لسلاح الجو الملكي الى ان يصبح بالامكان تسليمهم الى ابن سعود .

وعدت الى مقري في الكويت ووضعت تقريراً مفصلاً للشيخ أحمد عـــن استسلام زعماء الاخوان وعن التجمع المقترح لقطعان الجمـــال في شمال البلاد . وبدأت العمل فوراً في تأمين الطعام والملابس لنساء واطفال الثوار الذين تركوا في حالة يائسة من الجوع والحرمان بين بساتين النخيل في جهرا . وكان بين اولئك نساء فيصل الدويش : زوجته عمشا وشقيقاته الثلاث وابنتان صغيرتان وسبع وعشرون من قريباته ، وكلهم من الدوشان ومن ذوات المولد الرفيع . ومع الخادمات كان عدد هذا الفريق من النسوة سبعاً وثلاثين امرأة . وقبل ان ينقل الى البصرة ترك الدويش نساءه في عهدتي وكانت كلماته الاخيرة لي :

– اسلم حريمي لك يا ديكسون ومن ذمتي الى ذمتك .

ونقل اولئك النسوة الى قصر الاحمر في جهرا حيث اعتنت بهـــن زوجتي

وقدمت لهن المأكل والملبس الى ان يتم نقلهن الى الكويت في ضيافتي . وبالاضافة الى كل تلك الترتيبات كان علي ان اكتب تقارير لاطلاع حكومة صاحب الجلالة والملك عبر الحدود على الاحداث بصورة عامة . لقد كنت اعرف ان ابن سعود سيطلب فوراً تسليمه الثوار وجمالهم ، فكانت هنالك جهود كثيرة يجب ان تبذل قبل ان توافق الحكومة البريطانية على مثل هذا الامر .

فيصل الشبلان يشرب القهوة معي

كنت مستمراً في العمل بهذه المشاكل في مكتبي لمدة يومين بعد الاستسلام عندما اعلن رئيس الفراشين وصول شيخ غريب قال انه يود ان يقدم احترامه لي.

ودهشت عندما رأيت رجلاً طويلاً متناسب القوام على رأسه كوفية كالتي يرتديها الاخوان. وقد كنت اعتقد بانني اعرف معظم شيوخ الجزء الشمالي الشرقي من الجزيرة العربية ، ولكنني لم أعرف هذا الشيخ الزائر . كان وجهه وأنفه قد أحرقتها الشمس فأصبحت بشرته حمراء اللون متشققة عند الأنف والشفتين ، خلافاً للبدو الذين اذا لفحتهم الشمس تصبح بشرتهم سوداء .

ودعوت الزائر للجلوس وطلبت له القهوة وانتظرته ليبدأ الكلام . رفض ان يدخن قائلاً وهو يبتسم انه وهابي . وبعد ان تناول القهوة قال زائري بهدوء بان اسمه فيصل الشبلان وانه جاء يطلب نصيحتي حول بعض الامور . لقد كان يعلم كل شيء عن الاستسلام الذي تم في جهرا واعترف انه قدم الى الكويت ليتخلص من الوقوع في أيدي سلاح الجو الملكي . وأراد ان يعرف مني ما اذا كان الشيخ أحمد يقاوم ضغط البريطانيين ويرفض تسليمه اذا وضع نفسه تحت رحمته . اما اذا كنت اعتقد ان الشيخ احمد لا يستطيع حمايته ، فقد اقترح ان يغادر المدينة ويهرب بطرق جانبية الى سورية .

لقد احببت الرجل لوثوقه بي واعجبت بشجاعته لأنه جاء من تلقاء نفسه الى ما كان يمكن ان يكون عرين الاسد بالنسبة له . وشعرت بميل لانقاذه وقررت ان أقوم بخطوة جريئة .

ونصحته ان لا يدخل على الشيخ أحمد لأنه بذلـك يضعه في موقف صعب . ولكنني عرضت عليه ان يتشجع ويذهب رأساً الى مليكه الشرعي ابن سعود ، على ان يفعل ذلـك تحت جنح الظلام ويدخل الى خيمة الملك ويضع نفسه تحت رحمته . وقلت له ان جميع الناس يعرفون ان الملك وهو نفسه رجل شجاع يحب الشجعان ، ولذلك فانه سيعفو عنه منّة بالمنّة .

وفكر ابن شبلان لحظة ثم شكرني على نصيحتي التي قـال انها تبدو حسنة . وطلبت له مزيداً من القهوة لأعطيه فرصة أكبر للتفكير ، آملا ضد الأمل انـه سيفعل كما قلت له . وفي تلك اللحظة بالذات دخل الفرّاش حاملاً برقية من قائد القوة الجوية الموجود حالياً في جهرا يقول فيها انه تأكد له ان فيصل الشبلان قد هرب الى الكويت ولذلك يتوجب القبض عليـــه وارساله الى البصرة . وتقول البرقية انه يجب ان اطلب من الشيخ أحمد اجراء تفتيش دقيق في المدينة بحثاً عن الشبلان لاعتقاله وارساله مكبلاً بالاصفاد الى مقر القيـــادة الجوية في جهرا التي ترسل من يرافقه في حالة وصول انباء العثور عليه .

فكان ذلك موقفاً مؤسفاً . وبعد تفكير قلت له :

– يا فيصل سأقرأ عليك برقية تلقيتها الآن من قائد القوات البريطانية التي تسلمت الدويش .

فكان جوابه :

– اقرأ باسم الله .

ولم تتحرك عضلة من عضلات وجه ابن شبلان وانا أقرأ ، كما انه لم تبدر منه أية بادرة تدل على خوف او عصبية . إن ذلك يدل على مجهود رائع في ضبط النفس . وسألته :

– ماذا تعتقد انني سأفعل ؟

وجاء جوابه سريعاً :

– والله انت احسن العارفين .

ان أمامي رجلا تعلق به قلبي . وقلت له :

ـ لا تخف يا فيصل . انت في مأمن . لقد تناولت القهوة في منزلي وبموجب قواعد الضيافة العربية ، فان ذلك يعطيك حصانة . ستغادر منزلي بأمـان لأنني أعرف عاداتكم .

فابتسم وقال :

ـ يا أبا سعود ، كنت اعرف انك ستقول ذلـك لأنك لم تكن لتوافق على الاعتناء بنساء الدوشان كما فعلت لو لم تكن على علم بعاداتنا وآرائنا في الفروسية والشهامة . لقد فعلت حسناً وأظهرت مشاعرك النبيلة . وقد جعلني عملك هذا اقرر ان أضع نفسي تحت رحمة الملك كما اقترحت انت . واذا قدر الله ان اكسب عفوه ورضاه فسأخبره بما فعلته من أجلي هذا النهار .

وبينما كان ابن شبلان لا يزال في مكتبي ابرقت الى القائـد البريطاني لأبلغه انني تلقيت اشارته في الوقت الذي كان فيـه فيصل يشرب القهوة في مكتبي . وفنجان القهوة بموجب العادات العربية يوازي بأهميته وليمـة كبيرة ويعطي الضيف حق الحماية وهو تحت سقف مضيفه . وتمنيت ان يفهم القائـد البريطاني وجهة نظري وعدم قدرتي على تنفيذ ما طلبه مني . وارسلت نسخة من البرقية الى المقيم السياسي في بوشير وأخرى الى السفير في بغداد .

وعمـلا بنصيحتي قضى فيصل الشبلان الهزيع الأول من الليل في مـنزل فرحان بن خضيّر وهو تاجر لؤلؤ مطيري في المدينة . واعتمدت على فرحان ان يقدم لضيفه ذلولاً سريعاً في مكان معين خارج اسوار المدينة حتى يهرب عليـه بعد منتصف الليل كما فعل القديس بولس مرة .

وعندما افترقنا قلت له :

ـ مع السلامة وحظاً سعيداً يا فيصل . وارجو ان نتمكن من اللقـاء مرة ثانية في ظروف أفضل .

وأبلغني فرحان فيما بعد ان كل شيء تم حسب الخطة .

اما القائد البريطاني فقد كان رجلا طيباً وتفهم موقفي والاسباب التي دفعتني الى التصرف بهذه الطريقة ولم يفاتحني بالقضية ثانية .

شروط الاستسلام

وتقرر ايفاد بعثة الى ابن سعود الذي كان مخيماً في خباري وضحا على بعد ٩٣ ميلاً الى الجنوب الغربي من الكويت ويبلغ طول الطريق بالسيارة ١٣٠ ميلاً. وتألفت البعثة من السير هيوبيسكو المقيم السياسي في الخليج منذ سنة ١٩٢٩، ونائب ماريشال الجو بيرنيت واانا . وغادرنا الكويت بطريق الجو في ٢٠ كانون الثاني وذلك لبحث وسائل وطرق تسليم الزعماء الثائرين واتباعهم .

ولحق بنا في ٢٢ كانون الثاني بطريق الجو ايضاً الشيخ أحمد وافراد عائلة الصباح وذلك لكي يقدموا احتراماتهم للملك ، ثم عادوا في اليوم التالي .

كانت لهجة ابن سعود اثناء المحادثات ودية وتنم عن روح المصالحة ، كما انه أبدى أسفه للهجة التي صيغت بها رسائل وزير خارجيته . وجرت مساومات عديدة قبل ان يتمكن السير هيو في ٢٦ كانون الثاني ان ينتزع من ابن سعود الشروط التالية لقاء تسليم فيصل الدويش ونايف الهذلان ومهود بن لامي الذين اعيدوا الى الكويت وجمع اتباعهم في شمال دولة الكويت : —

١ — يحفظ ابن سعود ارواح الزعماء واتباعهم .

٢ — اذا شاء ان ينزل بهم اية عقوبة فيجب ان تكون مرفقة بالرحمة واللين مع الاحتفاظ بحقه في استعادة الغنائم والاسلاب التي أخذها الثوار من الغير .

٣ — يتعهد ابن سعود بمنع الغزوات في المستقبل التي قد تقوم بها عجمان ومطير وغيرها من قبائل نجد الى الاراضي العراقية والكويتية . واذا ما حدث مثل تلك الغزوات فانه يتعهد بوضع حل عاجل واعادة الاشياء المسلوبة الى أهلها . ففي حالة الغزو الى العراق تنفذ بنود اتفاقية بحرا . وبالنسبة للكويت يجري العمل بموجب العادات المتبعة بين بلاده وبلاد الشيخ أحمد . واعرب ابن سعود عن استعداده للتفاوض حول معاهدة على غرار اتفاقية بحرا اذا رغب الشيخ أحمد في ذلك .

٤ — تعهد ابن سعود بحل القضايا السابقة المقدمة من العراق والكويت على هذا النمط بشرط ان يعاد رجال قبيلتي عجمان ومطير الموجودين في قبضة سلاح

الجو الملكي الى نجد مع كل اتباعهم وممتلكاتهم .

٥ – وافق ابن سعود على دفع عشرة آلاف جنيه استرليني كتعويض للقبائل العراقية والكويتية أملاً في الوصول الى حل نهائي .

٦ – يعين ابن سعود ممثلين عنه في أي وقت في المحكمة المنصوص عنها في اتفاقية بحرا بعد أن يتلقى طلباً بأن يفعل ذلك .

وبعد ان وقع ابن سعود والسير هيوبيسكو على شروط الاستسلام ، عادت البعثة الى الكويت في ٢٧ كانون الثاني . وفي اليوم الثاني انزل الزعماء الثائرين الثلاثة من السفينة البريطانية « لوبين » بعد ان خلعت عليهم زوجتي ملابس جديدة ونقلوا الى مخيم ابن سعود بطريق الجو تحت اشرافي شخصياً .

ووجدت ابن سعود جالساً داخل خيمة مقفلة محاطاً باقاربه وبزعماء القبائل . وكان اجتماع الثوار بسيدهم مؤثراً . فقد سمح لكل منهم والدموع تنهمر من عينيه ان يقبله في انفه على طريقة البدو . ثم اجلسني بجانبه وشكرني على جهودي وخاصة على عنايتي بنساء الزعيم الثائر السابق وقال : –

– في الحقيقة يا ديكسون نحن نقدر اعمالك الطيبة . ومع ان الدويش ثار ضد ملكه وقاتلنا لكن نساءه ذوات دم نقي نبيل وجديرات بكل احترام وتقدير . انه واجب خاص علينا ان نستمر في العناية بهن الى ان نتمكن من ارسال سيارات الى الكويت لنقلهن من عندك .

وبينما هو يتكلم لمحت بين قادته ومستشاريه صديقي فيصل الشبلان . ويبدو ان الملك كان يتتبع نظراتي فابتسم ابتسامة عريضة وقال :

– نعم .. لقد عفونا عنه . لقد اتى ودخل علينا وابلغنا كل شيء ويبدو اننا مدينون لك بذلك ايضاً يا كولونيل ديكسون .

واغتنمت الفرصة لأنقل الى ابن سعود رسالة من زوجتي تتوسل اليه فيها كأم ان يرأف بأولاده المخطئين . وقد استجاب الملك لهذا الطلب بشهامة . فبدل أن يعدم زعماء الثورة كما كان اتباعه يتوقعون بالرغم من تأكيداته للحكومة البريطانية ، فقد فرض عليهم الاقامة الجبرية ، وذلك أمر ضروري للحفاظ على

نفوذه ومكانته . وكانت معاملته لنسائهم مثلاً آخر في الشهامة والكرم .

وتعرضت قوات الثوار اثناء ابعادها في شمال دولة الكويت لغزوات ليلية قاسية قامت بها قبائل ظافر العراقية انتقاماً لغزوات سابقة ، وسلبتهم جمالهم واغنامهم على مرأى من سلاح الجو الملكي . وفي ٢٩ كانون الثاني ابلغ الثوار ان يستأنفوا مسيرة العودة الى نجد حسب شروط الاتفاق .

وقد اقتادتهم السيارات المسلحة التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني عبر طريق معين باتجاه مناقيش على الحدود حيث تسلمهم مبعوثو ابن سعود في الرابع من شهر شباط .

ومع ان المجال لا يتسع هنا لذكر تفاصيل العقوبات التي فرضت على مطير إلا ان ملخصاً لها لا بد من ذكره :

١ - أخذت من فيصل الدويش جميع الجمال العائدة اليه شخصياً بما فيها الشروف الشهيرة وهي قطيع مطير الاسود المقدس . وأخذت منه ايضاً جميع خيوله .

٢ - أخذت من الدوشان العشيرة الحاكمة في مطير كل الاسلاب التي حصلت عليها من الغير وتوازي ثلثي ماشيتهم . أما ممتلكاتهم الشخصية فلم تمس .

٣ - أخذت من الرجال العاديين كل جمال الركوب والخيول والممتلكات الاخرى التي سلبت من الغير .

٤ - لم يؤخذ أي شيء من فيصل الشبلان ومن عبد العزيز المجيد الدويش وهو زعيم معروف لأنهما استسلما طوعاً وليس عن طريق سلاح الجو الملكي .

٥ - لم تصادر أية بنادق من اي كان .

وعوملت عجمان بنفس الطريقة تماماً .

لقد سررت لان ابن شبلان نجا بنفسه . وسرعان ما نال حظوة عند الملك فعين مسؤولاً عن جمال الملك بما فيها الشروف . ويبلغ عدد تلك الجمال ٧٠ رعية والرعية ٧٠ جملاً فيكون المجموع اربعة آلاف وتسعماية جمل . وكانت عمشا ابنته الجميلة تأتي لزيارتي كلما قدمت الى الكويت وتذكرني وهي تبتسم بفنجان القهوة

الذي انقذ حياة والدها . وتزوجت عمشا شاباً لطيفاً اسمه هزاع بن بدر الدويش الذي قابلته لاول مرة عندما حمل الى الكويت اثر اصابته برصاصة في رقبته . وكنا نعتبر عمشا حفظها الله واحدة من اعز اصدقائنا المطيريين .

وبعد ان رتب نقل الزعماء الثلاثة الى الرياض ومصادرة مواشي الثوار كما ذكرنا سابقاً ، توجه ابن سعود الى حميدة القطا قرب جارية في ١٢ شباط . وبعد اربعة أيام انتقل الى راس كنسوره قرب القطيف ومن هناك انتقل في الثاني والعشرين ليقابل الملك فيصل ملك العراق على ظهر الباخرة البريطانية « لوبين » خارج ميناء الفاو . وصدق الملكان على مسودة اتفاقية صداقة بين البلدين .

لقد حضنت زوجتي نساء فيصل الدويش لمدة ستة اسابيع في مدينة الكويت قبل ان يرسل ابن سعود سيارات لنقلهم . وفي تلك الفترة لم نكن نقدم لهن المأكل والملبس على حساب الحكومة فحسب بل اتيحت لنا الفرصه ان نجتمع بهن يومياً ونتحدث اليهن . فبعد المصاعب الكثيرة والمشاق المرهقة التي تعرضن لها في المراحل الأخيرة من الثورة ، وجدت زوجتي امامها عملاً صعباً في اعادتهن الى حالتهن الصحية الطبيعية . فكنا نعاملهن كضيوف واصدقاء لا كلاجئين . ولا زلت اذكر كيف ان ابنتي شقيق فيصل الصغيرتين عمشا وفيحا كانتا اكثرهن تودداً واقلهن خجلاً . فقد جاءتا الينا نحيلتين تكادان تموتان جوعاً وعلى جسديهما اسمال بالية ، ثم اصبحتا فتاتين رائعتين قدر لنا ان نجتمع بهما عدة مرات فيما بعد .

وتقديراً لحياده ورفضه مساعدة الثوار تلقى الشيخ أحمد سنة ١٩٣٠ وساماً رفيعاً مع تقدير الحكومة البريطانية . ووعدته حكومة صاحب الجلالة ايضاً انها ستعمل قصارى جهدها لحمل ابن سعود على الغاء القيود على التجارة بين نجد والكويت . وكان الحظر قد فرض منذ سبع سنوات ومضت سبع سنوات اخرى قبل ان يرفع نهائياً .

وفاة فارس عظيم

توفي فيصل الدويش في الرياض في الثالث من تشرين الأول سنة ١٩٣١ .

وجاءت الانباء الاولى الى الكويت في ٢٥ تشرين الاول مع ابراهيم المزين الذي عمل مدة طويلة في خدمة شيوخ الكويت ثم انتقل قبل ثلاث سنوات ليعمل في خدمة ابن سعود في الرياض . وقد جاء يومها الى الكويت ليشتري بزاة الصيد لمحمد آل سعود شقيق الملك .

وقص علي ابراهيم بالتفصيل كيف ان الدويش ظل يشكو لمدة شهر من ألم بسبب تورم في حنجرته . وفيما كان يتمشى مع ابن هذلان يوم ٣ تشرين الأول في باحة السجن سقط الى الأرض والدم ينزف من فمه بسبب انفجار التورم . وظل فاقد الوعي حتى المساء وعندما استعاد وعيه لمدة قصيرة طلب ان يرى الملك ولكن ابن سعود رفض ان يأتي اليه . وارسل له الدويش تحية الوداع غافراً له الاخطاء التي ارتكبها بحقه قائلاً ان الحكم الاخير لن يصدر قبل ان يقفا كلاهما امام الخالق . ثم فارق الحياة فغسل ودفن في الليلة ذاتها .

وابلغني ابراهيم كيف ان الملك ، بعد ان شعر بتوبيخ الضمير ، ارسل الى عمشا ارملة الدويش والى شقيقته غالية وضحى طالباً ان يعتبرنه شقيقهن مدى الحياة ، وكيف انه منح عمشا وغالية الشقيقة الكبرى مكافأة سنوية قدرها اربعمائة ريال ، ومكافأة قدرها ثلاثمائة ريال لوضحى والأخت الثالثة التي كانت وقتذاك في الكويت . وبعد ان اعطى كل واحدة منهن اربعة جمال سمح لهن بالعودة الى ارتوائية . وقالت مصادر اخرى ان ابن سعود اعطى كل واحدة من السيدات الثلاث بيتاً مجانياً في الرياض .

وقد نقلت اخبار الوفاة بالتفصيل بحيث انه لم يعد هنالك شك بأن فيصل الدويش قد توفي فعلاً . وبعد فترة قصيرة اعلن هلال المطيري تاجر اللؤلؤ الشهير في الكويت وصديق الدويش انه يصدق القصة وكذلك فعل الشيخ أحمد .

لقد أحس جميع البدو بأسى عميق لوفاة ذلك الزعيم الصحراوي الكبير الذي كان ملكاً بين شيوخ العرب ، والذي كان الزعيم القبلي الوحيد في الجزيرة العربية من حقه ان يقتل رجالاً من قبيلته دون محاكمة اذا وجد ذلك ضرورياً . فهو وشيوخ الدوشان في مطير من قبله يمكن مقارنتهم بصانعي الملوك في انكلترا

في القرون الوسطى. وخلال تاريخهم تجرأوا وحاولوا ان يصنعوا وان يكسروا، واحياناً بنجاح، الحكام السعوديين في نجد. ان مساعدة مطير وحدها بقيادة جد فيصل الذي كان يحمل نفس الاسم، هي التي مكنت القائد المصري ابراهيم باشا من مهاجمة واحتلال المملكة الوهابية في اوائل القرن الماضي.

ان الجزيرة العربية لم تنجب فارساً او مقاتلاً اعظم من فيصل الدويش الذي لم يكن لابن سعود من اتباعه واحد اكثر اخلاصاً الى ان دفعت السياسة، او بالأحرى نكران الجميل، فيصل الى الثورة. كانت مطير تعبده ولا يذكر رجل اسمه حتى اليوم إلا والدموع في عينيه. ويقال ان وفاة ابنه عزيز هي التي حطمت معنوياته وأقنعته بأنه لن يستطيع الانتصار.

اما ارملته عمشا فلم تمش بعده طويلاً. فقد توفيت بهدوء في ارتوائيه بعد خمس سنوات وحزن عليها رهط كبير من الاصدقاء.

وظل زعماء الثورة الاخرون في السجن بالرياض حتى سنة ١٩٣٤ حين اتهموا بمحاولة الفرار عندما كان ابن سعود يقاتل يحيى امام اليمن. ونقلوا الى الهفوف حيث سجنوا في الدياجير التركية المظلمة تحت الأرض وانقطعت أخبارهم منذ ذلك الوقت.

نهاية «الاخوانية»

أخمدت الثورة بعد ان كلفت مبالغ طائلة من المال والعتاد. ويعود الفضل في انتشال ابن سعود من الوضع السيء الذي كان فيه الى الحكومة البريطانية. فلولا جهودها في ابقاء الكويت والعراق على الحياد، ووضعها قوة كبيرة على حدود الكويت الجنوبية اجبرت الثوار على الاستسلام، لما تمكن ابن سعود من سحق الثورة، ولكان تعرض هو والبيت السعودي الى أخطر النتائج.

وبانهيار الثورة ووفاة فيصل الدويش يمكن القول إن مذهب الإخوان الحماسي قد ولىّ الى غير رجعة. وكان ابن سعود يعرف ذلك فلم يكن يرغب في إشعال النار مرة اخرى فمذهب الإخوان القائم على الدين والتعصب، اخطر من ان

يكون لعبة في يديه . لقد أخطأ مرة ولن يعيدها . فقد فضل في المستقبل ان يستخدم السيارات المسلحة واللاسلكي والمدافع الرشاشة للإبقاء على سلطته ، وربما كان بذلك يفعل عين الحكمة .

استخدم ابن سعود النقل بالسيارات لأول مرة أثناء العمليات ضد الثوار وقد زاد ذلك في قدرته على التحرك وساعده على الإسراع في تموين قواته . وكثير من نجاحه يعود الى هذه الحقيقة التي استطاع بها أن يفرض نفوذه على القبائل المترددة قبل أن تقرر الانضمام الى الثوار ، وبها استطاع ان يأخذ قوات الثوار على غفلة في كثير من الأحيان قبل أن تكون مستعدة للقتال .

كان ابن سعود يعلم حق العلم مدى المساعدة التي يمكن للمواصلات الصحيحة أن تقدمها له لحفظ النظام في مملكته الواسعة المتفرقة . فعندما ثار عليه ابن رفاده سنة ١٩٣٢ بحوالي ستة آلاف رجل من قبيلة بيلي في شمالي الحجاز ، استطاع ان يجمع عشرة آلاف رجل في الطائف ويشن هجوماً مفاجئاً على الثوار فحاصرهم عن بكرة أبيهم في ضبه وسار مظفراً عبر الحجاز . ولم يكن ليستطيع ذلك لولا استخدام السيارات .

وفهم عامة الاخوان الآن أن ابن سعود أطلق صرخة الدين سنة ١٩١٤ لأغراضه الخاصة . ولذلك شعروا بالألم والندم لأنهم استخدموا كمطية ، فلم تعد لديهم رغبة في الولاء أو في الاندفاع . كان كل همهم أن يتركوا وشأنهم . ولم يعد الملك بالنسبة لهم بطلاً او أباً لشعبه . وكان المرء يجد حتى بين القبائل الموالية كشمر وحرب وسبيع وسهول وعوازم ، دع جانباً القبائل التي فشلت في الثورة ، شعوراً أشبه بخيبة أمل مريرة . واذا سئلوا عن ذلك فإنهم لا يستطيعون اعطاء جواب محدد واضح ولكن عدم الثقة وخيبة الأمل هما ، كما يبدو ، السبب الجوهري . ولا ريب ان هذه الظاهرة ترجع الى واحد أو أكثر من الامور التالية :

١ ــ كان الشعور السائد ان ابن سعود لم يلعب لعبته بواسطة الاخوان ولم يقف الى جانبهم كما كان مفروضاً فيه أن يفعل . فهم على كل حال ، الذين رفعوه

الى المكانة التي احتلها وكانوا أيضاً مسلمين صالحين .

٢ – طلب مساعدة البريطانيين وبمساعدتهم تمكن من سحق رعاياه المسلمين .

٣ – لقد عامل فيصل الدويش ونايف الهذلان وسلطان بن حميد العتيبه وهم ثلاثة من أعظم زعماء الجزيرة العربية، بقساوة لا داعي لها في الوقت الذي كانت طرق الشهامة كافية لمواجهة القضية .

ومع مرور الزمن لم يعد البدو يطلقون على ابن سعود لقب الامـــام لاسيما في الشمال والشمال الشرقي من صحراء الدهانه في شمال شرق الجزيرة العربية . وأصبح يعرف بعد ذلك بالوهابي وخاصة بين أولئـك الذين ثاروا ضده ، كصفة للتحقير أكثر من أي شيء آخر . وبرزت ظاهرة أخرى مهمة وهي أن الكوفية البيضاء التي كانت رمزاً « للأخ » الصالح لم تعد ترى إلا نادراً . فقد عـــاد معظم مطير ورشايده وعوازم وعجمان وشمر الى العقال القديم . أما الذين ظلوا يعتمرون الكوفية البيضاء فقد كانوا يفعلون ذلك وألسنتهم في وجناتهم أو للحصول على خدمة من الملك .

ليس معنى ذلك أن مذهب الإخوان قد انقضى، فقد بقي في الوجود ولكن على شكل احساس بـه . وما إن أتت سنة ١٩٣١ حتى كان قـــد تخلى عن كل تعصباته غير المعقولة . وظلت القبائل الكبرى في الجزيرة تحب أن تدعو نفسها بالاخوان او بالوهابيين ، وحفاظاً على الماضي ، لم تتعاط التدخين أو لعب القمار أو شرب الخمر . أما عنفهم الجنوني فقد زال تماماً إلا ربمـــا في جنوب نجد وفي بعض الأماكن الأخرى كحوطه الى جنوب الرياض وفي وادي دواسر . وانصرفت الأنفس التقيـــة الى الصلاة والى تحسين الأوضاع ، بينما لم تفكر في السابق إلا في جر الآخرين الى الحظيرة والتدخل في شؤونهم بالقوة . لقد حصلت على هـــذه المعلومات من عدد من زعماء الاخوان ومن ممثلين عن كل قبيلة . ولست أعتقد أن مذهب الاخوان سينتعش ويعود للحياة مرة أخرى ، مع إنـــه من غير الحكمة التنبؤ في بلاد أعاد التاريخ فيها نفسه مرات ومرات .

ابن سعود يقوي مركزه

أصبح ابن سعود يريد السلام لأن القتال المتواصل كلفه كثيراً . وكان بحاجة إلى المال فمنح امتيازاً للنفط في الاحساء لشركة «ستاندرد اويل اوف كاليفورنيا» وهي اليوم شركة « أرامكو » ، وطلب منها أن تبني خطاً لسكة الحديد من الدمام إلى الهفوف والرياض عن طريق الخرج . وبعد أن أقنع العلماء بأن الاسلام لم يمنع هذه التطورات بل يشجع كل ما من شأنه أن يساعد على التقدم ، لم يأل جهداً في وصل المراكز المهمة بعضها ببعض بواسطة شبكة من الطرقات ، كما نظم مواصلات لاسلكية نشيطة ، وأعطى شركة هندية امتيازاً بشق طريق من الأسفلت يصل مكة بجدة ، وشجع شركات النقل بالسيارات ، وأقام محطات للبرق في جميع أنحاء البلاد ، وشجع زراعة الأرض في كل مكان .

وفي أيلول سنة ١٩٣٢ أصبحت مملكة الحجاز ونجد وتوابعها تعرف باسم المملكة العربية السعودية .

وخلال سنة ١٩٣٣ كانت تلوح في الافق بوادر مشاكل حول نزاع الحدود في عسير . وقد بدأ ذلك بانتفاضة ضد ابن سعود كان من نتيجتها أن سكان عسير طردوا حسن الادريسي الحاكم الذي عينه ابن سعود ، الى اليمن . وأرسل يحيى إمام اليمن جنوده الى عسير ، كما ان الملك عبدالعزيز أرسل ابنه الأمير سعود على رأس قوة لإجراء مفاوضات . وفي آذار سنة ١٩٣٤ فشلت المفاوضات ولكن ابن سعود كان في تلك الفترة قد جمع جيشاً لا يستهان به قرب المنطقة المتنازع عليها .

وبدأت الاشتباكات في نيسان مع أنه لم يكن هنالك إعلان رسمي للحرب . واستطاعت قوة بقيادة الأمير سعود ان تحتل نجران ، واحتل الأمير فيصل الشقيق الأصغر لسعود ، حديدة في أوائل أيار تدعمه الآليات .

ومع اقتراب الصيف وجد الإمام يحيى ان أفضل طريقة هي إطالة أمد القتال مستفيداً من فرصة للهدنة . ومع أن القوات السعودية كانت تشعر بثقة بالنفس بعد انتصاراتها الأولى ، إلا أنها كانت في الواقع تتفسخ وتنهار . فقد دب فيها

المرض دون أن تكون هنالك وسائل للمعالجة ، كما انهـا كانت تعاني من نقص في الذخيرة .. وفي الرواتب . ولهذه الأسباب فقدت القوات السعودية انضباطها . وتبين لابن سعود ان استمرار القتال قد يلحق به هزيمة نكراء فمدد المدنةوعدل شروطه . وكان له ما أراد فقد وافق الإمام على الشروط المبدئية ، وفي أواسط حزيران وقعت معاهدة بين اليمن والمملكة السعودية .

حققت هذه الحملة لابن سعود الكثير . فقد زادت في نفوذه وأعادت اليـــه واحة نجران الخصبة وأكدت سيطرتـه على عسير التي ضمت الى مملكته في السنة ذاتها . وانتهى ابن سعود من الحمـلة المذكورة بجيش منتصر ولكن قليل الراتب منهوك القوى من القتال . ولم يحـــدث أي غزو كما كان متوقعاً كنتيجة طبيعية لعودة الجيش خالي الوفاض ، مما يدل على مدى السيطرة التي توصل اليها هـــذا القائد الكبير على قبائله الكثيرة المتوحشة .

ولم تمد علاقات الصداقة بين الكويت والمملكة السعودية إلا في نهايـة سنة ١٩٣٧ عندما رفع ابن سعود الحظر على التجارة مـــع الكويت . وتجدر الاشارة هنا الى أن الخطأ في ذلك يقع على ابن سعود لا على الحكومة البريطانيـــة التي لم تكف عن المحاولة منذ سنة ١٩٣٠ للبر بوعدها للشيخ أحمد في وجه مماطلات ابن سعود الذكية .

فهرست